الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الخامس والثلاثون . السنة الثالثة . ديسمبر ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 35 - December 2001

محمد حسنين هيكل

من نيويورك إلى كابول وبالعكس!

عن الأزمة والحرب!

و...

الحروب القذرة / نفط القوقاز / حركات الإسلام فى الغرب / عطر نجيب محفوظ / فن الكتاب العربى فى باريس / البنك الدولى والفقر / صراعات القرن الجديد / مصر فى عيون جمال حمدان / مسلمو الغرب وعزلة الإسلام

أم هاشم

ملاذ الفقراء والعاجزين

يوسف القعيد



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الخامس والثلاثون
ديسمبر ٢٠٠١

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي



«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- حسن أبو طالب.. مساعد مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- ستيفن كوتكن.. كاتب بمجلة لندن ريفيو أوف بوكس.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- كامل زهيرى.. صحفى.
- مايكل فريشكوف.. باحث فى الفولكلور الشعبى.
- محمد حسنين هيكل.. صحفى.
- محمد السماك.. كاتب لبنانى.
- محمد فخرى الوصيف.. أستاذ فى التاريخ الأندلسى.
- محمود عبد الفضيل.. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- محيى الدين اللباد.. فنان ومصمم جرافيك.
- يوسف القعيد.. صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

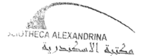
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..



رقعة الشطرنج

تكشفُ «بى نظير بوتو»، وهى رئيسة وزراء سابقة لباكستان فى مقال لها عن تقرير قدمته شركة «أونوكال» للغاز قبل حوالى عامين إلى لجنة الشئون الدولية فى مجلس النواب الأمريكى يؤكد «جوهرية» مصادر النفط والغاز فى آسيا الوسطى وبحر قزوين بالنسبة إلى الاقتصاد الأمريكى. وكيف أن اللجنة الأمريكية خَلُصت يومها إلى أن «اهتمامَ الكثيرين بالمنطقةِ ومواردها بات متزايدًا.. وأن من مصلحة الجميع توفيرَ ما يكفى من الطاقةِ للاحتياجاتِ المتزايدة.. لأن عدم تلبيةِ الاحتياجات سيحدث ضغوطاً فى كل أسواق العالم تؤدى إلى رفع الأسعار».

ورغم أنه قد يبدو من باب المبالغةِ النظر إلى كل ما يجرى بعد الحادى عشر من سبتمبر، سواء على الأرض الوعرةِ فى وسط آسيا، أو فى مكاتبِ البيتِ الأبيضِ الوثيرة، على أنه «حرب الخليج الثانية» التى تضع ضمن أهدافها: الحفاظ - أو السيطرة إن شئتَ القول - على منابع النفط هناك، إلا أن حديثَ «النيوزويك» الأمريكية عن «يالطا» جديدة، فضلاً عن العلاقةِ الحتميةِ بين السياسةِ والاقتصاد.. والحرب، تجعلُ من المفيد النظر إلى «صراع النفط والسياسة فى القوقاز» على أنه مهما يكن من أمر، يظل أحد عناصر المشهدِ المتشابكِ التفصيلات شديد التعقيد.. وذى الأبعادِ المتعددةِ دينيًا وثقافيًا وسياسياً واقتصادياً.. والمظللِ بسحابات البارود والدخان.

«صراع النفط والسياسة فى القوقاز» هو موضوع وعنوان مقال كتبه محمد السماك لـ«وجهات نظر».. والتى يقارن فيها بين بحر قزوين فى وسط آسيا و الخليج العربى فى غربها.. موضحًا بالأرقام والخرائط كيف أن الثروة النفطية فى كليهما جعلت التنافس الدولى على الحصول على امتيازات الاستثمار حول بحر قزوين، وعلى تحديد جغرافية امتداد الأنابيب إلى أوروبا أشبه ما تكون بالوجه الآخر لما حدث فى منطقة الخليج العربى من قبل. وكيف طرح الاختلاف الجغرافى والديموجرافى بين المنطقتين سياسةً مختلفةً فى التعامل مع واقع كل منهما: فالناقلات تربطُ بين الدول المنتجة فى الخليج والدول المستهلكة مباشرة عبر طرقٍ بحرية مفتوحة.. بعكس الحال بالنسبة لبحر قزوين «المغلق». كما أن العلاقات بين دول الخليج الصحراوية ذات العرق الواحد والثقافة الواحدة والأراضى المنبسطة. تختلف مترتباتها بالضرورة عما يترتب على وعورة التضاريس الطبيعية والإثنية فى وسط آسيا. والتى تشهد صراعات تاريخية يعود بعضها إلى مطلع القرن الماضى (اتهام تركيا العثمانية بارتكاب مجازر ضد الأرمن).



التضاريسُ العرقيةُ الوعرة لوسطِ آسيا، زادتها أصابعُ اللاعبين الكبار ذوى المصلحة صعوبةً وقسوةً.. وملأتها - عبر التاريخ - بالدماء. الأمر الذى يتضحُ من قراءة «ستيفن كوتكن» لكتاب «أمم صغيرة وقوى كبيرة: دراسة للصراع السياسى الاثنى فى القوقاز» والتى تنشرها «وجهات نظر» فى هذا العدد بترتيب خاص مع مجلة «لندن ريفيو أوف بوكس» ويدلل فيها على رأى «كورنيل» مؤلف الكتاب الذاهب الى أن «السياسة وتقلباتها.. وليس اختلاف الحضارات والثقافات»، هى مفتاح كل مايجرى .. وسوف يجرى فى تلك الأرض البائسة. فروسيا التى تغلب فيها العقيدة الأرثوذكسية الشرقية تؤيد الآجار المسلمين داخل جورجيا الأرثوذكسية الشرقية، والعلاقات بين أرمينيا وجورجيا المسيحيتين متوترة، والعلاقات بين أذربيجان المسلمة وجورجيا علاقات حارة.

مقالة «كوتكن» والتى عرض فيها أيضًا لكتاب عن «الحرب القذرة.. صحفى روسى فى الشيشان»، توضح كيف أنه وعلى امتداد العمود الفقرى الصخرى لأوراسيا دارت اللعبة الكبرى للحرب الباردة، «بلا ضمير من الجانبين»، ولكن بأسلحة فتاكة وآثار بعيدة المدى. فالحرب الروسية فى أفغانستان مثلاً، والتى أودت بحياة ١,٢ مليون أفغانى (خسائر السوفييت لم تتجاوز ١٥ ألفًا على مدى السنوات العشر للحرب) ورغم أنها وحدت الأفغان فى مقاومتها الا أنها فى الواقع أثارت منذ البداية شعورًا أعمق بالكيان العرقى وانقسامًا أشد بين الأفغان التركستانيين فى الشمال والبشتون الميالين للباكستان فى الجنوب. وشجع ذلك على قيام نزعة إسلامية متشددة وزعامات حزبية متطرفة بدلاً من الحكومة. وساهمت واشنطن فى هذا الصدد بسخاء. فبدلاً من أن تساند مساعى جورباتشوف وقتها لإنشاء حكومة ائتلافية ،فضلت التأكد من أن موسكو سوف تنزف بغزارة وأن «عميلها» فى كابول سيلقى هزيمة كاملة. والمفارقة أنه فى الوقت الذى كانت فيه واشنطن تشجع على العنف الإسلامى فى أفغانستان، كانت تنفق من ناحية أخرى أموالاً طائلة لمحاربة الإسلام فى إيران وذلك بتسليح عراق صدام حسين على سبيل المثال. وحسب «كوتكن» فإن ذلك كان مثالاً واحداً من التصرفات المربكة العديدة التى قامت بها دولة عظمى. والآن يبدو أن الولايات المتحدة تغازل السلطات الاستبدادية فى آسيا الوسطى - وهى تنويعات من الأنظمة الشبيهة بالنظام السوفيتى التى عملت على إسقاطه - ذات يوم - فى أفغانستان .

أما جماعة طالبان فقد كانت وليدة الأخطاء السوفييتية القاتلة والخداع الأمريكى، والتمويل الخليجى، والمخطط الباكستانى والإحباط العربى .. إلى جانب سيل من مدافع الكلاشينكوف والألغام الأرضية، وزراعة الهيروين، والأمية، والفوضى، والورع الإسلامى. والحاصل أنها ذهبت كما جاءت . ككل المصادفات العفوية الناجمة عن تحريك قطع الشطرنج على الرقعة الكبيرة.



ورغم أن الحرب الأفغانية، التى أدت إليها - ربما - أحداث سبتمبر، دفعت بالـ«الموضوع الإسلامى» إلى أغلفة الكتب ، ومانشتات الصحف ، وبرامج الحوار التليفزيونية، إلا أن الحقيقة أن الإسلام شغل على الدوام مكاناً هاماً فى الاهتمام الغربى، ليس فقط لكونه هدفا لدراسات دينية وأنثروبولوجية وسياسية فيما يعرف بـ«الاستشراق»، ولكن أيضا باعتباره قضية «آنية» ذات أبعاد سوسيوثقافية وسياسية وأمنية . إذ أصبحت هذه المجتمعات تضم - واقعياً - أجيالاً عديدة من المهاجرين المسلمين (يبلغ عدد المسلمين فى دول الاتحاد الأوروبى عشرة ملايين نسمة)

كما أن هناك فى هذه الدول حركات إسلامية، تعنى بالدرجة الأولى مواطنين ينتمون إلى هذه الدول بحكم السياق القانونى ومعايير المواطنة السائدة فيها، ولكنهم يدينون بالإسلام وفقا لتجربتهم الخاصة تاريخيا واجتماعيا ودينيا أيضا.

المسألة كانت موضوعًا لمقالين أحدهما لفخرى الوصيف. ويعرض فيه لكتاب يتناول تاريخ الجماعات المسلمة فى أوروبا، مركزًا على إسبانيا / الأندلس، نقطة التماس المفعمة بالمعانى والذكرى لدى الطرفين. والثانى لـحسن أبو طالب» الذى يعرض فيه للحركات الإسلامية «غير الوافدة» فى الغرب. وماهو الاختلاف بين نموذج «اليجا محمد» و«لويس فراخان» من ناحية، والنموذج البريطانى والفرنسى من ناحية أخرى.

المقالان اللذان كُتبا لـ«وجهات نظر» قبل أحداث سبتمبر، تظل لقراءتهما فى ضوء ما تلى تلك الأحداث أهمية خاصة.



سطور

ستون عددًا.. وخمسُ سنوات، هى عمرُ محاولة مجلة «سطور» الثقافية المحترمة. ولأسبابٍ تظلُ فى التحليلِ النهائى «غير ذاتِ صلة» يبدو أنها مضطرة الآن للتوقف عن الصدور. كما ذكر ناشروها فى عددها الأخير.

وفى بلدٍ مثل مصر. وعالم مثل عالمنا العربى أحوجُ ما يكون إلى تعددِ الأصوات والمنابر.. والثقافة.. يظلُ خبر اختفاءِ مثل تلك المطبوعة الرصينة خبرًا حزينًا. وتظل الحاجة إلى معالجةِ الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى ذلك.. ضرورية.

وجهات نظر

محمد حسنين هيكل



من نيويورك إلى كابول وبالعكس!



عن الأزمة والحرب!

كان ترتيبي قبل أن تقع الواقعة في نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الأخير، أن أقصد إلى بعض عواصم أوربا، ومنها إلى الولايات المتحدة: واشنطن ونيويورك. وجرى تجهيز إجراءات السفر وتحدد موعده في الصباح الباكر من يوم ١٧ سبتمبر وهو يوم أربعاء، وخط سيرى المرسوم أن أتوجه إلى لندن لأيام معدودة، ومنها عبر المحيط إلى نيويورك في عطلة نهاية الأسبوع، وبحيث أكون يوم الاثنين التالي (١٦ سبتمبر) في واشنطن، بادئا اليوم من أوّله، باحثا عن الأحوال والاحتمالات كما تبدو في العاصمة الأمريكية التي أصبحت - أعجبنا أو لم يعجبنا - عاصمة القوة في العالم ومركز القرار في مصائره...

وكنت على معرفة بأن هناك «نوايا» و«خططا»، فرغت الإدارة الحالية في الولايات المتحدة، مع ربيع هذا العام (٢٠٠١)، من بلورتها - وهي على وشك أن تطرحها للتنفيذ على اتساع قارات العالم وفيها المنطقة التي تعنينا أكثر من غيرها وهي منطقة الشرق الأوسط.

وبالفعل فقد كنت اطلعت على نصوص تقرير رئاسي أمريكي بشأن استراتيجية جديدة جرى اعتمادها من جانب الإدارة الأمريكية لمستقبل العمل في هذه المنطقة، وشغلني التقرير، حتى أنني عرضته على صفحات هذه «المجلة» (في عدد أول سبتمبر) - ثم رأيت الارتحال عبر البحر وعبر المحيط باعتقاد أن هناك الكثير مما يمكن استجلاؤه والبحث في تفاصيله: سؤالا، وجوابا، وحوارا وفهما بقدر ما هو ممكن.

وعصر يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر، كانت الترتيبات في مواضعها، بما في ذلك مواعيد اجتماعات حرصت أن أضمن لها وقتا يكفيني، ولقاءات على الإفطار والغداء والشاي والعشاء متواصلة، وهي مناسبات للكلام أكثر منها مناسبات للطعام.

وفجأة وكنت أطل على قناة CNN فوق شاشة التليفزيون - توافقت نظرتي الأولى بمحض مصادفة مع إشارة تقطع البرامج بخبر طارئ، يفيد أن طائرة مدنية اصطدمت بأحد برجي التجارة الشهيرين في نيويورك، ولدقائق تصورت أنها حادثة وقعت بسبب طيار ضل مساره أو أخطأ ارتفاعه، فارتطم بناطحة سحاب، تمثل هي وتوأم لها، أظهر العلامات على خط الأفق الشهير لمدينة نيويورك.

ورحت أتابع ما بدا لي - رغم مأساويته - حدثا عاديا يقع مثله كل يوم مع اختلاف الظروف والمواقع. ثم استجد بعد دقائق ما ظللت لبعض الوقت غير قادر على تصديقه، فقد ظهرت على حافة شاشة التليفزيون طائرة ثانية، اخترقت الصورة بسرعة، ثم نفذت في البرج الثاني، ومع أنه كان من العسير على أي عقل أن يستوعب معنى ما جرى، فإن الحقيقة كانت أمام العيون تفرض يقينها، حتى وإن كانت هذه الحقيقة عصية على التصديق، متفوقة على الخيال، داعية إلى الانبهار قبل إدراك أن الصور وراءها - بالضرورة - مصائب ومآس إنسانية.

ثم يزداد عمق الفجوة بين الصورة المبهرة والحقيقة الدامية، عندما يبدأ البرجان التوأمان - العملاقان - في الانهيار - من الداخل كأنهما صرح يسقط راكعا على ركبتيه مكوما على الأرض ومن حوله جبال من ركام الحديد والحجر، فوقها كتل اللهب المتهاوية تسحق أجسادا وأرواحا ولحما ودما وآمالا وطموحات دهمها الموت، وهو موت رهيب بآلامه وعذابه، وخصوصا أن زمان المأساة طال ما بين اصطدام الطائرة الأولى ببرج التجارة الأول، والثانية بالبرج الثاني، وتهاوى التوأمان العملاقان بثقلهما المخيف على ما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف من البشر - وهو زمان طال مداه قرابة الساعتين، يعلم الله ما جرى فيهما.. وكيف؟

ولبعض الوقت دار في خلدي أن ما وقع أمام عيني وأمام عيون مئات الملايين من الناس، يحرض على السفر أكثر مما ينهى عنه، فما جرى هو بالنسبة للصحفي حدث مهول - لكن صوت النهي كان مسموعا من حولي وأسبابه متنوعة.

وعندما دخل الليل، كانت الأنباء تقول أن عاصفة النار والدمار فوق نيويورك وواشنطن فجرت بعدها إعصار غضب وجنون، اجتاح الولايات المتحدة الأمريكية من الشرق إلى الغرب، ووصلت آثاره بعيدا وعميقا، وأن كل ما هو عربي ومسلم أصبح معرضا ومكشوفا، ولم يكن ذلك في حد ذاته ما جعلني أغير رأيي، وإنما غيرت رأيي لإدراكي أنه بعد كل ما جرى فلن أكون حيث أذهب سائلا، وإنما سوف أكون مسئولا، ولن أكون زائرا يرغب في السماع، وإنما «صاحب بيت» - مفروض عليه أن يتكلم. ولم أكن على استعداد لأكثر من سبب:

- فيها أنني في شأن ما جرى متابع مهتم، وليس طرفا ضليعا في الموضوع وخباياه.
- وفيها أن ما لدي من الأسئلة، كان كثيرا قبل الواقعة، ثم أضيف إليه الأكثر بعد الواقعة.
- وفيها أنه ليست عندي إزاء ما رأته الدنيا بأسرها إجابات، وحتى إذا كانت عندي اجتهادات - وليس إجابات - فليس يعنيني الآن طرحها بقدر ما يعنيني أن أسمع غيري إذا توصل لشيء. مع أن الإشارات الأولى كشفت أن الكل مذهول بالمفاجأة، مأخوذ بصورها، مروع بالمأساة بعد المفاجأة ووراء الصور، ثم إن المزاج العام ساخن وكذلك منفلت!

وهكذا - وفي اللحظة الأخيرة - قررت إلغاء ترتيبات السفر، بترجيح أن المتابعة الآن أفضل عن طريق سيل من الرسائل لا ينقطع على الإنترنت، وصور لا تتوقف على شاشات التليفزيون، إلى جانب ما تحمله صحافة العالم وكلها واصلة إلى القاهرة في ساعات، ثم إن المتابعة من مسافة - كذلك قدرت - أدعى إلى فهم أقل توترا، وبالتالي أكثر تأنيا (إذا كان ذلك ممكنا).



ومضى أسبوع وثان وثالث، ثم عاد الصحفي داخلي يُذكّر بنفسه ويُلح، فسيل الرسائل على الإنترنت مفيد، وشرائط الصور على شاشات التليفزيون معبرة، وصحافة العالم الواصلة تعطي تغطية عريضة وشاملة. لكن الصحفي يحتاج أكثر، يحتاج أن يرى بعينيه، وأن يسمع بأذنيه، وأن يلمس بأصابعه، وأن يجلس مع ناس يعرفون، في مواقع تسمح لهم بأن يعرفوا، وأن يسأل ويستجوب ويجادل ويسعى بالحق الطبيعي لمهنته كي يوفر لنفسه رؤية واضحة، على الأقل كافية - إذا جاء عليه الدور ليقول ما عنده، بعضه أو كله، وبقدر ما تسمح له الظروف!

وهكذا بعد انتظار ثلاثة أسابيع، عدت أحرك وأستعجل إجراءات السفر. ومن باب الاحتياط، فقد تصورت أن أبدأ ببعض العواصم الأوربية، وبعدها أفكر إذا كان عبور المحيط إلى أمريكا مفيدا، أو أن مناخ الهستيريا الذي تملك الجميع - ولهم العذر فيه - مازال مستحكما، وإذا كان «ذلك كذلك» (كما يقول الفقهاء تجنبا لتكرار الحيثيات في أية فتوى) - إذن فإن السفر يمكن اختصاره، ويكون اقتصاره على أوربا وحدها.

وهكذا كان. والحقيقة أنني لم أندم على الاختصار والاقتصار على أوربا، فما يصلني من الولايات المتحدة كان مزعجا، ثم إن تجربة شخصية مباشرة - ولو أنها واحدة لم تتكرر - في لندن زادت من إقناعي، بأنني لم أخسر كثيرا حين بقيت في أوربا ولم أقارب شواطئ المحيط!

ملخص التجربة، أنني دعوت على العشاء ذات ليلة في لندن صديقا قديما هو «السير مايكل وير»، الذي كان لسنوات طويلة سفيرا لبريطانيا في القاهرة، ومعه قرينته «الليدي وير» وقد وصلنا جميعا إلى مطعم «سانتيني» متأخرين وعبرنا بسرعة إلى مائدة تنتظرنا.

وبدا لي ونحن نمر بالموائد في طريقنا إلى مكاننا أن الجالسين على مائدة قريبة منا ينظرون نحونا ويدققون، ولم يكن صعبا أن أشعر أنهم تعرفوا عليّ من صورة كبيرة وسط

حديث طويل أجراه معي الصحفي اللامع «ستيفن موس»، ونشره بعرض صفحتين في «الجارديان» أمس، ثم إن «الايفننج ستاندارد» أعادت نشر الحديث بالكامل، ومعه نفس الصورة وبذات الحجم هذا المساء. وفي ذلك الحديث (مكررا يومين متتاليين) فإنني - إلى جانب كثير قلته - انتقدت بعض ممارسات السياسة الأمريكية في المنطقة.

ولم ألتفت إلى أن الذين تعرفوا عليّ لهم - كما ظهر فيما بعد - رأي بشأن ما قلته. وعلى أية حال فقد اتخذنا مقاعدنا حول المائدة المحجوزة لنا، وجاءت قائمة العشاء وطلبنا ثم جرى بنا الحديث مجراه ووصلنا إلى ما وقع في أمريكا وهو وقتها وحتى الآن شاغل الدنيا بأسرها وليس مائدتنا وحدها. وانقضى نصف الساعة تقريبا وكنت منهمكا في حوار مع «مايكل»، حتى لفتت قرينته هيلاري (ليدي وير) انتباهي لسيدة أقبلت تقف إلى جواري، ويبدو أنها تريد أن تتحدث معي، والتفتُّ وإذا سيدة طويلة القامة حسنة الهندام تقول بعصبية: «مهما كان ما تقول أو تقولون، فالله يبارك أمريكا». وقلت لها بصدق: «إنني أرحب أن يبارك الله أمريكا ويبارك أوطان الناس كلهم».

وردت وهي تدير ظهرها: «لا.. فليبارك الله أمريكا وحدها وليذهب الآخرون جميعا إلى الجحيم».

ولم أغضب، ولكن «هيلاري» (ليدي وير) غضبت، وهَمَّتْ بالرد تقول للسيدة الأمريكية: «إنها لا تملك حق أن تفقد أعصابها مع الناس».

وجاء صاحب المطعم السنيور «سانتيني» نفسه (وهو فنان له مؤلفات عديدة عن المطبخ الإيطالي، ومطبخ فينيسيا بالتحديد، كما أنه رجل تربطه صداقات ودودة مع كثيرين من رواد مطعمه الأنيق، (وكانت ضمنهم الأميرة ديانا وكوكبة لامعة من أصدقائها، والملك حسين وقرينته الملكة نور، والسيدة مارجريت تاتشر وقرينها دنيس). وقد جاء السنيور «سانتيني» محرجا، يحاول أن يعتذر، وهو يستغرب أن السيدة الأمريكية - وهي زوجة مليونير أمريكي يزور لندن مرتين أوثلاثا في السنة، ويملك بيتا كبيرا في ميدان «تشستر» القريب وهو من أرقى المواقع في حي «بلجرافيا» - خرجت عن الأصول. وكان رأيي أن ما فعلته الأمريكية (المليونيرة) ليس فيه ما يستوجب حرجه أو اعتذاره، لأنه أمر «وارد» في ظل هذه الأجواء، لكن «ليدي وير» كان لها رأي آخر.

وعلى أية حال، فقد زاد اقتناعي - بعدما سمعت في لندن تفاصيل مستفيضة عما جرى لكثيرين من العرب والمسلمين في الولايات المتحدة - بأنني فعلت صوابا باختصار رحلتي واقتصارها على شرق المحيط، وكذلك ظللت مدة الثلاثة أسابيع التي قدرتها لسفرتي، ملازما للشاطئ الأوربي للأطلنطي مستغنيا عن عبور المحيط إلى الغرب الأمريكي، وربما أن ذلك كان أكثر توافقا مع ميلي وحواسي وبظن أن الامبراطوريات القديمة مهما كان خلافنا معا، لديها حكمة التجربة وتوازنها بينما «الامبراطوريات الجديدة» لديها غرور القوة إلى جانب وحشية الإعلام وطغيان الغنى!



وطوال ثلاثة أسابيع من البحث في عواصم أوربية متعددة - ملاحظا، ومتابعا أكثر المرات، متكلما في أقلها - كان في ذاكرتي قول شهير للرئيس الأمريكي الأسبق «دوايت أيزنهاور» - جمع خلاصة خبرته قائدا أعلى لجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ورئيسا للولايات المتحدة الأمريكية ثماني سنوات - وفيه يقول: «إن السياسات الطيبة لا تضمن النجاح أكيدا، ولكن السياسات السيئة تضمن الفشل محققا».

وذلك هو محور حديثي اليوم - لكنني قبل الخوض فيه أقترح الالتفات بسرعة إلى عدد من الإشارات ■

«الحرب».. تمثال من الحديد للفنان الإيطالي العالمي «أنطونيو كانيثاري».

عن الأزمـة والحـرب!

الإشـارة الأولـى

الإمبراطـوريات الحـائرة والطـرق المسـدودة!

باريس:

■ في باريس تفهم عميق لحق الشعب الأمريكي في الغضب وحق الإدارة الأمريكية في العقاب، لكن.. هناك نوعان من الفهم:

نوع يرق بالتعاطف أحيانا - ونوع يقسو بالنقد أحيانا أخرى. وفي الحالتين فإن المنطق القانوني الفرنسي يعرض نفسه - بالرقة أو بالقسوة - متكاملا: وخلاصته: أن هناك فيما وقع يوم ١١ سبتمبر جريمة شنيعة... وذلك أمر لا يجادل فيه، ولا يستطيع أحد. لكن كل جريمة تحتاج إلى تحقيق يطرح عدة أسئلة:

١ - كيف وقعت الجريمة؟

٢- وبالتالي من ارتكبها؟

(ومن الواضح أن الإجابة عن السؤال الأول هي الأساس الذي تقوم عليه إجابة السؤال الثاني).

٣- يلي ذلك أن الجرائم لا تحاكم بنيران الجيوش، وإنما بنصوص القانون، والاختصاص فيها للبوليس والمحاكم، وليس للطائرات والصواريخ.

٤ - وعند المحاكمة وقبل الحكم، فإنه يتحتم أن تكون الفرصة متاحة للاطلاع على الأدلة، والقرائن، وسماع الشهود، والتثبت من وقوع المسئولية، بحيث تكون للحكم مشروعيته (لأن الجريمة تستغني عن المشروعية، لكن القضاء لا يستطيع)!

....

....

[وحين سمعت أن باريس تتفهم الدواعي التي حدت بالإدارة الأمريكية، إلى أن تتصرف بسرعة وإلى أن يكون تصرفها سريعا وقويا، حتى وإن لم تكن لديها خطة مدروسة ومتكاملة - فقد تذكرت مرة سنة ١٩٨٢، قابلت فيها الرئيس «فرانسوا ميتران»، وأيامها كانت الحرب الأهلية في لبنان على أشدها - وكان حادث خروج قوات مشاة البحرية الأمريكية من بيروت بعد عملية فدائية لحزب الله راح فيها أكثر من ١٧٠ قتيلا - ماثلا في الأذهان، ومعه حادث مشابه أقل حجما في خسائره ضد القوات الفرنسية. ويومها سألت الرئيس الفرنسي عن السبب الذي دعا فرنسا في ذلك الوقت إلى تحريك أسطولها في البحر الأبيض، ثم إن إحدى بوارجه وهي البارجة «جان دارك» راحت تقترب من الشاطئ اللبناني، حتى تكاد تلامسه، لكنها تستدير عائدة إلى عرض البحر، ثم تقترب ثانية وتعود ثانية، ويتكرر المشهد مرات ومرات بطريقة بدت غير منطقية.

وسألت الرئيس ميتران أثناء لقائنا، وأنا ساعتها ضيفه على الإفطار:

«عما كانت تفعله البارجة «جان دارك» قاصدة عائدة أمام شواطئ لبنان، وما كان القصد منه والحكمة»؟

ورد الرئيس الفرنسي قائلا: «إن ذلك كان طبيعيا» بل و« ضروريا».

ولم أقتنع، وواصلت سؤالي عن وجه الطبيعة والضرورة فيما فعلته «جان دارك» (البارجة!)، وتردد الرئيس ميتران (وأكاد أقول تلعثم!)، وإحساسي بينما كنت أتامله أن المثقف فيه يُغالب رئيس الدولة وكذلك قال:

«لك أن تعتبرها نوعا من الحركة العصبية. التشويح بأطراف الجسم (استعمل الرئيس ميتران تعبير «Gesticulation Politique»).

ثم أضاف:

«إنه يحدث للدول ما يحدث للأفراد حين يواجهون مواقف تقتضي منهم أن يتحركوا، - ثم يكتشفون أن الخيارات المطروحة أمامهم لم تنضج بعد، وللحظة فإنهم بدلا من الكلام «يشوحون»، أي تتحرك أعضاء جسمهم تعبيرًا عما يريدون فعله. وهم لحظتها لا يقدرون».

ويستطرد الرئيس ميتران: «لك أن تعتبر أن «جان دارك» وقتها كانت في ذلك الموقف، تعبيرا عن قوة فرنسية تفرض عليها الدواعي أن تفعل شيئا، لكن الحقائق على الأرض تمنعها منه: «لنقل أننا لحظتها كنا «نشوح» بالصوت والحركة».

وقلت: إنني الآن فهمت]

....

....

وبعد قرابة عشرين سنة (أكتوبر ٢٠٠١)، كانت القوة الأمريكية في وضع مشابه، فالدواعي الملحة تفرض عليها أن تتصرف، وترد بكل الوسائل كي تخفف من ثورة الشعب الأمريكي، وتهيئ له أنه «أخذ بثأره وانتقم».

لكنه في تلك اللحظة كانت الحقيقة غائبة، والمشهد فوضى، والخطط لمواجهة هذا الذي حدث في نيويورك وواشنطن غير جاهزة أو غير كاملة (رغم أن هذا النوع من الخطر في عصر الحروب غير المتوازية، وهي حروب القرن الحادي والعشرين كانت واردة بالتقدير المسبق على الفكر)، لأنه كان صعبا على العقل استيعاب هذا النوع من الخطر حين وقع بالفعل. وكذلك لم تكن الخطط جاهزة أو لم تكن كافية!

وفي الحالة الأمريكية، فإن رئيس الولايات المتحدة لم يكن يقدر على التصرف كما تصرف الرئيس الفرنسي في موقف مشابه. مع وجود أوجه توافق بين الحالتين وأوجه خلاف:

● أوجه التوافق: أن هناك حدثا يطلب ردا، لكنه في غموض الوقائع وفوضى الشواهد وغياب الخطط، فإن هدف التصرف لم يكن واضحا، وهكذا بدأ التشويح والتعبير بلغة حركة اليدين والقدمين، وأعضاء البدن (بما فيها ملامح الوجوه ونظرات العيون وطلوع الحواجب ونزولها!).

● وأما أوجه الخلاف فهي أن «عقل» القوة الفرنسية فرض عليها أن تتوقف بعدما أسماه ميتران بـ: التشويح السياسي (Gesticulation Politique)- لكنه في حالة أمريكا فإن جموح القوة الأمريكية دفع بالرئيس الأمريكي إلى ما هو أبعد، مع تزايد الضغوط عليه.

وكذلك اختار رأس القائمة الجاهزة للمشتبه فيهم (وهو تنظيم القاعدة)، وقرر أن يضرب، عارفا أنه لا يملك فرصة - أو ترف - الانتظار.

....

....

[والحاصل أنني عرفت أن جورج بوش الأب كان أكثر من ألحوا على «جورج بوش» أن يتصرف بسرعة، وسمعت أنه قال له بعد عشاء عطلة نهاية الأسبوع في كامب دافيد ما مؤداه أنه: «ليس أمامه غير أن يضرب بسرعة لأن «العجز» هو الخطيئة التي لا تغتفر لأية سياسي، وتلك خلاصة تجربة عمره في العمل السياسي. وأن الناس يغفرون للرئيس إذا بان خطؤه، لكنهم لن يغفروا إذا تبدى عجزه»!] ■

....

....

> الجرائم لا تحاكم بنيران الجيوش وإنما بنصوص القانون، والاختصاص فيها للبوليس والقضاء وليس للصواريخ والطائرات

الإشـارة الثانيـة

١١٠٠ تسجيل تليفوني لبن لادن!

لندن:

■ وفي باريس وفي روما وفي لندن (وفي غيرها من العواصم الأوروبية)، إحساس بأن الولايات المتحدة استعملت قواتها العسكرية بسرعة ضد أسامة بن لادن - الموجود وسط حركة طالبان الحاكمة (ساعتها) في معظم أفغانستان - دون أن يكون لديها اليقين الكامل بأنه يتحمل مسئولية ١١ سبتمبر - أو على الأقل يتحملها وحده.

والشاهد أن أبرز ساسة أوربا سألوا نظراءهم الأمريكيين عما لديهم من أدلة على مسئولية «بن لادن»، ولم يحصل أيهم على رد يغنيه أو يكفيه. على أن ثقتهم بالولايات المتحدة أغنت وكفت.

وفي لندن وباريس وروما - وربما في غيرها من عواصم أوربا - وكما يحدث في بلدان متقدمة، يدعى إلى «اجتماعات تشاور» تطلب الرأي من خارج الإدارة القائمة في أية أزمة تطرأ، وفي العادة فإن هذه الاجتماعات يحضرها خبراء فيهم أساتذة جامعات ووزراء وسفراء سابقون يعرفون أطراف الصراع أو مناطق الحوادث التي تطرح نفسها مفاجأة على الاهتمام العام. ولكي يكون التشاور نافعا وليس صوريا، فإنه توضع أمام هذه الاجتماعات صراحة كل ما لدى حكوماتها من معلومات، لكي تنضم الخبرة السابقة إلى التجربة اللاحقة.

وحدث في عدد من هذه الاجتماعات - وليس من الضروري أن أحدد تفصيلا كي لا أحرج أحدا - أن المشاركين في أكثر من عاصمة وجهوا إلى رؤسائهم الحاليين سؤالين:

■ السؤال الأول: هل هناك دليل يمكن البناء عليه في الإقناع السياسي بمسئولية بن لادن - ومن ثم طالبان - ومن ثم أفغانستان (ومن ثم الإسلام) بمسئولية ما جرى يوم ١١ سبتمبر؟

■ والسؤال الثاني: ما هي اتجاهات العمل العسكري الأمريكي الحالي، وما هو الهدف الإستراتيجي منه؟

وبالنسبة للسؤال الأول، كان الرد على المستوى الوزاري أنه:

«ليس لدينا دليل قاطع على مسئولية بن لادن - طالبان - أفغانستان - فيما حدث يوم ١١ سبتمبر - (ثم يتواصل الرد) - على أنه لابد أن

يكون لدى الأمريكان شيء يستندون عليه، لكنهم لم يقولوه لنا. ومما قالوه أن لديهم معلومات بأن بن لادن أو وكلاء مفوضين عنه أصدروا من بنك فى الإمارات العربية المتحدة عدة حوالات قيمتها نصف مليون دولار، فيها مائة ألف دولار لـ: محمد عطا، وهو المتهم بقيادة عملية ١١ سبتمبر، وفيها مائة ألف دولار أخرى باسم زميله: مروان الشيحى.

ثم إن المخابرات الأمريكية حصلت على صور من هذه الحوالات بتصريح من محافظ البنك المركزى للإمارات العربية المتحدة بعد طلب تقدمت به «مارسيل وهبة» سفيرة أمريكا فى الإمارات العربية المتحدة.

ورأيهم كما قالوه لنا صراحةً: «إن هذه الحوالات تقطع بالصلة بين بن لادن وبين المسئولين عن عملية ١١ سبتمبر».

ظنهم أيضا - كما عبروا عنه ضمنا - : «أنهم لا يستبعدون أن بن لادن ربما كان صادقا عندما قال إنه لم يخطط ولم يوجه عملية ١١ سبتمبر، فهو يعطى الأموال «يمينا ويسارا وفى الوسط» - لكن الهدف العام لما يعطيه معروف بصرف النظر عن تفاصيل كل عملية»!

«وفوق ذلك فقد أكدوا لنا (فى واشنطن) أنهم أجروا تسجيلات لاتصالات تليفونية قام بها بن لادن طول السنوات الخمس الماضية من جهاز تليفون جوال متصل بالأقمار الصناعية. وأن لديهم أكثر من ألف ومائة تسجيل لمحادثات تليفونية، وقد أرسلوا إلينا عينات منها، لعلها ترشد أو تدل على شىء!».

كذلك قيل فى «اجتماعات التشاور» فى أكثر من عاصمة أوربية فى الإجابة عن السؤال الأول.

....

....

[وسألنى أحد وزراء الدولة الأوربيين (ومرة أخرى لا أريد أن أحدد لأنى لا أريد أن أحرج): لماذا قلت (قبل ثلاثة أسابيع) «إن بن لادن لا يستطيع ولا يقدر على عملية مثل عملية ١١ سبتمبر»؟ وكررت على سائلى ما نشرته عن ظنى بأن بن لادن وحده لا يستطيع، وأن عمليات ١١ سبتمبر، سواء بمقتضياتها المعقدة فى التخطيط والإدارة والتنفيذ تتعدى قدراته، ثم إن ظروفه بما فيها المراقبة المستمرة عليه واختراق تنظيمه بالعمق - إلى جانب بُعد أمريكا عن مواقعه تخطيطًا وإدارةً وتنفيذًا - تجعل المسألة برمتها خارج طاقته.

وسألنى وزير الدولة الأوروبى المعنى: إذا لم يكن بن لادن فمن؟ وقلت: «إن ذلك يتجاوز اختصاصى، لكنى سمعت حوله ظنا عرضته كاملا».

«وأضفت أن ما طرحته من شكوك حول ضلوع عناصر من البلقان ليس رأيى، لكنى نقلته عن أصدقاء فى بروكسل، وفى مقر حلف الأطلنطى، ثم إننى لم أطرحه كحقيقة نهائية، وإنما طرحته كاحتمال تسانده شواهد عرضتها، ثم إننى فيما نشرت قبلت بضلوع عناصر عربية بدور أو أدوار فيما حدث، لكنى أشرت إلى غياب دليل، وإلى غياب تحقيق يعطى للناس ولو شبه دليل يطمئنهم إزاء الطريقة التى تتصرف بها القوة الأمريكية!

وسألنى محدثى عن: الصلة وكيف يمكن أن تكون بين عناصر من العرب وعناصر من الصرب أو - البلقان عموما، والطرفان بعيدان لا رابط بينهما؟

وذكرته بأنه كان بين «المجاهدين» - أو من أسموا كذلك - فى «البوسنة» أكثر من ألفين من الشباب العرب: ربعهم من مصر وربعهم من السعودية والباقون من بلدان عربية أخرى، وبعضهم لم «يجاهد» فى البوسنة فقط، ولكنه وصل «بالجهاد» إلى ألبانيا أيضا، وبعدهما حتى «الشيشان».

وقلت: «إنه كانت هناك كتائب من قوات مسلحة عربية تعمل ضمن القوات الدولية التى شاركت فيما سمى بعملية «حفظ السلام فى يوجوسلافيا السابقة». وأننى أعرف عن جنود من العرب تزوجوا من بلقانيات - وصربيات أيضا».

وأضفت: «أنه فيما يتصل بحادث على مستوى ١١ سبتمبر، فإن أحدا منا لا يستطيع أن يستبعد شيئا من حسابه دون ترو، أو يدخل شيئا فى حسابه دون أساس»!]

....

....



وفيما يتعلق بالسؤال الثانى الذى طرحته «اجتماعات التشاور» الأوربية، وهو السؤال عن اتجاهات العمل العسكرى الأمريكى، وعن الهدف الاستراتيجى منه، فقد كان الجواب الذى أتاهم يعرض السياق التالى:

«أن الإدارة الأمريكية كانت واقعة تحت «ضغط رهيب»، يدفعها إلى الحركة بسرعة، وإلى الحركة نحو نوع من «العقاب» يصل إلى أقصى درجات القسوة، بحيث تكون مشاهد الدم والحريق ظاهرة أمام الشعب الأمريكى «تطفئ ناره» و«تشفى غليله»، وإلا واجهت الإدارة الأمريكية أزمة يصعب تقدير عواقبها - لكن الإدارة وهذه نقطة لصالحها (كذلك قيل لـ«مجموعات التشاور» فى أكثر من عاصمة أوربية) - انتظرت وفكرت ووازنت بين خيارات وبدائل:

- فكروا فى خطة لخطف بن لادن من منطقة جبلية فى «قندهار» رصدوا وجوده فيها، لكنهم تذكروا ما حدث (٢٤ أبريل ١٩٨٠)، فى محاولة إنقاذ الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم الشباب الثورى الإيرانى فى مبنى السفارة الأمريكية فى طهران.

....

....

[وأيامها سنة ١٩٨٠ وضعت قيادة القوات الخاصة الأمريكية خطة لإنقاذ الرهائن من قلب طهران، وكان المطار العسكرى فى المنيا (صعيد مصر)، إلى جانب القاعدة الأمريكية فى «مصيرة» (سلطنة عمان) قيادة تنفيذ تلك الخطة التى عرفت باسم «الصحراء رقم ١». وكان الرئيس «أنور السادات» قد صرح «لصديقه» الرئيس «جيمى كارتر» باستعمال الأراضى المصرية وتسهيلاتها العسكرية فى تنفيذ هذه الخطة، وبالفعل كان المكلف بالتنفيذ وقتها هو الجنرال «بكويث» قائد القوات الخاصة، وقد تولى من مطار المنيا توجيه العملية. ومن نفس القاعدة بعث الجنرال «ريتشارد بكويث» إلى الرئيس كارتر يخطره بأن العملية فشلت، بسبب تعطل وتصادم اثنتين من طائرات الهليوكوبتر، ورد عليه الرئيس كارتر بأن «يجهض» الخطة ويعود بقواته، وكذلك فعل الجنرال «ريتشارد بكويث» مع علمه بأن قواته على الموقع قرب مدينة «يزد» الإيرانية - على طريق طهران - تركت وراءها جثث ثمانية جنود قتلوا عندما اصطدمت طائرات الهليوكوبتر ببعضها]

....

....

وقيل أمام «مجموعات التشاور» الأوربية ضمن ما قيل: إن الذكرى المريرة لتلك التجربة دعت الإدارة الأمريكية فى الظروف المستجدة إلى استبعاد مغامرة خطف بن لادن، لأن احتمال الفشل فيها (بعد الفشل فى توقع ضربة ١١ سبتمبر) مما لا يقدر الرئيس «بوش» على تحمله الآن، وهو لا يستطيع أن يفعل مثلما فعل الرئيس «كارتر» مع الجنرال «بكويث» سنة ١٩٨٠، ويأمر بإجهاض الخطة لأن مقتضى ذلك يفرض عليه فى نفس اللحظة، تخليه عن منصبه، وإلا بدأت إجراءات عزله، لأن الفشل سوف يفتح الباب لتحقيقات مكبوتة بصعوبة ولكنها مؤجلة، وكلها تريد أن تعرف كيف جرى ما جرى؟ وأين كانت المخابرات الأمريكية وماذا فعلت بميزانيتها وهى تزيد على ثلاثين بليون دولار؟! ثم أين كان الدفاع الجوى عن عاصمة القوة الأعظم الوحيدة فى العالم؟!

وفى ذلك الصدد قيل أيضا «لمجموعات التشاور»: إن الولايات المتحدة اعتذرت لرئيس وزراء إسرائيل عندما عرض استعداد القوات الإسرائيلية الخاصة «لخطف بن لادن» نيابة عن الإدارة الأمريكية (والمعنى المقصود من العرض أن تدخل إسرائيل عضوا معترفا به شرعيا وعلنيا فى الحلف الدولى الذى تقيمه أمريكا للحرب ضد الإرهاب). وقد أبدى رئيس وزراء إسرائيل أن «الموساد» لديه خبرة فى هذا النوع من العمليات أشهرها خطف ومحاكمة وإعدام «الجنرال» «إيخمان» (المسئول الأول عن «الهولوكوست» - الجحيم - الذى تعرض لـ«اليهود» تحت حكم النازى أيام هتلر). وقد اعتذرت الإدارة الأمريكية عن هذا العرض رغم ثقة إسرائيل فى فرص نجاحه، لأن لديها بالفعل وعلى الأرض وفى عمق «قندهار» «عناصر» جاهزة. وكان رأى الإدارة الأمريكية أن ظهور إسرائيل على المسرح فى هذا الدور وفى هذا التوقيت، وحتى إذا نجحت فى المهمة - سوف يسبب إحراجا سياسيا واستراتيجيا فى العالمين العربى والإسلامى.

....

....

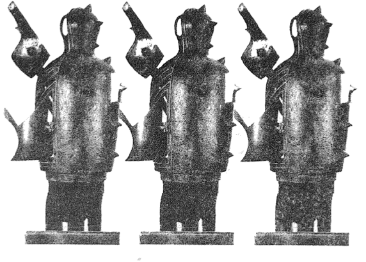
[وكان اعتذار الولايات المتحدة عن هذا «الخيار الإسرائيلى» أهم الأسباب التى دعت «آرييل شارون» رئيس وزراء إسرائيل إلى إلغاء زيارته المقررة للولايات المتحدة واجتماعه المحدد مع الرئيس جورج بوش - فى شهر أكتوبر - ذلك أن «شارون» اعتبر الاعتذار الأمريكى (عن توكيل إسرائيل بمهمة خطف بن لادن)، دليلا على عدم رغبة الولايات المتحدة فى الاعتراف بوجود إسرائيل كطرف أصيل فى التحالف الدولى الذى يتجمع لمقاومة الإرهاب. وكان رأى شارون أن الحقائق عفت على زمن كانت واشنطن فيه تخفى شواهد علاقتها الخاصة بتل أبيب عن عيون العواصم العربية، لكن حكومته الآن مصممة على أداء دورها فى العلن، وإذا لم تكن واشنطن تريد إشهار وتوثيق هذه العلاقة فذلك حقها، لكن إسرائيل لن تضع نفسها فى موضع تراه أقل مما تستحق بصرف النظر عن قوة العلاقة بين البلدين.

ثم إن شارون يضايقه أن يكون سبب الاعتذار الأمريكى هو «مجرد مساعدة عدد من القادة العرب يريدون «ستر» علاقتهم بالولايات المتحدة، وتسايرهم واشنطن فى ذلك بمقولة عدم إحراجهم أمام شعوبهم.]

....

....





وطبقا لما عرض فى «اجتماعات التشاور» الأوربية فقد كان الخيار والبديل الآخر الذى فكرت فيه واشنطن، هو «تكليف تحالف الشمال الأفغانى بالمهمة»، لأن ذلك التحالف المعارض لطالبان - والذى كان

عن الأزمة والحرب!

يخوض الحرب ضدها فعلا من مواقعه التى تراجع إليها فى شمال البلاد تحت قيادة أحمد شاه مسعود - جاهز على الأرض ولديه حوافزه القوية للقتال إذا تلقى ما هو متأخر من طلبات سبق وتقدم بها للإدارة الأمريكية، لكن ذلك الخيار البديل استبعد (وقتها)، لأن هذا التحالف «مهزوم فى أعماقه» و«ممزق» - ولو كان قادرا على النصر لانتصر لحساب نفسه مع كل المساعدات التى تلقاها من قبل. ثم إن شعور «المهزوم الممزق» لدى هذا التحالف زاد وتكرس، عندما وقع اغتيال قائده العسكرى اللامع أحمد شاه مسعود، (وكان اغتياله يوم ٨ سبتمبر الأخير - أى قبل ١١ سبتمبر بيومين أو ثلاثة - مما دعا كثيرين إلى الربط بين اغتيال أسد بنشير (مسعود) وبين العمليات ضد نيويورك وواشنطن).

ثم إن زعماء التحالف الشمالى حينما أحسوا أن هناك اتجاها للاعتماد عليهم، بدءوا يزايدون فى طلباتهم، ويسابقون بعضهم فى الانفراد بما يمكن أن تعطيه الولايات المتحدة الأمريكية لمن تعهد إليه بالعملية.



وكان هناك خيار وبديل رابع ورد ذكره فى «اجتماعات التشاور» الأوربية مؤداه: «أنه يمكن الاتفاق مع بعض، أو أحد زعماء القبائل الأفغانية، وضمنها قبائل علمتها الحروب أن تبيع ولاءاتها - لكى تتولى هى خطف بن لادن، وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تروج لهذا الحل بعدما قالت إنها استكشفت السبل والوسائل لتحقيقه. ولكن الوكالة تقدمت تطلب اعتمادات خرافية، واستأذنت فى أَجَلٍ للتنفيذ غير محدود بتاريخ معين، ولم يجد الرئيس الأمريكى نفسه قادرا على الصبر، فهو يستطيع توفير الاعتمادات العاجلة، لكنه لا يملك الوقت المفتوح، خصوصا أن الوكالة سبق لها أن خدعته فى «زعماء أفغان»، طلبوا الغالى وحصلوا عليه، لكنهم عند التنفيذ تملصوا، وادعوا صعوبة المهمة، وتقدموا بمطالب مالية إضافية، لعل «فرج الله يجىء».

والشاهد - كذلك قيل - إن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تورطت «حتى الركب» فى أفغانستان وشطحت وشردت إلى درجة أن «فريق عمل» من رجالها قضى ستة شهور فى وضع تقرير عن «الشذوذ الجنسى» لدى الزعماء الأفغان، وأهمية استخدامه فى تطويعهم! وكنموذج «ميدانى» أشارت الوكالة إلى معركة عنيفة - طالت شهورا - بين زعيمين حول «غرام» كليهما بصبى «اكتشفه» أولهما، ثم «خطفه» الثانى، وانشغل مكتب وكالة المخابرات الأمريكية فى «بيشاور» بهذه المعركة أسابيع حتى استطاع تهدئة الخواطر والسيطرة على العواطف.

وعلى أية حال، فإن الرئيس الأمريكى الذى يعتزم الاستغناء عن خدمات رئيس الوكالة الحالى «جورج تينيت» فى أول فرصة تسنح له - أراد فيما يظهر إبطال أية حجة للوكالة، فصرح لها باعتماد قدره مليار دولار تصرفها (تحت رقابة نائبه ديك تشينى)، على أن تأتيه فى النهاية بأسامة بن لادن حيا أو ميتا.

وكذلك فإن هذا الخيار الرابع وُضع تحت الطلب دون عجلة.

وكان هناك فيما قيل لعلم «اجتماعات التشاور» الأوربية خيار خامس جرى استبعاده بعد ساعات ومؤداه: «أنه ليس عسيرا تكليف وحدة خاصة من المخابرات الباكستانية لتنفيذ عملية خطف أو قتل بن لادن دون خوف أن يؤدى ذلك إلى حرج للجنرال «برفيز مشرف» رئيس باكستان، ذلك أنه مع معلومات متوافرة تقول أن شعب أفغانستان - وحتى جماهير طالبان - ضاق صدرهم بالمخاطر والمهالك التى سبَّبَها وجود بن لادن على أرضهم - لن يمانعوا إذا خلصهم أحد من «هذه المصيبة». ثم إنه إذا اقتصرت العملية على «بن لادن وحده»، وإذا لم تقترب من زعماء طالبان، فإن العملية قد تبدو خدمة باكستانية للأمة الأفغانية، وعندئذ يمكن قبولها فى باكستان، خصوصا إذا توافقت مع حزمة مساعدات اقتصادية لإسلام آباد، يرافقها ضمان بسلامة المنشآت النووية الباكستانية من ضربة مفاجئة ضدها (من الهند أو من إسرائيل مع اختلاف النوايا والمقاصد بين البلدين)، لكن عرض الفكرة توافق مع قلاقل داخل القيادة العليا الباكستانية اضطر فيها «برفيز مشرف» إلى إعفاء صديقه ونائبه الجنرال «محمد عزيز خان»، وهو الرجل الذى دبر وقاد الانقلاب العسكرى الذى جاء به إلى الحكم، بينما هو مازال فى طائرة معلقة به فى الأجواء لا تعرف لنفسها مطارا تهبط فيه.

وكذلك لم يبق بديل غير العمل العسكرى الأمريكى... ومباشرة!

....

....

وكان ختام مناقشات «اجتماعات التشاور» الأوربية، إعلان رئيس الوزراء تونى بلير أمام مجلس العموم البريطانى بـ: «إن الولايات المتحدة الأمريكية لها حق العمل العسكرى ضد بن لادن، وحتى إذا لم تقدم أدلة كافية لإدانته «أمام محكمة»، فإن عقابه إجراء عادل فى أى وقت قصاصا من أعمال سابقة، دبر لها من قبل مثل تفجير «قاعدة الخُبر» فى السعودية، وتفجير المدمرة الأمريكية كول فى ميناء عدن اليمنى! - وغيرها.

....

[وكان سماعى بذلك فى جلسة مجلس العموم، داعيا إلى ما قلته بعد ذلك فى حديث مع الجارديان (نقلته عنها الايفننج ستاندارد)، استشهدت فيه بالمثل الصينى الذى يقول «اضرب زوجتك كل يوم علقة، وإذا كنت لا تعرف لذلك سببا، فهى تعرف» - مضيفا أن تلك فيما يظهر استراتيجية الحروب الجديدة فى القرن الحادى والعشرين!].

....

....

وفى باريس كان ملخص ما توصلت إليه مجموعة من مستشارى الرئيس شيراك فى «قصر الاليزيه»، أن على فرنسا مهما كان اختلاف تصوراتها - السياسية والعسكرية - أن تقف مع الولايات المتحدة، وأن تشعرها بالمودة والتكافل، لأن ما حدث «ولو أنه لا يمثل تهديدا حيويا للولايات المتحدة، إلا أنه يواجهها لأول مرة بشعور لا تحب المجتمعات أن تعيش معه وهو الشعور بـ«عدم الاطمئنان». والرأى أن المجتمعات يمكنها أن تواجه تفاقم الأزمات قادرة، وأن تخوض غمار الحروب واثقة، تساندها عوامل قوتها الحقيقية، لكن الخطر - وإن لم يرق إلى مستوى التهديد - أن تشعر المجتمعات بـ«عدم الطمأنينة»، وذلك الشعور هو «نصف عصبية الولايات المتحدة الآن».

وكان تقدير الخبراء الفرنسيين أن موقف التفهم المتعاطف يتيح لفرنسا فى اللحظة المناسبة أن تضع بعض «الفرامل» على الاندفاع الأمريكى إلى المجهول.

....

....

[وكان ذلك هو الدور الذى يقال فى مقر رئاسة الوزارة البريطانية - ١٠ داوننج ستريت - أن تونى بلير يحتفظ به لنفسه. وتقدير معاونيه أن هذا الموقف يبنى لرئيس الوزراء شعبية واسعة تتكفل بها «الأضواء الساطعة للإعلام الأمريكى». وهذه الشعبية تستطيع أن تساعده على الدخول بالاسترلينى إلى محيط العملة الأوربية الموحدة، وهى خطوة ملحة أوائل ٢٠٠٢، عندما يصبح اليورو وحده عملة أوربا الرسمية كلها. كما أن هذه الشعبية أيضا - فى تقدير معاونى تونى بلير - يمكن أن تكون رصيدا مدخرا لحزب العمال فى أية انتخابات قادمة. وكل ذلك مطلوب حتى وإن كان طلب «بلير» المباشر - الآن - هو دور «الفرملة» على الاندفاع الأمريكى.

لكن الخبراء الفرنسيين ظل رأيهم أن «تونى بلير» لن يستطيع أداء دور الفرملة على الاندفاع الأمريكى، لأنه التصق أكثر من اللازم بالسياسة الأمريكية، بحيث أصبح امتدادا لها يدور فى فلكها ولا ينفصل عنها، فقد تصور أن اقترابه أكثر من اللازم ينفع دوره، ونسى أن الحركة فى مدار القوة الأمريكية سوف تستوعبه مهما حاول، وبالتالى يصعب عليه أن ينفصل ليكون له موقف مستقل، وإذا فعل فإن محاولة الانفصال بعد زيادة الاتصال إلى حد الالتصاق، لا تتم إلا بدرجة من الخلاف يستحيل عليه قبولها.

وإذن فذلك الدور (الفرامل) محجوز لفرنسا فى اللحظة المناسبة. ■

....

....

انتهى الوقت الذى كانت إسرائيل ترضى فيه بزواج عرفى مع أمريكا، وهى الآن تريده اعترافا رسميا وزواجا شرعيا

الإشارة الثالثة

مناقشات عن الحرب فى أفغانستان وحولها

لندن:

■ كان هناك سؤال طرحته على كثيرين، وفى لندن أكثر من غيرها بسبب قربها الزائد من القرار الأمريكى وموجباته. مؤدى السؤال أنه: إذا كان «التشويح السياسى» قد تحول فى الحالة الأمريكية إلى عمل عسكرى بالسلاح، فما هو شكل هذا العمل العسكرى؟ وما توصيفه؟ وما هدفه؟

وقد ضغطت على هذا السؤال أثناء غداء فى بيت الصحفى البريطانى الأشهر «أنتونى سامبسون» (وهو مؤلف عدد كبير من المراجع السياسية المهمة منها «الأخوات السبعة»: عن شركات البترول العالمية الكبرى - و«سوق السلاح»: عن تجارة السلاح فى العالم - و«لمسة آلهة الذهب»: عن كيف تكونت أكبر الثروات فى العالم - وأخيرا سيرة حياة «مانديلا» لأن أنتونى سامبسون هو مؤرخه المختار لكتابة قصة حياته).

وكان ضيوف الغداء جميعا صفوة من العارفين بمكامن السياسة وميادين الحرب.

ولم تتوقف المناقشات من الساعة الثانية عشرة ظهرا حتى الثالثة بعد الظهر، وخلاصة المناقشات كما تداعت:

١- إن هدف التحركات العسكرية الأمريكية الأولى - قبل بدء العمليات - هو التواجد فى قواعد الخليج والسعودية وغيرها بشكل «فاعل على الأرض» يرفع درجة الاستعداد فيها «دون إذن من أحد»، لأن ما حدث فى نيويورك وواشنطن يعطى فى حد ذاته شرعية تغنى واشنطن عن «طلب إذن» من أى طرف.

وذلك حال يختلف عما كان فى حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠ - ١٩٩١، ففى حال حرب الخليج كان نزول القوات الأمريكية والبريطانية (وغيرها) فى السعودية والخليج، يحتاج إذنا من الدول المعنية، ويحتاج غطاءً شرعيا عربيا عاما يسند الأطراف المعنية، لكن الظروف تختلف هذه المرة، فليس هناك من يستطيع أن يعترض، وليس هناك من له حق «أن يأذن أو لا يأذن». وفى الواقع العملى، فإن الإذن السابق مازال ساريا وبمقتضاه فإن التواجد العسكرى الأمريكى فى قواعد شبه الجزيرة العربية مازال فاعلا، وكل ما استجد هو أن الحاجة تدعو الآن إلى رفع درجة الاستعداد فى هذه القواعد بما يناسب «حالة حرب فعلية».

إلى جانب مطلب رفع درجة الاستعداد فى القواعد الأمريكية فى السعودية والخليج - فقد كانت هناك حاجة إلى انتشار أوسع من شبه الجزيرة العربية، وبحيث يكون فى مقدور هذا الانتشار أن يطال أى هدف يراد الوصول إليه، ومرة أخرى فإن هذا الانتشار لم يكن يحتاج إلى استئذان، فالسوابق قائمة، والغضب الأمريكى لما جرى فى نيويورك وواشنطن يصيب الكل بالفزع، بحيث لا يجرؤ طرف على مجرد السؤال، حتى إذا خطر السؤال على باله.



وكان التقدير فى تلك الساعات، أن الانتشار ورفع درجة الاستعداد إلى مستوى حالة الحرب، يعطى السلاح الأمريكى إمكانية التدخل وفق ما يرى صانع القرار الأمريكى، سواء لدواعى العمليات على المسرح الأفغانى أو أى مسرح غيره؟

وأثناء ذلك الوقت فإن تلك الأوضاع فى حد ذاتها تحدث أثرا نفسيا يمكن أن تجىء نتائجه أكبر من أى تقدير.

٢- إذا لم تحقق مشاهد الانتشار العسكرى هدفها النفسى، وضمنه احتمال أن تقوم طالبان بتسليم بن لادن توقيا لضربة عسكرية أمريكية، أو احتمال قيام بعض الحكومات العربية التى تحتفظ بعلاقة خاصة مع طالبان بمسعى مباشر قبل أن يفوت الأوان - فما تزال هناك احتمالات لا داعى لاستبعادها.

وبالفعل فقد جرى تداول اقتراح مؤداه أن يقوم وفد من «علماء المسلمين» بالتوجه إلى «قندهار»، وإقناع قيادة طالبان - الملا عمر نفسه وإقناع أسامة بن لادن شخصيا - بأن الوقت قد حان لفداء الأمة الأفغانية والإسلامية من شر مستطير بتضحية رجل واحد (كما همَّ سيدنا إبراهيم أن يفعل بابنه إسماعيل لولا أن فداه الله بذبح عظيم)، وكان لدى بعض هؤلاء العلماء بالفعل شعور بأن المعجزة قد تتكرر، لأن بن لادن من أول لحظة يدفع ببراءته مما حدث فى نيويورك وواشنطن، وإذا كان صادقا فإن الصدق قادر على أن يثبت نفسه أمام محكمة إسلامية ودولية فى الوقت نفسه، وكذلك تتحقق معجزة الفداء!.

٣- وإذا لم يتحقق شىء من ذلك كله، فإن الفعل العسكرى يستطيع أن يبدأ بضربات من الطيران كاسحة بصواريخ كروز وغيرها من ناقلات الدمار.

وذلك أيضا يمكن أن يحقق الهدف نفسيا، إذا اقتنع الملا عمر وقيادة طالبان، أن الخطر جد لا هزل فيه، وأن أبواب جهنم التى انفتحت فى أجواء أفغانستان ضرر عظيم، يفرض الشرع توقيه ودرأه بكل سبيل، خصوصا إذا كان من يتعرض له لا يملك وسيلة لدفعه عن نفسه أو الرد عليه بمثله، وحينئذ يمكن تسليم بن لادن بمنطق «سد الذرائع» - سواء للولايات المتحدة الأمريكية أو لدولة إسلامية صديقة (ترى فى الأمر رأيها).

إضافة إلى ذلك، فإن نار الجحيم الموجهة إلى الشعب الأفغانى، يمكن أن تدفعه للتمرد على حكومة «طالبان»، خصوصا إذا وصل الضرب إلى الطرق والجسور القليلة، ومحطات الماء والكهرباء المتهالكة، ومستودعات الغذاء والمؤن الشحيحة، وأيضا إلى المزارع المملوكة لزعماء القبائل فى المناطق التى لا تزال بها شواهد خضرة من شجر وثمر فى الشمال والجنوب وحول العاصمة كابول.

٤- إن بدء الضرب الجوى واشتداده نافع للرأى العام الأمريكى على عدة مستويات لأنه:

- يريحه نفسيا ويشفى غليله.
- ويقنعه بأنه أخذ حقه بيده وتصرف.
- ويشغله عن حساب المسئولية فيما جرى فوق نيويورك وواشنطن على الأقل بالتأجيل إلى ما بعد الحرب (لأن الوطن فى الميدان الآن وعلم النجوم يرفرف).

وذلك بالفعل تحقق ولو للأجل القصير لأن صيحة «الوطنية» دوت زئيرا بدائيا تردد فى الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب حتى لم يعد فى مقدور أحد أن يرفع صوته مطالبا «بالمراجعة» - كضرورة للتثبت قبل الضرب وكذلك لضمان استمرار التعبئة على المدى الطويل.

وكان أن الإعلام الأمريكى سمح وقبل أثقل قيود رقابية وضعت عليه إلى درجة أن السيدة «كونداليزا رايس» مستشار الرئيس للأمن القومى تمكنت من إقناع كل رؤساء تحرير الصحف وقنوات التليفزيون الأمريكية فى الإرسال الداخلى والخارجى على السواء - بالامتناع عن نشر بيانات بن لادن وطالبان، لأنها تحوى إشارات سرية موجهة إلى عملاء كامنين فى الولايات المتحدة، تأمرهم بالرموز أن ينفذوا عمليات معينة فى أوقات معينة عند سماعهم لألفاظ معينة!

بل إن الرقابة عبرت المحيط إلى بريطانيا، فإذا بمكتب «الستير كامبل» مستشار رئيس الوزراء «تونى بلير»، يستدعى كبار محررى الصحف والإذاعة والتليفزيون، ويطلب إليهم أن «لا يكونوا أدوات فى يد بن لادن، يستعملهم لخططه وهم لا يعرفون»، لأن ما ينقلونه ويذيعونه بحماسة هو فى الواقع أوامر منه لأنصاره بالرموز، ومن المزعج أنه حين ارتفعت بعض الأصوات، فى «الجارديان» و«الإندبندنت» مثلا، تطرح الأسئلة الضرورية، فإن جريدة مثل «التيمس» شنت عليهم هجوما ضاريا تحت عنوان «أنبياء الشؤم»!

٥- بعد هذه الأهداف العسكرية والنفسية، فقد كان أول تقدير لما يستطيع الضرب الكثيف أن يصنعه على أرض العمليات يقدِّر أن استهداف المواقع الموجودة وفيها مخابئ وملاجئ بن لادن وزعماء طالبان سوف يرغمهم جميعا على الخروج من المخابئ والملاجئ فى طلب الأمان، فإذا خرجوا إلى الفضاء المكشوف، أمكن لطائرات الاستطلاع من «شكل القوافل» أن تعثر عليهم وتنقَضّ!

وكان أول أمر من الجنرال «تومى فرانك» قائد القيادة المركزية الأمريكية المسئولة عن العمليات من مقر قيادته فى «تامبا» فلوريدا، هو:

«أن علينا أن نجعل مخابئهم تضيق عليهم، فإما أن «نفعصهم» داخلها وإما أن يضطروا للخروج إلى حيث نستطيع اصطيادهم. علينا كذلك أن نعزل قياداتهم أن يتصلوا للتشاور بينهم والتنسيق، وأن نقطع الاتصال بين القيادة والوحدات، وبين الوحدات وبعضها، وأن ندمر الطرق وشبكات الاتصال حتى يتحول ميدان القتال إلى جيوب محاصرة تتم تصفيتها واحدا بعد واحد»!

وكان الهدف التالى المباشر للضرب الكثيف هو «ردع آخرين» (لا أحد يعرف أين هم؟) عن القيام بـ: هجمات انتحارية جديدة أو التفكير فى محاولات أخرى من نفس النوع، إذا توهموا أن الأضرار التى لحقت بالولايات المتحدة نفسيا وسياسيا واقتصاديا كبيرة إلى درجة تبرر لهم تكرار الهجمات بقصد الابتزاز، وهو أسلوب مستعمل على الساحة الدولية.

والمنطق هنا أن ضراوة عقاب «الجريمة الأصلية» كفيل بأن يرد آخرين عن ارتكاب مثلها مهما بلغت أوهام هؤلاء الآخرين!

وبالطبع فقد كان للضرب الكثيف قصد نهائى هو تحقيق النصر، وهنا فإن هناك أسئلة كثيرة طرحت نفسها: عن معنى النصر؟ وهل يكفى لتحقيقه إسقاط نظام طالبان وهو ممكن بل وسهل بسبب تفاوت القوة أو أسر بن لادن وقتله، وذلك وارد بل ومحتمل فى أجواء أفغانستان، وماذا عن البلد نفسه وهو من عشرات السنين مسرح حروب خاضتها الامبراطوريات من قبل، رغبة فى السيطرة على الموقع الحاكم فى وسط جنوب آسيا؟ ثم ماذا عن الشعب الأفغانى وهو منذ أكثر من ربع قرن يعيش فى مستنقع دم؟ ثم ماذا؟ وماذا.. أسئلة لا حصر لها!





وفيما بدا مع مجرى الحوار (على مائدة «أنتونى سامبسون»)، فإن العمل العسكرى الأمريكى - بعد ابتدائه بالضرب الكثيف - حدد لنفسه خططا للأجل القصير وبعده للأجل المتوسط، وعلى ضوء ما يجرى على الأجلين يمتد البصر إلى أبعد!

● وفى الأجل القصير، فإن مقتضى الخطة يكرر ما جرى من قبل فى معارك البلقان الأخيرة فى البوسنة وكوسوفو، وملخصها الاعتماد على القوات الجوية تغلق الطرق من حول قوات «العدو»، وتحاصر منافذه بدائرة من النار، ليست فيها غير فتحة واحدة تدخلها قوات صديقة على الأرض تطارد وتطهر وتحتل وتحقق النصر.

وجرى وضع المنطقة الشمالية بالفعل ومركزها «مزار شريف» هدفا للعمليات الافتتاحية، فهذه المنطقة جغرافيا وعرقيا ومصلحة واتصالا فى النطاق «الأوزبكى»، وهو «عرق إنسانى» يعيش ما بين «جمهورية أوزبكستان» وبين شمال أفغانستان.

عن الأزمة والحرب!

والظن أنه إذا ما زحف جيش يقوده جنرال «أوزبكى» مثل الجنرال «عبد الرشيد دوستم» من الشمال إلى الشمال، فإن منطقة «مزار شريف» سوف تستسلم راضية، ومهما فعلت طالبان (وكذلك كان).

● وفى الأجل المتوسط فإنه سواء بالقصد أو بمصادفات الظروف، بدأت فى الولايات المتحدة حكاية جرثومة «الإنثراكس» والحرب البيولوجية التى تشن على الشعب الأمريكى داخل وطنه، وكانت المبالغات الإعلامية فى هذه «الحكاية» متجاوزة للواقع وحتى للخيال.

وشاع أن ذلك هو التمهيد لنزول قوات أمريكية برية على الأرض فى أفغانستان، يسقط فيها ضحايا وتعود جثثهم إلى وطنهم فى حقائب البلاستيك، وذلك هو الموقف الذى يكرهه الشعب الأمريكى، ويخشاه كل رئيس أمريكى - لكنه إذا تبدى أن أمريكا نفسها أصبحت معرضة لحرب بيولوجية داخل أرضها، إذن فإن المواجهة على الأرض بمثابة قدر مفروض لا مهرب منه أو مفر.

لكن الشائع راح يتحول إلى اتهام بأن حكايات الحرب البيولوجية جاءت تمهيدا للمرحلة المتوسطة من الحرب إذا حان وقتها، وهى تعطى للقيادة السياسية الأمريكية خيار توسيع أهداف الحرب، وفى مقدمتها: ضرب العراق.

والذى يتابع المناقشات الدائرة فى دهاليز البيت الأبيض ووزارة الدفاع والكونجرس، والذى يتابع ما ينشره نجوم الإعلام الأمريكى، يلفت نظره ذلك التحريض المستميت على ضرب العراق حتى ليبدو فى بعض اللحظات، كأن العراق هدف الحرب الرئيسى، فى حين أن أفغانستان مجرد مسرح ثانوى يقتصر دوره على التمهيد والتهيئة.

٦- وكان رأى عدد من الجالسين حول مائدة الغداء فى بيت «أنتونى سامبسون»، أن العمل العسكرى الأمريكى له فوق أهدافه الإقليمية - هدف استراتيجى عالمى هو التأكيد لكل الأطراف فى العالم أن الولايات المتحدة تأخذ دورها المهيمن الذى تفردت به بعد انتهاء الحرب الباردة جدًا، وأنها إذا كانت «القوة الأكبر» فى القرن العشرين، فإنها مصممة على أن تكون «القوة الأوحد» فى القرن الواحد والعشرين.

وهذه رسالة موجهة إلى الجميع: الأصدقاء من قبل الأعداء (إذا كان هناك أعداء على مستوى الدول).

٧- لحق بذلك رأى يعتقد أن الولايات المتحدة تقوم - فى ذات الوقت - «بتأكيد وتطوير وامتحان» نظرية الحرب الجديدة (الحرب غير المتوازية) ضد أنواع من التهديدات تواجهها، أخطرها «الإرهاب»، ومع أن هذه الحرب الجديدة لا تحتاج إلى السلاح وحده، وإنما تحتاج إلى أسلحة أخرى بجواره أهمها «نظام مخابرات هائل للداخل والخارج»، تشارك فيه الأطراف والقوى فى العالم - إلا أن هذا النظام العالمى للمخابرات - يصعب بناؤه إلا بضغوط على الجميع - ولابد أن تكون الضغوط «مبررة»، حتى إذا تم إنشاء النظام ونجح فى امتحانه، أصبحت «آليته المستقلة» خارج إرادة أية دولة بعينها.

٨ - أضاف أحد الخبراء المشاركين فى الحوار إلى ذلك قوله:

«إن كل رئيس أمريكى يحتاج إلى حرب يثبت فيها للكل وللتاريخ أنه زعيم حقيقى على مستوى الخلود (Posterity).

وهكذا فإنه فى حين أن «بوش» يحلم بأن يكون «جورج واشنطن» «عائدا إلى الحياة» - فإن «تونى بلير» يأمل أن يبدو وكأنه «تشرشل القرن الحادى والعشرين».

زيادة على ذلك فإن كل دولة عظمى تحتاج إلى إثبات قدرتها، كما أن كل قوة تحتاج إلى تجربة أسلحتها فى ميدان حقيقى، ثم إن كل نظرية جديدة فى استعمال القوة تحتاج إلى إثبات».

ومع التسليم - مرة أخرى - بأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تواجه تهديدا حقيقيا - تكون بعده أو لا تكون - كما كان الحال مع بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية - إلا أن الولايات المتحدة فى حالة عصبية تجعلها تشعر بعض اللحظات بأنها أمام تهديد حقيقى.

ويمكن ملاحظة أن هناك مدرسة فى التفكير ترى أن التهديد هو كل حدث يختلف عن الأمر الواقع، وكل مفاجأة تجىء على غير انتظار، أى أن الأمر الواقع المألوف والمتوقع هو داعى الطمأنينة، فإذا اختلفت الأمور وإذا وقعت مفاجآت، فالشعور بالتهديد تلقائى (وكان ما حدث فى أمريكا يوم ١١ سبتمبر الأخير أكثر من «أمر مختلف» وأخطر من «مفاجأة وقعت»)!

وذكرنا واحد من الجالسين حول مائدة الغداء والمشاركين فى حوارها، أنه سمع نقلاً عن الجنرال «ريتشارد ماير» رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للجيش الأمريكى قوله: «إن أمريكا التى انتصرت فى الحرب الباردة عليها أن تجعل الوضع الذى جاء بعدها «سلاما ساخنا» حتى لا تُنسى حقائق القوة فى أوقات الصفاء والاسترخاء!»



وسألنى أحد الحاضرين حول مائدة «أنتونى سامبسون»، وهو «ويليام شوكروس» الذى يعتبر من أبرز الخبراء المتخصصين فى صراعات آسيا، عن رؤية العالم العربى لما جرى (١١ سبتمبر)، وقلت: إنها لا تختلف كثيرا عن رؤية العالم كله: انبهار بجسارة المغامرة، واستنكار لعواقبها الإنسانية، وتعاطف - ربما لأول مرة - مع الولايات المتحدة، على أن السياسة الأمريكية لسوء الحظ لم تترك لهذا الشعور بالتعاطف، فرصة أن يتنامى، وإنما طردته مسرعة بصور الخراب فى أفغانستان، والعذاب الذى يعانيه رجالها ونساؤها وأطفالها وبذلك غطت الصور على الصور، بمعنى أن صورة أبراج التجارة فى نيويورك وهى تتهاوى تباعدت عن موقع النظر وموضع العاطفة، مع ملاحظة أن الإعلام الأمريكى فى حالة نيويورك وواشنطن ركز على مشهد اقتحام الطائرات لبرجى التجارة التوأمين، ولم يركز على صور البشر، وأما فى أفغانستان فلم تكن هناك ناطحات سحاب تتهاوى كأنها مشاهد أفلام سينمائية مثيرة، وإنما كانت الصور الأظهر والأكبر والأكثر تعبيرا عن المأساة الإنسانية - هى صور الجراح والدماء والدموع والموت قتلا لمدنيين عزل لم يحملوا السلاح فى حياتهم، ولم يقرأوا طول عمرهم كلمة عن صراعات العقائد والدول فى الأزمنة الحديثة.

ثم عاد «شوكروس» يسألنى عن بن لادن، وكان رأيى دون مواربة أن بن لادن «ليس رجلنا»، فلا هو وجه قضايا العرب والإسلام المعاصرة، ولا هو اللسان المعبر عن ضمير الاثنين.

وفى الواقع فإن كثيرين بين العرب والمسلمين ساورتهم الشكوك من سنين عديدة حول هذا الذى يجرى فى باكستان باسم «الجهاد» وضد «الإلحاد».

وهم فى كل الأحوال لم يصنعوا «بن لادن»، أو يكتشفوه وإنما سمعوا باسمه لأول مرة على لسان الرئيس «بيل كلينتون»، حين وجه إلى مواقعه فى جبال أفغانستان دفعة من صواريخ كروز صيف ١٩٩٨، (عقابا على تفجير سفارتين للولايات المتحدة فى عاصمتين أفريقيتين).

ثم عاد اسم «بن لادن» يتردد على لسان الرئيس «جورج بوش» منذ ارتفع صوت الرئيس الأمريكى لأول مرة مساء ١١ سبتمبر، وهو يعلن الحرب عليه!!

عندما تجرب القوى نظرياتها فى الحرب وخططها، وأسلحتها، وأصدقائها، وحلفائها

ومن أيامها والإعلام الأمريكى والسياسة الأمريكية لا تنطق إلا باسم «بن لادن»، وكأن ذلك الرجل الذى قضى صباه وشبابه مقاولا لبناء الطرق، ثم عاش ذلك النوع من الحياة التى يعيشها أقرانه من أبناء الغنى السريع فى المملكة العربية السعودية، ثم حملته المصادفات إلى أفغانستان فى ظروف شديدة الالتباس - قد حلت فيه فجأة روح «هولاكو» و«هتلر» و«جنكيز خان» و«ستالين» وفى الوقت نفسه!

ومن أكبر الأخطاء - ولعله خطأ متعمد - أن يقع الخلط بين الاستنكار العربى للسياسة الأمريكية، وبين ترجمة هذا الاستنكار على أنه الإعجاب ببن لادن. وربما ساعد على الترويج لهذا الخطأ المتعمد، أن الأمة العربية لا تجد فى هذه اللحظة قيادة معترفا بها تتوافر لها المصداقية ولا فكرة جامعة لها طاقة وحيوية أن تلهم وتحرك!

وهكذا فإنه إذا كان ظهور بن لادن - إعلاميا قد بلغ هذه الدرجة - فدلالته الحقيقية أن الأزمة العربية وصلت إلى القاع، لأن الرجل فى جميع أحواله لا يقدر على دور «البطل» ولا يصلح لدور «الشهيد»!

....

....

زدت على ذلك أننى فى كل ما جرى فوق «نيويورك» و«واشنطن»، أستشعر ما تعرض له الشعب الأمريكى، خصوصا أنه جاء قاسيا ومدمرا، لكننى أعرف أنه مثل كل الأحزان الإنسانية سوف يبهت من الذاكرة الحية مع الأسابيع والشهور والسنين، لكن قلقى الكبير «الآن» وخوفى الحقيقى على شىء آخر، أخشى أنه سوف يظل معنا طويلا - فى الواقع الحى وليس فى الذكريات الحزينة - وأعنى بذلك «فكرة الطيران» ذاتها. فقد كان القرن العشرون «قرن الطيران» بحق، وكانت «الطائرة» التى ربطت الدنيا هى نجم العصر ومحركه ودافعه ووسيلته للتقريب ما بين القارات والأمم والثقافات، وخشيتى الآن هى على «فكرة الطيران»، لأن الفكرة تعرضت لعدوان صارخ يتعدى ما تعرضت له نيويورك وواشنطن ويتعداه بكثير.

أضفت أننى أعرف (ولا أوافق) أنه حدث من قبل أن «عربا» (وغير عرب) خطفوا طائرات، واحتجزوا من ركابها رهائن فى مقابل طلبات أعلنوها، وكان ذلك خطرا على الطيران، لكن الخطر كان محصورا.

وأما هذه المرة، فإن أربع طائرات فيها مئات من الركاب وقع خطفها، ثم قرر الخاطفون تحويلها بما فيها الركاب من البشر - رجالا ونساء وأطفالا - إلى قذائف من النار، وهنا فإن الخطر غير محصور. بمعنى أن الخطف واحتجاز الرهائن وتقديم الطلبات كان خطرا على الطائرات، وأما الذى جرى فوق نيويورك وواشنطن، فقد أصاب فكرة الطيران فى القلب.

وعندها فإن «الإرهاب» جاوز فلسفته التى يتعلل بها، فلم يعد «الإرهاب» شخصا مستعدا للتضحية بحياته فداءً لمعتقداته، وإنما أصبح «جريمة» تضحى بحياة آخرين لا شأن لهم بمعتقداته ولا بحياته!

الإشـــارة الرابعة

مســألة الإرهــاب: الأصــول والفــروع

أوكسفورد:

لكننا في هذا الموضع عند ضرورة تستحق إشارة مستقلة بذاتها، وأعني بذلك مسألة «الإرهاب»، والحقيقة أن الكلام كثير عن «الإرهاب» إلى درجة زاد فيها الخلط حتى تحمل «المصطلح» بأكثر مما يحتمل معناه. وقد وقع في زمن الحرب الباردة وبعدها، أن أساليب تلك الحرب أمسكت بالكثير من المعاني وعبأتها بمقاصد لم تخطر على بال «النحاة» ثم حولتها إلى قذائف يعاد صهرها بعد كل استعمال، لتتشكل بالسبك من جديد ويُعاد استعمالها، حتى فقد اللفظ في النهاية صلته بالمعنى الأول الذي جرى صكه للتعبير عن دلالته.



وفي السنوات الأخيرة، فإن ذلك حدث لتعبير: «الإرهاب» - الذي يعتبرونه أهم «الأشكال» الجديدة للصراع على المستويات المحلية والإقليمية والدولية.

وربما قلت هنا - ودون مقدمات - أنني من المعجبين باجتهادات السير «مايكل هوارد» أستاذ علم «الصراع» وما يتصل به من استعمالات القوة - في جامعة أوكسفورد، وقد وجدتني زائرا لمكتبه عدة مرات، أسأله وأصغي إليه، وأنقل بصري من حيث يجلس واثقا على مقعده، إلى المنظر الذي تطل عليه غرفة مكتبه، وهو الساحة الداخلية المفروشة بالعشب الأخضر، تحيط بها مساكن الطلبة القدامى في الجامعة العريقة، وهذه الساحة تبدو من نافذة مكتبه مهيبة بأعمدتها وعقودها من الطراز القوطي - بينما المساكن المحيطة تتمدد حول مربع واسع، وفي وسط كل عقد من عقودها، يظهر بين الأعمدة باب قديم لمسكن عتيق عاش فيه طلاب العلم قرنا بعد قرن، وأضافوا به إلى المعرفة الإنسانية طبقة فوق طبقة - وصنعوا به ما صنعوه من قيمة لجامعة أوكسفورد، ودورها في بناء الامبراطورية البريطانية، وما بعدها.

وضمن منهجه في شرح علم الصراع فإن السير «مايكل هوارد» لديه اجتهاد في توصيف الإرهاب يختلف عن النداء الذي يتردد بين وقت وآخر في بعض العواصم العربية باقتراح مؤتمر عالمي على مستوى القمة لبحث قضية الإرهاب كما يختلف عما يتردد في عواصم عربية أخرى بما يعني: أنه لا يصح أن يوصف بالإرهاب، نضال الفلسطينيين من أجل استعادة حقوقهم في وطنهم».

....

[والواقع أنه بالنسبة لفكرة مؤتمر عالمي لبحث قضية الإرهاب، فإن الموضوع فات أوانه، لأنه قبل عشرين سنة وأكثر دخل الرئيس «رونالد ريجان» إلى البيت الأبيض على أساس برنامج، تحتل قضية الإرهاب رأس أولوياته، وبالفعل فإن «رونالد ريجان» بعد أن أصبح رئيسا للولايات المتحدة أنشأ لجنة عليا يشرف عليها نائبه «جورج بوش» (الأب) وكان تكليف اللجنة هو قضية الإرهاب، ثم إن هذه اللجنة (سنة ١٩٨١) انتهت إلى توصيات وقرارات تم اعتمادها، وبالتوازي مع ذلك قامت الأمم المتحدة على عهد أمينها العام الأسبق «بيريز دي كويلار» بإحالة موضوع الإرهاب إلى اللجنة السياسية التي خصصت لها مجموعة دولية رفيعة المستوى توصلت إلى صياغة نصوص لحزمة اتفاقيات دولية معروضة الآن أمام مجلس الأمن لإقرارها واعتمادها بواسطة مجتمع الدول.

يُضاف إلى ذلك إن فكرة مؤتمر دولي للإرهاب طرحت نفسها مرات، وانعقدت بالفعل لهذا الغرض قمة دولية التأمت في «شرم الشيخ» في مصر (مارس سنة ١٩٩٦)، ومن سوء الحظ أنه تبين فيما بعد أن تلك القمة قُصد منها إنقاذ الفرص الانتخابية لـ «شيمون بيريز»، حتى تتأكد له رئاسة الوزارة في إسرائيل، لأنه «حمامة السلام» المرجوة والمهددة بمخالب الصقور المتشددين من كتلة الليكود وغيرها، لكن القمة فشلت في تحقيق غرضها، وسقط «بيريز» ونجح «بنيامين نتانياهو».

وأما بالنسبة لما يتردد من أنه لا يصح اعتبار نضال الفلسطينيين من أجل استعادة حقوقهم في وطنهم إرهابا - فإن أي توصيف للإرهاب لا يجب حصره في قضية فلسطين أو اقتصاره عليها أو تمييزها به، وإلا أصبح ما يسمونه بالإرهاب حكرا على قضايا العرب وحدها.]

....

....

المهم هنا أن ما يذهب إليه مايكل هوارد - أستاذ علوم الصراع في جامعة أوكسفورد - أبعد وأعمق، والأهم فيه أن الرجل يطرح ما عنده مستندا إلى «علم»، ثم إنه يقوله واعيا بالتوقيت السياسي الذي يتكلم في إطاره، مدركا لمحاذيره (ثم إن الرجل لم يتحدث به فقط في مجلس خاص، وإنما - وكما عرفت بعد عودتي إلى القاهرة - فقد تحدث عنه في اجتماع مغلق في كلية الدفاع العليا التابعة لهيئة أركان الحرب البريطانية في لندن) وبالتالي فإن رأي السير «مايكل هوارد» لا يستحق الاحترام فقط لأنه يصدر عن خبير، وإنما استحقاقه للاحترام يتأتى أيضا من أن العلم قادر على احترام نفسه والترفع على هوى السياسة.

وكذلك رحت أصغي لما يقوله أستاذ أوكسفورد العتيد.

بدأ السير «مايكل هوارد» بملاحظة ملخصها، أنه قرأ تعليقا عن حوادث اقتحام العمارات بالطائرات، جاء فيه وصف العمل بأنه «كان جبانا»، وهو يرى أن ذلك الوصف أبعد ما يكون عن الحقيقة، «فما حدث يصعب أن يكون فاعله جبانا»، ولو أن التعليق وصف الفاعل «بأنه مجنون، لوافق على الوصف».

أي أن ما جرى يوم ١١ سبتمبر لم يقم به «الجبن» وإنما قام به «الجنون»!

ثم يقول السير «مايكل هوارد»: «إن الجنون يمكن أن يكون من أعمال الإرهاب، وهنا فإنه لابد من توصيف «الإرهاب»».

ورأي السير «مايكل هوارد» أن «الإرهاب» ليس «جريمة» بالمعنى العادي للجريمة، لأنه لا توجد علاقة معرفة «شخصية» بين الجاني والمجني عليه، كما أنه لا توجد مصلحة «مباشرة» بين فاعل الإرهاب وضحيته، وعليه فإن الإرهاب «فعل عام» وليس «فعلا خاصا» وهنا اختلافه عن الجريمة.

و«الإرهاب» لم ينشأ الآن فقط مع نشاط الفلسطينيين أو الأيرلنديين (تلك أمثلته)، وإنما نشأ من زمن طويل، ثم أصبح ظاهرة «سياسية» بشكل واضح في القرن الماضي، حين أصبح نوعا من أنواع الثورة (A sort of Revolution)، لجأت إليه شعوب أو جماعات مقهورة - كانت الحرب مستحيلة عليها بسبب ضعف وسائلها، وكانت الثورة غير ممكنة لها بسبب جبروت حكامها، والنتيجة أن هذه الشعوب والجماعات أقدمت على «أعمال يأس»، لم تجد أمامها غيرها، وقد لجأت إليها قابلة بدفع ثمنها وهو حياة منفذيها في كل المرات وأمن تنظيماتهم في بعضها».

وكذلك فإن الروس مارسوا الإرهاب ضد الدولة القيصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

والأرمن مارسوا «الإرهاب» ضد الدولة العثمانية بعد ذلك.

والمصريون والأيرلنديون والهنود مارسوا «الإرهاب» ضد الامبراطورية البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين.

واليهود مارسوا الإرهاب ضد الإنجليز. والفلسطينيون مارسوا الإرهاب ضد إسرائيل.

يستطرد السير مايكل هوارد:

«ليس الموضوع أنني أوافق أو لا أوافق على ما فعله هؤلاء الناس في سبيل ما تصوروا - من وجهة نظرهم - أنه المتاح أمامهم للتعبير عن مطالب اجتماعية أو سياسية أو وطنية. ومهما كانت تكاليفها عليهم وعلى غيرهم - وإنما الموضوع أن نحاول فهم ما يقصده هؤلاء الناس بأفعالهم:

■ هؤلاء الناس أولا يريدون الإعلان عن أنفسهم أو عن قضايا يريدون إشهارها بقوة الفعل الذي أقدموا عليه.

■ وهم ثانيا يريدون تأكيد تصميمهم على القتال في سبيل ما يريدون مهما كانت التضحية.

■ وهم ثالثا وبعنف الفعل يظنون أنهم يوجهون إلى الخصم القوي ضربة الخصم الضعيف تأتيه مفاجأة على غير توقع وتجعله يعيش بعد ذلك رهينة لوساوس القلق!

■ وهم رابعا - وهذه هي النقطة الأهم - يقصدون إلى دفع الطرف الآخر (دولة أو نظام) إلى اتخاذ إجراءات قمع قاسية واسعة النطاق تثير جماهير شعوبهم ضدهم لأن إجراءات القمع والقسوة تضغط على ضمائر جماهير هذه الشعوب!

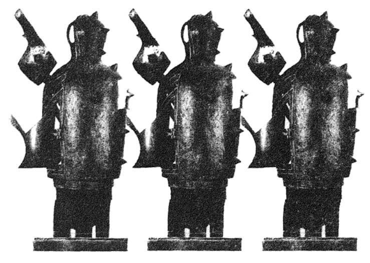
يستطرد السير «مايكل هوارد»:

في المحصلة فإن الإرهاب معركة تقصد إلى إعلان التحدي لوضع قائم عن طريق استفزازه، بحيث يندفع هذا الوضع القائم بكل سلطته للضرب والقمع إلى ما لا نهاية، وتكون زيادة عنف السلطة مؤدية في العادة إلى النفور منها، وحينئذ يشعر القائم بالعمل «الإرهابي» أنه حقق غرضه، لأن الناس تعاطفوا معه، حتى وإن لم يتعاطفوا مع قضيته.

....

....

[بدا لي رأي «مايكل هوارد» معقولا، وبدا لي أن ما نراه الآن تصديق عليه، فليس هناك - كما أظن - تعاطف «عربي» أو «إسلامي» - عام - مع طالبان أو مع «أسامة بن لادن»، لكني أظن أن قوة العنف الأمريكي: بحملة من الكراهية أولا دون دليل - ثم



بالسلاح - بعدها - دون مشروعية - ثم بالضرب فورا - دون تمييز، خلقت ردة فعل مناهضة - على نحو ما - للولايات المتحدة، متعاطفة - على نحو ما - مع شعب أفغانستان، ثم تداخلت الصور فوق الأرض المخضبة بالدم!

ومع أنه لا يصح لأحد أن يخالجه شك فى أن القوة الأمريكية قادرة على أن تهدم كل حائط فى افغانستان، وأن تحرق كل كهف فى جبالها، وأن تمزق حركة طالبان إربًا، وأن تاسر بن لادن فى النهاية أو تقتله، فإن «الإرهاب» لسوء الحظ فاز فى المعركة وفقا لمقاييس السير «مايكل هوارد»:

ذلك أن الإرهاب حقق أهدافه المطلوبة: فهو قد أعلن عن نفسه - وأكد تصميمه - ووجه ضربة بالمفاجأة (إذا كان حقا أنه هو الذى وجهها - أو هو وحده!)، والنتيجة أن الولايات المتحدة وقعت فى فخ الاستفزاز واستعملت عنف القوة بأكثر مما هو لازم.

وكذلك فإن «بن لادن» قد يصبح بطلا بالرغم عنه، وشهيدا بمحض مصادفة].

....

....

[وربما أضفت إلى كلام السير مايكل هوارد أنه إذا كان الإرهاب ثورة اليأس ضد القوة، فإن عصر العولمة نقل الظاهرة من حدود الأوطان إلى اتساع القارات، بحيث يمكن القول بأن معظم أزمات زمننا الراهن وعقده الفكرية والنفسية، وكذلك معظم حركات التمرد فيه والعصيان، هى بمثابة نوع من الحرب أو نوع من الثورة يقوم بها قاع العالم ضد قمته].

....

....

[خطر لى أيضا أنه إذا كان «الإرهاب» يفوز عندما ينجح فى دفع الأقوياء إلى الاستفزاز، ويكون ردهم عليه بأقصى درجات العنف - فإن الإرهاب يخسر إذا استطاعت القوة أن تضبط أعصابها وتواجه الاستفزاز بحكمة العقل متمثلة فى حكم القانون، ونموذج «حكمة العقل» مشهور فى التجربة الأمريكية نفسها، حين أقدم «تيموثى ماكفى» وهو يمينى مجنون على نسف عمارة ضخمة فى مدينة «أوكلاهوما»، ضاع فيها من أرواح الأمريكيين أكثر مما ضاع فى حرب الخليج!

ففى حالة أوكلاهوما جرى تجنب الاستفزاز، ورغم أن «ماكفى» ثبتت عليه التهمة واعترف - على عكس «بن لادن» الذى لم يثبت عليه شىء ولم يعترف - فإن المحاكمة استمرت خمس سنوات كاملة، حتى دفع «ماكفى» حياته ثمنا لفعلته الإرهابية، ومد يده أولا لحقنة مخدرة تهدئ أعصابه، وبعدها لحقنة ثانية حملته إلى الموت بالسم المميت!

والظن أن الشعب الأمريكى حين رفض الاستفزاز فى حالة «ماكفى»، هزم الإرهاب الداخلى الأمريكى، لأنه حجب عن الإرهاب مطلبه الأساسى. أى أن المجتمع الأمريكى قَبِلَ التحدى ورفض الاستفزاز، ولم يندفع إلى عنف القوة، وإنما أخذ بيده حكمة القوة: أى القانون.

وفى المحصلة، فإن حكم القانون يقدر على تحجيم الإرهاب وحصره. فى حين أن عنف القوة يخلط ما بين الإرهاب وقضيته، ويجعل «النموذج» ملتبسا «بالفعل»، ومن ثم يصبح الإرهاب والإرهابى تيارا يجدد نفسه وفعله زمانًا بعد زمان وصفًا بعد صف. ■

الإشارة الخامسة

التحالف الدولى الجديد: أنواعه ودرجاته

روما:

■ من العالم العربى لا تظهر صورة التحالف الدولى الذى يخوض الحرب الجديدة جلية أو محددة، لكن الصورة تختلف إذا وقع النظر إليها من إحدى العواصم الأوربية المطلعة، خصوصا تلك التى تعرف دورها بذكاء وتتصرف إزاءه بحذر، وذلك هو الحال فى العاصمة الإيطالية «روما»، ولعله تأثير قراءة ودراسة أستاذ علوم السياسة الأكبر «نيكولو ماكيافيللى».

والحاصل أن صورة التحالف الدولى الجديد ظهرت - من العالم العربى - مهزوزة ومشوشة، لأن الخطوط والمساحات لم تتطابق فى الواقع مع ما تهيأت له التوقعات، وكان الذى جرى - لبعض الأطراف - أن مجرد الكلام عن تحالف دولى جديد فى أفغانستان سنة ٢٠٠١، استدعى إلى ذاكرتهم تحالفا دوليا سبقه إلى إدارة الحرب فى الخليج قبل عشر سنوات (١٩٩١).

لكن التاريخ (مرة أخرى) لا يكرر نفسه ولا تتدفق أمواجه فى ذات المجرى مرتين.

■ وكان التحالف الدولى الذى خاض حرب الخليج سنة ١٩٩١ - تحالفا غربيا عربيا بالدرجة الأولى، وكانت العلاقة التى ربطت الطرفين فيه: الغربى والعربى - أو الأمريكى والعربى بالتحديد - علاقة متوازنة على نحو معين، وفى حين أن الطرف الغربى - بحكم الحقائق - كان يملك وسائل القوة، فإن الطرف العربى - بحكم الظروف - كان يملك غطاء المشروعية، خصوصا أن مطالب الحرب اقتضت نزول قوات أمريكية على نطاق واسع ومكشوف فوق أرض يعتبرها المسلمون مقدسة، وكانت الأسرة الحاكمة فى السعودية هى التى طلبت الغطاء العربى الإسلامى حتى تتحمل بنزول قوات أجنبية على ثرى هذه الأرض المقدسة، وكان الغطاء المطلوب مصريا - سوريا وزيادة على ذلك عربيا وإسلاميا بأوسع ما هو ممكن. وذلك تحقق وبه توازنت عناصر القوة مع مطالب المشروعية. وبدا أن هناك نوعا من التكافؤ بين الطرفين، وكذلك نوعا من التوافق، ظهر تأثيرهما على قرار وقف العمليات البرية ضد العراق، والداعى أن بعض الأطراف العربية المشاركة فى الحرب وجدت أنه وقد تم إخراج القوات العراقية من الكويت، فإنها لم تعد راغبة ولا قادرة على تحمل الضغوط الشعبية وإلا بان وانكشف أمام الكل أن الهدف هو تدمير العراق وليس تحرير الكويت.

وبالفعل فإن الرئيس «جورج بوش» الأب اتصل أيامها بالجنرال «كولين باول» رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة يستطلع رأيه، وكان رأى «باول» ورأى غيره من أقطاب الإدارة أن «القتال يمكن أن يتوقف الآن»، وذلك ما حصل - وإن تكشف بعده أن القتال توقف لكن الحرب على العراق استمرت بوسائل أخرى تعمل على تدمير البلد وشعبه بغير أن تسبب حرجا يحسب على أطراف التحالف من العرب. ثم كان أن الولايات المتحدة قدمت أو ساعدت على تقديم بعض المكافآت إلى هذه الأطراف العربية، لكنها أحالت بقية الحساب يصفيه العرب بينهم وبين بعضهم، وهنا ظهرت الفكرة «التعيسة» لما سمى بـ: «ميثاق دمشق» والقصد منه أن يدفع الخليج - بقية «فاتورة المشروعية» التى وفرتها الأطراف العربية للقوة الأمريكية وكان الميثاق تجارة فى الحماية!

> أزمات زماننا الراهن وعقده هى نوع من الحرب أو الثورة يقوم بها قاع العالم ضد قمته

ولسوء الحظ - هذه المرة - فإن بعض العواصم العربية عندما سمعت كلمة «التحالف» تتردد مرة أخرى بعد أكثر من عشر سنوات، قاست اللاحق على السابق.

ولم يكن القياس سليما وكذلك لم تتطابق الخطوط والمساحات بين المنتظر والمتحقق، والنتيجة أن الصورة الجديدة بدت للناظرين إليها من بعض العرب مستغربة، وربما أن ذلك هو الذى أوجد أسبابا لسوء الفهم فى المرحلة الأولى من حرب أفغانستان، وأوقع مظاهر للارتباك فى التصرفات مازالت بقاياها محسوسة إلى الآن.

وفى الغالب أنه غاب عن بعض الأطراف العربية وهى تتابع المجرى الجديد للحوادث، أن التيار هذه المرة مختلف، بل إن حساب جميع العناصر هذه المرة بعيد عن حساب المرة السابقة:

■ فليس هناك إذن مطلوب من أحد (لأن الولايات المتحدة موجودة بالفعل حيث يهمها).

■ وليست هناك مشروعية يستطيع طرف أن يمنحها (لأن ما جرى فى نيويورك وواشنطن يعطى للقوة الأمريكية حق أن ترد بالعقاب دون أن يعترض أحد).

■ وبالتالى فإن الإذن غير مطلوب عربيا والمشروعية هذه المرة أمريكية (وإذن فليست هناك مساواة بين الأطراف).

■ وبالتالى ليست هناك فوائد يحصل عليها أحد - بل العكس فهناك ضرائب مستحقة على الجميع (وهذه الضرائب تدفع حين تطلب - وليس هناك «تراضٍ» يمكن التوصل إليه بين الممول وبين المحصل)!

وكانت تلك «مداخل» التحالف الدولى الجديد - هذه المرة - ومفاتيحه!

وفى روما وفى غيرها من العواصم الأوربية شمال البحر الأبيض تبين صورة التحالف الدولى الجديد دون تناقض بين الخطوط والمساحات. وفى هذه الصورة تظهر معالم رئيسية يُستحسن فهمها وإلا استمر خطأ الحساب وتراكمت عواقبه.

وأهم ما يتكشف بمطالعة الصورة من الموقع الأوربى أنه ليس هناك تحالف واحد، وإنما هناك جملة تحالفات، ثم إن التحالفات أصناف:

■ فهناك تحالف دول - وهناك تحالف مهام - وهناك تحالف توقيت.



يترتب على ذلك أن داخل كل نوع من هذه الأنواع من التحالف درجات واحدة بعد الأخرى.

■ ففى الدرجة الأولى - من تحالف الدول - توجد: بريطانيا وحدها، والذى وضع بريطانيا فى هذه الدرجة بمفردها هو إحساسها برباط المصلحة، وإيمانها بالعلاقة التى تربط مجتمع الناطقين باللغة الإنجليزية مما يجعل هذه العلاقة شراكة قوة ونفوذ، وكان ظن رئيس وزراء بريطانيا «تونى بلير» أنه حين يعطى للولايات المتحدة بغير شروط، فإن الولايات المتحدة سوف تعطى بريطانيا بغير حدود، خصوصا فى الوزن السياسى.

■ وفى الدرجة الثانية من تحالف الدول توجد روسيا والصين، وتلك حقيقة أوضاع دولية تفرض على الولايات المتحدة وعلى روسيا والصين أن يكون بينها حجم من التفاهم يكفى ليصنع أرضية مأمونة للحركة. ذلك أنه حين تقدم قوة - عظمى - حتى ولو كانت القوة الأمريكية - على العمل المسلح بالقرب من حدود أو تخوم قوة - عظمى - ثانية، فإن كل نقطة يجب أن تكون فى مكانها، لأن الأوضاع لا تحتمل أن يدوس طرف على قدم طرف آخر، أى أن أى عمل أمريكى مسلح فى أفغانستان لابد له من رضا روسى وصينى حتى ولو كان الرضا بالسكوت.

- ثم إن روسيا كانت متشوقة لتحصيل ديون قديمة وجديدة، بينها أن لها ثأرا مع «المجاهدين الأفغان القدامى» ومع «ثوار طالبان المحدثين»، فكلاهما اعتبر الحرب مع الاتحاد السوفيتى السابق (روسيا) واجبا مقدسا، يجاهد فى سبيله (بتوجيه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتمويلها)، والآن وقد وقعت الواقعة بين «المجاهدين» «قديما وحديثا»، وبين السياسة الأمريكية، فإن روسيا يسعدها أن تحل لحظة الحساب، وأن يكون عقاب الأفغان بسلاح الأمريكان!

- إلى جانب ذلك فإن «روسيا» يهمها أن تفهم الجمهوريات السوفيتية السابقة فى الجنوب (أوزبكستان - وتركمانستان - وطاجكستان وغيرها) أن مسارعتها إلى إعلان الاستقلال عن الاتحاد السوفيتى (روسيا) بمقولة أن لهذه الجمهوريات هوية - إسلامية - خاصة - تجذبها دائما نحو الجنوب - مغامرة ثبت فشلها، والآن لعل هذه الجمهوريات تتعلم وتفهم أن مستقبلها الحقيقى فى الشمال (مع روسيا) وليس فى الجنوب (مع وسط آسيا المحاصر بالتخلف وبالجيوش الغازية أيضا).

- وأخيرا فإن روسيا ترى أن الضرب فى أفغانستان رسالة للتمرد فى الشيشان، وهو تمرد تسللت إليه ولازالت تتسلل - عناصر من «المجاهدين»! - العرب والمسلمين تطوعوا للقتال فى معركة لا يعرفون دخائلها على أرض لا يعرفون معالمها.

وكذلك أصبحت روسيا - بقدر من الشراكة قابل للاتساع - حليفا لأمريكا شرطه الرئيسى أن لا يتم فى المستقبل إجراء سياسى أو اقتصادى (بشأن موارد وسط آسيا من النفط وغيره)، إلا بعد التشاور معه والاتفاق.

■ وبالنسبة للصين كانت المصلحة واضحة: فهى لا تريد أن تترك أمريكا لروسيا وحدها - ولا تريد تسوية أمور وسط آسيا فى غيبتها، ولا تريد للهند أن تصبح القوة الغالبة فى شبه القارة الهندية، إذا سقطت باكستان فى بحور الفوضى بسبب ضغوط العمليات العسكرية على التركيبة الباكستانية (عرقية - دينية - ثقافية - سياسية - واقتصادية).

- مضافا إلى ذلك، فإن الصين كانت فى دهشة من نشاط «جهادى» إسلامى موجه من أفغانستان إلى منطقة «جيانج جانج» وهى على السفح الآخر من جبال الهملايا، وفيها قرابة مائة مليون مسلم فى المقاطعات الغربية للصين - لديهم مشكلات اجتماعية واقتصادية مع الحكومة المركزية فى «بكين»، ويريد «المجاهدون» لهم نظاما إسلاميا على طريقة «طالبان»!

■ فى الدرجة الثالثة من تحالف الدول تجىء باكستان ومجموعة دول الخليج، وأهمية هذه الدول ترجع إلى أن أراضيها هى ذاتها القواعد التى تشن منها الحرب، وكان يمكن أن تكون هذه المجموعة من الدول فى مكان الدرجة الأولى، لكن الدرجات لا تقاس على أساس «الحاجة عند الاستعمال»، ولكن على أساس «القدرة الذاتية للأطراف فى المنح وفى المنع».

- ذلك أن باكستان ولو أنها المسرح المتقدم فى قيادة وتوجيه العمليات، وقاعدة ارتكازها الضرورية - إلا أنها جاءت إلى دورها مجبرة، ممزقة بين مشاعر أهلها وبين ضرورات أمنها الوطنى وهى كثيرة، وأولها سلامة النظام الحاكم - وثانيها المحافظة على الإمكانية النووية لباكستان وهى حتى الآن إمكانية وليدة معرضة للإجهاض أكثر مما هى قادرة على الردع (وتلك أخطر مراحل أى مشروع نووى إذ تكون أعباؤه وتكاليفه قد دفعت لكن قدرته على الردع لم تكتمل بعد، وبالتالى يصبح المشروع فى هذه الفترة من عمره نقطة ضعف أكثر منه عامل قوة).

- ونفس الحساب إلى حد ما ينطبق على مجموعة الخليج، ذلك أن القوات الأمريكية موجودة على الأرض، والقواعد على هذه الأرض تعمل، وليس هناك من يستطيع أن يعترض، وإذا اعترض بالكلام، فحرية العمل لا تحجر عليها الكلمات ما دام فعل الاعتراض معطلا - بالعجز على الأقل.

....

....

[وفى هذا المجال ظهر أن هناك فعلا واحدا يقتضى إذنا، لأنه طلب يوفر لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية - «إمكانيات» و«تسهيلات خاصة» تتيح لها مراقبة موسم الحج هذا العام.

ذلك أن الوكالة عرفت من مصادرها (هكذا قالت!) أن عددا من القادة غير الظاهرين للإرهاب وأعوانا لهم من مختلف المراكز تواعدوا على لقاء فى مواقع الحج ووسط مناسكه ليبحثوا سياساتهم وخططهم فى المرحلة القادمة، ووكالة المخابرات المركزية تظن أن تلك فرصة لا يصح أن تفوت عليها لترصد وتتابع، خصوصا أن زعماء الإرهاب ومساعديهم سوف يخلعون ستائر الحذر عندما يخلعون ملابسهم ويستبدلونها بملابس الإحرام، وهنا يمكن التقاطهم جماعة وبالجملة. والواضح أن واشنطن طلبت، لكنه ليس واضحا - بعد - أى رد تلقَّتْ]

....

....

إلى جانب ذلك فإن مجموعة الخليج فى وسعها أن تدفع بعض التكاليف، وسوف تدفع رغم الأزمة الاقتصادية الناشئة عن انخفاض أسعار البترول من قبل الحرب وبعدها.

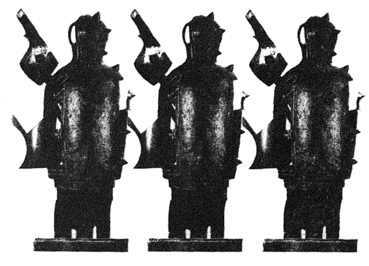
وأخيرا بصدد تحالف الدول فإن البقية بعد ذلك حبات عقد لا ينتظمها حبل، ولكن كل واحدة منها يجرى التقاطها حين يجىء دورها!



هناك بعد ذلك تحالف المهام، والمهام بالطبيعة موكلة بدول، لكن المقصود فى هذا السياق أن التحالف مع هذه الدول يجىء فى إطار عمل محدد فى مرحلة محددة من هذه المواجهة الدائرة الآن، وحتى إذا كانت علاقة الولايات المتحدة السابقة بهذه الدول ببعضها علاقة أوسع من المواجهة الحالية، فإن التحالف مع «هذه الدول» هو فى هذه اللحظة مهام مطلوبة - هنا والآن.

ولعل ذلك ما عبر عنه وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد حين قام بتحديد الفوارق بين تحالف حرب الخليج سنة ١٩٩١ وبين تحالف حرب أفغانستان، وكذلك قال رامسفيلد:

«فى المرة الماضية كان «أطراف التحالف» هم الذين يحددون «مهام الحرب»، وأما هذه المرة فإن «مهام الحرب» هى التى تحدد «أطراف التحالف»»!



■ وفى «تحالف المهام» فإن الدولة التى تتصدر القائمة هى «تركيا»، وتركيا تمارس المهام الموكولة إليها الآن فعلا على ساحة الأزمة:

- وفيها أن تركيا قريبة من وسط آسيا، كما أن لها صلات وثيقة مع أفغانستان، أهمها القرب الجغرافى وأظهرها تأثر محاولة الإصلاح الأفغانى فى العصر الحديث بحركة «كمال أتاتورك»، إلى درجة أن أحد ملوك أفغانستان وهو «أمان الله خان» جرب فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، تقليد أتاتورك فى فرض لبس القبعة على الرؤوس بدلا من العمامة، لكن التجربة كانت متجاوزة للحقائق الأفغانية وأولها الحقيقة الثقافية.

- يلى ذلك أن تركيا قاعدة عسكرية قريبة من الجوار، وأن هيئة أركان حرب الجيش التركى تعتبر أن أفغانستان واقعة فى نطاق الأمن الإقليمى التركى، ومع جوار أفغانستان لجمهوريات جنوب الاتحاد السوفيتى السابق (تركمانستان وطاجكستان وأوزباكستان - وحتى كازاخستان) وهى فى الطموح التركى منطقة نفوذ يتعين حجزها لها - فإن تركيا ترى لنفسها دورا ومجالا، وبالفعل فإن تركيا تحركت فى هذا الاتجاه عقب سقوط الاتحاد السوفيتى ثم واصلت الحركة حتى الآن، (ولسوء الحظ بتعاون وتنسيق - فى معظم الأحيان - مع إسرائيل)!

- هناك أيضا أن تركيا لديها تجربة فى محاولات إقامة دول تنفك من رباط دول قديمة بدعاوى عرقية ودينية، ومن ذلك فقد تمكن القادة العسكريون من الأتراك من إقناع «حليفهم» الأمريكى بأن تجربتهم فى ضرب وحصر حزب العمال الكردستانى تصلح درسا يستحق النظر والاعتبار، وقد وجدوا أوجه شبه بين الرفيق «عبد الله أوجلان» الكردى والملا «محمد عمر» الطالبانى، وكذلك فإن هناك الآن مع القوات الأمريكية العاملة ضد قوات تحالف الشمال الأفغانى وحدات تركية تقدم الخبرة فى التدريب وتشارك عمليا على الأرض!

والمطلب مقابل ذلك أن تركيا لديها حلم «نائم» أو فى الحقيقة حلمان آن لهما أن يستيقظا:

- أولهما «حلم» أن تعترف سوريا تحت «ضغوط ما» بأن قضاء الاسكندرونة (الذى تنازلت عنه فرنسا لتركيا أيام الامبراطورية) - قد أصبح شرعيا ونهائيا ولاية تركية.

- والثانى حلم ولاية «الموصل» التى تأمل تركيا فى سلخها عن العراق العربى لكى تصبح - هى الأخرى - ولاية تركية، لأن أنقرة مازالت تتهم الحكومة البريطانية بالعمل على ضم الموصل إلى العراق الخاضع لها ساعة تصفية دولة الخلافة العثمانية تلك الأيام. وتشير تلك الدعاوى التركية إلى أنه كان هناك بند فى الميزانية التركية تحت عنوان «الموصل» ظل مطبوعا فى كل مشروع ميزانية حتى عهد إدارة الرئيس «تورجوت أوزال».

■ إلى جانب تركيا يجىء الدور «فى تحالف المهام» على مصر ومعها عدد آخر من الدول العربية (ضمنها السلطة الوطنية الفلسطينية)، وأول المطلوب من هؤلاء على المشاع معلومات مخابرات، فهذه الدول كلها اقتربت على نحو أو آخر مما جرى فى أفغانستان وبعضها شارك مشاركة فعلية فى إنشاء ما يسمى بـ «الجهاد الأفغانى»، وبعضها الآخر كان الداعم الرئيسى لحركة «طالبان».

عن الأزمة والحرب!

وقد كان الجميع على استعداد لتقديم معلومات المخابرات بما فى ذلك بعض الدول التى كان يصعب تصورها فى إطار مثل هذه المهام (وبينها سوريا والسودان وليبيا وغيرها).

لكنه إذا كانت معلومات المخابرات هى البند الأول فى مهام هذه المجموعة، فإن المهمة الأكثر حساسية هى «إبعاد» القضية الفلسطينية وتفاعلاتها عن الحرب فى أفغانستان وتطوراتها، وهنا فإن الدول العربية - خصوصا مصر والأردن - مطالبة بالعمل على وقف العنف فى فلسطين (دون تحديد لمصدر العنف وسببه)! كما أنها مطالبة بالعمل على استئناف المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين (دون أن يكون هناك مشروع معقول يمكن التفاوض عليه) وهى أيضا مطالبة بضبط التصعيد الإعلامى وما يثيره من أجواء نفسية معادية لإسرائيل وللولايات المتحدة وللسلام (دون مراعاة لأسباب الاستفزاز الداعية إلى هذا التصعيد).

وأخيرا فإن هذه المجموعة من الدول مطلوب منها أن تقدم خدمات وتسهيلات لصالح العمل العسكرى الأمريكى، وقد حاول الكثيرون إخفاء ما سمحوا به أو سكتوا عليه وأغمضوا عيونهم.

لكن الحقائق لا تقبل غطاء الشادور الأسود الذى فرضته طالبان على نساء أفغانستان، وبالتالى فإن الحقائق تفضل السفور، وسفورها يسبب الكثير من أسباب الحرج.

وبرغم ذلك فإن العرب ليست لهم قوائم طلبات «غالية» فى مقابل ما يقدمونه متحمسين أو ما يفرض عليهم ويسبب لهم الحرج، والأغلب أن الطلب العربى الأساسى: هو السلامة أولا.

■ وفى تحالف «المهام» أيضا فإن هناك دورا للهند، و«مهمة الهند» ثنائية: إزاء الصين من ناحية وإزاء باكستان من ناحية أخرى، فظهور الهند فى التحالف من شأنه المساعدة على تثبيت موقف الصين، وعلى الناحية الأخرى فإن مجرد ظل الهند يفرض على النظام فى باكستان كبت مشاعره وقمع جماهيره، كما أن شبح الهند قادر على تحديد وضبط حركة الجيش الباكستانى، ومنع وقوع انقلاب مفاجئ فى إسلام آباد يؤثر على مسرح العمليات فى أفغانستان!

وتنتظر الهند من ظهورها بمهمة فى التحالف مكاسب تسعى لها:

- أولها تحجيم قدرة باكستان العسكرية والنووية بالذات، وكانت باكستان من قبل مستنزفة بأحوالها السياسية والاقتصادية، والآن زاد على هذه الأحوال عبء جديد يضاف إلى أثقال قديمة.

- والمكسب الثانى للهند هو أن باكستان المنهكة سوف تكون أبعد عن «كشمير» بمسافة أو مسافتين عما كانت.

- والمكسب الثالث أن ضرب «منهج طالبان» ومدارسها سوف يضعف عناصر تنتمى إلى المنهج والمدرسة تطوعت لـ «الجهاد» فوق قمم الهمالايا (منطقة كارجيل) ضد الهند (التى تعبد الأصنام فى رأيهم)!



وأخيرا فى أنواع التحالفات - وبعد تحالف الدول - وبعد تحالف المهام - يجىء «تحالف التوقيت»، وهو تحالف لحظة معينة حتى وإن طالت عليها الأسابيع والشهور، وضمن هذا التحالف فى التوقيت فقد لا يكون مطلوبا من الأطراف - أحيانا - ما هو أكثر من مجرد تحييد نفسها، أى اتخاذ موقف الانتظار وترك الأمور تجرى فى مساراتها.

وربما أن «إيران» هى أهم الأطراف فى هذا التحالف السلبى فى أدائه والإيجابى فى تأثيره، ذلك أن إيران حتى بالسكوت عنصر ضاغط إلى أبعد الحدود على حركة طالبان بحكم حدود مشتركة تملك فيها إيران بالتداخل السكانى وبوحدة المذهب الشيعى نفاذا عميقا فى منطقة وسط أفغانستان.

والشاهد أنه إذا كان يمكن تقسيم أفغانستان إلى ثلاث مناطق إثنية، فإن المنطقة الشمالية أزبكية طاجكية، والمنطقة الوسطى فارسية شيعية، والمنطقة الجنوبية باشتونية ممتدة إلى عمق باكستان.

....

....

[وأتذكر أن صديقا عزيزا بادرنى عندما قابلنى فى لندن قبل سنوات بقوله:

«لماذا لا تذهب لكى ترى طالبان، إنك رأيت وكتبت عن قيام الثورة الإسلامية «الشيعية»، والآن واجبك أن ترى وتكتب عن الثورة الإسلامية السنية فى أفغانستان (يقصد حركة طالبان)!».

ولم أتحمس، وكان يكفينى أن أسمع بما جرى للتعليم وقد تحول كله إلى كتاتيب للحفظ والترديد - والرجال وقد فُرِضَ عليهم طول اللحى مع العمائم والجلابيب - والنساء وقد دخلن سجن الشادور الأسود - والفنون وقد صودرت كلها كلمةً ورسمًا وصوتًا وصورةً - والأطفال وقد حُرِّمَ عليهم حتى اللعب بطائرات الورق، كأنه يُراد إقعاد أحلامهم على الأرض لا تفارقها.

مع ملاحظة أن أعداء طالبان ليسوا أفضل منها ولا أكثر استنارةً ولا أوسع عقلاً!. والحقيقة أن انتقال أفغانستان من حكم طالبان إلى حكم التحالف الشمالى هو رحلة من كابوس إلى كابوس!]

....

....

على أن الطرف الأهم فى تحالف التوقيت هو أوربا - ألمانيا وفرنسا وإيطاليا أساسا - ثم بعيدا عن أوربا: كندا وأستراليا.

والشاهد أن هذه الدول بدرجات متفاوتة هى فى الواقع نصف شريك، لكن استدعاء دولة بقضها وقضيضها إلى كل موقف تفريط فى القوة لا تدعو إليه ضرورة، وأفضل منه توزيع الأدوار على المواقع المناسبة من مجرى الصراع.

وتقدر الولايات المتحدة وهى تدير عملية التحالف، دولا - أو مهام - أو توقيتات، أن بعض أصدقائها لهم رؤى ومصالح وحتى ثقافة، يمكن أن تكون مغايرة. وأنه من العقل والعدل معا أن تترك لكل منهم هامش حركة يشغله كما يختار، ثم يقع استدعاء كل منهم لمهام التوقيت حين يكون الدور عليه.

(وذلك هو موضع دول أوربية كبرى مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا).

ويلاحظ أن هذا الهامش من المرونة يتسع ويضيق حسب تطورات الحوادث، ومن الملحوظ أن واشنطن تريده أقرب إلى الضيق منه إلى الاتساع، فهى بالنسبة لأوربا تريد حلفاء ولا تريد شركاء، وهى تعتقد أن فرنسا - على وجه التحديد - تبحث لنفسها عن ساحة أوسع تتحرك فيها.

وفى لقاء «بوش» و«شيراك» فى واشنطن كان الاحتكاك بين دور الحليف ودور الشريك ملحوظا، وعلى سبيل المثال فإنه حين قال الرئيس «جورج بوش»: «إن التحالف مع الولايات المتحدة هو البديل الوحيد للتحالف على الإرهاب» - لم يستطع «شيراك» أن يمنع نفسه عن الرد بقوله: «نحن نحارب الإرهاب بمقتضى قرار من مجلس الأمن يمثل إرادة مجتمع الدول».

وحين حاول الرئيس «شيراك» أن يلفت نظر الرئيس «بوش» إلى أهمية تحريك قضية السلام فى الشرق الأوسط، حتى يرفع العالم العربى والإسلامى تحفظه على الحرب ضد الإرهاب فى أفغانستان، كان رد «بوش» بحدة:

«إنه سوف يواصل معركة أفغانستان ضمن حربه على الإرهاب سواء تحركت قضية السلام فى الشرق الأوسط أو توقفت»!

وأضاف الرئيس الأمريكى: «إنه إذا تصور بعضهم أنهم يستطيعون المقايضة «واحدة بواحدة» هنا فإن تصورهم سوف يخيب».

وحين ألح «شيراك» - تنازل الرئيس الأمريكى خطوة بقوله: «إن أسلافه من رؤساء أمريكا كانوا يتحفظونَ على قيام أوربا بدور فى أزمة الشرق الأوسط، وأما هو فليست لديه الآن تحفظات وهو لا يمانع أن تقوم أوربا ببعض الجهود لـ «تليين» مواقف الأطراف العربية!».

....

....

[وفى هذا السياق فإن الرئيس «بوش» رفض أن يتضمن خطابه أمام الجمعية العامة شيئا عن أزمة الشرق الأوسط فيما خلا عبارة وردت فيها إشارة إلى «دولة فلسطينية» وإزاء رجاء وإلحاح عربى ودولى وعد «بوش» أن وزير خارجيته «كولين باول» «سيعرض بالتفصيل أمام الجمعية العامة ما اختصره الرئيس فى خطابه»!

ثم قيل بعد أيام أن كولين باول لن يتحدث أمام الجمعية العامة (لأن خطاب الرئيس يكفى) ولذلك فإن حديثه سوف تكون له مناسبة أخرى قريبة. وبعد أيام أعلن أن وزير الخارجية الأمريكى سوف يتحدث باستفاضة عن أزمة الشرق الأوسط وأن حديثه سوف يكون فى جامعة «لويفيل» (وهى الجامعة المحلية لولاية «كنتكى» الشهيرة بمزارع الدواجن).

ثم تواردت من واشنطن معلومات «رسمية»:

● أن كولين باول لن يتقدم فى خطابه بمقترحات أو صياغات أو أفكار جديدة «لأن تلك مسئولية أطراف النزاع أنفسهم»!

● أن السيدة «كونداليزا رايس» أبلغت وزير الخارجية أثناء إعداد مشروع خطابه أن «الرئيس» لا يرغب فى كتابة عبارات «تثير غضب الإسرائيليين أو تثير شكوكهم».

● أن على وزير الخارجية «أن يأخذ فى علمه» أن الرئيس سوف يبعث بنسخة من خطاب وزير خارجيته إلى رئيس وزراء إسرائيل مسبقا، ولهذا فإن الأفضل توخى الحذر من البداية.

● أنه بما أن الحكومة الإسرائيلية سوف تقوم بتسريب خبر اطلاعها مسبقا على الخطاب فقد يكون ملائما إطلاع بعض أعضاء وفد التفاوض الفلسطينى على نص خطاب «باول» مع إبلاغهم أنها «للاطلاع» فقط!

● أن نسخة الخطاب التى وصلت إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى عادت وعليها ستة تحفظات واقتراحات بتعديلات أخذ بها جميعا - حذفا وإضافة!

وعندما ألقى «كولين باول» خطابه فى النهاية كان المزعج - وبحق! - أن عددا من العواصم الأوروبية تحفظت عليه لكن عددا من العواصم العربية رحبت به!]

....

....

ولم تكن واشنطن سعيدة بما ترامى إليها عن اجتماع عدد من كبار قادة أوربا (وفيهم شيراك وشرودر وبلير وبرلسكونى)، وقد

الأحلام التركية النائمة:
اعتراف سورى بضم
لواء الإسكندرية إلى تركيا وقبول دولى
وعراقى بسلخ ولاية
الموصل عن العراق

جلسوا على عشاء في بيت رئيس الوزراء البريطاني، وتحول حديث السهرة بينهم إلى «شيء» من نميمة تهمس بأن الولايات المتحدة تحاول «الهيمنة على الحاضر لكي تتسلط على المستقبل».

لكن النميمة محصورة، لأن أوربا وأمريكا في النهاية مصلحة متقاربة، وإلى سنوات طويلة قادمة، ومع ذلك وتحسبا لمستقبل بعيد، فإن الولايات المتحدة تفضل أن تكون مع الدول الأوربية الكبرى ضمن «تحالف توقيت» - تلك حدودها الآن!

والغالب أن أهمية التحالف الأوربي سوف تزيد في المراحل القادمة من الصراع، وخصوصا إذا تقرر توسيع مسرح العمليات في أفغانستان إلى ما وراءه وإلى ما حوله، ثم امتدت ألسنة النار إلى مواقع لها في الأوضاع الراهنة حساسية خاصة مثل العراق، (يتبعه جنوب لبنان، والسودان، واليمن، وليبيا، والصومال، وربما غيرها).

والمشكلة أن التوجيه الاستراتيجي الموجه من البيت الأبيض إلى القيادة المركزية الأمريكية التي يتولاها الجنرال «تومي فرانكس» وهو القائد المسئول عن العمليات في الشرق الأوسط! - وضمنها أفغانستان - توجيه مفتوح كأنه تفويض على بياض.

وقد استمعت بنفسي إلى الجنرال «فرانكس» وهو يقول:

«ليس هناك موقع مقصود بذاته، وليس هناك موقع مستبعد من الأصل، لأن التوجيه الرئاسي الصادر إليَّ بتحديد الهدف الاستراتيجي للعمليات هو بالنص:

«عليك أن تعثر على - وتقوم بتدمير - قواعد ومواقع وخطوط شبكة الإرهاب العالمي والقوى التي تساعده على أن تكون البداية بـ: «تنظيم القاعدة ونظام طالبان»»».

والتوجيه بهذا النص مطلق في الطول والعرض وممتد في الزمن إلى بعيد، ومع الزمن مواقع ونتائج، لها تداعياتها وبعد التداعيات مسئوليات وترتيبات.

وفي هذه الأنواع والمستويات من التحالفات (الدول - والمهام - والتوقيتات)، فإن البيت الأبيض في واشنطن هو مقر القيادة العليا.

- هناك أولا يجري «الفرز» لكي يتحدد «من يصلح» ومن «لا يصلح»، ومن «المستعد»، ومن «المتردد»، ومن «الجاهز»، ومن الذي «يستحق التجهيز»؟

ومن هناك يكون القطع النهائي بـ: «من»؟ - و«كيف»؟ و«متى»؟

ومن هناك تتقرر مستويات التعامل مع كل طرف طبقا لما يستحق.

وفي هذا الصدد قام نائب الرئيس «ديك تشيني» بعملية تقييم للأحجام والأوزان، فقال لزائر عربي كبير المقام ما معناه:

«بعض الناس يكبرون في الأزمات وبعضهم يصغرون: الجنرال «برفيز مشرف» (رئيس باكستان) كبر في هذه الأزمة وطالت قامته، كذلك «أجاويد» (رئيس وزراء تركيا) - وإلى حد ما فإن «خاتمي» (رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران) - أصبح أكبر». ■

الإشارة السادسة

أين العرب؟ وأين إسرائيل؟

لندن:

■ وهناك سؤالان هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة:

● السؤال الأول: أين إسرائيل في خريطة هذه التحالفات متعددة الأنواع والمستويات: من «تحالفات الدول» - إلى «تحالفات المهام» - إلى «تحالفات التوقيت»؟!

● والسؤال الثاني: لماذا تلوح الآن في العلاقات العربية الأمريكية - بغير مقتضى حقيقي أو واضح - علامات على سوء فهم تسري فيه «برودة شتاء» قبل أن يجيء موسم الشتاء الطبيعي في الإقليم؟

والإجابة عن السؤال الأول هي أن: «إسرائيل حليف مشارك بنصيب في جميع أنواع التحالفات التي توظفها الولايات المتحدة الأمريكية في الأزمة الحالية أي: تحالف الدول - وتحالف المهام - وتحالف التوقيت.

وقد سمعت - وسمع معي الصديق الأخضر الإبراهيمي (وزير خارجية الجزائر الأسبق، ومساعد وممثل السكرتير العام للأمم المتحدة في أزمة أفغانستان حاليا) - سمعنا نحن الاثنين معا في نفس «المقام» في ذات العاصمة الأوربية من يقول:

«لتكن الأمور واضحة:

إسرائيل صديق وحليف، ونحن نسلم أنها حليف متعب ومشاكس - لكنها حليف، وهي حليف قادر، يستطيع أن يعتمد على نفسه في تحقيق مطالبه (ومطالب أصدقائه)».

وعلى الناحية الأخرى:

«فإن العرب أصدقاء، لكنهم ليسوا حلفاء - ونحن نسلم أنهم صديق طيب ومريح - لكنه صديق، لا يستطيع أن يعتمد على نفسه في تحقيق مطالبه (ويطلب من غيره أن يحققها له)»!

....

....

[وبهذه الإجابة الصريحة يظهر وجها العملة في السؤالين: وجه عليه نقش يحدد قيمته وقوته ظاهرة وواضحة بحيث لا يقع عليها خلاف - والوجه الآخر عليه صورة تذكارية لا تستطيع وحدها أن تشتري شيئا، ثم إنها مثل كل الصور تحتمل النظر إليها من كل الزوايا، ومن كل زاوية موقع نظر].

....

....

ويستطرد القائل: «لا يعرف العرب أن الولايات المتحدة لها سياسة هي التي ترسمها، وأن لهذه السياسة أولويات لا يحددها الآخرون»!

وسألت القائل - ولم يسأله غيري -: «إذا كانت الأطراف العربية صديقا، وصديقا له قيمته ولو بالرمز بصرف النظر عن أي شيء آخر، فما هو السبب في برودة الشتاء - تسابق الفصول - في التأثير على أجواء العلاقات بين الولايات المتحدة وأصدقائها العرب»، وكان ملخص الرد على هذا السؤال:

«في واشنطن وبصفة عامة وفي الظروف العادية قدروا موقف أصدقائهم العرب، لكن طلبات هؤلاء الأصدقاء زادت عن حدها: معظمهم لهم طلب مستمر طول الوقت من الولايات المتحدة بأن تضغط على إسرائيل ولا تفعل شيئا آخر، وكان السياسة الأمريكية في المنطقة وظيفة يمكن اختزالها في: «مواصلة الضغط على إسرائيل»».

«وفي الأزمة الراهنة: أضاف الأصدقاء العرب إلى طلباتهم من واشنطن نداءات إضافية: نداء بعدم توسيع نطاق العمليات خارج أفغانستان، ونداء بتقصير مدة الضرب في أفغانستان، وأخيرا نداء بوقف الضرب في شهر رمضان»، (ولعلها رحمة للجميع أن نظام طالبان تبعثر فعلا مع رؤية هلال رمضان)!

أضاف القائل: «وأسوأ من ذلك فإن النداءات العلنية إلى الولايات المتحدة تمثل نصف الحقيقة: فلم يكن كل أصدقائنا العرب يطالبون بقصر نطاق العمليات على أفغانستان، لأن بعضهم كان ومازال يلمح إلى أنها فرصة متاحة لإنهاء ما بقي معلقا بعد حرب الخليج، محرضا على «أن نظام صدام حسين أخطر من نظام طالبان»!. ثم إن الذين نادوا بتقصير مدة الضرب، كانت نصيحتهم تكثيف الضرب بحيث تنتهي المهمة بسرعة. وأما عن وقف الضرب في شهر رمضان، فإن واشنطن أبلغت الجميع عندكم «أنهم شنوا حربا في شهر رمضان، بل وأسموها في أدبياتهم حرب رمضان».

....

....

[ولحسن الحظ فإن التطورات رفعت الحرج عن الكل وأوقفت الإلحاح على وقف الضرب في الشهر الفضيل!]

....

....

ويواصل القائل كلامه:

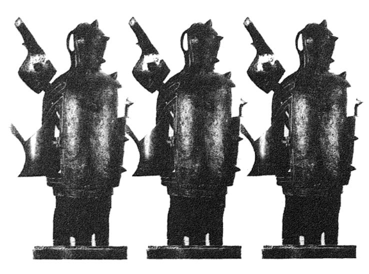
«لقد سمحت واشنطن لبعض الأطراف العربية بأن يعلنوا على الملأ آراء ومواقف مخالفة لما تسمعه منهم في الاجتماعات المغلقة، وكان ذلك عن تقدير لعلاقة هؤلاء الأطراف مع شعوبهم. لكننا الآن في ظرف لا يحتمل هذه الدرجة من المرونة، وهي في رأيهم ميوعة.

وربما تتذكر «أنهم» في إسرائيل يقولون للناس كل شيء وهذا يطمئن، لكنه على الجانب العربي لا يعرف الناس عما يجري إلا أقل القليل».

والخاتمة في قول القائل:

«إنه لا يستطيع أن يكون صادقا مع الآخرين من لا يستطيع أن يكون صادقا مع أهله، ولعلم الجميع فإن الحكومة الأمريكية لم تطلب من أي طرف عربي شيئا إلا واستجاب للطلب بالكامل.

ومع ذلك راح بعض العرب يقولون أنهم «تحفظوا»



عن الأزمة والحرب!

و«رفضوا» و«منعوا». وكل ذلك يَخصم من أرصدة الصديق العربى، ويخصم من بند مهم فيه، وهو بند الثقة بالنفس والاستناد عند التصرف إلى شرعية معترف بها من الكل، مقبولة فى تعبيرها عنهم، بما لا يضطرهم إلى التغطية على «التصرف» بالإخفاء أو بالتمويه!».

والكلمة الأخيرة فى القول:

«هناك نقطة لا يعطيها الساسة العرب قدرها من الاهتمام مع أنها ظاهرة أمام كل زائر للبيت الأبيض أو راصد للأجواء فيه. هذه النقطة هى أن «الرئيس» يستعد من الآن لانتخابات المدة الثانية لرئاسته».

والمسألة شديدة التعقيد:

من الأصل كان الرئيس «بوش» ومعه كبار مساعديه ومستشاريه يأملون فى تحقيق إنجاز كبير يتأكد لهم به رصيد من الأصوات أعلى، بحيث يوفر للرئاسة الثانية أغلبية واضحة، ولا يكرر ما جرى فى انتخابات المدة الأولى، حين تعلق النجاح والفشل بمئات من الأصوات تفرز ويعاد فرزها بالطعون لستة أسابيع كاملة.



لكن حوادث ١١ سبتمبر قذفت إلى البيت الأبيض بكارثة يثق الرئيس وكذلك معاونوه أنها سوف تكون المحور الذى تدور عليه معركة سنة ٢٠٠٤ التى تبدأ عمليا سنة ٢٠٠٢ بانتخابات التجديد النصفى للكونجرس وبعدها مباشرة حملة الرئاسة.

و«التقصير» فى توقع ما جرى يوم ١١ سبتمبر ـ والفشل الأمنى والعسكرى فى توقيه ـ سوف يطرح نفسه. والحزب الديمقراطى الآن بالفعل تسبقه المراكز التابعة له يسعى إلى جمع البيانات، ويسجل، ويحلل لمعركة انتخابية سوف تدور على «صياغة جديدة» للسياسة وللدفاع للسنوات المقبلة من هذا القرن.

فى مواجهة مثل هذه الأخطار الانتخابية على المدة الرئاسية الثانية للرئيس «بوش» فإن استراتيجيته واضحة الآن:

١ـ الخط الأول فيها هو التغطية على يوم ١١ سبتمبر بانتصارات ضخمة يصعب على المعارضة إنكارها.

٢ـ وذلك يعنى أن تكون أفغانستان التى وقعت عليها مسئولية «تنظيم القاعدة» عن ١١ سبتمبر ـ دواءً أو شفاءً لما أحست به الولايات المتحدة فى ذلك اليوم.

٣ـ وذلك يعنى تسوية حساب أفغانستان بما يجعل الميزان متعادلا: ضربة إزاء ضربة ـ لكن الرئيس «بوش» يتطلع إلى ما هو أكثر ـ يريد ما يكفى من الانتصارات حتى يميل الميزان لصالحه على نحو لا يقبل تشكيكا أو «إعادة فرز» للأوراق.

٤ـ ومن حسن الحظ أن المواقع التى تركزت عليها حملات الكراهية الأمريكية كلها «مرهقة ومنهكة» ـ ولذلك فإن الانتصار عليها بأقل التكاليف يعطى «بوش» أمام الرأى العام الأمريكى صورة «السوبر مان» القادر على المعجزات ـ وهو ذاهب إليها لا ينتظر أحدا.

وهنا فإن أمام الساسة العرب فى علاقتهم مع البيت الأبيض مرحلة صعبة: لا تحاسب أحدا على ما فعله أو لم يفعله ـ ما قاله أو لم يقله فى معركة أفغانستان، ولكن التعامل مع كل طرف سوف يكون على أساس ما فعله أو لم يفعله ـ ما قاله أو لم يقله ـ مما يساعد على زيادة فرص الرئيس الأمريكى فى انتخابات المدة الرئاسية الثانية.

وأسرة بوش باختصار لا تريد لابنها أن يدخل التاريخ مثل والده «رئيس ولاية واحدة»، وإنما تريده الأسرة رئيس ولايتين ـ على الأقل مثل «بيل كلينتون»!

وهذا هو مأزق أمريكا وأصدقائها العرب «هذا الشتاء» (الملتهب).



ومع ذلك فإن مناخ العلاقات العربية الأمريكية ينزل فى برودته أحيانا درجة الصقيع.

....

....

[وقد حدث مع السيد ياسر عرفات أنه كان مطروحا من عدة شهور احتمال عقد لقاء بينه وبين الرئيس جورج بوش فى البيت الأبيض بمناسبة زيارة «عرفات» للولايات المتحدة لحضور الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان المفروض أن يكون اللقاء تعبيرا عن معنى التزام الرئيس الأمريكى بما أعلن عنه من اهتمام بالصراع العربى ـ الإسرائيلى، حتى وصل (كما قال) إلى التفكير فى تقديم مشروع تسوية أمريكى ـ كان ينوى إعلانه ـ قبل ١١ سبتمبر.

لكن الرئيس الأمريكى فى لحظة صقيع سياسى، رأى إلغاء اجتماعه فى البيت الأبيض مع رئيس السلطة الوطنية، وحين بدا أن بعض الدول العربية محرجة ـ من إلغاء اجتماع البيت الأبيض المقترح بين بوش وعرفات، وأنها كانت تتمناه ولو كمجاملة تشيع بعض الدفء فى الأجواء ـ أشار المندوب الأمريكى الدائم إلى أنه يمكن للرئيس بوش أن يلتقى بالرئيس عرفات لقاء «مصادفات» فى ممرات الأمم المتحدة حين دخول وخروج الرئيس الأمريكى ووقوفه لبضع دقائق مع عدد من رؤساء الوفود.

و«لقاءات المصادفات» أسلوب يمارس بالتمهيد والتوافق، والغرض منه أن يكون حلا وسطا بين لقاء «بالشكل» وبين اجتماع «للموضوع».

وكان أن أحد رؤساء الوفود العربية أراد أن يتأكد أن «لقاء المصادفات» ـ بين بوش وعرفات ـ له مناسبة على خريطة زيارة الرئيس الأمريكى للأمم المتحدة، حتى لا يحدث خطأ يمكن حسبانه إهانة مقصودة، لكن الوفد الأمريكى رفض أن يعطى التأكيد المطلوب، وكان رد رئيسه: «إن التحديد بالتأكيد على خريطة تواجد الرئيس بوش فى مبنى الأمم المتحدة يرقى إلى مرتبة تحديد موعد، وهذا غير مطروح، ولذلك فإن المصادفات يستحسن تركها للمصادفات»]. ■

....

....

انتخابات الرئاسة الأمريكية
القـادمة تطـارد بـوش مـن الآن
وهو يرى فيها انتصارا كاسحا لا يكرر مهزلة الانتخابات
الأخيـرة ولا يعـرض الفـوز للطعـن
وإعـادة الفـرز مرات ومرات



الإشارة السابعة

ظلام فوق ظلام فى أفغانستان

لندن:

■ إن ما سموه بـ: «الحرب فى أفغانستان» قارب نهايته، لكن البركان سوف يواصل الفوران، وصحيح أن طالبان تبعثرت، لكن طالبان ماتزال حية، وماتزال طرفا فى الاقتتال الأهلى والتناحر الطائفى والقبلى، الذى نزل ظلاما فوق ظلام على أفغانستان، على أن مشكلة طالبان فى كل أحوالها أنها طرف لا يمكن رؤية حساباته، لأن كل حساب لابد له من قواعد يقاس عليها فى زمنه. وقد عاشت طالبان حتى الآن خارج الزمن وليس مؤكدا إذا كانت الكارثة التى حلت بها سوف تعلمها حسابه، وإذا حدث فأمام طالبان أربعة احتمالات:

■ احتمال أن يرى أصحابها أن فرصتهم ضاعت ومن ثم فإنه الوقوع فى الأسر أو الانعطاف إلى النسيان.

■ أو احتمال مواصلة المقاومة عن طريق حرب عصابات تساعد عليها طبيعة أفغانستان الوعرة، وميزة حرب العصابات أنها تحرر طالبان، من مسئولية «المدن» وهى حصار للحركة وارتهان لمطالب كتل ضخمة من السكان فى مدن مثل «مزار شريف» و«كابول» و«جلال أباد»، على أن المتفق عليه أن حرب العصابات لا تؤثر إذا لم يكن وراءها حجم واسع من التأييد الشعبى وفى الغالب فإن ذلك ليس متوفرا لطالبان ولا حتى فى مركز قوتها الرئيسى وهو إقليم «قندهار» وسكانه من «البشتون».

■ والاحتمال الثالث أن تعاود طالبان تأهيل نفسها للاشتراك فى ائتلاف حزبى أفغانى، والمأزق أن الأطراف المرشحين لهذا التحالف الحزبى، غاصوا جميعا فى مستنقع الوحل والدم ـ بحيث لا يستطيع أحد منهم إنقاذ نفسه أو إنقاذ أفغانستان.

■ والاحتمال الرابع أمام طالبان هو «الكمون» فى انتظار أن يتورط غيرهم من أطراف التحالف الشمالى فى تدمير بعضهم البعض فيقوم «ربانى» (الطاجيكى) بمحاولة تصفية «حكمتيار» (البشتونى)، أو يقوم الجنرال «عبد الرشيد دوستم» (الأوزبكى) بالانقضاض على غيره من أمراء الحرب والعلماء والمشايخ، أو أن ينجح الملك

السابق «ظاهر شاه» في إزاحة الجميع ليجد نفسه أمام أفغانستان لم يعرفها من قبل رغم أنه جلس على عرشها أكثر من أربعين سنة!!

وكانت مرحلة ما بعد طالبان هي سؤالى طوال أربع ساعات متواصلة قضيتها في حوار مع الصديق «الأخضر الإبراهيمي» وهو المكلف - باعتباره مساعد الأمين العام للأمم المتحدة والمفوض بقرار من مجلس الأمن - بترتيب مستقبل أفغانستان في مرحلة ما بعد طالبان.

كان الأخضر قادما من باريس ليوم واحد في لندن (قضى صباحه في مقر رئاسة الوزارة البريطانية)، وكان على الطريق إلى نيويورك يقدم أول تقرير إلى السكرتير العام للأمم المتحدة ليعرضه على مجلس الأمن.



وتقابلنا في الساعة السابعة بعد الظهر وافترقنا في الحادية عشرة قبل منتصف الليل.

وكان الأخضر - وهو رجل بطبيعته متفائل - مثقلا طوال ذلك النهار مهموما يتحسب للعمل الذى ينتظره في أفغانستان في مناخ وخضم أزمة خبرها قبل خمس سنوات حين سقطت «حكومة المجاهدين» في كابول، وزحفت «قوات طالبان» تقيم دولتها - إمارة المؤمنين - هناك!

وقال الأخضر في سياق كلامنا الطويل، إنه عندما كُلِّف بالمهمة بادئ الأمر كان تكليفه: «تأمين المعونة الإنسانية للسكان الأفغان - ثم محاولة إنشاء ائتلاف داخلى بين القوى والزعماء يحكم أفغانستان ولو لمرحلة انتقالية».

وكان تقديره من أول لحظة أن التكليف شبه مستحيل، فهو - في الجانب الإنساني - من مهمته يعرف حجم «الشُحْ» في الإمدادات مقابل «وفرة» في عدد المحتاجين - وبينهم ستة ملايين لاجئ - ومع أنه شديد الثقة في فريقه الذى يعمل معه في هذا المجال على الأرض فعلا، فإن الأمر يحتاج إلى تخصيص مائتى باخرة، ومائة طائرة، وخمسة آلاف شاحنة تعمل كلها ليل نهار حتى يمكن تجنب «حالة مجاعة» حقيقية وليست مجازية.

وهو يدرك مقدما أن مجتمع الدول غير مستعد لمثل ذلك الجهد الكثيف مع وجود احتياجات إنسانية كبيرة للمعونة في مناطق أخرى من العالم غير أفغانستان.

وعلى الجانب السياسى من هذه المهمة فهو يعرف زعماء أفغانستان، ويدرك عمق ما بينهم من أحقاد وثارات، لكنه يصلى عسى أن تكون سنوات طالبان قد علمتهم شيئا.

وبرغم أثقال هذين التكليفين الإنسانى والسياسى، فإنه (الأخضر) وجد أن هناك مهمة أخرى مطلوبة منه وهى:

«العمل على بناء نوع من نظام الدولة في أفغانستان».

وهنا يقول الأخضر: «وجدت أن ما هو مطلوب منى ليس «شبه مستحيل» وإنما هو «المعجزة وزيادة»».

والمعجزة أمامها فرصة - فقط - إذا أمكن التزام بعض المبادئ:

أولها: أن أى حل للأزمة لابد أن يكون أفغانيا، حتى يُكتب له الاستمرار بعد توقف النيران.

وثانيها: تقدير أن الدمار الذى حل بأفغانستان دمار ليس له شبيه نعرفه في التاريخ الحديث، فالبلد من الأصل فقير ومعزول، والحرب الأهلية ربع قرن دون توقف لم تترك له شيئا يبنى عليه.

وثالثها: أن مشكلة حفظ الأمن حتى يمكن البدء في أى بناء مشكلة مخيفة، لأن البلد ألف نار السلاح في يده - وتعود سيل الدم أمام عينيه.

ورابعها: أن إقامة نظام دولة أو شبه نظام ليس مسألة كتابة تقارير، وإنما مسألة إرادة أفغانية تعمل بتجرد - ! - وإرادة دولية تساعد بسخاء.

وخامسها: تعاون صادق من دول الجوار الأفغانى وأولها باكستان وإيران.

ويستطرد الأخضر:

«اتفقنا السكرتير العام للأمم المتحدة وأنا على أن أهم ضمانة للنجاح - إذا كانت هناك فرصة - أن يظل دور الأمم المتحدة في أفغانستان مدعوما بتأييد القوى العظمى وخصوصا الولايات المتحدة - ودون تردد أو فتور».

وهو يتذكر أنه في الأزمة الأفغانية الماضية قبل خمس سنوات وحين تعثرت الأزمة على الأرض - تفرقت القوى العظمى واختفت سريعا وراء الأفق الأفغانى.

وهذه المرة لا يجب أن يتكرر ما جرى قبلها.

هناك أيضا أننا نريد أن نضع مسافة بين دور الأمم المتحدة في أفغانستان وبين الأدوار السياسية للقوى العظمى وحتى لغيرها!

سألت الأخضر: هل ذلك ممكن؟

وجاء رده: «لابد أن يكون ممكنا، والحقيقة أننى قبل أيام كنت في البيت الأبيض مع أحد المستشارين الكبار فيه ودخل علينا نائب الرئيس «ديك تشينى» وجلس معنا لنصف ساعة، وطرحت أمامه مخاوفى، وقد أبدى تفهما لضرورة أن يكون عمل الأمم المتحدة في أفغانستان متجاوزا للمطالب السريعة والمناورات السياسية «للدول»».

....

....

وقاربت الساعة منتصف الليل وخرجنا من حيث كنا في حديثنا الطويل إلى رصيف شارع «ابيورى»، ووقفنا وكل منا ينتظر سيارته تحمله إلى حيث يقيم. وكان مطر لندن حفيا بزوارها حتى في هذه الساعة من الليل، وفجأة سألنى الأخضر بلهجته الجزائرية: «جول لى يا خوى»؟ ورددت نفس كلماته باللهجة المصرية بصفة الجواب: «قل لى يا أخى» - واستكمل الأخضر سؤاله:

«ماذا فعلنا بالأمة العربية، وقضاياها، وحاضرها ومستقبلها؟!».

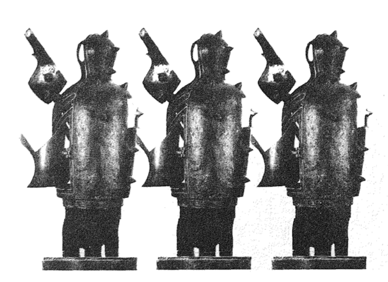
وقلت وكانت سياراتنا قد وصلت إلى حافة رصيف شارع «ابيورى»:

«هل تريد السهر هذه الليلة حتى الفجر؟!».



وأجدنى استغرقت كل المساحة المخصصة لهذا الحديث، وتعطلت أمام الإشارات، لم أصل بعدها إلى الموضوع الذى قصدته من البداية، وهو القول المأثور عن الرئيس «دوايت أيزنهاور» والذى لخص فيه تجربة حياته بقوله «إن السياسات الطيبة لا تضمن النجاح أكيدا، ولكن السياسات السيئة تضمن الفشل محققا»!

وذلك يعنى أن للحديث بقية. ■



حروب قذرة: أمم صغيرة ودول كبرى

وهناك صدامات أخرى متوقعة، على
الحدود بين أرمينيا وجورجيا، وكذلك بين أذربيجان وإيران.
وفى كل أنحاء القوقاز، هناك أدلة على الجريمة المنظمة وغير المنظمة، والحكام المرتشون
المحليون والوطنيون، واستخدام القانون سلاحاً للاضطهاد،
وبيع كل شىء يتصل بالمنصب العام

ظهرت أفغانستان كمملكة مستقلة فى القرن الثامن عشر، وإن كانت حدودها قد تغيرت عدة مرات، كما أنها كانت دائمًا اتحاد القبائل والخانات أكثر مما هى دولة مركزية. وفى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ورغبة من بريطانيا فى إيقاف تقدم روسيا فى قلب آسيا ولحماية حدود الهند الشمالية، خاضت ثلاث حروب مع الأفغان. وقد فشلت فى إخضاعهم ولكنها اكتسبت نفوذًا قويًا على سياستهم الخارجية. وكذلك سعت بريطانيا إلى مواجهة روسيا باستعمار إيران الغنية بالبترول - وهى جائزة أكبر بكثير - ولكنها لم تحقق غير نجاح محدود. وبعد الحرب العالمية الثانية حلت الولايات المتحدة محلها باعتبارها «حاجزًا» ضد تغلغل موسكو فى إيران. وبعد خروج بريطانيا من شبه الجزيرة الهندية فى ١٩٤٧ أصبح الاتحاد السوفيتى المصدر الرئيسى لحصول أفغانستان على المعدات العسكرية والمعونة الاقتصادية، وكذلك بناء المستشفيات والخزانات المائية المولدة للكهرباء وكذلك بناء المطارات العسكرية وأحد الأنفاق الاستراتيجية. وفى منتصف الستينيات ظهر حزب لينينى أفغانى - ولا شك فى أنه كان واحدًا من آخر الأحزاب التى أنشئت فى أى مكان - وفى سنة ١٩٧٨ أدهش هذا الحزب موسكو باستيلائه على السلطة فى كابول. واعترفت المؤسسة السوفيتية بالنظام الثورى الضعيف الذى لم تنشئه ولم تسيطر عليه، ولكن بعد وقوع عدد من عمليات القتل والاضطراب، واجه الكرملين قلقلة متزايدة فى بلد على حدوده وانتابه القلق الشديد من احتمال التغلغل الأمريكى فى تلك الأصقاع. وفى أواخر ١٩٧٩ - وهى سنة الثورة الإسلامية فى إيران التى أسقطت الشاه الذى كانت الـ CIA قد أعادته إلى السلطة فى انقلاب كاد يفشل فى ١٩٥٣ - نظمت المخابرات الروسية حركة بين الجماعات اللينينية الأفغانية، وساندتها بقوة عسكرية كان المقرر أن تبقى فى أفغانستان أشهرًا قليلة أو ربما عامًا، أو عامين على الأكثر. وانقضى عقد كامل من السنين قبل أن تنسحب بقايا هذه القوة عبر ما سمى «كسر الصداقة» إلى طاچيكستان السوفيتية. وبعد ما يزيد قليلاً على عامين انهارت الدولة السوفيتية نفسها.

وسقطت طاچيكستان فى براثن الحرب الأهلية بعد ١٩٩١، وذلك تحت تأثير الصراع عبر هندوكوش، الذى تفاقم بمحاولة الإبقاء على هياكل العصر السوفيتى المحلية، وبدأت الحرب فى أفغانستان تتخذ مكانًا رئيسيًا فى تفسير الانهيار السوفيتى. ولكن كما يقول مارك جاليوتى فى كتابه «أفغانستان: حرب الاتحاد السوفيتى الأخيرة» (١٩٩٥) فإن الاتحاد السوفيتى لم يخسر الحرب، بل يمكن أن يقال إنه لم يخضها. وبينما أرسلت الولايات المتحدة ما يقرب من ٥٥٠ ألف مقاتل إلى فيتنام، لم يرسل الاتحاد السوفيتى فى أى وقت أكثر من ١٢٠ ألف مقاتل فى بلد يبلغ حجمه خمسة أضعاف حجم فيتنام. وكانت القوة التى أرسلها الاتحاد السوفيتى إلى أفغانستان تمثل واحدًا من خمسين من إجمالى القوات المسلحة للكرملين والتى كانت تبلغ ٥,٣ مليون جندى. ولم يشارك فى القتال بالفعل غير ٤٠ فى المائة من القوة السوفيتية، وفقدت عددًا أقل من ١٥ ألف جندى خلال السنوات العشر من الحرب - بالمقارنة بما بين ٣٥ ألفًا و٦٥ ألفًا ماتوا داخل بلدهم فى ظروف تتراوح بين الانتحار والحوادث الخطرة. بل إن عددًا يزيد عن ذلك خمسة أضعاف ماتوا فى عصر برجنيف فى الاتحاد السوفيتى فى حوادث سيارات كل سنة أكثر ممن ماتوا فى القتال فى الحملة الأفغانية بكاملها. ومثلت الحرب أقل من ٢ فى المائة من ميزانية الدفاع السنوية، وبلغ إجمالى تكلفتها على امتداد العقد بكامله ما يساوى دعم سنة واحدة للزراعة السوفيتية (وتلك حرب من نوع آخر).



وبمثل هذه الإحصاءات يقول جاليوتى إن حرب أفغانستان كانت بالنسبة للاتحاد السوفيتى «حربًا صغيرة»، وكانت سندًا سياسيًا للبعض وسوء حظ للآخرين، وأنها كانت فى نهاية الأمر «مجرد رمز آخر لفشل النظام، ينضم إلى مأساة تشرنوبيل، والمحلات الخالية من البضائع، ومليونيرات المافيا». وهو يفند الأسطورة القائلة بأن كل الجنود انغمسوا فى تجارة المخدرات (وأن نسبة ضئيلة فقط هى التى أصابها الإدمان). وبعد أن أكد جاليوتى على دور الفساد السياسى الذى سمح للمحظوظين وذوى الاتصالات بالهرب من واجب الحرب - وأورد المثل الشعبى الروسى الذى يقول «الحياة كتاب، والحرب صفحتان ممزقتان منه» يصب جام غضبه على النظام السوفيتى لأنه أخفى الحقائق الأساسية للصراع حتى عمن كُتب عليهم خوض المعركة.

ويتبين من مذكرات المخابرات السوفيتية التى لم تترجم أن السلطات كانت ضحية لأكاذيبها. وفى كتاب «روكامسكوفسكى» (١٩٩٢) يقول ليونيد سيبارسين وهو من كبار خبراء المخابرات الأمريكية بشأن وسط آسيا، إنه بعد حدوث الانقلاب الشيوعى فى ١٩٧٨ لم يكن فى وسع أحد فى موسكو أن يحصل على معلومات دقيقة عن أفغانستان، وأن يورى أندروبوف رئيس المخابرات السوفيتية فى ذلك الحين وجد نفسه مضطرًا للقيام بزيارات سرية لكابول لجمع المعلومات. وتمكن نيكولاى ليونوف، كبير الباحثين فى المخابرات السوفيتية، من أن يرى بنفسه فى أفغانستان حقيقة الأكاذيب التى كانت ترد فى البرقيات الرسمية والتقارير المرسلة إلى البوليت بيرو «المكتب السياسى»، ويبين فى كتابه «ليخوليتى» (١٩٩٥) كيف أن الجهات السوفيتية المتعددة كانت تتصادم إحداها مع الأخرى، مما خلق فراغًا فى المسئولية استغله المتعاملون معهم من الأفغان الذين كانوا يكذبون طوال الوقت بدورهم. وأضاف أن كثيرًا من السوفييت كانوا يتحدثون عن أفغانستان على أنها «أفغاف نستان» (آف... ستان).

وبالنسبة للشعب الأفغانى لم يكن التدخل السوفيتى مجرد فاترينة تبين التدهور الإمبريالى. فالمقدر أن عددًا يبلغ ١,٣ مليون أفغانى قد قتلوا - أى بمعدل مائة قتيل مقابل القتيل الواحد من الجنود السوفييت. وأن عددًا مماثلاً فقد أحد أطرافه. وأن حوالى خمسة ملايين أفغانى - أى ثلث السكان قبل سنة ١٩٧٩ - دفعوا للإقامة فى مخيمات اللاجئين فى باكستان وإيران المجاورتين. وأن عدة ملايين غيرهم نزحوا فى داخل أفغانستان، واضطروا للنزوح أكثر من مرة. فكيف أمكن لحرب شنت بمثل هذه القوة المحدودة فى بلد بهذا الاتساع أن تحدث هذا القدر الهائل من

1- A Dirty War: A Russian Reporter in Chechnya

(حرب قذرة: صحفى روسى فى الشيشان)

Anna Politkovskaya
Translated by: John Growfoot
Harvill, 2001, 336PP., £ 12.00

2- Small Nations and Great Powers: A Srudy of Ethnopolitical Conflict in the Caucasus

(أمم صغيرة وقوى كبيرة: دراسة للصراع السياسى الإثنى فى القوقاز)

Srante Cornell
Curzon, 2001, 480PP., £ 57.88



أفغانستان .. والشيشان .. والقوقاز

ستيفن كوتكن

الدمار؟ يمكن العثور على إجابة هذا السؤال فى كتاب فرانك كاس المعنون «الدب يعبر الجبل» وهو ترجمة لتقدير عسكرى فنى أعد من أجل الاستهلاك المحلى وبه تعليقات كتبها «ليستر جراو» وهو ضابط متقاعد فى الجيش الأمريكى. وقد ألقى جراو الضوء على أسلوب «المسح» العشوائى الذى قام به السوفييت فى المناطق التى كان يشك فى أنها تؤوى المجاهدين. وكان معظم هذه العمليات يبدأ بحملة واسعة من المدفعية - والتى كانت قذائفها تتساقط على المدنيين، وأصبحت على غير رغبة القائمين بها أداة لتجنيد المؤيدين للقرار. وعندما تصلبت مقاومة المجاهدين لم تواصل القوات السوفيتية حملتها وتفقد أعدادًا كبيرة من الجنود كما فعلت فى الحرب العالمية الثانية بل استعانت برشاشات طائرات الهليكوبتر للقيام بهجمات أخرى عشوائية. وبعبارة أخرى فقد استعاضوا بقوة النيران الهائلة عن القتال المتلاحم. ولم يكن ذلك لأن الضباط كانوا حريصين على سلامة جهودهم، بل لأنهم نادرًا ما كانوا يجدون خيارا آخر، نظرًا لأن المجندين غير المدربين، والذين لا يحصلون على غذاء كاف، والذين انتشرت بينهم الأمراض، كانوا يحجمون عن «الالتحام» مع المقاتلين حسنى التدريب فوق الأرض التى يعرفونها (وإن كانت شجاعة المجاهدين قد بولغ فيها كثيرًا). وليس من الواضح من الكتابات السوفيتية ولا من تعليقات «جراو» أن أفغانستان شهدت حربها الأهلية الخاصة، وأن مجموعات المجاهدين المتضاربة حصلت على أسلحة تبلغ قيمتها مليارات الدولارات وعلى غير ذلك من الدعم من المملكة العربية السعودية ومصر وباكستان والولايات المتحدة. وكان الجميع يمارسون نهب ذلك البلد وسكانه، وتحقق لهم جميعًا نجاح مرموق فى هذا الصدد، ولم تكن أفغانستان - كما تقول الأساطير - مقبرة للامبراطوريات، بل كانت ساحة المآسى المرعبة للمتدخلين من الخارج (ومقبرة لها أيضًا).

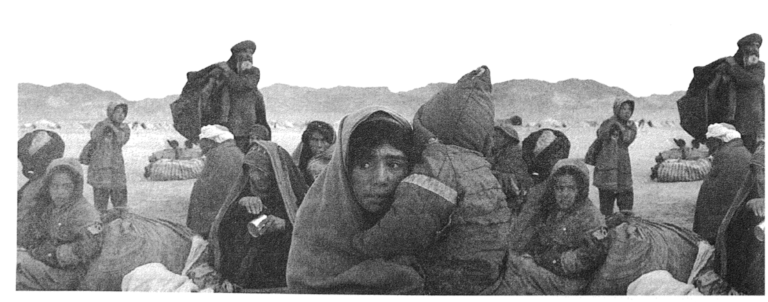


وعلى امتداد العمود الفقرى الصخرى لأوراسيا دارت اللعبة الكبرى للحرب الباردة، بلا ضمير من الجانبين، ولكن بأسلحة فتاكة وآثار بعيدة المدى. ولم يمض وقت طويل بعد انهيار النظام السوفيتى حتى تخلت الدكتاتورية الشيوعية، التى كان لها العديد من المتعاونين معها والمستفيدين من وجودها (على غرار النظام العسكرى الباكستانى الحالى المدجج بالأسلحة) أمام المجاهدين فى ١٩٩٢ الذين كانوا مقاتلين طوال حياتهم ولهم تأييد واسع النطاق، والذين سرعان ما حولوا معاركهم البرية إلى مذابح متبادلة. ويبدو أن الحرب السوفيتية قد وحدت أفغانستان فى مقاومتها ولكن فى الواقع أثارت منذ البداية شعورًا أعمق بالكيان العرقى وانقسامًا أشد بين الأفغان التركستانيين فى الشمال والبشتون الميالين للباكستان فى الجنوب. وشجع ذلك على قيام نزعة إسلامية متطرفة وزعامات حربية متطرفة بدلاً من الحكومة. وساهمت واشنطن فى هذا الصدد بسخاء. فبدلاً من أن تساند مساعى جورباتشوف لإنشاء حكومة ائتلافية وتحرم كل الأطراف من «نصر» وهمى رأى ريجان ومن بعده بوش، بالتواطؤ مع باكستان، منح التأييد لأشد الإسلاميين المتطرفين دموية، للتأكد من أن موسكو سوف تنزف بغزارة وأن «عميلها» فى كابول سيلقى هزيمة كاملة. وفى سبيل ذلك لم تتجاهل الولايات المتحدة فقط مصلحتها الخاصة (الاستقرار الإقليمى) بل تجاهلت أيضًا اتفاقيات جنيف التى وقعتها فى سنة ١٩٨٨. بل بمجرد أن عرض السوفييت الانسحاب وشرعوا فيه شجعت واشنطن على العنف الإسلامى فى أفغانستان، بينما كانت تنفق أموالاً طائلة فى نفس الوقت لمحاربة الإسلام فى إيران وذلك بتسليح عراق صدام حسين مثلاً. وكان ذلك مثالاً واحدًا من التصرفات المحيرة العديدة التى قامت بها دولة عظمى بدون أن يكون لها سياسة شاملة وطويلة الأمد فى الشرق الأوسط. والآن يبدو أن الولايات المتحدة تغازل السلطات الاستبدادية فى آسيا الوسطى - وهى تنويعات من الأنظمة الشبيهة بالنظام السوفيتى التى عملت على إسقاطها فى أفغانستان - كما تغازل موسكو.

أما جماعة طالبان المفككة، فإنها وليدة الأخطاء السوفيتية القاتلة والخداع الأمريكى، والتمويل السعودى ذى الوجهين، وما يسمى المخابرات الباكستانية والإحباط العربى المنتشر إلى جانب سيل من مدافع الكلاشينكوف والألغام الأرضية، وزراعة الهيروين، والأمية، والفوضى، والورع الإسلامى.



وقد دارت المعركة الكبرى الروسية البريطانية الأمريكية بعنف أقل إلى الغرب من بحر قزوين، ولكن هذا الوضع قد يتغير تمامًا كما تتحول الحسابات اليوم فى شرقى ذلك البحر. وكثيرًا ما يشير الباحثون الآن إلى أوجه التشابه بين الشيشان وأفغانستان، سواء فى دوائر الأمن لدى الكرملين وبين الساخطين فى جنوب القوقاز - حيث تظهر آراء متماثلة، قادمة من مواقف متعارضة على خط مستقيم. وقد بدأت حرب روسيا فى الشيشان فى ديسمبر ١٩٩٤ على يد قادة فقدوا أسنانهم فى أفغانستان. وانتهت تلك الحرب بنتيجة ليست قاطعة بعد ٢٠ شهرًا، ولكنها استؤنفت فى أغسطس ١٩٩٩، ومازالت دائرة. وبطبيعة الحال هناك من سيقولون، وأولهم الشيشانيون إن الحرب بدأت فعلاً فى أيام بطرس الأكبر فى سنة ١٧٢٢ عندما قام بمسيرته نحو الجنوب فى القوقاز، بل وعندما قام إيفان الرهيب فى ١٥٥٩ ببناء قلعة تاركى على ضفة نهر سونجا القريب، وأن النزاع استمر منذ ذلك الحين من خلال الثورات وإبعاد المعارضين وحروب الفدائيين التى امتدت من جيل إلى جيل. وهناك آخرون فى مقدمتهم الروس، سيقولون إن «الحرب» بدأت فى الأساس بتهريب الأسلحة والإتجار فى المخدرات وسرقة البترول وانتشار روح العصابات فى السياسة الشيشانية وأراضى شيشانيا فى أوائل تسعينيات القرن الماضى (١٩٩٠). وكلا الرأيين صحيح جزئيًا ولكنه خطأ فى الغالب. فالتاريخ المقرب للعلاقات بين الروس والشيشان لم يجعل من الحتمى وجود «حركة» انفصالية عنيفة، يقودها رجال مجرمون غير مسئولين بل حتى تقودها الجريمة المنظمة الشيشانية (المرتبطة بموسكو) والتى قامت بـ «عملية» عسكرية شنها «قادة» دمويون غير مسئولين. وحتى لو كان الوضع كذلك، ينبغى أن تكون نقطة بدايتنا أن «شيشينيا»، على غير الحال فى أفغانستان، تدخل فى حدود روسيا وفقًا للقانون الدولى المعترف به. والذين يزورون البقايا المحزنة لجروزنى نادرًا ما يواصلون الرحلة إلى قازان التى قهرها إيفان الرهيب وضمها لسلطانه فى ١٥٥٠ والتى أصبحت الآن عاصمة جمهورية تتارستان الروسية. وقد أعلنت تتارستان، شأن شيشنيا، الاستقلال ولكنها بعد التفاوض مع موسكو فضلت بدلاً من ذلك استقلالاً ذاتيًا واسعًا، ونتيجة لذلك أصبحت الصفوة فى تتارستان قادرة على نهب الخزانة العامة





وممارسة الديماجوجية الوطنية التى تحولت إلى فن سياسى رفيع فى كل أنحاء المملكة السوفيتية السابقة، ولكن سكانها ينعمون على الأقل بالسلام، أما فى الشيشان فقط أدت الحرب إلى ازدياد أعمال تربح الصفوة ودمرت كلا من الأرض وحياة الناس. وعندما جاءت فترة السنوات الثلاثة من الهدوء النسبى فى أواخر التسعينيات، والتى بدأت خلالها شيشنيا تشبه أفغانستان فيما بعد التدخل السوفيتى، تبين كيف أن النزعة الانفصالية العسكرية، حتى فى حالة «النصر» هى فى الواقع شكل من أشكال الهزيمة.

وليس من الصعب، إذا حكمنا على أساس الغالبية الساحقة من كتابات المراسلين، تصور أن حرب الشيشان هى نضال من أجل «التحرر الوطنى» من قيود امبراطورية، بالرغم من أن نضال الشيشان هو فى الأساس بين قادة عسكريين يتنافسون على الظهور والسيطرة على معامل تكرير البترول الصغيرة التى يسمونها فى الداخل «وحدات الساموفار» (وقد دمرت كل معامل التكرير القديمة). ومن ناحية أخرى فمن السهل أيضاً، بالاعتماد على تبريرات موسكو، وصف الحرب بأنها موقف ضد الإرهاب «الإسلامى» وضد الإضرار بالاتحاد الروسى، بالرغم من أن دموية موسكو ساعدت على انتشار التطرف الإسلامى فى القوقاز وأضر بالوحدة الوطنية بأكثر مما كان يمكن لانفصال الشيشان أن يحدثه. فكلا الجانبين يؤيد نفس الأيديولوجيا. وقد كتبت آنا بولتكوفسكايا، مؤلفة كتاب «حرب قذرة: مذكرات مراسلة روسية فى «شيشنيا» وجمعت فى مقالاتها التى نشرتها فى جريدة قليلة الانتشار فى موسكو تقول إنه «ليس لدى هذا الجانب أو ذاك أية شفقة على السكان المدنيين، وتقول إن هذا الجانب الثالث المنسى يتوق إلى أبسط شروط الأمن، والعمل، والحياة العائلية، والتوافق العرقى. وتقول إن معظم الشيشانيين يحتقرون دعاة الحرب من بينهم ويحتقرون الروس أيضاً. وهم غير قادرين على فهم ما يدعو لأن تكون النساء والأطفال وكبار السن هم الأهداف الرئيسية للعسكريين الروس ومما يلفت النظر - وكأنما الكرملين لم يقرأ كتاب «الدب يعبر الجبل» - أن «العملية المعادية للإرهاب، أصبحت مرة أخرى حرباً ليست ضد مقاتلين، يصعب الوصول إليهم، بل ضد المواطنين العاديين، مع استخدام قوة النيران بلا تمييز. لقد طلب أحد الضباط الروس من المراسلة الروسية أن تبلغ هذه الرسالة إلى موسكو: إن هذه حرب بلا معنى. وهذه هى الرسالة التى أبلغتها بالفعل فى ريبورتاجها. وبالرغم من أنها لم تصل إلى ما وراء خطوط الشيشان فإنها توضح أنهم هناك أيضاً يحتاجون لأن يستمعوا إلى تلك الرسالة. فرسائلها التى يبرز فيها التفكير المدنى (والتى تمتد من يوليو ١٩٩٩ إلى يناير ٢٠٠١) وهى رسالة لها أهميتها ليس فقط لأنها روسية تسجل الفظائع الروسية - وقد سجنت لفترة (قصيرة) ولكن أيضاً لأنها تعامل المتسلطين والضحايا بنفس الدعوة إلى الرحمة.

وبدلاً من إلقاء اللوم على الجنود الروس غير المنضبطين فإنها تنظر إليهم كبشر، فتقول إنهم يعيشون كالكلاب الضالة - جائعين، قذرين، مرضى ومهجورين - وهم يعيشون عن طريق تهريب الفودكا والأدوية بل وبيع أسلحتهم، أو بقبول الرشاوى فى «نقاط التفتيش» من الأهالى الذين يفترض أنهم يفحصون أمتعتهم. فهؤلاء الجنود المعرضون للقتل، يعيشون على اللحم المحفوظ فى مخازن تنتشر فيها الروائح الكريهة بينما تحاول أمهاتهم سرقة تلك العلب مرة أخرى من القاعدة (تنجح بعض الأمهات فى إخفاء أبنائهن - من وراء القانون - لمنع تجنيدهم فى الجيش منذ البداية). وفى موضع آخر تنتقد الكاتبة دعاية الكرملين، فموسكو تقول إنها تعيد بناء جروزنى، ولكنها لا تفعل. وموسكو تقول إنها نشرت الهدوء والأمن فى تلك المناطق، وهى لم تفعل. وعندما تلمح الكاتبة إلى التشبيه بأعمال النازى، والتى تحدث صدمة لدى قرائها الروس فإنها تصف مستوطنة للاجئين الشيشانيين المعذبين فى انجوشيتيا فتقول «إن كل ما ينقص هذا المعسكر الآن هو الشروع فى إنشاء غرف القتل بالغاز». وهى بهذه العبارات القاسية تحاول أن تحرك مشاعر أبناء وطنها الذين يؤسفهم الوضع ولكنهم غير راغبين فى عمل شىء للتخفيف من معاناة الضحايا، كما أنها توجه النقد لجمعيات حقوق الإنسان فى الغرب التى تصدر بيانات لا نهاية لها ضد الروس ولكنها لا تستجيب للجهود الرامية إلى مساعدة الأشخاص الذين يحتفظ بهم الشيشان كرهائن. وهى توجه انتقاداتها أيضاً إلى المسئولين الروس المرتشين والممتلئين بروح الانتقام. وتقول «إن المغزى المستخلص من هذه القصة أنه ليس للدولة وجود فى روسيا. إن الاتحاد الروسى هو دراسة حالة من العجز المطلق والذى لا رجعة فيه». وفى ردها على ادعاءات بوتين بشأن سحق العصابات وبناء دولة قوية فإنها تدعو إلى وجود رئيس «يحمى الضعفاء - لأن الدولة وفقاً لدستورنا موجودة قبل كل شىء لمصلحة الشعب. وهذا قول ساذج بغير شك، ولكنه صواب.

إن كل مناطق الحرب فى الأراضى السوفيتية السابقة (وهى بالترتيب التصاعدى للعمليات الدموية، أوسينيا الشمالية، وأوسينيا الجنوبية، وانجوسينيا، ومولدوفا، وأبخازيا، وكرباخ، وطاجيكستان، والشيشان) أنتجت فى مجموعها ٢٠٠ ألف وفاة وبين مليونين وثلاثة ملايين من اللاجئين. وهذه أرقام مخيفة ولكنها لا تصل إلى حجم ما شهدته أفغانستان (فضلاً عن الكونغو). وكانت خمس من هذه المنازعات فيما تلى العصر السوفيتى قد وقعت فى القوقاز. ولم يحل أى واحد منها. والحالة الوحيدة التى أسفرت عن معاهدة للسلام - شيشنيا فى ١٩٩٦ - هى الحالة التى تجددت على أوسع نطاق. وهناك صدامات أخرى متوقعة، على الحدود بين أرمينيا وجورجيا، وكذلك بين أذربيجان وإيران. وفى كل أنحاء القوقاز، هناك أدلة على الجريمة المنظمة وغير المنظمة، والحكام المرتشون المحليون والوطنيون، واستخدام القانون سلاحاً للاضطهاد، وبيع كل شىء يتصل بالمنصب العام. فالانتخابات تزيف، إذا أجريت أصلاً، وغالباً تمارس السياسة عن طريق القتل. ويمكن العثور على جيوب للسلام النسبى - فى ظل أنظمة فاسدة - ولكن الأهالى العاديين يعانون حرماناً قاسياً ولا يتمتعون بحقوق المواطنة إلا بصورة اسمية. وأكثر من المناطق السوفيتية السابقة الأخرى، بما فى ذلك المناطق الواقعة فى آسيا الوسطى، يطرح القوقاز لوحة لوجود العصابات فى السلطة، ومعسكرات اللاجئين، وعدم الاعتراف بسلطة الدولة وشلل الاقتصاد.

وهذا الوضع نادراً ما تناوله البحث الجاد، ولكن هذا ما فعله مؤخراً ڤانتى كورنيل فى كتابه «أمم صغيرة ودول عظمى» وهو يستبعد عن حق السخافات المتعلقة بـ«خط الانفصال الحضارى» فروسيا التى تغلب فيها العقيدة الأرثوذكسية الشرقية تؤيد الآچار المسلمين داخل جورجيا الأرثوذكسية الشرقية، والعلاقات بين أرمينيا وجورجيا المسيحيتين متوترة، والعلاقات بين أذربيجان المسلمة وجورجيا علاقات حارة. ويقول إن المفتاح ليس «الحضارات» بل السياسة - المحلية والدولية - وهذا هو السبب فى أن المؤلف يكتب فصولاً مستقلة عن كل من تركيا وإيران وروسيا والولايات المتحدة.



ويشرح المؤلف الصراعات العنصرية التى نتجت عن تصرفات الاتحاد السوفيتى، فبدلاً من تشجيع الاندماج بين الكبرديين والشركس (وكلاهما من الشركسيين) والكاراشاى مع البلكار (الذين يشتركون فى لغة واحدة) أنشأت السلطات السوفيتية جمهوريات مستقلة ذاتياً لكاراشاى والشركس من ناحية والكبرديين والبلكار من ناحية أخرى داخل جمهورية روسيا الاتحادية السوفيتية. كما حرصوا على رسم حدود هذين الكيانين بحيث يضمان الكثيرين من العناصر الروسية فى المناطق المنخفضة. وفى حالة أخرى كانت ابخازيا فى البداية جمهورية اتحادية، ثم انخفض وضعها إلى جمهورية «مستقلة ذاتياً» داخل جورجيا. وكانت بالتحديد هذه الجماعات ذات «الاستقلال الذاتى» التى ألحت فى طلب الاستقلال بما يتعارض مع ما تدعيه العلوم الاجتماعية السائدة من أن منح «الاستقلال الذاتى» يعتبر حلاً لمواجهة الحركات الانفصالية. ولكن المؤلف يرد على هذا الفرض ويطرح رؤيته للامبريالية الروسية بحديثه عن الهوية السوفيتية التى يرى أنها «كانت بالغة الأثر فى تخفيف حدة المنازعات بين شعوب الاتحاد السوفيتى، والحديث الرسمى عن الإخاء والوحدة، وإن لم يزد فى أحيان كثيرة على العبارات الجوفاء، يبدو أنه كان له أثره فى تفكير المواطنين السوفييت.. وقد خفت التوترات ليس بمجرد قمعها بل أيضاً نتيجة لشعور حقيقى بالهوية السوفيتية المشتركة والانتماء على المستوى الشعبى».

ومن الصحيح أن الأبخازيين قبلوا على مضض أن يكونوا كياناً «له استقلاله الذاتى» داخل جورجيا عندما كانت جورجيا داخل الاتحاد السوفيتى، ولكنهم لم يعودوا يقبلون بذلك عندما اختفى الاتحاد. وربما يندهش المراقب الخارجى أيضاً بمدى العمق «السوفيتى» للقوميات القوقازية المختلفة. فقد كان لهم، بعد كل شىء، كيان واضح من خلال الاتحاد السوفيتى وفى داخله.

ويعرض المؤلف بحذر مبادلة تبدو منطقية ولكنها متعذرة سياسياً فى الغالب، بين أرمينيا وأذربيجان بأن يقوم اتحاد فيدرالى غير متماثل فى جورجيا (باعتباره السبيل الوحيد لإعادة سلامتها البرية) وإعادة استقلال الشيشان بوسائل أقل عنفاً. وهو يعترف بأن مشروعية جمهورية الشيشان التى ظهرت سنة ١٩٩١ هى محل اعتراض فى الواقع على أسس سليمة «وإن مصرع أربع نساء بريطانيات فى أواخر ١٩٩٨ كان نكسة خطيرة فى سعى شيشينيا لتحسين صورتها». وهو يرى أن الإسلام «قد يصبح قوة التوحيد» عبر شمال القوقاز (بافتراض أنه لم يعد من الأراضى الروسية) ويضيف «إن كون هذا التطور إيجابياً أو سلبياً يتوقف بطبيعة الحال على نظرة المرء إلى الإسلام السياسى» أو على حقائق الإسلام السياسى. وعلى أى حال فإن الفكرة الأخيرة للمؤلف هى أن «الحق أن تدخل القوى العظمى فى القوقاز من المتوقع أن يستمر وأن يزداد مع ازدياد الأهمية الاستراتيجية للمنطقة.. فالديناميكيات الجيوبوليتكية لا يسهل استبعادها وفى عصر ما بعد الحرب الباردة لم تزدد المعركة الكبرى إلا تعقيداً». ■

كانت القوة التى أرسلها الاتحاد السوفيتى إلى أفغانستان تمثل واحداً من خمسين من إجمالى القوات المسلحة للكرملين والتى كانت تبلغ ٥٫٣ مليون جندى. ولم يشارك فى القتال بالفعل غير ٤٠ فى المائة من القوة السوفيتية، وفقدت عدداً أقل من ١٥ ألف جندى خلال السنوات العشر من الحرب

بترتيب خاص مع:

ترجمة: أسعد حليم

.. وصراع النفط والسياسة في القوقاز

محمد السماك

حكم الروس هذه المناطق حوالي ٣٠٠ سنة، طوال العهدين القيصري والسوفيتي، وأدى حكمهم الذي تميز بالاستبداد وبالاستغلال معًا إلى تراكم ثقافة عدائية عند شعوب المنطقتين



منذ أن بدأت الولايات المتحدة عملياتها العسكرية ضد أفغانستان، ارتفعت علامة استفهام كبيرة حول ما إذا كانت لهذه المبادرة الأمريكية علاقة بالثروة النفطية الضخمة التي تمّ اكتشافها في دول آسيا الوسطى الإسلامية، خاصة في بحر قزوين. فإذا لم تكن أفغانستان منتجة للنفط، فهي يمكن أن تكون ممراً استراتيجياً للنفط القزويني الذي يُعتقد أنه يفوق نفط الخليج حجماً.

تصف الولايات المتحدة منطقة بحر قزوين بأنها «الخليج العربي رقم ٢». وهي كذلك بالفعل. ليس فقط من حيث اكتشاف ثروة ضخمة من النفط والغاز، ولكن من حيث تعقيداتها السياسية الإقليمية وارتباطاتها الدولية المعقدة أيضاً. ودخلت إسرائيل إلى الخليج العربي من بوابة التسويات السياسية العربية - الإسرائيلية. فكانت زيارات شمعون بيريز إلى سلطنة عُمان وقطر عندما كان رئيساً للحكومة. وكان الإعلان عن اتفاق أولي لتصدير الغاز القطري إلى إسرائيل. ودخلت إسرائيل القوقاز من خلال عقد أبرمته مع حكومة كازاخستان يقضي ببناء مصفاة لتكرير النفط تبلغ قيمتها ٤٥ مليون دولار.

العقود التي تبرمها الشركات الغربية سواء لجهة استخراج النفط (من البر والبحر) أو لجهة مدّ خطوط الأنابيب، أو حتى لجهة بناء المصافي تبلغ قيمتها العشرات من مليارات الدولارات. والتنافس الدولي على الحصول على امتيازات الاستثمار وعلى تحديد جغرافية امتداد الأنابيب إلى أوروبا أشبه ما يكون بالوجه الآخر لما حدث في منطقة الخليج العربي من قبل.

كثير من الاضطرابات السياسية التي تشهدها الدول القوقازية يعود إلى الثروة النفطية المكتشفة. وكثير من الاضطرابات في العلاقات بين روسيا والغرب (أوروبا والولايات المتحدة) يعود أيضاً إلى هذه الثروة التي تبدو مثل قرص من العسل تتسارع الأيدي لقطفه. ففي حسابات شركتين غربيتين فقط هما بريتش بتروليوم (البريطانية) وستاتويل (النرويجية) أنهما ستحققان في الثلاثين سنة المقبلة أرباحاً تصل إلى ٨٠ مليار دولار. ويحتاج هذا الربح إلى توظيف ٧,٥ مليار دولار فقط لاستثمار ثلاثة من حقول النفط الأذرية الغنية في بحر قزوين وهي حقول شيراغ وغيوتشلي وآزيري. وقد أبرم عقد بين حكومة أذربيجان وهذه الشركات الغربية في شهر أيلول - سبتمبر ١٩٩٥ بقيمة ٤ مليارات دولار لاستثمار النفط في الحقول الثلاثة.



إضافة إلى ذلك تقدر الشركات الغربية أن أرباحها من استثمار حقل النفط والغاز التابع لمنطقة ناكورني كاراباخ (التي أعلنت استقلالها بعد حرب أذرية - أرمنية طويلة بسبب الاختلاف حول السيادة عليها) قد تصل إلى ١٢ مليار دولار مقابل استثمار ٤ مليارات دولار فقط. ذلك أن هذا الحقل يحتوي على مخزون يقدر بحوالي ٨٥ مليون طن من النفط وأكثر من ١٠ مليارات متر مكعب من الغاز. يضاف إلى ذلك حقل شاه دنيز الذي يقدر مخزونه بحوالي ١٠٠ مليون طن من النفط و٤٠٠ مليار متر مكعب من الغاز.

يمتاز الخليج العربي عن القوقاز بموقعه الجغرافي. فالناقلات تربط بين الدول المنتجة في الخليج والدول المستهلكة في أوروبا والولايات المتحدة واليابان وغيرها مباشرة عبر الطرق البحرية المفتوحة. كذلك يمتاز الخليج العربي بأن العلاقات بين دول مجلس التعاون تتسم بروح أخوية (قومية ودينية) أمكن معها بناء سياسة نفطية مشتركة أدت إلى الاستقرار الذي تتمتع به المنطقة، وبالتالي إلى نموّها وازدهارها.

أما في القوقاز (الخليج العربي رقم ٢) فإن الوضع مختلف جغرافياً كما أن بنية العلاقات بين دوله مختلفة أيضاً. فعلى الصعيد الجغرافي فإن بحر قزوين هو بحر أو بحيرة مغلقة وبالتالي يستحيل نقل ثروته من النفط والغاز بواسطة الناقلات عبر الطرق البحرية. ثم إن المنطقة المحيطة به منطقة جبلية مرتفعة ووعرة. وهي أشد وعورة سياسياً. ذلك أن العلاقات بين دولها تتسم بالعداء الذي تضرب جذوره في أعماق التاريخ. من مظاهر هذا العداء:

- الحرب بين أذربيجان وأرمينيا (حول السيادة على إقليم ناكورني كاراباخ).
- الصراع بين أذربيجان وإيران (أذربيجان دولة شيعية في معظمها ولكن قوميتها تركية).
- الصراع بين أرمينيا وتركيا (اتهام تركيا العثمانية بارتكاب مجازر ضد الأرمن في مطلع القرن الماضي).
- الصراع بين روسيا وجورجيا (المحاولات المتكررة لاغتيال الرئيس الجورجي إدوارد شيفرنادزه آخر وزير للخارجية في الاتحاد السوفيتي المنهار).
- حرب الشيشان ضد الهيمنة الروسية.

تعني هذه الوقائع أنه إذا كان من السهولة تصدير نفط الخليج العربي إلى أسواقه الاستهلاكية في العالم، فإن النفط القوقازي يواجه مصاعب سياسية وجغرافية طبيعية بالغة التعقيد. ذلك أنه لابد من أن يتم النقل عبر الأنابيب. ولابد لهذه الأنابيب من أن تمر عبر عدة دول تواجه أنواعاً مختلفة من الصراعات القومية أو الدينية أو الاثنتين معاً.

ولولا إغراءات الربح لما تزاحمت الشركات الغربية على توظيف عشرات من مليارات الدولارات في استثمار نفط القوقاز.

وكما هو الوضع في الخليج العربي كذلك، توجد عدة دول حول بحر قزوين هي تركمانستان وكازاخستان وأذربيجان و«ناكورني كاراباخ» إضافة إلى روسيا.

وتشاء الأقدار أن تتجمع الثروة النفطية في القسم الجنوبي من البحر بعيداً جداً عن الشاطئ الروسي. ولكن إذا كانت الطبيعة حرمت روسيا من نفط بحر قزوين فإن السياسة المدعومة بالقوة العسكرية عوضت عليها (لابد هنا من الإشارة إلى أن ثروة روسيا من النفط والغاز متجمعة في سيبيريا في أقصى الشمال). وبحكم هذه القوة السياسية - العسكرية تحاول روسيا أن تملي سير خط أنابيب النفط. فأثناء زيارة رسمية سريعة قام بها الرئيس الروسي السابق بوريس يلتسين إلى الماتا - عاصمة كازاخستان - تم التوقيع على بروتوكول لتمويل مد خط أنابيب من بحر قزوين إلى البحر الأسود. وقع على الاتفاق ثلاث دول هي روسيا وكازاخستان وعُمان، إضافة إلى ست شركات نفط غربية وشركتين روسيتين. تبلغ نفقات الخط ما بين ١,٢ و١,٥ مليار دولار، ويستغرق إنشاؤه مدة عامين ونصف العام تقريباً. وعندما يصبح جاهزا سوف يستخدم أساساً لنقل نفط حقل «تانجيز» في كازاخستان إلى الشاطئ الروسي على البحر الأسود. ويقدر احتياطي حقل «تانجيز» ما بين ٦ و٩ مليارات برميل!!

بموجب البروتوكول الجديد تحتفظ روسيا بـ٢٤ بالمائة من الأسهم بينما تحتفظ كازاخستان بـ١٩ بالمائة، وعُمان بـ٧ بالمائة (المجموعة ٥٠ بالمائة). أما النصف الثاني من الأسهم فتتوزعه الشركات الثماني مقابل تمويل تكاليف مد خط الأنابيب.

أما استثمار حقل تانجيز فتتولاه عدة شركات بكلفة قد تصل إلى ٢٠ مليار دولار. وتحتفظ شركة شيفرون الأمريكية وحدها بخمسين بالمائة من عقد الاستثمار، وموبيل بخمسة وعشرين بالمائة.

جاء بروتوكول الماتا ليحسم جدلاً سياسياً طويلاً حول أي اتجاه يمكن أن يسلكه خط الأنابيب المزمع إنشاؤه في ضوء الحروب والصراعات الحادة المتأججة في المنطقة. فالخط الذي أقر في البروتوكول ينطلق من تانجيز (شمال شرق قزوين) إلى كومسومولسك الروسية (شمال غرب قزوين) ومنها إلى نوفوروسيسك الروسية على البحر الأسود. وبموجب البروتوكول أيضاً سيتم مد خط يربط بين «تانجيز» وكراسنوفوسك التركمانية (جنوب شرق قزوين) وبذلك يمكن ضخ نفط تركمانستان وكازاخستان إلى البحر الأسود ومن ثم تحمله الشاحنات بحراً إلى العالم عبر البوسفور والدردنيل فإيجه والمتوسط إلى أوروبا وأمريكا وبقية الأسواق العالمية.

ولكن هذا الخط إذا كان يحل مشكلة تصدير نفط هاتين الدولتين القوقازيتين فإنه يبقى بعيداً عن معالجة مشاكل حقول النفط الأخرى خاصة تلك التي تملكها أذربيجان.

كانت تركيا تأمل في أن تصبح الممر الوحيد للنفط القوقازي وذلك اعتماداً على علاقاتها القومية واللغوية وحتى الدينية بدول المنطقة. وكذلك اعتماداً على ثقة الغرب بها باعتبارها عضواً في حلف شمال الأطلسي. وفوق ذلك كله، اعتماداً على أن الطرق الأخرى الممكنة، وإن كانت أقل كلفة، فهي سياسياً أشد خطراً. أدت هذه الطموحات التركية إلى اضطراب حاد في العلاقات بين أنقرة وموسكو. وأدت إلى الانقلاب العسكري الدموي في أذربيجان الذي أطاح برجل تركيا (أتاتورك الصغير كما كان يلقب نفسه)، ووصول حيدر علييف الرئيس الحالي إلى السلطة. كما أدت إلى الحرب الأذرية - الأرمنية حول ناكورني كاراباخ ووقوف روسيا إلى جانب أرمينيا إلى أن تمكنت - موسكو - من إعادة السيطرة على باكو - عاصمة أذربيجان - وأدت كذلك إلى تفاهم تركي - جورجي دفع ثمنه الرئيس إدوارد شيفرنادزه محاولة اغتيال كادت تقطعه إرباً.

يبلغ طول مشروع خط الأنابيب الذي يربط باكو في أذربيجان بمدينة باتومي الجيورجية على البحر الأسود ٩٢٠ كيلومترا (منها ٤٤٠ كيلومترا داخل أراضي جورجيا) وتبلغ نفقاته ٢٥٠ مليون دولار فقط. وتعارض روسيا هذا المشروع رغم دعوة شركة «لوكيل» الروسية للمساهمة فيه بنسبة عشرة بالمائة. ذلك أن وراء المعارضة الروسية أسباباً سياسية وليست استثمارية. فالكرملين يريد أن يمر كل نفط بحر قزوين والقوقاز عبر أراضيه، وأن يصدر هذا النفط من المرفأ الروسي على البحر الأسود، حتى تبقى لروسيا هالتها ودالتها على دول المنطقة المنتجة.

تعني المعارضة الروسية هذه استمرار تشغيل خط الأنابيب الروسي القائم حالياً (منذ العهد السوفياتي) والممتد من باكو إلى نوفوروسيسك على البحر الأسود. ويمر هذا الخط عبر جمهورية الشيشان التي تناضل من أجل الاستقلال عن روسيا. وربما يكون العنف الروسي ضد الثورة الاستقلالية الشيشانية سببه الحرص على إخضاع الشيشانيين لإبقاء هذا

الخط ساكنا وآمنا. وتوجه روسيا الاتهامات إلى تركيا بأنها ترسل الأسلحة والذخيرة والمتطوعين المسلمين إلى الشيشان ليس حباً بهم وباستقلالهم بل رداً على معارضة موسكو مد خط أنابيب النفط من باكو إلى سيهان التركية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط (شمال لواء الإسكندرون حيث يصل خط الأنابيب القادم من العراق).

لذلك تخطط روسيا لمد خط فرعي للأنابيب يجنّبها حتمية المرور داخل الأراضي الشيشانية يربط بين باكو وكومسومولسك (في محاذاة الحدود الشرقية للشيشان) ومنها إلى نوفوروسيسك على البحر الأسود. غير أن تحقيق هذا المشروع لا يعني فقط الاستغناء عن الشيشان بل ربما يعني التخلي عنها أيضاً. ولاشك في أن حصول الشيشان على الاستقلال يشكل حافزاً مشجعاً لبقية شعوب المنطقة في القوقاز التي تتطلع للتحرر من السيطرة الروسية.

بالمقابل، توجه تركيا الاتهامات إلى روسيا بأنها تحرِّض الأكراد الأتراك على التمرد وعلى العصيان المسلّح للإيحاء إلى شركة النفط الغربية بأن طريق الأنابيب عبر تركيا غير آمن، وأن مستقبل تركيا كلها غير مستقر، لحث الولايات المتحدة وأوروبا على عدم اختيار الطريق الغربي لخط الأنابيب. وتصل الاتهامات التركية حتى إلى سورية نفسها بأنها متحالفة مع روسيا في مساعدة الأكراد مقابل مصالح روسية - سورية ثنائية. وإذا كان بروتوكول الماتا يعني شيئاً فهو يشير إلى تغليب وجهة النظر الروسية حتى الآن على الأقل.

يبقى هناك احتمالان آخران لمد خط للأنابيب من القوقاز: الأول جنوباً باتجاه إيران. وهنا توفر روسيا على نفسها عبء معارضته، تاركة مسئولية ذلك على عاتق الولايات المتحدة وشركات النفط الغربية التي لا تبدي أي ثقة بإيران وبمستقبل العلاقات معها. أما الاحتمال الثاني فهو التوجه شرقاً أي إلى شرق آسيا المتعطشة للنفط. ويبلغ طول المسافة من القوقاز إلى هذه المناطق حوالي ١١ ألف كيلومتر (٦٨٠٠ ميل). وهي مسافة طويلة جداً. وتمرّ عبر مناطق جغرافية ذات تضاريس صعبة مما يجعل النفقات باهظة وبالتالي يجرد المشروع من جدواه الاقتصادية.

من الشيشان، إلى ناكورني كاراباخ، ومن ديار بكر (حيث التمرد الكردي) إلى جورجيا تتفجر الصراعات مثل قنابل موقوتة على طول طرق الأنابيب وحقول الإنتاج. لقد أنعم الله بالنفط على دول القوقاز، وهي دول فقيرة امتصّ خيراتها الاستعمار القيصري الروسي ثم الشيوعي حوالي ٣٠٠ سنة، فهل ستمنح الفرصة لاستثمار هذه النعمة؟



قبل أن تأخذ حدود الجغرافيا السياسية مواقعها الثابتة على خريطة آسيا الوسطى

والقوقاز تتركز أنظار العالم أكثر وأكثر على خطوط أنابيب النفط. فالخطوط، وليس الحدود، هي التي ترسم مستقبل هاتين المنطقتين من العالم الإسلامي، وتحدد الإطار العام للعلاقات بين دولهما، ولعلاقاتهما مع كل من الاتحاد الروسي والاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة الأمريكية.

تلعب عدة عوامل في رسم خريطة أنابيب النفط:

العامل الأول: هو التوجه الروسي لإعادة إحياء أمجاد الاتحاد السوفيتي المنقرض: الحزب الشيوعي يسعى إلى إعادة عقارب الساعة السوفيتية إلى ما قبل عام ١٩٨٩، وحتى إلى ما قبل تسلم غورباتشوف السلطة في الكرملين. أما الرئيس الحالي بوتين ومعه جنرالات الجيش الروسي، فإنه تبني شعار إعادة احتواء «الخارج القريب»، بمعنى إعادة ربط الدول التي استقلت عن الكرملين بالأمن الاستراتيجي للكرملين سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا ونفطيًا أيضًا.

ولكن بعد الحرب الأمريكية على أفغانستان في أعقاب العمل الإرهابي الذي استهدف الولايات المتحدة يوم الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، وبعد هيمنة الشركات الأمريكية على امتيازات استثمار النفط في القوقاز، فإن من المشكوك فيه أن يتمكن الرئيس بوتين من تحقيق أهدافه. فقد رفض مبدأ السماح للقوات الأمريكية بالعمل ضد أفغانستان انطلاقًا من دول آسيا الوسطى، ولكنه اضطر إلى التراجع عن هذا الموقف تحت الضغط الأمريكي. فأصبحت القوات الأمريكية متواجدة في غرب روسيا (من خلال توسع حلف شمال الأطلسي) وفي شرقها (من خلال تواجد قواتها في طاجكستان وأوزبكستان).

العامل الثاني: هو التنوع الإثني في كل من آسيا الوسطى والقوقاز، صحيح أن الأكثرية المطلقة للسكان من المسلمين، إلا أن ثمة قوميات عديدة. حكم الروس هذه المناطق حوالي ٣٠٠ سنة، طوال العهدين القيصري والسوفيتي، وأدى حكمهم الذي تميز بالاستبداد وبالاستغلال معًا إلى تراكم ثقافة عدائية عند شعوب المنطقتين. الآن أصبح الروس أقلية إثنية ودينية، الأمر الذي يثير فيهم المخاوف من المستقبل. ضاعفت من هذه المخاوف الحرب في الشيشان وما رافقها من عمليات عسكرية لقمع الثورة الاستقلالية ارتُكبت فيها انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان، كما ضاعف منها الموقف الروسي المتعاطف مع الصرب في البوسنة وكوسفو حيث جرت أبشع جرائم في القرن العشرين ضد المسلمين البوسنيين والكوسوفار الذين احتموا في المناطق التي أعلنتها الأمم المتحدة مناطق آمنة فحولتها القوات الصربية إلى مقابر جماعية.

اتخذ الكرملين في العهد القيصري، وفي العهد الشيوعي، والآن في عهد ما بعد الشيوعية مواقف ضد الشعوب الإسلامية في تاتاريا والشيشان، وفي أذربيجان وتركمانستان وحتى شمال منغوليا. إن الذاكرة الإسلامية حافلة بسجل طويل من الصراعات الدامية التي نكأتها من جديد مواقف الكرملين في القوقاز والبلقان.

أما العامل الثالث: فهو الصراعات الإقليمية التي تفيد منها روسيا بشكل غير مباشر، كالصراع بين أذربيجان وأرمينيا وبين إيران وأذربيجان. والانقسام الدموي الذي تحول إلى حرب أهلية في طاجكستان، والخلاف الذي لا يزال جمرًا تحت الرماد بين طاجكستان وكازاخسان حول إقليم سمرقند!!

إن اكتشاف ثروة ضخمة من النفط كاف وحده لإثارة صراعات حول عائدات هذه الثروة وكيفية استثمارها، فالدول الثلاث المحيطة ببحر قزوين وهي كازاخستان وتركمانستان وأذربيجان تملك الآن مخزونًا ثابتًا من النفط يقدر بحوالي ٤٠ مليار برميل، ويُعتقد أن المنطقة أكثر غنى، حتى أن خبراء النفط الغربيين يعتقدون بإمكانية اكتشاف المزيد من المخزون المؤكد بحيث يصل إلى حوالي ٢٠٠ مليار برميل.

أشرنا في الحلقة السابقة إلى أن بحر أو بحيرة قزوين يقع وسط منطقة جغرافية تحيط بها سلسلة من الجبال المرتفعة والوعرة، الأمر الذي يجعل من عملية مد أنابيب النفط عملية معقدة فنيًا، ومكلفة ماليًا فوق صعوباتها السياسية.

يحتاج العالم إلى المزيد من النفط تبعًا لزيادة نسبة الاستهلاك. فالصين وحدها التي يزيد عدد سكانها على مليار و٢٠٠ مليون نسمة يرتفع استهلاكها من النفط بنسبة خمسة بالمائة سنويًا، وكذلك الأمر بالنسبة للعديد من دول جنوب شرق آسيا التي تُلقّب بالنمور الآسيوية وهي كوريا الجنوبية وأندونيسيا وماليزيا وسنغافورة إضافة إلى اليابان، كذلك فإن الإنتاج الأمريكي من النفط في تراجع، وتتجه الولايات المتحدة إلى زيادة كميات احتياطيها الاستراتيجي ليس فقط بتخفيض الإنتاج، إنما بزيادة الاستيراد أيضًا، ولذلك تبدي اهتمامًا متزايدًا بنفط الخليج العربي حيث يقدر حجم المخزون الطبيعي في الكويت وحدها بحوالي ٩٧ مليار برميل، وتحرص الولايات المتحدة على إبقاء الحصار على العراق - وحتى على إيران ولو بنسبة أقل - إلى أن تتمكن من بسط سيطرتها على ثرواته النفطية الضخمة (حقول الرميلة في الجنوب، وحقول كركوك في الشمال). من أجل ذلك تتوجه الشركات الأمريكية بدعم سياسي من البيت الأبيض للاستثمار في دول آسيا الوسطى والقوقاز.





التنافس الدولي على الحصول على امتيازات الاستثمار وعلى تحديد جغرافية امتداد الأنابيب إلى أوروبا أشبه ما يكون بالوجه الآخر لما حدث في منطقة الخليج العربي من قبل.. كثير من الاضطرابات السياسية التي تشهدها الدول القوقازية يعود إلى الثروة النفطية المكتشفة





ليس اكتشاف النفط في هذه المنطقة من العالم الإسلامي بأمر جديد، فأثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) جرى صراع على نفط أذربيجان بين ألمانيا وتركيا من جهة، وبريطانيا وروسيا من جهة ثانية. وأثناء الحرب العالمية الثانية حاولت ألمانيا الهتلرية احتلال أذربيجان والسيطرة على منابع النفط في قزوين الغربية من العاصمة باكو، ولكن الروس وحلفاءهم كمنوا للألمان في جبال القوقاز الوعرة وأفسدوا عليهم خطتهم، ولو تمكن هتلر من السيطرة على أذربيجان ومن مد خط للأنابيب إلى المصافي الألمانية في المناطق المحتلة من أوروبا الشرقية لتغير بالتأكيد مجرى الحرب، ولتغير بالتالي تاريخ العالم!!

ولهذا السبب يشكل الاتفاق الروسي - الكازاخستاني (الذي وقعه الرئيسان بوريس يلتسين ونور سلطان ناظر بايف) عنوانًا جديدًا للصراع حول النفط القوقازي الشهي، فالاتفاق يعيد ربط كازاخستان

من الشيشان، إلى ناكورنى كاراباخ، ومن ديار بكر (حيث التمرد الكردى) إلى جورجيا تتفجر الصراعات مثل قنابل موقوتة على طول طرق الأنابيب وحقول الإنتـــاج. لقد أنعم الله بالنفط على دول القوقاز، وهى دول فقيرة امتـصّ خيراتها الاستـــعمار القيصرى الروسى ثم الشيوعى حوالى ٣٠٠ سنة، فهل ستمنح الفرصة لاستثمار هذه النعمة؟

وتركمانستان، وهما من أكبر الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى، بالاتحاد الروسى من جديد، ذلك أن من يملك أنابيب النفط يملك مفتاح ضخ النفط أو وقفه، وهو مفتاح سياسى من شأنه تطويع الدول المنتجة.. كما أنه مفتاح مالى من شأنه ابتزاز الدول المنتجة والمستهلكة معًا.

ثم إن حصر ضخّ النفط القوقازى عبر أنابيب روسية تمر عبر الأراضى الروسية كما أشرنا فى الحلقة السابقة، يجعل الكرملين وحده صاحب القرار لتحديد كميات النفط التى يسمح بضخها. فروسيا هى دولة منتجة للنفط وللغاز (من حقول سيبيريا)، فإذا وجدت أن مصلحتها فى زيادة إنتاجها فإنها لن تتردد فى تقليل حجم الصادرات القوقازية (الأذرية - الكازاخستانية - التركمانية).

وفى الواقع فإن مشروع خط الأنابيب الجديد الذى سيتم بناؤه وفقًا لاتفاق ٢٧ أبريل - نيسان ١٩٩٦، يلحظ بناء خط داخل روسيا يخصص لنقل النفط الروسى، ويمتد من بنكهورتسك إلى نوفوروسيسك، مما يساعد روسيا على تصدير نفطها. وليس باستطاعة روسيا تمويل هذا المشروع دون مساهمة دولية تم توفيرها من خلال المشروع الذى يستهدف تأمين وصول النفط الكازاخستانى من حقل «تانجيز» فى الدرجة الأولى!!

ومن المؤسف أن هذه الدول الإسلامية مغلوبة على أمرها. فهى لاتزال تعتمد حتى الآن على روسيا مباشرة وغير مباشرة فى الاستيراد والتصدير التجاريين، ثم إنها تتعرض باستمرار للابتزاز من خلال تخويفها باعتبار بحر قزوين بحيرة (لأنه بحر مغلق). وبموجب ذلك تصبح الثروة النفطية ملكًا مشتركًا لكل الدول التى لها حدود مع «البحيرة»، وليس فقط للدول التى يُكتَشف النفط فى مياهها الإقليمية، إذا كان بحرًا. وتدرك هذه الدول الإسلامية كذلك من خلال تجاربها الصراعية التاريخية مع روسيا القديمة والحديثة - إن الكرملين لن يتردد فى استخدام تفوقه العسكرى لإملاء شروطه، كما يجرى فى الشيشان مثلاً أو كما يحدث فى طاجكستان من عمليات عسكرية لقمع الثورة الأهلية ضد الحكومة المحلية المرتبطة بموسكو.

وهكذا تراجعت تركمانستان عن مشروع بكلفة ٨ مليارات دولار لاستثمار نفطها وغازها ولمد خط أنابيب يتجه جنوبًا عبر إيران وتركيا، وبدلاً من ذلك عقدت اتفاقًا مع شركة «غاز بروم» الروسية. وبموجب ذلك سيتم مد خط فرعى يربط بين الحقول التركمانية ومحطة الضخ فى «تانجيز» فى كازاخستان، ومن ثم يضخ النفط عبر الخط الجديد المتفق عليه مع كازاخستان والذى يمر عبر الأراضى الروسية كليًا إلى مرفا نوفوروسيسك الروسى على البحر الأسود.

وبموجب ذلك أيضًا، وافقت أذربيجان - التى عقدت فى أيلول - سبتمبر ١٩٩٤ - اتفاقًا بقيمة ٨ مليارات دولار مع كونسورتيوم من عدة شركات غربية لاستثمار ثلاثة حقول قرب باكو - العاصمة - على ضخ نفطها عبر خطين للأنابيب، الأول شمالاً عبر روسيا فالبحر الأسود. والثانى غربًا عبر جورجيا فالبحر الأسود (مرفأ سوبا). ورغم سوء العلاقات بين جورجيا وروسيا، فإن الكرملين لايزال يتمتع بنفوذ عسكرى ومعنوى قوى فى تبليسى، ثم إن جورجيا بلغت درجة من الفقر بحيث إنها لا تستطيع أن تساهم بنفقات مد خط الأنابيب عبر أراضيها.

وكانت تركيا، اعتمادًا على علاقاتها القومية والدينية بدول آسيا الوسطى والقوقاز، تمنى النفس بأن تحصل على حصة الأسد من عائدات النفط هذه، ولكن منذ الإطاحة فى نيسان - أبريل١٩٩٣، بالرئيس السابق أبو الفضل الشيبى فى انقلاب عسكرى، لا يبدو أنها ستحصل حتى على خط أنابيب ينقل نفط أذربيجان إلى مدينة جيهان التركية على البحر الأبيض المتوسط (رغم تعاطف الولايات المتحدة مع هذا المشروع). وكل ما تخشى تركيا أن تحصل عليه هو الكابوس اليومى باحتمال تسرب النفط الخام فى مضيق البوسفور والدردنيل والذى تحمله الشاحنات من المرفأ الروسى فى البحر الأسود عبر المضيق إلى البحر المتوسط فالأسواق العالمية. ذلك أن زيادة الإنتاج تعنى حكمًا زيادة عدد الشاحنات، وبالتالى زيادة احتمالات التسرب على النحو المأساوى الخطير الذى حدث فى آذار - مارس - من عام ١٩٩٤.

وهكذا تتضافر عوامل الجغرافيا (الطبيعية) وعوامل التاريخ (الإنسانى) فى خلق ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد تنتصب بين النفط القوقازى وأسواقه المتعطشة إليه، ومهما يكن من أمر فإن استثمار هذا النفط سيبدل المعادلات التسويقية والتسعيرية والإنتاجية التى فرضتها منظمة أوبيك منذ أواسط السبعينيات (١٩٧٣) حتى الآن، بل ربما أدى إلى إيجاد أوبيك أكثر شمولية.. أو أقل تحررًا من هيمنة شركات النفط الكبرى!

هل قزوين بحر أم بحيرة؟

الجواب عن هذا السؤال يقرر مستقبل الملايين من الناس، فقد تنشب بسببه حرب أو حروب.. أو قد يعم السلام والرخاء.

فى قزوين ثروة نفطية تقدر بحوالى ٢٠٠ مليار برميل، فإذا كان قزوين بحيرة فإن الدول المشاطئة له تتمتع بحقوق متساوية فى هذه الثروة أيًا كان موقعها من الآبار المكتشفة. بمعنى أن الثروة النفطية تصبح ملكًا مشتركًا بين هذه الدول، وهى إيران، أذربيجان، روسيا، كازاخستان وتركمانستان.. أما إذا كان قزوين بحرًا، عند ذلك تُرسم الحدود البحرية للدول المشاطئة بموجب القانون الدولى، وكل ثروة نفطية يعثر عليها فى المياه الإقليمية التابعة لكل دولة تصبح بكاملها حقًا وطنيًا لها وحدها.

فى نظر إيران وروسيا (وهما الدولتان الوحيدتان اللتان تملكان قوة بحرية فى قزوين) وتركمانستان، أن قزوين بحيرة. ولذلك تدعو هذه الدول الثلاث إلى استثمار مشترك لثروته من النفط والغاز، أما أذربيجان وكازاخستان فتعتبرانه بحرًا، لذلك اتفقتا على رسم حدودهما البحرية المتقابلة. وعقدت كل منهما اتفاقات مع شركات نفط دولية للتنقيب والاستثمار داخل هذه الحدود. وبموجب هذا التخطيط يقع حقل النفط «الوف» الغنى جدًا فى القسم الجنوبى من المياه الإقليمية لأذربيجان، أى قريبًا من مياه إيران الإقليمية. وتتولى شركة بريطانية استثماره بموجب اتفاق عقدته مع حكومة باكو.

انتقلت المعارضة الإيرانية لهذا الاتفاق من الاحتجاج الدبلوماسى (سحب السفير) إلى القيام بمظاهرة مسلحة فى منطقة عمل الشركة البريطانية مما حملها على التوقف.

لا يقتصر الخلاف الإيرانى - الأذرى على حقل «الوف»، ولكنه يتجاوز قضية تحديد الحدود فى قزوين بحرًا أو بحيرة إلى رسم الحدود على اليابسة. فإيران تعتبر كل أذربيجان تاريخيًا جزءًا منها. وبالفعل فإن الأذريين يعتنقون المذهب الشيعى، إلا أنهم فى الوقت نفسه يتحدثون بلغة تركية ويعتبرون أنفسهم من أصول تركية. وبالتالى فإن الأذريين يتطلعون إلى شمال إيران المتاخم لقزوين على أنه جزء من بلادهم.

من هنا خطورة الحركة الانفصالية (؟) التى ظهرت فجأة فى هذه المناطق من إيران حيث ارتفعت مطالب محلية تطالب بالاعتراف باللغة الأذرية لغة رسمية فيها إلى جانب اللغة الفارسية.

وتشعر أذربيجان أنها واقعة تحت ضغط كماشة تفاهم روسى (من الشمال) إيرانى (من الجنوب)، فروسيا تتهم أذربيجان بأنها توفر للثوار الشيشانيين الدعم والملجأ. وتتهمها إيران بأنها وراء التحريض على الانفصال اللغوى - القومى.

وتعتقد أذربيجان أن هذا التفاهم الروسى - الإيرانى كان السبب المباشر وراء خسارتها معركة ناكورنى كاراباخ - وهو جيب أرمنى فى وسطها - لمصلحة أرمينيا. ومن الواضح أن العلاقات الإيرانية - الأرمنية تتسم بالصداقة الحارة وبالتعاون فى كافة المجالات، بينما تخضع العلاقات الإيرانية - الأذرية إلى اتهامات متبادلة بالتآمر والتخريب.

ويقف الغرب (أوروبا والولايات المتحدة) إلى جانب المحور الأذرى - الكازاخستانى. ليس فقط لأن للغرب مصالح استثمارية كبيرة فى الدولتين، ولكن لأن مصالحه الاستراتيجية تقتضى من جهة أولى الضغط على روسيا بحرمانها من ثروة قزوين ومن الهيمنة على الدول المنتجة للنفط والغاز فى آسيا الوسطى، وتقتضى من جهة ثانية، عزل إيران بإثارة الخلافات مع جيرانها من الخليج إلى قزوين، وبتوجيه مد خطوط النفط والغاز من قزوين شرقًا إلى تركيا بدلاً من توجيهها جنوبًا إلى الخليج عبر إيران، حتى ولو كان ذلك أكثر كلفة وأعقد تنفيذًا.

من أجل ذلك تضطهد حكومة باكو الحركات الإسلامية الوطنية وتعتبرها مجرد أدوات بيد إيران. وفى الوقت نفسه تضطهد إيران الحركات القومية فى شمال البلاد وتعتبرها مجرد أدوات بيد أذربيجان.

ومن خلال عمليات الاضطهاد هنا وهناك تنمو الأحقاد والضغائن بانتظار ساعة التفجير التى غالبًا ما يحددها طرف ثالث لأهداف لا تمت بصلة إلى مصالح أى من إيران أو أذربيجان.

هكذا كان الوضع فى الخليج العربى قبل قيام مجلس التعاون، فلماذا لا تشجع منظمة المؤتمر الإسلامى الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى وفى القوقاز على الاقتداء بالتجربة الخليجية الناجحة؟

اتخذ الكرملين فى العهد القيصرى، وفى العهد الشيوعى، والآن فى عهد ما بعد الشيوعية مواقف ضد الشعوب الإسلامية فى تاتاريا والشيشان، وفى أذربيجان وتركمانستان وحتى شمال منغوليا، إن الذاكرة الإسلامية حافلة بسجل طويل من الصراعات الدامية



الله فى الغرب .. الحركات الإسلامية

حسن أبو طالب

> نشأت حركة أمة الإسلام فى وادى الفردوس، وهو الاسم الذى أطلق على الحى المغلق الذى عاش فيه الأمريكيون السود فى ديترويت، وذلك فى عقد الثلاثينيات حيث الكساد العظيم الذى أصاب الحياة الأمريكية، وأضاف بالتالى أعباء لا تطاق على الفقراء الأمريكيين عامة

حين يذكر تعبير الحركات الإسلامية، تتجه الأذهان غالبا إلى حيث دول العالم الإسلامى، أو بعض بؤر توصف بالإرهاب موجودة فى دول غير إسلامية. ولكن هذه المرة سوف نكسر القاعدة. فالحركات الإسلامية المعنية هنا ليست فى عالم الإسلام ولا فى دولة من دوله، كما أنها ليست المعنية مباشرة بما يعرف بالبؤر الإرهابية أو جماعات توظف العنف من أجل إقامة حكم الشرع كما تراه هى. فالحركات التى يعنيها هذا الكتاب تقوم على شرح وتحليل السياق التاريخى/الاجتماعى معا فى ثلاث من أكبر دول الغرب فى عالم اليوم، وهى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وأثر تلك العوامل فى استنهاض الروح الدينية الإسلامية. وهى حركات إسلامية تعنى بالدرجة الأولى مواطنين ينتمون إلى هذه الدول بحكم السياق القانونى ومعايير المواطنة السائدة فيها، ولكنهم يدينون بالإسلام وفقا لتجربتهم الخاصة تاريخيا واجتماعيا ودينيا أيضا، فهم جزء من تاريخ تلك الدول وليسوا مجرد وافدين عليها، حتى بالرغم من كون أصول بعضهم تعود إلى مجتمعات أخرى، حيث جاءوا كمهاجرين من مناطق مختلفة كانت تنتمى يوما إلى الإمبراطورية البريطانية أو إلى الأقاليم الفرنسية عبر البحار قبل عدة عقود، أو فى صورة جماعات من العبيد السود كما فى حالة الولايات المتحدة، نقلوا إليها قبل ثلاثة قرون أو أقل قليلا.

ومسعى الكتاب وهدفه الرئيسى يكمن فى محاولة تفسير ظهور تلك الحركات كل فى بلدها، سواء من المنظور التاريخى أو الاجتماعى، والمقارنة بينها من حيث النشأة والتطور والاتجاه العام والمؤثرات الخاصة والعامة لكل حالة على حدة. وينقسم الكتاب إجمالا إلى ثلاثة أقسام رئيسية، كل منها يناقش حالة على حدة. فقسمه الأول يعنى بدراسة حركة «أمة الإسلام» فى الولايات المتحدة، وقسمه الثانى يناقش الحالة البريطانية، والقسم الثالث والأخير يناقش حالة الإسلام فى فرنسا. والعنوان الأصلى الذى نشر به الكتاب باللغة الفرنسية هو «البحث عن الله» A L'Quest d'Allah.



والكاتب، جيليس كيبيل، ليس غريبا على هذا الحقل من الدراسات التى تعنى بشئون الجماعات والحركات الإسلامية فى الغرب وفى بلدان المغرب العربى، فهو أحد مراجع تلك الدراسات فى فرنسا وأوروبا، ويعمل حاليا مديرا للمجلس القومى الفرنسى للبحث العلمى. وللكاتب عدة كتب هامة منها «النبى والفرعون» The Prophet and the Pharaoh، و«انتقام الله» The Revenge of God. ومن هنا تأتى أهمية الكتاب، جنبا إلى جنب مجموعة الأفكار التى يتضمنها لا سيما ما يتعلق بالتحليل الاجتماعى لنشأة أو تطور الحركات الإسلامية فى البلدان الغربية، والتى تصل إلى حد ربط وجود الإسلام وانتشاره إلى أسباب اجتماعية وحسب، دون النظر إلى العوامل الجاذبة فى العقيدة الإسلامية نفسها. ولا ينقص ذلك من قيمة الجهد الذى بذله المؤلف أو قيمة الكتاب نفسه، وإنما يعكس أسلوبا تحليليا يعلى من شأن ما هو مادى يمكن لمسه واكتشافه، على ما هو روحى يصعب إدراكه لدى كثيرين من الباحثين الغربيين.

Allah in the West.. Islamic Movements in America and Europe.

الله فى الغرب.
الحركات الإسلامية فى أمريكا وأوروبا.
Gilles Kepel.
Translated by Susan Milner, Polity Press, Cambridge, UK, 1997. (274 Pages)

أمة الإسلام.. الطبعة الأمريكية للإسلام

نشأت حركة أمة الإسلام فى وادى الفردوس، وهو الاسم الذى أطلق على الحى المغلق الذى عاش فيه الأمريكيون السود فى ديترويت، وذلك فى عقد الثلاثينيات حيث الكساد العظيم الذى أصاب الحياة الأمريكية، وأضاف بالتالى أعباء لا تطاق على الفقراء الأمريكيين عامة، والعمال السود منهم خاصة، والذين تجمعوا منذ سنوات سابقة فى مراكز التصنيع الكبرى، ومن أهمها فى ذلك الوقت منطقة ديترويت التى اشتهرت بصناعة السيارات.

لم تكن معاناة الأمريكيين السود ذات بعد اقتصادى وحسب، ولكنها كانت معاناة مركبة، تعود فى جذرها الأول إلى ميراث العنصرية الذى طبع الحياة الأمريكية، والعلاقة المتوترة بين ما سمى بالرجل الأبيض والمجتمع الأسود، وهو ما ولّد شعورا ساد بين الأمريكيين السود بأنهم مستبعدون ومهمشون وخارج الإطار الاجتماعى العام الذى يسيطر عليه الرجل الأبيض.

فى هذا السياق العام، كان الباعة الجائلون يقومون بدور كبير فى حياة الفقراء من السود، إذ يقومون بإمدادهم بما يحتاجونه من خلال تسهيلات فى السداد، وكان معظم هؤلاء إما من لبنان أو سورية أو من الشرق عموما.

ومن بين هؤلاء ظهر بائع متجول عرف بفارد Fard، وربما جاء الاسم تحويرا من فرّاد أو فورد، أما اسمه الأول فكان والاس، الذى ينظر إليه كتحوير للاسم العربى «والى». وقد استطاع فارد بحكم مهنته أن يدخل بيوت الأمريكيين السود، وأن يتجاذب معهم أطراف الحديث عن أحوالهم، وعما اعتبره أرض الأجداد، أى أفريقيا بعاداتها وتقاليدها فى الملبس والمأكل، وكيف أن تلك العادات تختلف جذريا عن العادات التى اكتسبوها من الاختلاط مع الرجل الأبيض. وقد شكل هذا الحديث غذاء روحيا، انجذب إليه الأمريكيون السود، بعد أن انجذبوا إلى صاحبه، الذى استطاع أيضا أن يقنع محدثيه بأن الحرير - الذى يقوم ببيعه - هو نفس لباس أجدادهم فى أفريقيا، ومن ثم أقبلوا على بضاعته كما أقبلوا على حديثه الروحى.



كانت البداية المتمثلة فى الانقطاع عن تقاليد الرجل الأبيض فى الغذاء، مجرد خطوة أولى فى تشكيل الشعور العام بالانقطاع عن العادات والتقاليد للمجتمع غير القانونى وغير العادل المحيط بهم. وخطوة أولى أيضا لتشكيل جماعة أو مجتمع متميز يدين بالولاء لفارد. وفى الفترة من يوليه ١٩٣٠، التى شهدت ظهوره الأول، وحتى ٣٠ يونيه ١٩٣٤ حين اختفى، أى أربعة أعوام كاملة، اتسم فارد بسمة المبشر لمجتمع جديد، واستطاع بحكم سماته الشخصية والقيادية أن ينظم مجتمعا روحيا قوامه ٨٠٠٠ أمريكى أسود من ديترويت.

تمثل الهدف الأول للعقيدة الجديدة فى استعادة الهوية المفقودة، أو الهوية الحقيقية للسود، والتى سرقها الرجل الأبيض. وكان جزء من هذه المهمة يكمن فى إقناع الأنصار بتغيير أسمائهم إلى أسماء إسلامية، وإلى رفض تعبير «نجرو»، وهو اللقب الذى اعتاد الرجل الأبيض إطلاقه على الأمريكيين ذوى البشرة السوداء. ورافق ذلك إصرار على أن أصولهم السوداء تعود إلى قبيلة شاباز Shabaz، وأن دينهم الحقيقى هو الإسلام ولغتهم الأم هى العربية.

وفى الولايات المتحدة بات أنصار فارد ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم يمثلون أمة الإسلام المفقودة فى البيداء الأمريكية القاسية الموحشة. وفى السياق ذاته نُظر إلى فارد كرسول أو كمبشر أعاد لهذه الأمة هويتها المفقودة أو المخفية عن عمد. وهكذا بدأت عملية تغيير كبرى للأسماء، فجون صار كريم، وريتشارد تحول إلى محمد، وهكذا.

وصار التنظيم محكما، ولعب فارد دورا رئيسيا فى تقوية دعائمه، حيث بنى معبدا للحركة وأرسل الأطفال إلى مدارس إعدادية وثانوية خاصة سميت بـ «جامعة الإسلام»، وذلك من أجل تعليمهم «المعرفة التى يستحقونها»، والتى تختلف عن «معرفة وحضارة القوقازيين الأشرار». وهو ما مثل عملية انفصال حقيقية عن كل القيم والمعايير الشائعة فى المجتمع المحيط بهم. ورفضت الحركة مفهوم المواطنة الأمريكى، وأوجدت لنفسها علما خاصا عبارة عن هلال أبيض ونجمة فى خلفية حمراء، ومحاطة بكلمات أربعة وهى المساواة والعدالة والحرية والإسلام.

ولعب الانضباط الشديد الذى ميز أنصار الحركة دورا فى الابتعاد عن الفساد العام الذى ساد فى الحى المغلق للسود، وساعدهم على أن يكونوا عمالا أكثر كفاءة وانضباطا وقابلية للاعتماد عليهم مقارنة بغير أعضاء الحركة من المجتمع الأسود نفسه، من ثم باتوا أكثر حصولا على فرص العمل، وساهموا فى زيادة موارد الحركة المالية.

وفى تلك الفترة كانت السلطات الفيدرالية تراقب أنشطة «أمة الإسلام» عن قرب، وزادت وتيرة الاهتمام بها بعد أن حول الأنصار أبناءهم وأطفالهم من المدارس التى كانت تشرف عليها السلطات المحلية إلى المدارس الخاصة بالحركة.

إن السنوات الأولى لنشأة الجماعة، تمثل المفتاح لفهم كيفية بناء النموذج، ولماذا استمر ٦٠ عاما رغم الضربات التى وجهت إليه والإخفاقات التى تعرض لها. فمع نهاية القرن العشرين ازدهرت حركات بناء الكوميونات، أو المجتمعات المحلية التضامنية الخاصة بفئة اجتماعية معينة، فى المجتمعات ما بعد الصناعية.

الملك.. إليجا محمد

مع اختفاء فارد فى ١٩٣٤، حيث يعتقد أتباعه أنه ذهب إلى مكة، تولى أحد مساعديه قيادة الحركة، ومن ثم بدأت حقبة إليجا محمد، والتى استمرت حتى نهاية الستينيات.

فى أمريكا وأوربا

ومن بين الأزمات التى واجهتها الحركة، تلك المعلومات التى سربها مكتب التحقيقات الفيدرالى FBI، وادعت أنها تخص نشأة فارد، وهى معلومات جمعت أساسا فى فترة ١٩٥٧ و١٩٥٨، ونشرت فى نهاية ١٩٥٨ و١٩٦٣، وخلاصتها أن فارد ليس أمريكيا أسود، وإنما هو مولود لأب إنجليزى وأم من أصول مختلطة، وأن اسمه الأصلى فورد، وأنه أدين بعدة تهم منها نقل المخدرات وشرب الخمر إبان فترة الحظر. وقد اعتبر أنصار الحركة أن تلك المعلومات تستهدف السخرية من مؤسس أمة الإسلام وإهانة أعضائها، ولم يلتفتوا إليها كثيرا.

لقد تضمنت كتابات فارد دعوة صريحة للانفصال الجماعى والفورى عن كل الأشكال التى اعتبرها شيطانية، وهو الانفصال الذى سيعمق وبشكل حاسم بناء دولة مستقلة للأمريكيين السود، الذين هم فى حقيقة الأمر «أنصار الله». وكم أشار فارد إلى ما اعتبره مشابهة مع خروج اليهود من مصر، إذ سيخرج الأمريكيون السود مثلهم من الصحراء الأمريكية. لكن الأرض الموعودة هنا تظل داخل أمريكا نفسها وليست أرضا غيرها.

تشهد السنوات الأولى للحركة غلبة الطابع الاجتماعى / السياسى عليها، ويشار هنا إلى أن أمة الإسلام لا تعنى بالضرورة دعوة إلى الارتباط بالعقيدة الإسلامية التى نعرفها نحن العرب والمسلمون فى الشرق، وإنما الارتباط بعقيدة خاصة، عكست فى جزء منها قيم المجتمع الأمريكى ولغته وتنظيمه أيضا. فلما لم يكن هناك علماء دينيون فى ديترويت يقومون بشرح القرآن، فضلا عن الافتقار إلى معرفة اللغة العربية، الأمر الذى أدى إلى إعادة استخدام مفردات الإنجيل لدى المسيحيين، والتى كانت معروفة لدى الأمريكيين السود، فى شرح معاناتهم. ومن هنا بدأت تدخل حركة «أمة الإسلام» شروحات غير إسلامية.

وكان التركيز الأكبر لحركة أمة الإسلام على معنى الانفصال عن المجتمع الأمريكى، من خلال هجر عاداته فى شرب الخمر والطعام وكسر القانون، وهو ما حمل أيضا معنى الانفصال عن الفساد الذى يسود المجتمع الأسود ذاته. كما وظّف هذا الانفصال لتحقيق مزيد من الترابط والتماسك بين أعضاء الجماعة. وخلال فترة قيادة فارد ثم إليجا محمد حتى عام ١٩٧٥، كانت أمة الإسلام تنتشر بين عامة السود، وليس بين البورجوازية السوداء التى رفضوا تعاليمها وقيودها.

مالكولم إكس .. نحو حركة جماهيرية

لقد منحت أمة الإسلام هؤلاء العامة هوية اجتماعية ودينية واضحة، وقد انتشرت أولا بين صفوف العمال فى مصانع السيارات، ثم فى السجون التى اكتظت بالسود، ومثلت معينا لتجنيد مزيد من الأنصار، ومن أبرز من جندوا فى السجن مالكولم إكس، الذى صار أحد قيادات الجماعة ورموزها البارزين. فقد كانت قسوة الحياة فى تلك السجون عاملا أساسيا فى تسهيل عمليات التجنيد والانضمام إلى الجماعة بكل ما تحمله من أمل فى تغيير أسلوب الحياة، وما تقدمه من مساعدات وإطار جماعى يمثل حماية روحية ومادية فى آن واحد. وما عبر عنه مالكولم إكس فى إحدى رسائله التى كتبها أثناء سجنه قائلا: «إن السجين الأسود يرمز إلى جريمة المجتمع الأبيض الذى يحرص على أن يكون الأمريكى الأسود جاهلا ومحبطا ومجردا من المعرفة التى تؤهله للحصول على وظيفة مناسبة تمنعه من الانزلاق إلى الجريمة».

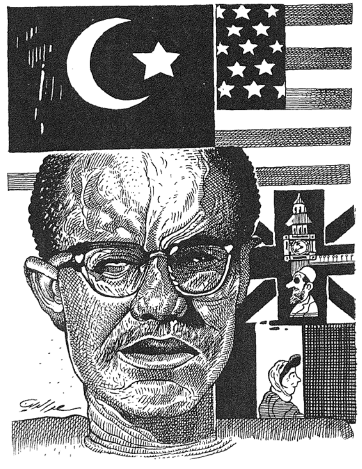
وخلال تاريخ حركة المسلمين السود فى أمريكا، بدا عدد كبير من قادتها متأثرين بثقافة الشوارع وعالم الجريمة، لاسيما نقل وتوزيع المخدرات، وكثير منهم قضى سنوات من عمره وراء القضبان. وقد مثلت لهم حركة«أمة الإسلام» نوعا من الخلاص من عالم الماضى، وتطلعا إلى عالم أفضل. ولعبت القيادة المنضبطة للحركة دورا حاسما فى إقناع الكثيرين بأن « أمة الإسلام» هى مصيرهم الذى يتطلعون إليه. وساهمت آليات مراقبة السلوك الفردى، والالتزام بزى موحد استجابة مخططة لنقد الأخلاقيات التى كانت سائدة فى أحياء السود المغلقة. وتعد حياة مالكولم إكس دليلا واضحا على نجاح هذه العملية، والتى نقلت حركة «أمة الإسلام» من جماعة صغيرة ذات تأثير محدود فى نطاق الأمريكيين السود، إلى حركة جماهيرية، جذبت آلاف الأنصار الجدد، واستقطبت اهتمام وسائل الإعلام.

وثمة تشابه فى حياة إكس مع حياة الداعية الإخوانى سيد قطب، فكلاهما عاش فترة وراء القضبان ـ وإن اختلف السبب فى كل حالة ـ مما شكل باعثا على بلورة فكرة البحث عن مجتمع جديد لا يتسم بالظلم، أو بالسمات الجاهلية وفقا للتعبير الذى استخدمه سيد قطب، ويوفر الفرصة لحياة مختلفة عن السابق. ونقطة الخلاف أن إكس، وجد بعد خروجه من السجن الفرصة العملية للتعبير عن هذا التحول، وهو ما لم يحدث فى حالة سيد قطب، وإن ظلت أفكاره باعثة لحركة كثيرين اقتنعوا بها وعملوا على تجسيدها فى مجتمعاتهم المحلية.

ومن التأثيرات إلى حملها مالكولم إكس على حركة الجماعة، إعادة التفكير فى الهدف الرئيسى للحركة، هل هو الانفصال عن المجتمع الأكبر، كما كان الحال لدى المؤسس فارد وإليجا محمد، أم إعادة توجيه الدعوة نحو بناء جماعة متماسكة فى ظل مجتمع أكبر لا يمكن الانفصال عنه أو تجاهل تأثيراته، مع مد الدعوة إلى هذا المجتمع نفسه، والسعى إلى تغييره. وكم ساعد نجاح حركة الحقوق المدنية بقيادة مارتن لوثر كنج فى ١٩٦٤ بعد نضال طويل وتضحيات كثيرة فى حسم الجدل الذى ساد داخل أروقة «أمة الإسلام» لصالح مبدأ بناء الجماعة / التنظيم وتدعيمها، والتخلى عن مبدأ الانفصال وبناء دولة أو كيان مستقل للمسلمين الأمريكيين السود. فحركة الحقوق المدنية أظهرت أنه يمكن تغيير أمريكا، حتى ولو حدث الأمر ببطء. لكن المشكلة الأساسية فى أسلوب إكس أن خطاباته اتسمت بكثير من العنف اللفظى والحدة فى وصف الخصوم، وهو ما أثار الخلافات داخل الأجهزة القيادية لأمة الإسلام، كما تصاعد الخوف بين الأعضاء أن يؤدى هذا الأسلوب إلى الدخول فى مواجهات مع أجهزة البوليس التى كانت متحفزة وتراقب أعمال التنظيم عن كثب.

ولكن يبقى لإكس أنه رفض الفكر الانفصالى لإليجا محمد، الذى اعتبره إكس محافظا ويعمل على فقد الجماعة / التنظيم لروح التعددية الإيجابية. وجاء اغتيال إكس فى يوليه ١٩٦٥ أثناء إلقائه خطابا فى إحدى قاعات حى هارلم على يد اثنين ادعيا انتماءهما للحركة، ليثير الكثير حول أساليب العمل الداخلى لأمة الإسلام، ومدى التأييد الذى كانت تحصل عليه أفكاره بين الأعضاء. فى الوقت نفسه الذى أنكر فيه إليجا محمد أية مسئولية شخصية أو تنظيمية فى عملية الاغتيال هذه، والتى قادت إلى تكثيف جهود الأجهزة الأمنية الأمريكية لمعرفة ماذا يجرى بالضبط داخل مستويات الجماعة / التنظيم المختلفة. ومن المفارقات أنه بعد شهر واحد من الاغتيال، أقر الرئيس جونسون مرسوما قانونيا أقر حقوق التصويت للسود، وأنهى الاستخدام الرسمى لتعبير «نجرو» فى الحياة السياسية والاجتماعية الأمريكية.

لقد كانت حياة إكس مليئة بالتناقضات والأدوار المختلفة، وإن كان أبرزها أنه طور مفهوم الهوية المنفصلة للسود، على أن يعبر عنها فى جماعة مسيرة ذاتيا، وهو ما لا يتحقق إلا بالانتماء لأمة الإسلام. وخلال العام الأخير من حياته دعا إلى ثورية عالمية تجمع بين العالم ثالثية والأصولية الإسلامية، وحسب تعبير المؤلف، تجمع بين ناصر وأمراء المملكة السعودية. وبغض النظر عن هذا الغموض فى تقدير ميراثه السياسى، فإن حياته المهنية والشخصية تبقى نموذجا لمعنى تشكيل صيغة وطنية / محلية للإسلام فى أمريكا.



مالكولم إكس

الإسلام في أمريكا يخص السود الذين يرجع أجدادهم إلى بلدان خارجية زمن العبودية، الأمر الذي فصلهم عن أصولهم الثقافية. وفي بريطانيا الإسلام ينتمي إلى السكان الهنود والباكستانيين الأوائل الذين هاجروا، وما زال البعض منهم أحياء يرزقون

معركة خلافة إليجا محمد

بعد موت إليجا محمد دخلت الحركة في معركة خلافة القائد الذي سيطر على أعمال الحركة ومصيرها لمدة أربعة عقود متصلة، منذ منتصف الثلاثينيات وحتى منتصف السبعينيات. وتبلورت المعركة في ثلاثة شخصيات، اثنان منهما أبناء لإليجا محمد نفسه، وهما أكبر، الذي درس في جامعة الأزهر، وكان الأكبر سنا، والثاني والاس محمد، أو والي محمد، والذي كان قد انفصل عن الحركة لمدة ١١ عاما، وعاد إليها عام ١٩٧٥، قبل وفاة والده بفترة قصيرة. ومن غير الأبناء كان هناك لويس ويلكوت، والذي عرف فيما بعد بـ فراخان عبد الحليم، أو لويس فراخان.

ونظرا لتأييد باقي الإخوة، فقد دانت القيادة لوالاس محمد، والذي عمل جاهدا على إعادة النظر في كثير من المفاهيم والشعارات التي ميزت الحركة طوال عهد والده. فلم يعد والاس يصف الرجل الأبيض بأنه شر ولم يفرق بين المسلم الأبيض والمسلم الأسود فكلاهما مسلم بغض النظر عن اللون أو الشكل. كما تجنب المواجهة مع أي مؤسسة أمريكية، لاسيما بعد اللغط الذي أصاب الجماعة / التنظيم من جراء الطريقة التي اغتيل بها مالكوم إكس. وأعاد تنظيم الأمور المالية للجماعة، ومهد لإدخال اللغة العربية في الصلاة، وغيّر التقليد الذي استنه والده، وكان يقضي بصوم شهر رمضان في شهر ديسمبر من كل عام، واستخدم في ذلك التقويم القمري الذي يستخدمه المسلمون في كل مكان. وغيّر أيضا الوصف المستخدم لأماكن العبادة من معابد إلى مساجد. وعرب اسمه إلى «وريث الدين محمد»، واعتبر نفسه المجدد لعقيدة الجماعة. وعمد إلى حل التنظيم شبه العسكري لأمة الإسلام والمسمى باسم «فاكهة الإسلام» Fruit of Islam، ومنظمة تدريب الفتيات المسلمات، وهما التنظيمان اللذان عارضا إصلاحاته بشدة. واستبدل وريث الدين علم الجماعة بعلم الولايات المتحدة الرسمي، واعتبر نفسه معنيا بتطهير فكر الجماعة مما شابها من هرطقة وبدع، ولكنه مع ذلك لم يسع إلى تثوير كامل لفكر الجماعة. وأقام روابط وعلاقات قوية مع الأشكال والمنظمات الإسلامية المحافظة عبر أنحاء العالم المختلفة، لاسيما مع بعض الأمراء السعوديين.

فراخان ومهمة البعث والتجديد

بعد أن نجح فراخان في الانقلاب على قيادة والاس محمد أو وريث الدين في فبراير ١٩٨١، تمثل أول تغييراته النظامية للجماعة في الاعتراف بأن التغييرات الاجتماعية التي شهدتها الولايات المتحدة في السبعينيات لابد أن تفرض نفسها على استراتيجية الجماعة. ومن بين هذه التغييرات ما جرى للمجتمع الأمريكي الأسود نفسه، ومن بينهم أعضاء الجماعة وأنصارها، حيث أتيح لأبناء البعض منهم فرص التعلم وشغل وظائف مناسبة وتحقيق دخول عالية نسبيا، أو بعبارة أخرى الانتماء إلى طبقة البورجوازية، وذلك على عكس ما كانوا عليه قبل نشأة الجماعة قبل أربعة عقود مضت.

ومن بين أبرز تحولات الجماعة تحت قيادة فراخان، انخراطها في الحياة السياسية، وتمثلت البداية في تأييد ترشيح القس الأسود جيسي جاكسون عن الحزب الديمقراطي لانتخابات الرئاسة الامريكية عام ١٩٨٤ وقد أدت الملاسنات بين فراخان والمنظمات اليهودية إلى أن يلاحق الإعلام أنشطة الجماعة، الأمر الذي ساهم في إبرازها أمام الرأي العام الأمريكي. ومثل هذه الاستراتيجية كانت تستهدف من وجهة نظر فراخان أمرين:

أولهما الإعلام عن الجماعة في صورتها الجديدة، المنخرطة في الشئون العامة للمجتمع الأمريكي.

وثانيهما التوافق والتكيف مع التغيرات الاجتماعية التي حدثت لأنصار الجماعة منذ موت إليجا محمد، والتعبير عن مصالحهم الجديدة.

ولكن الأهم من ذلك أن تزايد تجزؤ المجتمع الأمريكي من خلال التداخل ما بين الخطوط العرقية / الإثنية والدينية شجع انتشار الأشكال والآليات المختلفة للتعبير عن ذلك التجزؤ من جانب، والتعبير عن المصالح المتعارضة للجماعات المختلفة من جانب آخر.

ورغم أن بداية فراخان كزعيم لجماعة أمة الإسلام في علاقاته العربية كانت سيئة إجمالا، حيث اعتاد على وصف النظم العربية بصفات سلبية، إلا أنه أعاد النظر في هذا التوجه في منتصف الثمانينيات وصاعدا. وتمثلت نقطة التحول في علاقاته الجديدة مع الزعيم الليبي العقيد القذافي، الذي منح جماعة أمة الإسلام قرضا حسنا بدون فوائد قيمته ٥ ملايين دولار، وأتاح لها معسكرات في داخل ليبيا لتدريب أنصارها. ثم قام لاحقا بالحج إلى مكة المكرمة.

ومن المفارقات أن الملاسنة السياسية بين فراخان والجماعات اليهودية الأمريكية، والتي استقطبت اهتمام الإعلام الأمريكي، لم تكن تعني قطع كل الصلات، ويرجع ذلك إلى وجود ما أسماه البعض رابطة سرية بين أمة الإسلام وهذه الجماعات، وهي رابطة تعود إلى سنوات الكفاح من أجل الحقوق المدنية، حيث تضامن كل من السود واليهود معا وعملوا سويا لمواجهة واقع العنصرية الذي ميز المجتمع الأمريكي. ومع بداية فترة رئاسة كلينتون الأولى ١٩٩٢، سعى فراخان إلى مزيد من ربط أمة الإسلام بالحياة السياسية الأمريكية، ووظف استراتيجية جديدة قوامها التوجه نحو أكبر عدد ممكن من المتلقين، وهو ما عبر عنه صراحة في كتابه الشهير «طاقة نور لأمريكا»، A Torchlight For America، والذي ناقش فيه ما اعتبره أزمة أمريكية عامة تمس كل أعراقها وأديانها، ووضع حلا لها تمثل في الدعوة بأن تطبق الجماعات العرقية والدينية المختلفة في المجتمع الأمريكي «النموذج الناجح» الذي طبقته جماعة أمة الاسلام في تجديد الجماعة الأمريكية السوداء.

وعلى صعيد الجماعة نفسها تمثلت استراتيجية فراخان في مزيد من الانضباط للمدارس التابعة للجماعة، والتركيز مرة أخرى على مبادئ الانضباط الأخلاقي الفردي وقيم الأسرة وأهمية الحياة الأسرية المتجانسة، ورفض ممارسات الارتباط قبل الزواج، أو تحدي القانون وتجاوزه. وهو ما مثل تحولا كبيرا في أسلوب فراخان مقارنة بالأسلوب الذي بدأ به سنواته الأولى في قيادة الجماعة.

لقد ساهمت هذه الاستراتيجية الجديدة في تعميق ارتباط أمة الإسلام بهموم المجتمع الأوسع، ولم تعد تقتصر همومها على المجتمع الأمريكي الأسود أو المسلمين منهم فحسب. وهكذا وجدت الجماعة نفسها في قلب المعضلات الكبرى التي تواجه أية حركة اجتماعية، حيث تحاول أن تحسن مواقعها الاجتماعية والسياسية، ولكن دون أن تكون قادرة على الوصول إلى مواقع السلطة والقرار. إنها معضلة المنظمات الاجتماعية الساعية إلى إصلاح النظام الاجتماعي من أزمات عالم ما بعد الصناعي.

النموذج البريطاني

يأخذنا الكاتب في محطته الثانية إلى بريطانيا، والتي شهدت واحدة من أكثر الوقائع شهرة، حيث قام مجموعة من مسلمي بريطانيا في برافورد غرب يوركشاير، بحرق كتاب الروائي الإنجليزي الهندي الأصل سلمان رشدي «آيات شيطانية»، احتجاجا على ما اعتبروه المضمون المسيئ للنبي محمد ﷺ وأصحابه.

لقد كان مشهد حرق الكتاب مثيرا لذكريات أليمة عاشتها أوروبا في عصورها المظلمة، مما دعا كثيرين إلى وصف مسلمي براد فورد بأنهم الأكثر تعصبا دينيا. وهنا يشير المؤلف إلى أن أحدا من المسلمين الذين قاموا بأعمال الاحتجاج ضد سلمان رشدي، لم يقرأ الكتاب، الذي يجمع بين الحقيقة التاريخية والخيال المستمد من روايات شعبية، ولكن المحتجين استقطعوا بعض فقرات وقاموا بترجمتها إلى الأوردية، وأرسلوها بالفاكس إلى الهند وباكستان، مما أثار الروابط الإسلامية عبر العالم، إلى أن وصل الأمر إلى الإمام الخوميني في إيران، والذي أصدر فتواه الشهيرة في ١٤ فبراير ١٩٨٩ بجواز قتل سلمان لتطاوله على النبي والصحابة، أي بعد شهر كامل من مظاهرة مسلمي برادفورد.



وهكذا أصبحت قضية سلمان رشدي أشهر قضية «حرية تعبير» في أوروبا والعالم في نهاية القرن العشرين، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو «لماذا تصرف مسلمو بريطانيا بمثل هذا الشكل العنيف؟».

يجيب الكاتب بأن الإجابة عن هذا التساؤل تستدعي الفهم والاستيعاب الكامل للأبعاد السياسية والتاريخية لنشأة الجماعات المحلية التضامنية Communalism داخل المملكة المتحدة، سواء على أسس دينية أو عرقية. وهو الأمر الذي يمكن إعادته إلى حقبة الأمبراطورية البريطانية في الهند، وإلى أحوال المدن البريطانية المتواضعة في الوقت الراهن. والمؤكد أن «الإسلام» كحركة اجتماعية يعمل بطريقة مختلفة عن عمليات الأسلمة التي شهدها مجتمع الأمريكيين السود. ومع ذلك فهناك بعض أوجه للشبه. فالإسلام في أمريكا يخص السود الذين يرجع أجدادهم إلى بلدان خارجية زمن العبودية، الأمر الذي فصلهم عن أصولهم الثقافية. أما في بريطانيا فالإسلام ينتمي إلى السكان الهنود والباكستانيين الأوائل الذين هاجروا، وما زال البعض منهم أحياء يرزقون، ويمثلون قناة اتصال مع ثقافتهم الأصلية. ونقطة الشبه هنا تعود إلى وجود مصدر خارجي للجماعة ولثقافتها الخاصة.

بيد أن الإسلام في أمريكا وفقا للنموذج الذي عبرت عنه حركة «أمة الإسلام»، يمكن وصفه بأنه إسلام محلي بكل أشكاله وصفاته المتميزة، والتي عبر عنها فارد وإليجا محمد ووالاس وفراخان. فهذا النوع من الإسلام بدأ من الصفر تقريبا، دون أن تسبقه تقاليد إسلامية قبل زمن العبودية، ولذلك فهو يختلف تماما عن الإسلام الذي يعرفه أهل الشرق، حيث نبع فيهم ومنهم الإسلام السني أو غير السني.

أما في الحالة البريطانية، فهو إسلام مختلف، إذ إنه تأكيد لهوية إسلامية ذات جذور وأصول قوية في شبه القارة الهندية. ففي إبان حقبة الاستعمار البريطاني، جاء معظم المهاجرين إلى بريطانيا من هذه المنطقة، مستغلين ظروف الحياة فيها لإيجاد التعبيرات النظامية المختلفة للتعبير عن هويتهم الدينية التي حملوها معهم من بلدانهم ومناطقهم الأم.

وثمة خلافات كثيرة بين حالة «أمة الإسلام» الأمريكية، وبين مجلس مساجد



رغم أصول المسلمين في فرنسا والتي تعود إلى حقبة الاستعمار الفرنسي لشمال وغرب أفريقيا، واعتبارهم مواطنين بحكم القانون، فإن الأجيال الجديدة التي تعلمت في المدارس والجامعات الفرنسية، كانت لها رؤية مختلفة للموقع العام لجماعة المسلمين وأوضاعهم التي وصلوا إليها، عن رؤية المسلمين الأوائل



برادفورد، سواء فيما يتعلق بالعلاقة بالإسلام نفسه كعقيدة، أو في تعريف أو تحديد النطاق الديني لتصرفات الأفراد والجماعة على السواء. وفي براد فورد هناك نظرة شك وريبة للأفكار التي يحملها فراخان عن الإسلام والعقيدة. وربما يكون الجامع بين الحالتين هو أن العقيدة الإسلامية هي التي ساعدت على تجسيد هوية متميزة للجماعة المحلية مقارنة بالهوية السائدة في المجتمع الأكبر المحيط بها في أمريكا أو في بريطانيا.

ففي السياق البريطاني العام، سعى المسلمون إلى إبراز هويتهم الدينية من خلال آليات مختلفة بعض الشيء عن الآليات التي وظفها السود الأمريكيون. وكان من أهم تلك الآليات التدخل في العملية التعليمية السائدة في المدارس الحكومية من أجل فرض «ما يجب تعليمه» للأطفال المسلمين في هذه المدارس، كما تم تشكيل جماعات ضغط إسلامية تمارس نفوذا على المرشحين سواء للانتخابات البلدية أو التشريعية، بهدف وضع مصالح جماعة المسلمين في الحسبان، كما تم توظيف القانون البريطاني الذي ينظر إلى الجماعات العرقية أو الدينية نظرة إيجابية، ويسمح بقدر من التمييز الإيجابي، الذي يحقق بعضا من مصالح تلك الجماعات المحلية. فالعرق من الناحية القانونية يشير إلى وضع قانوني وليس إلى شيء مذموم، كما أن التفرقة بين الجنسية والمواطنة ليست سلبية في السياق القانوني البريطاني، بل إنها تسمح ببعض الحقوق للجماعات المختلفة.

وذلك على عكس الأمر في فرنسا، التي لا تميز بين الأمرين، ويقوم منهجها التاريخي على إدماج المهاجرين في بنية الثقافة السائدة للدولة الفرنسية. ومثل هذا الاختلاف يعود بالطبع إلى اختلاف الخبرة التاريخية لعمليات إدماج المهاجرين في كل بلد على حدة.

ووفقا لإحصاءات ١٩٨٦، فقد بلغ السكان المسلمون، أو ذوو الأصول الإسلامية في بريطانيا ٩٣٦ ألف نسمة. منهم ٣٥٧ ألفا من باكستان، و٨٤ ألفا من الهند، و٦٤ ألفا من بنجلاديش، وحوالي ٩٩ ألفا يعودون إلى أصول من منطقة شرق أفريقيا. وهكذا فإن حوالي الثلثين ينحدرون إلى أصول تعود إلى شبه القارة الهندية، جالبين معهم التقاليد الإسلامية التي تسود في تلك المنطقة من العالم.



إن فهم هوية جماعة المسلمين في بريطانيا لا ينفصل عن تاريخ هذه المنطقة، وما عرفته من نظم حكم إسلامية تقليدية سادت لعدة قرون، ثم حقبة الاستعمار البريطاني، واستقلال الدول بعد الحرب العالمية الثانية، والانقسام الدموي الذي حدث بين باكستان والهند. فقبل الاحتلال البريطاني كانت هناك ممالك إسلامية وصلت إلى ذروتها في منتصف القرن السادس عشر، كامبراطورية المغول في منطقة دلهي، والتي تأثر تاريخها بتقاليد الغزو والفتح والتفرقة بين أهل الكتاب وأهل الإسلام، وحقوق الفاتحين والتزامات البلاد المفتوحة.

كما لعبت العلاقة المتوترة تاريخيا بين المسلمين والهندوس في هذه المناطق دورا في تشكيل التعبيرات النظامية للمسلمين في بريطانيا عن أنفسهم وهويتهم، والتي تأثرت بدورها بأفكار بعض العلماء البارزين مثل أبو الأعلى المودودي، وبكفاح المسلمين إبان حقبة الاحتلال البريطاني لشبه القارة الهندية لمدة خمسة قرون، ثم بنشأة دولة باكستان الإسلامية.

إلى جانب هذه العوامل التاريخية والثقافية التي حملها معهم المهاجرون الأوائل إلى داخل بريطانيا، فإن المجتمع البريطاني نفسه وخصائصه التاريخية والبنيوية كان لها دور آخر في طبيعة ومسار تكوين الهوية الإسلامية فيه. ففي داخل المملكة المتحدة، لا تعد الجنسية البريطانية بمثابة مفهوم متجانس التكوين، فهناك جنسيات مختلفة : إنجليزية واسكوتلندية وويلزية وأيرلندية وهكذا. فالدولة البريطانية بحق دولة متعددة القوميات.

وفي ظل هذا المفهوم للمواطنة البريطانية، حيث الهوية السياسية يعبر عنها بعوامل مختلفة تعيش بجوار بعضها البعض، وجدت الظروف المناسبة التي استطاع خلالها المهاجرون المسلمون أن يعبروا عن أنفسهم داخل النظام السياسي نفسه. ولم تكن الاستجابة من قبيل المحاكاة مع المجتمع السائد، ولكن السعي إلى اكتساب وضعية موازية للوضعية التي تحظى بها «الأمم» الأخرى والموجودة بالفعل في الدولة البريطانية مثل الأسكوتلنديين أو الأيرلنديين أو غيرهم. ومن ثم تشكيل «أمة محتملة» تحت حماية مفهوم المواطنة البريطاني نفسه، والذي يحتوي في داخله كل الوافدين الجدد تحت مسمى العرق أو الدين أو كليهما معا.

ومع ذلك فلم تكن رحلة تشكيل الأمة الإسلامية، أو بالأحرى الجماعة الإسلامية خالية من المصاعب أو النضالات المختلفة. فقد وجدت عدة جولات، كانت أولاها في صورة النضال من أجل تعليم إسلامي. ففي نهاية الستينيات ثار القلق لدى أبناء المجتمع الإسلامي البريطاني من أن خلو المناهج التعليمية من أية إشارة إلى الدين قد تؤثر على النشأة الصحيحة لأبنائهم، ومن ثم على هويتهم. ومن ثم بدأ السعي إلى إدخال محتوى ديني إسلامي لأبناء المسلمين في المناهج التعليمية للمدارس الحكومية العامة. وتطور الأمر إلى منح مزايا خاصة بالزي بالنسبة للتلميذات المسلمات.

ثم تطور الأمر إلى تشكيل جماعات ضغط في المناطق التي يتجمع فيها المسلمون، لاسيما في برادفورد وبرمنجهام، من أجل التأثير على المرشحين للانتخابات البلدية أو التشريعية لكي يأخذوا في اعتبارهم مصالح المسلمين في حملاتهم الانتخابية. ونشأ لذلك مجلس علاقات الأقليات ووحدة الفرص المتساوية، واللذان هدفا بدورهما إلى الاتصال بكل الجماعات من غير الأصول البريطانية، من أجل وضع مجموعة من المعايير التي تهدف إلى توفير فرص للعمل والتدريب والتعليم لأبناء الأقليات من خلال تطبيق مبادئ التمييز الإيجابي التي تعترف بها التقاليد الدستورية و القانونية البريطانية.

كما نشأت روابط اجتماعية وقومية عديدة لخدمة أبناء الجماعات المسلمة، وكان لها دور كبير في إثارة أزمة كتاب سلمان رشدي على النحو الذي أثيرت عليه، وذلك حتى قبل الفتوى الشهيرة للإمام الخوميني. ومن أبرز هذه المنظمات الإسلامية مؤسسة ليستر الإسلامية والبعثة الإسلامية في المملكة المتحدة ومجلس مساجد برادفورد وغيرها.

إن تلك الخصوصية في النشأة والميراث التاريخي لجماعة المسلمين في بريطانيا، لم تمنع من وجود تأثيرات أخرى «وافدة حديثا»، من قبل دول ومصادر عربية، لاسيما خليجية، وتحديدا سعودية.

إن بناء المجتمع المدني من خلال الجماعات المحلية التضامنية Communalism على أسس عرقية أو دينية يظل هو العنصر الأساسي في الثقافة السياسية البريطانية. فبرلمان المسلمين رفض التشبه بالحضارة الغربية، وجماعة أخرى مثل البعثة الإسلامية للمملكة المتحدة، وفرعها المؤسسة الإسلامية، كان هدفها إنشاء نظام اجتماعي إسلامي في بريطانيا. والنقطة الأساسية لمثل هذه الجماعات أنها تمثل بصورة أو بأخرى استجابة للنظام السياسي السائد، والذي تبرز فيه حالة عدم مساواة أمام القانون، الذي يجسد بدوره تشريعات لصالح الكنيسة الإنجيلية، ولكنها تجد تعويضها في المقاييس الخاصة بالتمييز الإيجابي في بعض المجالات مثل التعليم. وتظل لأزمة كتاب سلمان رشدي وظيفة أخرى، وهي أنها أضرمت الجدل من جديد حول معنى الاندماج في المجتمع البريطاني، وما هي الأسس الأفضل لمثل هذا الاندماج المرغوب. في حين أن الدولة البريطانية لم يكن بمقدورها أن تغير الاتجاه العام، الذي يعكس ميراث الامبراطورية، رغم حقيقة أن الشمس قد غربت عنها منذ فترة طويلة.

فرنسا أرض الإسلام

رغم أصول المسلمين في فرنسا والتي تعود إلى حقبة الاستعمار الفرنسي لشمال وغرب أفريقيا، واعتبارهم مواطنين بحكم القانون، فإن الأجيال الجديدة التي تعلمت في المدارس والجامعات الفرنسية، كانت لها رؤية مختلفة للموقع العام لجماعة المسلمين وأوضاعهم التي وصلوا إليها، عن رؤية المسلمين الأوائل.

وبتعبيرات الإسلام نفسه، فإن فرنسا بالنسبة لهؤلاء لم تكن دار حرب، كما لم تكن دار إسلام، فهي منطقة وسط بين المعنيين، تجسدها عبارة دار العهد. وهذه الأجيال الجديدة تنظر لفرنسا باعتبارها دولة غير نقية من الناحية الإسلامية، ولكنها ليست في موقف عدائي مباشر منهم أو معهم.

ومنذ منتصف الثمانينيات بدأت ظاهرة ارتياد المساجد من قبل تلك الأجيال الجديدة، لاسيما في ضواحي ليون. وفي البداية كان لجماعة التبليغ النفوذ الأكبر على هؤلاء الأنصار الجدد، خاصة في مناطق شاس وجيفورس (خارج ليون)، وحيث ظهرت بقوة مشكلات عدم الاندماج وقلة التوظف وتحلل وحدة الأسرة، وأزمات المجتمع الأكبر.



ولم يمض سوى أقل من عامين، وفي عام ١٩٨٩، وإذا بالاتجاه نفسه يتزايد داخل المدن الكبرى، لاسيما باريس، التي شهدت مساجدها زيادة ملحوظة في أعداد المترددين عليها. وهو ما لم يكن موجودا قبل ٣ سنوات فقط.

إن هذا العام له دلالته الكبرى، فقد ظهرت فيه بقوة على الساحة الجزائرية الجماعة الإسلامية للإنقاذ، وهو ظهور ساهم في تغيير وعي المسلمين الفرنسيين من ذوي الأصول الجزائرية بشأن علاقتهم ببلدهم الأم، وأيضا علاقتهم بالإسلام نفسه. بالإضافة إلى ذلك فهو العام الذي شهد ما بات يعرف بأزمة الحجاب، والتي قسمت البلد وأثارت جدلا كبيرا حول طبيعة ومسار الفكرة العلمانية التي تمثل جوهر النظام السياسي الفرنسي. حيث منعت إحدى المدارس الثانوية ٣ فتيات مسلمات من دخول المدرسة لأنهن رفضن نزع غطاء الرأس أثناء إحدى الحصص المخصصة للرياضة.

وهي الواقعة التي مثلت بداية تغيير استراتيجية الناشطين الإسلاميين في فرنسا. إذ اعتبرت فرنسا دار إسلام، حسب وصف راشد الغنوشي، الزعيم والمثقف البارز في حركة النهضة الإسلامية التونسية، والتي كانت لها امتدادات نظامية داخل فرنسا نفسها، وذلك في إحدى محاضراته التي ينظمها مجلس اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا. وكان إعلانه هذا دليلاً على بلورة هدف جديد للحركة الإسلامية في فرنسا، تمثل في إعادة أسلمة السكان الفرنسيين المسلمين، الذين ينحدرون من أصول غير فرنسية. ولم تكن هذه الاستراتيجية تعني بأي حال أسلمة المجتمع الفرنسي نفسه.



وضح جليا أن صيغ الانتشار والتوسع فى التعبير عن الهوية الذاتية، قد اعتمدت على ما يتيحه السياق العام من فرص قانونية أو اجتماعية أو ثقافية، جنبا إلى جنب الأنماط المفاهيمية التى أمكن استنباطها من قبل الناشطين لكى تكون موجها للحركة فى جذبها للأنصار والتعبير عن هوية جديدة



لقد أظهرت حادثة الحجاب أن شباب المسلمين، ورغم نشأتهم فى فرنسا وتعلمهم فى مدارسها، إلا أنهم لم يفقدوا صلاتهم بالإسلام، أو أنهم قبلوا نموذج الجمهورية العلمانية التى تحصر الدين فى النطاق الفردى وحسب. ومنذ ذلك الوقت ظهر أن هناك ما يمكن وصفه بإسلام فرنسا والذى يعلى من شأن الدين فى النطاقين الخاص والعام معا، سواء فى امتداداته المحلية الداخلية، أو الخارجية الدولية. وهو ما جرى التعبير عنه إبان حرب الخليج الثانية، حيث تعددت مظاهر تضامن المسلمين الفرنسيين مع من اعتبروهم إخوانا لهم فى الدين، كان الإعلام الغربى يعمد إلى التقليل من شأنهم.

لقد لعبت أزمة الهوية الفرنسية والأزمة الاجتماعية لاسيما واقع البطالة المتزايد، دورا متكاملا فى تشكيل بيئة مناسبة لازدهار حركة إعادة الأسلمة بين الجيل الشاب من مسلمى فرنسا. وتطورت هذه الاستراتيجية الجديدة حول اهتمامين رئيسيين :

الأول: ما رآه الشباب المسلم من حق الفتاة المسلمة ارتداء الحجاب فى المدرسة، من أجل إبراز الهوية الخاصة بها فى مواجهة الهوية العلمانية العامة.

الثانى: سعى النشطاء الإسلاميين لتشكيل وتأسيس روابط وشبكات للضمان الاجتماعى مُسيرة ذاتيا، لمواجهة المشكلات الاجتماعية فى حياة المدينة، ولاستبدال الهياكل والأبنية القديمة من نوادى الشباب ومراكز الترفيه وغيرها، والتى عكست تقاليد الكنيسة الكاثوليكية واتحادات العمال والأحزاب اليسارية، بمراكز إسلامية.

وفى هذه الأنشطة الجديدة فقد غطى الإسلاميون مساحة واسعة من الوظائف الاجتماعية، بداية من التعليم ونهاية بالحرب ضد المخدرات. وهو ما جعلهم محاورين بارعين ومتحدثين هامين بالنسبة للسلطات المحلية، التى سعت بدورها إلى التعاون معهم من أجل التعامل المناسب مع قضايا ومتطلبات الأجيال الإسلامية الجديدة. ولقد عكس هذا الاتجاه عملية مشابهة جرت فى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا.

وحتى قبل تشكيل الجبهة الإسلامية للإنقاذ لروابطها ومؤسساتها الفرعية داخل فرنسا، كان لها تأثير كبير على عملية تنظيم الإسلام فى فرنسا. حيث أقامت نموذجها على مزيج من القوة السياسية والعقيدة الإسلامية ومشروعات العمل الاجتماعى لمواجهة الفقر وإحباطات الشباب، ومواجهة القيم الثقافية الفرنسية. بعبارة أخرى أنها فرضت بديلا إسلاميا جماهيريا، وأسست لهوية إسلامية تقوم فى شق منها على رفض الغرب.

ولكم غيَّر هذا التحول، وربما بصورة جذرية، تلك العلاقة الوثيقة التى كانت قائمة بين فرنسا وشمال أفريقيا، وأعاد تأسيسها بناء على تلك الحقائق الجديدة. فلقد صار هناك إسلام فرنسى له مؤسساته وقيمه وتقاليده وجماهيره التى تعمل على إبراز وتأكيد هويتها الخاصة بها داخل السياق الفرنسى نفسه. ومن هنا كان هناك قلق حقيقى لدى السلطات الفرنسية إبان حرب الخليج الثانية، إذ تزايدت المخاوف من انتقال عدوى تأييد الرئيس صدام حسين التى كانت موجودة داخل بلدان شمال أفريقيا إلى داخل المجتمع المسلم فى فرنسا ذاتها.



وفى مرحلة لاحقة، عمدت السلطات الفرنسية إلى تفكيك الروابط السرية التى أقامتها الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وطبقت من خلالها استراتيجيتها الخاصة بإعادة أسلمة مسلمى فرنسا من ذوى الأصول الجزائرية خاصة والشمال أفريقية عامة. وجرى هذا التفكيك بالتنسيق بين السلطات الفرنسية والجزائرية، التى كانت تواجه بدورها طوال التسعينيات حركات تمرد إسلامية مسلحة كبرى، مازالت ذيولها قائمة حتى هذه اللحظة.

ويظل القول الحق إن الدولة الفرنسية، وبالرغم من أن مسلميها هم مواطنون فرنسيون بحكم القانون، فهى لم تفعل لهم شيئا من أجل إدماجهم اجتماعيا أو من خلال منحهم فرصا للدخول فى سوق العمل، وبذلك تركت الساحة خالية للروابط والمنظمات الإسلامية لتحل محلها بقوة وتأثير كبيرين. ومع ذلك فمن المبكر جدا الحكم بأن هذه الحركة الجديدة لإعادة الأسلمة تمثل مجرد مرحلة عارضة، أم أنها ستؤدى إلى بلورة اتجاه له جذوره القوية فى المجتمع الفرنسى ككل. وفى كل الأحوال وبغض النظر عن مدى تدخل الدولة أو ابتعادها عن مواجهة هذه القضية الشائكة، فإن الحاجة لبلورة هوية جماعية، كان لها دور بارز فى تجميع القوى والأنصار لمواجهة ما يمثل بحق معضلات الاستبعاد من قبل المجتمع ما بعد الصناعى.

نظرة كلية

ماذا تعنى هذه النماذج من نشوء جماعات محلية تضامنية فى المجتمعات الغربية؟ حول هذا السؤال يجيب الكاتب مشيرا إلى أن النماذج الثلاثة تكشف عن عدة أمور مشتركة، يرى أنها تعكس تحليله الكلى الذى اعتمد عليه، وقام بالأساس على فكرة الدور الحاسم للأبعاد الاجتماعية والثقافية فى تشكيل جماعات محلية ذات طابع تضامنى، تعمل على إبراز هوية محددة لأنصار تلك الجماعة وأعضائها. ومن الأمور المشتركة أن سعى تلك الجماعات إلى بلورة هوية تختلف عن هوية المجتمع الأكبر الذى تعيش فيه قد أثار تعقيدات غير متوقعة وانشقاقات داخل الجماعة المحلية نفسها وداخل المجتمع الأكبر أيضا وبنفس الحدة والدرجة معا.

وفى كل حالة على حدة وضح جليا أن صيغ الانتشار والتوسع فى التعبير عن الهوية الذاتية، قد اعتمدت على ما يتيحه السياق العام من فرص قانونية أو اجتماعية أو ثقافية، جنبا إلى جنب الأنماط المفاهيمية التى أمكن استنباطها من قبل الناشطين لكى تكون موجها للحركة فى جذبها للأنصار والتعبير عن هوية جديدة. وهو أمر لم يكن يسيرا بالمرة، وعكس أشكالا وإشكالات حركية وفكرية مركبة.

وثانيا فإن نشأة تلك الحركات قد ساهمت فى إعادة اختبار مفهوم المواطنة، الذى كان فى قلب التفكير السياسى الغربى منذ عصر التنوير، إذ إن هذه الحركات تفاعلت مع ما أدركته بأنه إنكار للمواطنة وليس تجسيدا لها، حتى ولو كان الأمر مرعيا فى نصوص القانون، كما هو الحال فى بريطانيا وفرنسا. وهو إدراك ربط بين ما هو دينى، أو وظف ما هو دينى لجلب ما هو سياسى، وهو ما تبرزه حالة «أمة الإسلام» الأمريكية. والتى عبرت فى مراحلها الأولى عن عملية نفى أو إنكار مخطط ومدروس للهوية السلبية - التى كان يشير إليها تعبير نجرو - التى كان يحملها السود بفعل هيمنة وسيطرة الرجل الأبيض. ولذلك كان من أحد مظاهر الانتماء للهوية الجديدة تغيير الأسماء الفردية لتتوافق مع متطلبات الهوية الجديدة. وهكذا حدث الانفصال المرغوب عن البيئة الأكبر الظالمة، أو المنكرة للحقوق الطبيعية. ونفس النتيجة تقود إليها مظاهر الانضباط السلوكى الفردى والجماعى التى التزم بها أنصار الجماعة تعبيرا عن هويتهم الجديدة، وانسلاخهم عن الهوية المرفوضة.

وربما أظهرت الحالة البريطانية سياقا مختلفا بعض الشىء. فحق المواطنة مكفول قانونا للأقليات العرقية والدينية، ولكنه من حيث السلوك الفعلى غير محسوس، إذ هناك حقوق أكبر لمن يعتبرون أبناء البلاد الأصليين مقارنة بالحقوق الممنوحة لهؤلاء المهاجرين الآتين من مناطق أخرى. وهنا فإن التعبير عن الهوية الجماعية لا يمثل - كما فى الحالة الأمريكية - انفصالا عن المجتمع الأكبر أو رفضا للعنصرية فيه، وإنما استجابة للنظام القانونى الذى يبيح للجماعات التعبير عن نفسها فى صور وأشكال نظامية مختلفة، كأحد أساليب تحقيق السلام الاجتماعى بين أقليات وهويات مختلفة تنضوى جميعها تحت التاج البريطانى. ومن هنا كانت الحكومات البريطانية فى موقف التشجيع لبناء المساجد والروابط التضامنية المختلفة لأبناء الأقليات الإسلامية القادمة من شبه القارة الهندية.

لكن الوضع التسامحى تغير منذ منتصف السبعينيات وصاعدا، حيث تصاعدت البطالة واهتز استقرار الأسر، وبرزت الحاجات التعليمية والثقافية الخاصة للأبناء، ومن هنا بدأ البحث مرة أخرى عن هوية خاصة تعكس المضمون الدينى والثقافى الخاص، فى مواجهة المجتمع الأكبر، ولكن عبر توظيف آلياته القانونية التى تسمح بذلك سلميا.



الحالة الفرنسية تعطى مؤشرات أخرى، فالدولة الفرنسية حاولت استيعاب التعبير النظامى الدينى من خلال الإطار القانونى الحاكم للعبادة، ورفضت أية صيغة خاصة للتعامل مع الجماعات الإسلامية الباحثة عن هويتها معاملة خاصة. ذلك ان رؤية الدولة الفرنسية أن هؤلاء مواطنون فرنسيون، لهم - نظريا - كل الحقوق، ومن ثم فليس هناك مبرر لتوفير مساحة من التميز لهم بناء على أسس ومعايير ثقافية أو دينية. ومن هنا تختلف الحالة الفرنسية عن الحالة البريطانية بوضوح شديد.

لكن التطورات التى شهدها المجتمع الفرنسى الأكبر، ومجتمعات المسلمين فيه، والتأثيرات الواردة من الخارج عبر الحدود، حتمت قدرا من الجدل حول هذه الرؤية الرسمية. وهو ما تجلى فى حادثة الحجاب الذى عبر بدرجة أو بأخرى عن أن صغار السن يعدون الضحايا الحقيقيين لعدم الاندماج الاجتماعى، وأيضا فى الانتشار الكثيف للمساجد ونشأة الروابط التضامنية، وتأثيرات الجبهة القومية للإنقاذ ومجريات المواجهة بين السلطات الجزائرية والجماعات الإسلامية المسلحة. إلا أن إصرار الدولة الفرنسية على أن الجميع، بغض النظر عن الدين، مواطنون فرنسيون، ساهم فى الإحساس العام بالرضا والتضامن، وبالتالى خفف من النقص الفعلى لحقوق المواطنة.

وفى النهاية تبقى كلمة، ذلك أن المبدأ العام الذى حرص عليه الباحث تمثل فى أولوية إن لم يكن كلية العامل الاجتماعى فى مسألة البحث عن هوية ذاتية لجماعة ما، وهو الأمر الذى برز فى اعتبار عامل الفشل فى الاندماج فى المجتمع الأكبر، الذى هو ما بعد صناعى، المحرك الرئيسى فى البحث عن هوية جديدة والتمسك بها. ودون التقليل من شأن العامل الاجتماعى، والاعتبارات السياسية السائدة والميراث التاريخى ودور القيادة الكاريزمية فى تشكيل الجماعات المحلية التضامنية سواء على أسس دينية أو عرقية أو كليهما معا، فهل يمكن تجاهل قيمة العوامل الجاذبة فى العقيدة الإسلامية نفسها؟. فى يقينى أن الإجابة ليست حاسمة. ■

مشاكل المسلمين

العودة إلى أرض الأندلس

محمد فخري الوصيف

إسبانيا ليست بلدا أوروبيا عاديا، إنها وتوأمتها البرتغال - بخلاف كل دول أوروبا الغربية - لهما تاريخ طويل مع الإسلام والثقافة الإسلامية. إنهما معا أرض الأندلس. صقع من أصقاع الإسلام على امتداد قرون ثمانية، وأرض امتد بها الحضور الإسلامي إلى تسعمائة عام (٧١١ - ١٦١٤م)، وحضارة نهلت من قطوفها البشرية وأسهمت في نهضة أوروبا

يشغل الإسلام اليوم مكاناً هاماً في الفضاء الأوروبي، ليس فقط لكونه هدفاً لدراسات دينية وأنثروبولوجية وسياسية فيما يعرف بـ «الاستشراق»، ولكن أيضا باعتباره قضية حيوية ذات أبعاد سوسيوثقافية وسياسية وأمنية عظيمة التأثير على المجتمعات الأوروبية. السبب الأساسي لذلك يكمن في أن هذه المجتمعات أصبحت تحتوي بين جنباتها على جماعات عديدة من المهاجرين القادمين من مناطق جغرافية حيث يسود فيها الإسلام والثقافة الإسلامية.

يبلغ عدد المسلمين في دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة حسب الأرقام الأكثر دقة حتى أوائل هذا العام (٢٠٠١) عشرة ملايين نسمة موزعين بشكل أساسي على النحو التالي: فرنسا (ثلاثة ملايين)، ألمانيا (ثلاثة ملايين ونصف المليون)، انجلترا (أكثر من مليون)، هولندا (سبعمائة ألف)، بالإضافة إلى مليون ونصف المليون موزعا بين بلجيكا وإيطاليا وإسبانيا واليونان وبلدان أخرى. إجمالي هذا العدد يمثل ٣٪ من عدد سكان الاتحاد الأوروبي (٧٣٣ مليون نسمة)، وهو رقم متواضع نسبيًا من حيث الكم خاصة إذا قارناه بعدد المهاجرين بمناطق أخرى في العالم. فعلى سبيل المثال، حتى الأمس القريب كان إيران تضمّ ثلاثة ملايين نازح من أفغانستان والعراق، أي بنسبة ٥٪ من عدد السكان الإيرانيين (٦٠ مليون نسمة). ورغم تواضع رقم المهاجرين المسلمين في أوروبا، فإنه يحمل دلالات اجتماعية ثقافية بالغة الأهمية، وكاف لإثارة العديد من المشاكل؛ ولهذا فالفحص الميكروسكوبي للأقليات المسلمة في الاتحاد الأوروبي يمثل جوهر وهدف الكثير من الدراسات السوسيوثقافية في أوروبا الراهنة.

وإسبانيا، مثل غيرها من دول أوروبا الغربية، نالت حصتها من المسلمين، ونصيبها يبلغ — في حده الأقصى — حوالي ٣٠٠ ألف شخص، أي ٣٪ من عدد المسلمين في الاتحاد الأوروبي، وتقريبا ١٪ من عدد سكان إسبانيا (٤٠ مليون نسمة).

رقم متواضع أيضا .. لماذا؟

من جهة، لأن الهجرة، وهي المغذّي الأول والأساسي للمسلمين في إسبانيا شأن باقي دول أوروبا، لم تصبح ظاهرة إلا مؤخراً، منذ أواخر السبعينيات، وخاصةً بعد انضمام إسبانيا للسوق الأوروبية المشتركة سنة ١٩٨٦. ومن جهة أخرى، لعدم وجود ماضٍ استعماري عريق لإسبانيا يربطها بالعالم الإسلامي تاريخياً وبشرياً، باستثناء الحماية الإسبانية على شمال المغرب (حوالي ٢٠٠٠ كم مربع) من ١٩١٢ إلى ١٩٥٦ والسيطرة الإسبانية على الصحراء المغربية قليلة السكان (٢٠٠ ألف كم مربع) حتى سنة ١٩٧٥.

ولكن لعل أكثر ما يثير الدهشة أن إسبانيا ليست بلداً أوروبياً عادياً. إنها وتوأمتها البرتغال — بخلاف كل دول أوروبا الغربية — لهما تاريخ طويل مع الإسلام والثقافة الإسلامية. إنهما معا أرض الأندلس. صقع من أصقاع الإسلام على امتداد قرون ثمانية، وأرض امتد بها الحضور الإسلامي إلى تسعمائة عام (٧١١- ١٦١٤م)، وحضارة نهلت من قطوفها البشرية وأسهمت في نهضة أوروبا. الأندلس فردوس خالد لم تزل شواهده تثير الإعجاب، وحسنه دائم الحضور. والبيّنات راسخة: محراب مسجد قرطبة لا يزال يخطف الأبصار، قصر الحمراء لؤلؤة لألئ السياحة الإسبانية، المفردات والأسماء العربية لا تخطئها الأذن، ابن حزم وابن طفيل وابن رشد وابن عربي، نجوم أندلسية خالدة لا تزال ساطعة في سماء الفكر العالمي. ولهذا فرغم حسرات المسلمين على الفقد والخسران وزفرات الضياع ولوعة الحرمان من «الفردوس»، فقد صدق أستاذنا الدكتور حسين مؤنس القول بأن «الفردوس» ظلّ باقياً حيّاً لأنه شئٌ ولا يزال على العالم علماً وفناً وفكراً. ولكن الوجه الآخر من الحقيقة الأندلسية أن الوجود البشري الإسلامي قد انعدم من أرض الأندلس بسبب سياسة الاستئصال والأسبنة المتعصبة التي بلغت ذروتها بالطرد الجائر للمسلمين من الفردوس فيما بين سنتي ١٦٠٩ و١٦١٤. هكذا وطبقاً للتاريخ الرسمي لم يبق بالأراضي الإسبانية مسلم واحد بعد سنة ١٦١٤، باستثناء الرعايا المغاربة المسلمين سكان مدينتي سبتة ومليلة اللتين دخلتا تحت السيادة الإسبانية منذ حوالي أربعة قرون، الأولى في سنة ١٥٨٠ والثانية في ١٥٥٦.

ومع ذلك تكرّ الأيام والشهور، وتمضي السنون، بل وتمرّ القرون، ويدور الزمان دورته ليعطي مغزىً من مغازه المثيرة؛ فقد عاد المسلمون إلى أرض الأندلس عودة سلمية، دون سيوف وطبول، أو دروع وتروس. عودة مدنية في مناخ إسباني ديموقراطي، ولكنها ليست عودة سهلة لأنها تواجه مشاكل عدّة على ما سنذكر لاحقاً.

الآن لا تخفى أمام عين الزائر للعاصمة الإسبانية السحنة السمراء للمهاجرين المغاربة والحجاب النسائي الإسلامي، وإذا ما تجوّل في أحياء حيث يكثر المهاجرون، فإنه سيلمح لافتات مكتوبة بالعربية تشير إلى «مجزرة حلال» أو إلى مصرف أو مركز خدمة هاتفية، وإذا ما صادف يوم تجواله يوم جمعة في وقت الظهيرة فإنه سيلاحظ اكتظاظاً في محطّات المترو التي توصّل إلى المسجدين الكبيرين اللذين تضمهما مدريد. ويتكرر هذا المشهد بشكل أو آخر في كثير من المدن، بل وفي القرى الإسبانية.



وكما كان للخروج تاريخ، فإن للعودة أيضا تاريخها.

في منتصف السبعينيات من القرن العشرين كانت أزمة البترول العالمية، والتي كان من نتائجها بطء النمو الاقتصادي لدول شمال ووسط أوروبا، مما أجبر حكومات هذه الدول مثل ألمانيا وهولندا وفرنسا على غلق حدودها أمام تيار الهجرة الاقتصادية القادم من العالم الثالث والعالم الإسلامي. مع ذلك لم تتوقف الهجرة، وأنّى لها أن تتوقف؟ فثمة أزمة اقتصادية طاحنة كانت تعصف بدول العالم الثالث منذ أوائل السبعينيات وطوال حقبة الثمانينيات، بالإضافة إلى زيادة سكانية كانت تضغط على الشباب العاطل أو المحبط للبحث عن الرزق في أراضين أخرى. زد على هذه الهجرة الاقتصادية هجرة سياسية من جراء الحروب والاضطرابات والنزاعات السياسية مثل الثورة الإسلامية في إيران في ١٩٧٩ وأحداث لبنان في الثمانينيات وحربي الخليج

1- Comunidades islamicas en Europa
(الجماعات المسلمة في أوروبا)
Montserrat Abumalham
Editorial Trotta, 1995

2- La inmigración en Espan
(الهجرة في إسبانيا)
Miguel Pajares
Lcaria & Antrazyt, 1999

الأولى والثانية ومؤخّراً أحداث الجزائر فى التسعينيات.

بيد أن الجديد هو أن تيار الهجرة فى مجمله غيَّر وجهته إلى بلدان أوروبية أخرى كانت حتى منتصف السبعينيات مناطق طرد، بالتحديد إلى جنوب أوروبا، وعلى وجه الدقة إلى إيطاليا وإسبانيا. سببان لذلك التوجُّه الجديد. الأول أن هاتين الدولتين كانتا عمليّاً مفتوحتين أمام الهجرة، فلم تكن هناك ثمة موانع قانونية تحول دون دخول المهاجرين. إيطاليا وضعت أول قانون ينظم دخول ووجود المهاجرين فى أراضيها سنة ١٩٨٦، وخمس سنوات بعد ذلك التاريخ اشترطت إسبانيا (بداية من مايو سنة ١٩٩١) تاشيرة الدخول المُسبقة إلى أراضيها على رعايا دول المغرب العربى. أما السبب الثانى، فهو أن هاتين الدولتين منذ منتصف السبعينيات وخلال الثمانينيات شهدتا نمواً اقتصادياً مرتفعاً، مما حوّلهما إلى دولتين جاذبتين للمهاجرين، وخاصة من دول الجوار المتوسطى العربى الإسلامى، لاسيما من بلاد المغرب العربى.

وكما أوضحنا من قبل تمثل الهجرة المصدر الأول والمغذّى الأساسى للوجود البشرى الإسلامى فى إسبانيا. ويشكّل الإخوة المغاربة الغالبية العظمى من المسلمين المهاجرين فى إسبانيا، وإلى جانبهم توجد أعداد أخرى من شمال إفريقيا والشرق الأوسط ومناطق أخرى. وهؤلاء المسلمون ـ خاصة المغاربة ـ موزَّعون فى غالبية الجغرافية الإسبانية، ولكنهم يتركزون أكثر فى مقاطعات مدريد وقطَلونية وأندلوثيـاً.

أمّا عن عدد المهاجرين المسلمين فى إسبانيا، فيشوبه المبالغة أحيانا من مصادر متنوعة. فحيناً تاتى المبالغة من جانب المسلمين بقصد تضخيم وزنهم العددى، وحيناً تصدر عن المنظمات الإنسانية غير الحكومية بدافع حث الحكومة والشعب على إعطاء المزيد من العناية للمهاجرين، وفى حين آخر تكون المبالغة بسوء نية من جهة القطاع الإسبانى الرافض للمهاجرين المسلمين بهدف تضخيم ما يسمى بـ«الخطر الإسلامى» و«الزحف الأسود». وعلى كل حال، فعدد المهاجرين القادمين من بلاد ذات غالبية مسلمة والحاصلين على إقامة شرعية فى البلاد حتى سنة ١٩٩٩، طبقا لبيانات وزارة الداخلية هو ١٦٦ و١٧٩ شخصاً على النحو التالى:

شمال أفريقيا		أفريقيا جنوب الصحراء		الشرق الأوسط الآسيوى	
المغرب	٨٩٦و١٤٠	غانا	٧٥٥	تركيا	٤٥٤
موريتانيا	١,١٤٧	مالى	١,١٨٩	إيران	٢,٠٥١
الجزائر	٧,٠٤٣	نيجيريا	١,٤٦٤	العراق	٤٣٥
تونس	٥٣٦	السنغال	٦,٦٥٧	الأردن	٦٥٤
ليبيا	١٨١	غينيا	٦٨٠	لبنان	١,١٦٥
مصر	٩١٩	غامبيا	٦,٩٦٩	سوريا	١,٠٠١
				باكستان	٤,٢٣٨
				بنجالاديش	٧٣٢
الجملة	١٥٠,٧٢٢١٥	الجملة	١٧,٧١٤	الجملة	١٠,٧٣٠

وإلى جانب هؤلاء المهاجرين الشرعيين، يوجد عدد معتبر من المهاجرين غير الشرعيين، وهم الذين دخلوا البلاد بطريق غير قانونى. وهو عدد خارج عن الإحصاء الدقيق، ولكن الخبراء يحسبونه بنسبة ٢٥ – ٣٠ ٪ من عدد المهاجرين الشرعيين. وبالتالى فى حالتنا هذه يكون عدد غير الشرعيين حوالى ٥٤,٠٠٠ (٣٠٪)، فيصبح لدينا حوالى ٢٣٤,٠٠٠ مهاجر قانونى وغير قانونى فى إسبانيا. ولكن يجب التنويه إلى أن الرقم المذكور لايمثل بالضبط عدد المهاجرين المسلمين، بل عدد القادمين من بلاد إسلامية أو ذات غالبية إسلامية، إذ يضم الرقم المذكور عددا من غير المسلمين، بيد أنه فى الغالب عدد ضئيل نسبياً بين ٣٪ و ٥٪ (بين ٧,٠٢٠ و١١,٧٠٠).

المسلمون المتجنسون (البلديون)

هم جماعة المهاجرين المسلمين الذين تجنّسوا بالجنسية الإسبانية، فاصبحوا من أهل «البلد»، أى «بلديين» فى الاصطلاح الأندلسى. بدأت نواة هذه الجماعة فى التكوين فى أواخر الخمسينيات وخلال الستينيات من القرن العشرين باستقرار أعداد محدودة من بلاد عربية ذات علاقة طيبة بنظام الجنرال فرانكو، أغلبهم من الطلاب السوريين واللبنانيين والأردنيين والفلسطينيين، ثم نالوا الجنسية الإسبانية. وإلى هؤلاء يجب إضافة الرعايا المغاربة، سكان مدينتى سبتة ومليلة، الذين حصلوا على الجنسية الإسبانية. ومن جُماع هاتين المجموعتين تشكلت نواة الأقلية المسلمة الإسبانية المعاصرة، لكن دون اعتراف قانونى بوضعيتها الدينية، وذلك بحكم طبيعة النظام السياسى القائم حينئذ المناهض للتعددية السياسية والدينية.

بتكاثف واستمرار تيار الهجرة، أخذ عدد الأقلية المسلمة المتجنّسة (البلدية) فى التزايد حتّى بلغ فى عام ١٩٩٠م حوالى ٢٣,١٣١، وهو رقم تقديرى محسوب على أساس أن نسبة المسلمين تصل إلى ٩٤,٥٪ من عدد المتجنسين من إفريقيا وآسيا، وهو ٢٤,٤٧٨ حسب البيانات الرسمية. وبإضافة حوالى عشرة آلاف متجنس فى حقبة التسعينيات. يمكننا القول إن عدد المسلمين المتجنسين أو «البلديين» فى إسبانيا يصل على وجه التقريب إلى ٣٣ ألفاً.

المسلمون الجُدد (الأسالمة)

هم جماعة الإسبان الذين تركوا الكاثوليكية واعتنقوا الإسلام فى الربع الأخير من القرن العشرين. ولا يوجد إحصاء رسمى أو تعداد دقيق لهذه الجماعة، وإن تحصيهم دراسات صحفية بحوالى خمسة آلاف شخص. والغالبية العظمى من هذه الجماعة من سكان مقاطعة أندلوثيّا، وهى تشمل مساحات كبيرة من الأندلس التاريخية مثل: إشبيلية وقرطبة وغرناطة وجيان وألمرية ومالقة وقادش ووِلبة

هؤلاء «الأسالمة»، إن جاز اقتباس هذا المصطلح الأندلسى، يتميزون بالنشاط السياسى والاجتماعى والدينى من خلال إنشائهم للعديد من الجمعيات، مثل: «الجماعة الإسلامية الأندلس» (إشبيلية ١٩٨٠)، و«جمعية التحرير الأندلوثية» (إشبيلية ١٩٨٦)، و«جبهة التحرير الأندلوثية» (١٩٨٩)، و«الجماعة الإسلامية بإشبيلية – الأمة» (١٩٨٢)، و«الجمعية المسلمة المستقلة بقرطبة» (١٩٨١)، و«حركة المسلمين الأوروبيين – المرابطون»،

فى الفضـــــاء الأوروبــى



و«الجماعة الإسلامية بإسبانيا» (غرناطة). وغالبية هذه الجمعيات تؤكد على الانتماء إلى الإسلام كدين وإلى الأندلس كوطن.

أســـــأســـــة وتقنـيـن الوجـــود الإســـلامى

فى ٢٣ أبريل سنة ١٩٧١ أسست فى مدريد «الجمعية المسلمة بإسبانيا»، وهى أول جمعية إسلامية ذات صفة جامعة تتوجه بنشاطها إلى سائر المسلمين بإسبانيا، مختلفة بذلك عن جمعيتين أخريين ذاتى طابع محلى. الأولى سابقة على جمعية مدريد وهى «الجمعية المسلمة بمليلة» فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٨، والثانية لاحقة وهى «الزاوية المحمدية المسلمة بسبتة» فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٧١. وجدير بالذكر أن «الجمعية المسلمة» بمدريد كانت أول هيئة إسلامية تنجح فى تاسيس أول مسجد جامع فى العاصمة الإسبانية. وقد ظل هذا الجامع لسنوات عديدة المسجد الجامع الوحيد فى مدريد حتى سنة ١٩٩٢، وهو العام الذى شهد افتتاح المسجد الجامع التابع للمركز الإسلامى بمدريد الذى أنشاه الملك فهد بن عبد العزيز.



مع هذا فحتى ذلك الوقت لم يكن للمسلمين بإسبانيا وضعية قانونية خاصة بهم تحدد حقوقهم وعلاقتهم بأجهزة الدولة. بيد أن التغيير الديموقراطى الذى حدث فى إسبانيا بعد موت الجنرال فرانكو فى نوفمبر سنة ١٩٧٥ أدى إلى تغيير إيجابى فى أحوال المسلمين. كانت أول درجات التغيير صدور دستور ١٩٧٨، الذى ينصّ فى مادته السادسة عشرة على ضمان «الحرية الدينية وحرية العبادة للأفراد والجماعات»، ثم تلى ذلك صدور القانون المنظم للأديان سنة ١٩٨٠. وفى ١٤ يوليه سنة ١٩٨٩ أفتت اللجنة الاستشارية للحرية الدينية التابعة لوزارة العدل بأن الإسلام «دين متأصل الجذور» فى التراب الإسبانى. ومن أجل متابعة خطوات المفاوضات مع ممثلى الإسلام، أخذت الهيئات الإسلامية الإسبانية فى توحيد صفوفها فى مجموعتين، الأولى: «الفيدرالية الإسبانية للهيئات الدينية الإسلامية» ((FEERI فى ١٧ سبتمبر من سنة ١٩٨٩، والثانية: «اتحاد الجماعات الإسلامية بإسبانيا» ((UCIE فى ١٠ أبريل سنة ١٩٩١، ثم بعد مرور عام، وفى أبريل سنة ١٩٩٢ دخلت المجموعتان فى فيدرالية واحدة باسم «اللجنة الإسلامية بإسبانيا»، والتى معها وقعّت الحكومة الإسبانية «اتفاق التعاون مع الدولة» فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٩٢، والذى بمقتضاه تم الاعتراف بالإسلام كدين رسمى من أديان الدولة وتحديد الوضعية القانونية للمسلمين وحقوقهم بالدولة الإسبانية.

المعضلة السوسيوثقافية.

يواجه المهاجرون المسلمون فى إسبانيا مشاكل كثيرة، وهى تتشابه فى خطوطها العامة مع تلك التى يتعرض لها المهاجر المسلم فى دول الاتحاد الأوروبى. من هذه المشاكل فيما يخص إسبانيا: تعلّم اللغة الإسبانية، والحصول على عمل، وإيجاد مسكن ومدارس للاولاد، إلى جانب الصعوبات الرسمية مثل تصريح العمل وتصريح الإقامة، وما إلى ذلك. هذه المشاكل على ثقلها وما تسببه من صداع، فإنها ذات طابع إجرائى ووقتى، بمعنى أنها تجد طريقها إلى الحل بمرور الوقت وتطور الظروف واكتساب المهاجر الخبرة اللازمة للتعامل مع هذه الصعوبات. بيد أن الصعوبة الحقيقية عميقة الأبعاد، والتى تستغرق وقتاً طويلاً، ربما تمتد إلى أجيال، حتى تلقى الحل المناسب، إنما تكمن فى التحدى السوسيوثقافى، والذى يتمحور فى علاقة المهاجر المسلم بالمجتمع المستقبِل (بكسر الباء).

فالمهاجر المسلم ينتمى إلى عرق مختلف، ولغة وديانة أخريين، وثقافة متباينة، هى بُنى تشكل ماهية المهاجر وتطبعه بطابع خاص، تعطيه رؤية مائزة للحياة، وفكر خاص، وسلوك معين، بل وطريقة لصيقة به فى الأكل والشراب واللّباس والتعبير. كل هذا يجعل من المهاجر المسلم عنصراً بشرياً مختلفاً، مُشكّلا مع أقرانه جماعة سوسيوثقافية مختلفة عن المجتمع الذى هاجر إليه. وذلك بدوره له بُناه الخاصة: الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويؤدى اللقاء ــ أو قل إن شئت الصدام ــ بين الطرفين إلى معضلة سوسيوثقافية ذات طابع جدلى، قطباها «الأنا» و«الآخر» على مستويين متبادلين.

المجتمع المستقبل / الجماعة المهاجرة (= «الآخر» الأجنبى)

أنوية المجتمع المستقبل واعية بتفوقها وثقلها وقوتها وتحضرها وغناها، ومدركة لدونية «الآخر» الأجنبى (القادم من العالم الثالث) وضآلته وضعفه وتخلفه وفقره. ومن هنا تولد الأفكار النمطية العامة التى تحكم عقلية المجتمع وتملى عليه سلوكياته فى أغلب الأحيان. من تلك الأفكار أن المهاجر فرد محتاج إلى المساعدة والحماية والرعاية الاجتماعية، ورغم العطف الإنسانى الظاهر فى هذه الفكرة، فإن باطنها يعنى فى الحقيقة أن المهاجر ليس مواطناً يتمتع بحقوق المواطنة التى ياتى فى أولها الحق فى تغطية احتياجاته الأساسية، بل إنسان يستحق الصدقة والإحسان. وثمة فكرة أخرى عملية مؤداها أن المهاجر «ضيف» يؤدى عملاً، وبالتالى له الحق فى التمتع بمزايا معينة، ولكن لا يجب أن يتجاوز هذا الدور، وإذا حدث هذا وسبّب مشاكل من نوع ما، فإن جزاءه «الحرمان» من هذه المزايا. وكما أن «الأنا» تعنى بانتمائها إلى «السُرّة» الأوروبية: عنصراً وديناً وحضارةً وثقافةً، فإنها ترى «الآخر» منتميا إلى جنس أو أجناس مغايرة ومتخلّفة، وأن وجوده مدعاة لانتقال عاداته المتخلفة وقيمه الفاسدة، ومجلبة لفساد الإشراق الأوروبى وتلوث البهاء الغربى.



زيادة على ما سبق، يعانى المهاجر المسلم، أو بالأحرى المهاجر المسلم العربى، من فكرة نمطية تحكم المجتمع الإسبانى وتحدد علاقته، وهى ليست فقط الكراهية الأوروبية التقليدية للمسلم، ولكنها أيضا العداوة التاريخية المستحكمة للمسلم العربى، عداوة يتعلمها الإسبانى منذ طفولته فى المدرسة، فهو يدرس أن الموروس (Los Moros)، أى المسلمين، احتلوا بلده قرابة قرون ثمانية، مما تسبب فى حرب طويلة المدى لاسترداد الوطن والشرف السليبين عرفت بحرب الاسترداد (لا ريكونكستا La (Reconquista والتى انتهت بانتصار الكاثوليكية بسقوط مملكة غرناطة سنة ٨٩٧هـ (= ١٤٩٢م)، ثم بطرد الموريسكيين (المسلمين المنتصرين) سنة ١٦١٤م. خلال كل هذا الوقت تربّت الأنا على أحادية: الإسبانى / الكاثوليكى المنتصر وعلى كراهية «الآخر» (المسلم) المهزوم. ولهذا ليس بمستغرب أن يحتل العرب والمسلمون دائما فى استطلاعات الرأى الإسبانية الموقع الثانى فى الرفض والكراهية بعد الغجر.

كما تسود هذه الأفكار النمطية العامة المجتمع الإسبانى، فإنها أيضا تحكم سلوك الفرد الإسبانى العادى تجاه مهاجر العالم الثالث بوجه عام والمسلم بوجه خاص. وهو سلوك يتسم لحد كبير بالرفض، ويتراوح فى حده الأدنى بين الرفض الصامت المتوجس، وحده الأقصى المتمثل فى السلوكيات العنصرية المتطرفة مثل القتل والضرب البدنى والطرد، وهى ــ حمداً لله ــ أفعال محدودة، مرورا بالسلوكيات العنصرية النمطية مثل رفض تاجير المساكن للمهاجرين أو تاجيرها بأسعار مبالغ فيها، والتمييز العنصرى فى الأماكن العامة، وغير ذلك من أشكال الرفض العنصرى والثقافى.

وإلى جانب ذلك توجد أفكار إيجابية تتردد بين فريق من الإسبان المستنيرين، من ذلك أن المهاجر عنصراً إيجابياً، فهو بعمله وثقافته يساهم فى بناء وتقدم وثراء المجتمع مادياً وثقافياً. وأن قبول المهاجر هو الاختبار الحقيقى للتعددية، لأنها فى جوهرها قبول «الآخر» المختلف سياسياً أواجتماعياً أوفكرياً أوثقافياً أو دينَياً، واحترام الأقلية، وإيمان بحق الاختلاف وقيمة التسامح، وذلك فى ظل مجتمع مدنى شامل للجميع ومن أجل الكل. ولهذا يرى هذا الفريق أن «الاندماج» الاجتماعى الذى تنادى به الدولة الإسبانية لا يجب أن يكون جهداً أحادياً من طرف الجماعة المهاجرة بحيث تقوم بنبذ عاداتها وقيمها وهويتها ليتحقق «الاندماج» المنشود حسبما يرى الفريق المحافظ. فهذه عملية «دمج» فى رأى المستنيرين ؛ لأن «الاندماج» الصحيح عملية متبادلة بين المجتمع المستقبِل والجماعة المهاجرة، وأن الاتصال بين ثقافتين يقتضى المكسب والخسارة، ويكون اتصالاً ناجحاً لو توزّع المكسب والخسارة بين الجماعتين.

ولتحقيق هذا «الاندماج» الإيجابى يطالب هذا الفريق المستنير، بالتعاون مع الهيئات الإسلامية الإسبانية، بالبدء فى المجال التربوى بإدخال اللغة العربية كلغة ثانية اختيارية، وإدخال مواد عن الثقافة والحضارة الإسلامية فى مناهج العلوم الاجتماعية، وإضفاء النظرة الموضوعية على المواد الدراسية التى تتناول التاريخ والحضارة الإسلامية. وقد بدأ هذا الاتجاه المستنير يحقق بعض التقدم، فعلى سبيل المثال تُراعى الثقافة الإسلامية فى قوائم الطعام فى كثير من المطاعم المدرسية، ويُظْهِر بعض أعضاء هيئات التدريس فى عدد من المدارس الاحترام لبعض فروض الإسلام مثل الصيام ويحتفون بالطالب الصائم، كما يقدمون التهانى بالعيدَيْن للطلاب المسلمين.

وجدير بالذكر أن هذا الاتجاه المستنير ينبه إلى أن عدم تحقيق مثل هذا «الاندماج» الإيجابى يؤدى إلى تهميش وإقصاء الجماعة المهاجرة المسلمة مما يجعلها مرتعا للأفكار المتطرفة والسلوك العدوانى المضاد، وهذا مآله بطبيعة الحال إلى حدوث توترات اجتماعية ذات أبعاد أمنية خطيرة، وهو ما جرى بالفعل فى أحداث إل اخيدو (El Egido) إحدى مدن محافظة المرية، فى فبراير سنة ٢٠٠٠.

الجماعة المهاجرة / المجتمع المستقبل (= «الآخر» المهيمن)

الجماعة المهاجرة أقلية ضئيلة العدد لاتسعى إلى فرض ثقافتها على الأغلبية الساحقة (الآخر)، على العكس، إنها ــ أى الأقلية ــ تسعى فى عمومها، باستثناء أعداد

مشـــــاكل المســـــلمين

يعانى المهاجر المسلم، أو بالأحرى المهاجر المسلم العربى، من فكرة نمطية تحكم المجتمع الإسبانى وتحدد علاقته، وهى ليست فقط الكراهية الأوروبية التقليدية للمسلم، ولكنها أيضا العداوة التاريخية المستحكمة للمسلم العربى، عداوة يتعلمها الإسبانى منذ طفولته فى المدرسة

قليلة، إلى «الاندماج» فى المجتمع. وفى نظر الدارسين الاجتماعيين أن الأسرة فى الجماعة المهاجرة تمثل العنصر الأساس فى الاتصال بالمجتمع الجديد؛ لأنها ــ وليس الفرد ــ أكثر احتفاظاً بقيم وعادات المجتمع الأصلى. كما أنهم يرون أن «الاندماج» متعدد الأشكال، ومتشابك الحدود، ولكن على أى الأحوال يمكن التمييز بين ثلاثة أشكال من «الاندماج»: الجزئى والجذرى والمتوازن.

«للاندماج» الجزئى وجهان، الأوّل يحدث خارج البيت؛ حيث يقتصر اتصال أعضاء الأسرة المهاجرة المسلمة بالمجتمع الإسبانى على مجالات العمل والبيع والشراء والمدرسة، فما أن ينتهى العمل وتغلق المدرسة أبوابها ويعود الجميع إلى البيت، حتى تستأنف الأسرة حياتها كما لو كانت تعيش فى بلدها الأصلى. المغاربة، على سبيل المثال، «يهدرون» بالعامية المغربية أو الشلحة البربرية، يقرأون باللغة العربية، يأكلون «الكسكسى» أو «الحريرة»، يسمعون موسيقاهم وأغانيهم، يتبعون بشكل عام نمط حياتهم الخاص بكل ما يتضمنه من عادات وتقاليد وقيم وسلوكيات. وعلاقاتهم الاجتماعية تكاد تقتصر على أقربائهم وأهل بلدهم. ومع ذلك فثمة عنصران غريبان داخل البيت، ولا فكاك منهما. أولهما: الكتاب المدرسى الإسبانى وما يتعلمه الأطفال المهاجرون فى المدرسة، وثانيهما: التلفزة وما تحمله من لغة وقيم وعادات جديدة. وهذان العنصران بمرور الوقت يؤثّران تأثيراً كبيراً فى الأسرة خاصة الأبناء الذين يأخذون فى تقليد وتبنّى نمط الحياة الإسبانى. وهنا إما أن يواجهون برفض الآباء وتستمر الأسرة فى مواصلة حياتها بنفس الطريقة المذكورة مع ما يؤدى إليه ذلك من مشاكل بين الأبناء والآباء. وإما أن يقبل الآباء فيما يمكن تسميته بالوجه الثانى من «الاندماج» الجزئى.

القبول مع ذلك ليس مطلقاً، فالآباء يضعون خطوطاً حمراء على قواعد سلوك الأبناء ولا يسمح لهم بتجاوزها، فعلى سبيل المثال يسمح الآباء لأبنائهم بعمل ما يروق لهم خارج البيت أو لا يجبرونهم على أداء الفروض الدينية مثل الصلاة والصوم، وهو ما يطلق عليه «التسامح السلبى»، لأن الأب فى داخله غير موافق على السلوكيات الجديدة لأبنائه ويظلّ هو وفيًا لنمط حياته الأصلى وثقافته ودينه.



مع هذا، فهؤلاء الأبناء المتأسبنون هم مثار انتقاد أبناء بلدهم من جهة، ومن جهة ثانية، لا يصبحون أقل «أجنبية» فى أعين الإسبان ولا يحوزون على كامل رضاهم، ومن جهة ثالثة، قد يؤدى هذا الشكل من «الاندماج» الجزئى إلى صراع عائلى بسبب الحدود المفروضة، فما دام قد سمح للأبناء بأشياء فلماذا لا يسمح لهم بأشياء أخرى؟ وهذا يفضى إلى صراعات نفسية، وتبقى معضلة «الاندماج» دون حلّ.

وقد يكون الحل فى «الاندماج» الجذرى، وهو يقوم على البحث على القبول فى المجتمع الإسبانى وحيازة رضاه مهما كان الثمن، لهذا تكون الوسيلة الوحيدة هى نبذ الهوية الثقافية الخاصة: اللغة والدين وقواعد السلوك والعادات والتقاليد، والتبنّى الكامل للهوية الثقافية الإسبانية، أو فى عبارة واحدة استبدال «الآخر» بالأنا، بقصد الرغبة العارمة فى أن يكونوا إسباناً وليسوا «أجانب». والمتبنون لهذا النموذج، بطبيعة الحال، يقطعون صلاتهم بأبناء جلدتهم المهاجرين وبعوائلهم فى بلدهم الأصلى، وهم بالفعل قد يحققون «الاندماج» المنشود ولكن على مذبح القطيعة الثقافية مع أصولهم، ويصبحون على مدى جيل أو جيلين «أنوات» شائهة كاذبة وذوات منبتّة الجذور.

أما «الاندماج» المتوازن، فإنه يقوم على تحقيق توازن سوسيوثقافى بين الثقافتين: الأصلية والجديدة، والجماعتين: المهاجرة والمستقبلة، وإنجاز نوع من التماهى المحسوب بين أسلوبين للحياة. وهذا الأمر يتطلب مرونة فى الفهم وكياسة فى السلوك، كما أنه يقتضى النظر إلى ما يوحّد وليس إلى ما يفرّق، ويلزم البحث عن جوهر الأشياء لا مظاهرها. فعلى سبيل المثال يؤخذ بالجمع بين الديانتين: الإسلام والمسيحية مثل الإيمان بالله والقيم الإنسانية كحب الآخر والتسامح وغير ذلك من فضائل.

ومع ذلك يظل «الاندماج» بكل أشكاله المذكورة عملية سوسيوثقافية قاصرة ناقصة، وغير ناضجة، وذات بعد فردى؛ لأنها بمثابة ردود أفعال للجماعة المهاجرة المسلمة فى مقابل ضغوط «الآخر» المهيمن عدديًا وثقافيًا واقتصاديًا. ولهذا لن يتحقق «الاندماج» الصحيح والصحى، الكامل والناضج، إلاّ إذا أصبح سياسة قومية تتبناها الدولة ويؤمن بها المجتمع الإسبانى والجماعة المهاجرة المسلمة معاً، مسترشدين بآراء المستنيرين سابقة الذكر أعلاه. ولعل هذا ما نأمل أن نراه قريباً ممثلاً فى الجيل الثانى من المهاجرين، والذى يحدونا الأمل أن يكون بمثابة جيل «المولّدين» الجُدد حسب المصطلح الأندلسى بمعناه السوسيوثقافى، أى العنصر البشرى الجديد الحامل لثقافتين صديقتين، والممثل لتعددية إيجابية، والرامز لتسامح إنسانى حقيقى، والمجدِّد لحضارة الأندلس الزاهرة. ■





كتاب الزاوية

رياض الصالحين

الإمام أبو زكريا النووى

محيى الدين أبوزكريا يحيى بن شرف الحورانى الشافعى (٦٣١-٦٧٦هـ) (١٢٣٤-١٢٧٨م). كان إماماً بارعاً حافظاً أمّاراً بالمعروف وناهياً عن المنكر تاركاً للملذات ولم يتزوج. أتقن علوماً شتى. ولِى مشيخة دار الحديث الأشرفية. أفردت ترجمته فى رسائل عديدة، وقد عدد ابن العطار- أحد تلامذته- تصانيفه واستوعبها ومن هذه التصانيف: تهذيب الأسماء واللغات، والمنهاج فى شرح مسلم، التقريب والتيسير فى مصطلح الحديث والأربعون النووية ومختصر أسد الغابة فى معرفة الصحابة، وهو كتاب جامع ومشهور.

باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء:

قال اللّه تعالى (الحجر ٨٨): ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى (آل عمران ١٥٩): ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وعن عدى بن حاتم رَضِيَ اللّهُ عَنهُ قال، قال رَسُول اللّه صَلَّى اللّهُ عَلَيه وَسَلَّم: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» مُتَّفَقٌ عَلَيه.

وعن أبى ذر رَضِيَ اللّهُ عَنهُ قال، قال لى رَسُول اللّه صَلَّى اللّهُ عَلَيه وَسَلَّم: «لا تحقِّرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» رَوَاهُ مُسلِمٌ.

المشهد الجديد

محمود عبد الفضيل

مطلوب إعمال «العقل الإستراتيجي» الأمريكي المستنير، وليس الاحتكام إلى مجرد القوة والعضلات. فعندما يكون «الجسد» أكبر من «العقل» تحدث كوارث كثيرة

[١]

يكاد يتفق معظم المحللين على أن القرن الجديد (الحادى والعشرين) قد بدأ حكماً يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بمعنى أننا بدأنا نشهد منذ ذلك التاريخ بداية لمقومات عالم جديد يزخر بنسيج جديد من التناقضات والصراعات. ولعل أحداث نيويورك وواشنطن، التى جرت فى عقر دار أكبر قوة عظمى تشير إلى بداية خلل كبير فى التوازنات والمعادلات الأساسية التى حكمت العالم منذ انفراد الولايات المتحدة بقيادة النظام العالمى الجديد، غداة انهيار الاتحاد السوفيتى وحائط برلين.

وبهذا الصدد، يشير «توماس فريدمان» - المحلل السياسى الذى يعكس رؤية دوائر المال وصنع القرار فى الولايات المتحدة - إلى أن ما نشهده منذ «الحادى عشر من سبتمبر» هو بداية «حرب عالمية ثالثة»، تجرى إدارتها، من الطرفين، بأشكال وأدوات جديدة غير معهودة من قبل. ويضيف أن الضربة التى حدثت فى «الحادى عشر من سبتمبر» كانت موجهة فى الأساس إلى هيبة أمريكا «القوة العظمى». إذ يشكل مركز «التجارة العالمى» الرمز الرئيسى لاقتصاد السوق والليبرالية وعصب نشاط الرأسمالية الأمريكية، من ناحية، كما يمثل البنتاجون رمز تفوق العسكرية الأمريكية، من ناحية أخرى.

ويستطرد «فريدمان» قائلاً: «إذا كانت هذه هى الطلقة الأولى فى الحرب العالمية الثالثة، فربما تكون الأخيرة من حيث استخدامها للأسلحة التقليدية (وليس الأسلحة النووية)». إذن هى حرب من نوع جديد تقع فى مساحة وسيطة ما بين الحرب «الباردة» و الحرب «الساخنة»، ويستخدم فيها «الذكاء» و«الذكاء المضاد»، والتكنولوجيا الأمريكية المتطورة والتكنولوجيا المضادة المبتكرة. ذلك أن ثورة التكنولوجيا الحديثة فى مجال المعلومات والاتصالات قامت بفتوح هامة دخلت إلى كافة الساحات، بما فى ذلك عالم «التمرد»، الذى استفاد هو الآخر من خلال «المنظومات الشبكية» التى تصل بين «الكتل المتمردة» عبر الأوطان والقارات وتجمع المطحونين والناقمين والساخطين والتائهين (راجع: مقال محمد حسنين هيكل، مجلة وجهات نظر، العدد ٣٣، أكتوبر ٢٠٠١، ص٧).

ويشير الأستاذ «محمد حسنين هيكل» فى مقاله الهام المنشور إلى أن تقارير أمريكية تحدثت عن ضرورة التحوط ضد بدايات نوع جديد من الحرب، أطلق عليها «الحرب غير المتماثلة».(Asymmetrical War) تلك الحروب التى سوف يستخدم فيها وسائل مستحدثة وتكتيكات غير تقليدية مبتكرة، تخرج تماماً عن «دائرة المعهود»، بدءاً من الاستراتيجية - إلى التخطيط - إلى العمليات. وبأساليب تفوق ما تزخر به أعمال «الخيال العلمى» (Science fiction) بمعنى أنه أصبح ممكناً ما كان يعتبر إلى عهد قريب من المستحيلات أو ضرباً من الجنون!

ولعل أهم ما يميز هذا النوع من الحروب، هو أن الذين يشنون هذا النوع من الحرب مستعدون لأعلى درجة من المخاطرة «لأن الخسارة بالنسبة إليهم فى الحالتين واحدة. وبالتالى فإن أعلى المخاطر تتساوى عندهم مع أقلها». (هيكل: ص ٨).

ويشير «ألفريد توفلر» فى مؤلفه الهام The Power Shift (1990)، إلى أن هناك مصادر ثلاثة للتغير فى السلطة، هى:

١ - العنف المسلح: وفقاً للمقولة الشهيرة أن «السلطة تنبع من فوهة البندقية»، بدءاً من الكاوبوى (رعاة البقر فى أمريكا) وانتهاء بأعلى أنواع «العنف» التى عرفتها «الحروب» و«الثروات».

٢ - المال: حيث إن سطوة المال تنتج فى شراء النفوذ والمواقع.

٣ - المعرفة: لأن «المعرفة هى ذاتها سلطة»، وفقاً لمقولة شهيرة للعالم الكبير «فرانسيس بيكون».

ولكى تنتصر «المعرفة» لابد لها أن تتحالف مع «العنف» أو «المال»، أو كليهما. إذ إن هناك علاقات «تغذية عكسية» بين العناصر الثلاثة. بيد أن ارتفاع مكون «المعرفة والمعلومات» فى خطط قوى التمرد الجديدة، يعتبر عنصراً جديداً هاماً وفاعلاً، يضاف إلى ذلك عنصر «الاستشهاد» أو «الانتحار». وعندئذ تصبح المعادلة الجديدة:

[المعرفة والتكنولوجيا العالية + العنف المسلح + الاستعداد للاستشهاد (أو الانتحار)] معادلة جديدة صعبة الكسر.

وهكذا سوف نجد تدريجياً أن «طلقات الذكاء التكنولوجى» تحل تدريجياً محل «طلقات الرصاص والمدافع والصواريخ». فالأسلحة الجديدة، وفقاً للمعادلة السابقة، هى أخف حملاً وأسهل فى المناورة والتمويه والتكتيك، وأكثر قدرة على المباغتة. ولذا فقد تكون أكثر فاعلية من «قوة النيران التقليدية» المنطلقة من فوهات المدافع وقاذفات القنابل.

ولا غرو أن إحدى جلسات «مؤتمر دافوس»، منذ عامين، كان عنوانها: «طلقات الرصاص» (Bullets) مقابل «طلقات المعلوماتية» و«البرمجيات» (Bites).

[٢]

يشير «ويليام بيرى» فى مؤلفه الهام: «الدفاع الوقائى: استراتيجية أمريكية جديدة للأمن» (١٩٩٩) إلى أن «الإرهاب» تحول بصورة مطردة إلى شاغل رئيسى من شواغل الأمن فى الولايات المتحدة. وهذا الكتاب له أهمية بالغة لأنه يعرض للمعالم العامة لاستراتيجية دفاعية وقائية جديدة ترمى إلى تحديد مخاطر «ما بعد الحرب الباردة»، التى قد تتحول إلى تهديدات واسعة للأمن الأمريكى، وكذا وسائل تجنبها فى القرن الحادى والعشرين. ولعل أهم ما يتعرض له الكتاب:

أ - كيفية السيطرة على التركة النووية للكتلة الاشتراكية السابقة.

ب - وسائل الحيلولة دون نمو الصين فى اتجاه العداء بدلاً من التعاون.

ج - الطريقة المثلى لمنع انتشار وسائل الدمار الشامل.

د - التصدى لأعمال «الإرهاب المدمر».

ومؤلفا الكتاب هما «ويليام بيرى»، وزير الدفاع الأمريكى الأسبق، وأستاذ بكلية الهندسة بجامعة ستانفورد وزميل بمعهد الدراسات الدولية بها، و«أشترون كارتر» مساعد وزير الدفاع الأسبق لسياسات الأمن الدولى، وأستاذ

الدفاع الوقائى: استراتيجية أمريكية جديدة للأمن
تأليف: ويليام بيرى
ترجمة: أسعد حليم
القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر ٢٠٠١

ومدير سابق لمركز العلوم والشئون الدولية بمدرسة جون كيندى بجامعة هارفرد. وقد ألفا عدداً كبيراً من الكتب، وهما يشتركان فى إدارة «مشروع ستانفورد ـ هارفرد للدفاع الوقائى».

ويرجع المؤلفان بداية الاهتمام الجاد بما يسمى «الإرهاب المدمر» إلى يوم ٢٦ يونية ١٩٩٦، حين قامت مجموعة إرهابية بتفجير سيارة كبيرة الحجم على بعد بضع مئات الأقدام من ثكنات أبراج الخُبر فى المقاطعة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، التى كان يقيم بها رجال الطيران الأمريكى الذين يقومون بتنفيذ منطقة حظر الطيران فى جنوبى العراق. وقد قتل فى هذا الهجوم ١٩ عسكرياً أمريكياً (ص ١٣٧ من الترجمة العربية).



ويشير «ويليام بيرى» فى مؤلفه الصادر فى نهاية التسعينيات: (إذا كانت استراتيجية الإرهابيين هى القيام بهجمات تزداد خطورة باستمرار، فإن الهجمات المقبلة يمكن أن تكون أشد خطورة لو تمكن الإرهابيون من الحصول على «غاز الأعصاب» أو «ميكروب الجمرة الخبيثة» أو على «سلاح نووى»). (ص ١٣٧ ـ ص١٣٨ من الترجمة العربية).

ويضيف فى موقع آخر إلى أن هناك مكامن للخطر من داخل الولايات المتحدة، إذ يقول: «كما أن «الميليشيات» الأمريكية وغيرها من الجماعات «المجاهدة» قد تطمح إلى استخدام العنف على نطاق واسع. وفى نفس الوقت أخذت أدوات الدمار الشامل تسقط تدريجياً فى يد جماعات أصغر فأصغر، مما جعل رصدها أصعب فأصعب» (ص ١٣٨، من الترجمة العربية).

وفى محاولة هامة للاقتراب من جوهر القضية، يقول «ويليام بيرى» إن: «الإرهاب المدمر يختلف عن تفجير القنابل، وأخذ الرهائن، واختطاف الطائرات. فهذا «الإرهاب الجديد» ينقل إلى مستوى مرتفع، درجة التدمير الناشئة عن تفجيرات أوكلاهوما سيتى، أو تفجيرات مركز التجارة العالمى (عام ١٩٩٣)، أو ما فعلته فئة «أوم شينريكيو» التى نشرت «غاز الأعصاب» فى مترو طوكيو، أو الهجوم على «أبراج الخُبر» التى كان يقيم بها الطيارون الأمريكيون فى المملكة العربية السعودية. فالإرهاب المدمر ينطوى على إتلاف للأرواح والممتلكات لأحجام أشد قسوة لم تعرف من قبل خارج نطاق العمليات الحربية» (ص ١٤٢ من الترجمة العربية).

ويكاد يتنبأ «ويليام بيرى» بما حدث يوم «الحادى عشر» من سبتمبر عام ٢٠٠١، إذ يقول: «نحن لا نعرف أين سيقع الهجوم الأول من هذا النوع فوق الأراضى الأمريكية، ولا نعرف متى يقع؟ ولكن ما نعرفه هو أننا نريد أن نصيب هذه المحاولة بالفشل، إذا أمكن، وإذا لم نتمكن من ذلك نريد أن تكون الخسائر فى الأرواح الناتجة عن الهجوم أقل ما يمكن». (ص ١٤١ من الترجمة العربية).

ويعترف «بيرى»، فى موقع آخر، أن «مرتكبى الأحداث يمكن أن يكونوا أمريكيين أو أجانب، يعملون فى نطاق الولاية أو النطاق المحلى، أو أن يكونوا مزيجاً معقداً من هؤلاء وهؤلاء. وقد تكون الدوافع داخلية أو دولية، أو كليهما فى وقت واحد. ولذا فإن هذا الخطر له طابع عابر للقوميات حقاً، وذلك عنصر آخر يجعل الإرهاب المدمر شكلاً جديداً ومختلفاً من أشكال مخاطر الأمن القومية والدولية» (ص ١٤٣ من الترجمة العربية).

وتصل النبوءة إلى كامل مداها، عندما يقول «وليم بيرى» بالحرف الواحد: «وكما حدث فى حالة الهجوم على «بيرل هاربر»، فإن حادثة من أحداث الإرهاب المدمر سوف تفصل بين ماضينا ومستقبلنا حيث نقول «قبل» و«بعد». والجهد والموارد التى خصصناها حتى الآن لتجنب هذا الخطر أو احتوائه فى الوقت الحالى، فى فترة «ما قبل» لن تكون كافية على الإطلاق عندما ننظر إليها بعد وقوع حادثة من حوادث الإرهاب المدمر»! (ص ١٤٤ من الترجمة العربية).

ويوصى «بيرى» ببذل جهد متزايد لمقاومة أساليب «الإرهاب المدمر»، على غرار ما جرى فى سنوات الخمسينيات، عندما أنشئت مؤسسات مثل راند (Rand corporation) للتعامل مع القضايا الفكرية التى أثارها الخطر الجديد المتمثل فى تصاعد القوة العسكرية السوفيتية وما رافقها من انفجار فى التكنولوجيا العسكرية الجديدة (ص١٤٦ من الترجمة العربية).

ولكن مما يزيد من صعوبة الأمر وتعقيد الموقف فى حالة ما يسميه «الإرهاب المدمر»، هو أن «مهمة المخابرات المناظرة بشأن الإرهاب المدمر تزداد صعوبة بسبب احتمال مشاركة عناصر ليست دولاً (بما فى ذلك عناصر داخلية) وصنع أسلحة بصورة مستترة، ونشر الأسلحة بصورة غير تقليدية. إذ إنه فى الهجمات الحديثة يجرى نقل الأسلحة وإطلاقها بوسائل إلكترونية بالكامل، مما يزيد من صعوبة مهمتى جمع المعلومات والإنذار» (ص ١٥٠ من الترجمة العربية).

ففى عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات كانت وزارة الدفاع الأمريكية هى الداعم الرئيسى للبحوث والتنمية لصناعات الكمبيوتر، والاتصالات وأشباه الموصِّلات. بل إن بعض أهم أشكال التفوق التقنى الرئيسية فى هذه المجالات تم تطويرها أولاً من أجل المنظومات العسكرية: أجهزة الكمبيوتر فائقة السرعة، والأقمار الصناعية ذات الوضع الثابت بالنسبة للأرض، وشبكات الكمبيوتر، والدوائر المتكاملة، تم تطويرها كلها أولاً من أجل البرامج العسكرية. ولذا فإن جانباً كبيراً من تطور وتوسع الصناعة التجارية فى الولايات المتحدة كان يركب على أكتاف وزارة الدفاع (ص ١٨١ من الترجمة العربية).

كما يفصح «ويليام بيرى» عن تشكيل ما يسمى «القوة ٢١»، التى تعمل فى مجال المعارك الرقمية (Digital Battles) فى القرن الحادى والعشرين.

[٣]

يرى «ويليام بيرى» أن الرد على هذا الخطر الجديد والمفزع الذى يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، يضع صانع القرار الأمريكى فى مأزق؛ إذ كيف يمكن مقاومة هذا الخطر، دون المساس «بالحقوق المدنية» التى أقرها فى البداية «قانون الحقوق» Bill of Rights، التى تأكدت واتسع نطاقها على امتداد أكثر من قرنين من الزمان. إذ «لا يجوز لنا أن نسمح لتكنولوجيا التدمير أن تقضى عليها» (ص ١٤١ من الترجمة العربية).

وتلك نقطة هامة تشير إلى طبيعة الأزمة الراهنة التى يعيشها «صانع القرار» فى الولايات المتحدة، حول التناقض القائم بين التوسع فى إجراءات مقاومة الإرهاب، من ناحية، ومحاولة الحفاظ فى نفس الوقت على التوازن الأمريكى التقليدى بين حماية الحرية والخصوصية، من ناحية أخرى. فلقد بدأنا نشهد أن الإجراءات الوقائية والأمنية الأخيرة فى الولايات المتحدة وأوروبا تتضمن الاعتداء على كثير من الحريات والحقوق المدنية.

فعلى صعيد الحريات العامة

والمدنية، يلوح فى الأفق طيف من أطياف «المكارثية الجديدة»، حيث تتحكم أجهزة الأمن فى كل صغيرة وكبيرة، ولن تكتفى أجهزة الأمن بمجرد تفتيش الملابس والحقائب، بل سوف تعمل على تفتيش العقول والضمائر، وما هو داخل «السرائر».



ومن ناحية أخرى، فإن أدوات الهيمنة الأمريكية الحالية، على الصعيدين الاقتصادى والتكنولوجى، سوف تتآكل تدريجياً، خلال الأعوام القادمة. وسيكون ذلك نتيجة تعرض الولايات المتحدة لتراجع فى الأداء التكنولوجى، وانكسار موجة الإنفاق المفرط على «تكنولوجيا المعلومات» (IT)، التى سادت خلال حقبة التسعينيات، وكانت وراء الرواج والازدهار فى الاقتصاد والمجتمع الأمريكى خلال الفترة: ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، وهناك تقارير تشير إلى أنه بحلول عام ٢٠٠٥، لن يتعدى تأثير الإنترنت على الأداء الاقتصادى العالمى ما أحدثه تأثير استخدام «آلة الفاكس» فى الماضى.

وفى مقال هام كتبه «فرانسيس فوكوياما» ـ صاحب نظرية «نهاية التاريخ»، المأسوف على شبابها ـ فى أعقاب أحداث «الحادى عشر من سبتمبر» أشار إلى أن هناك تناقضاً هاماً يحكم المجتمع الأمريكى ازدادت حدته خلال حقبة التسعينيات. إذ يقول: «شهد عقد التسعينيات اتساع الهوة الاقتصادية والاجتماعية بين كبار المستثمرين المتعلمين فى جامعتى هارفرد وستانفورد والمحامين ومهندسى برامج الكمبيوتر ـ الذين كانوا يعملون فى البرجين ـ وبين أصحاب الياقات الزرقاء الذين توجهوا لإنقاذهم» (راجع: جريدة «الفاينانشيال تايمز» بتاريخ ٢٠٠١/٩/١٩).

كذلك أشار فى نفس المقال إلى أن «أعداء أمريكا قد طوروا ولأول مرة من قدراتهم التى تمكنهم من الوصول إلى الأمريكيين مباشرة كرد فعل للسياسة الأمريكية. وهذا يعنى بالطبع أن الانعزالية لم تعد اختياراً، لكنها أوجدت نوعاً من الردع سيجعل الولايات المتحدة ولأول مرة تفكر فى الخسائر المباشرة الناجمة عن سياساتها وإن كان هذا لن يقيد تحركات الولايات المتحدة فى النهاية، لكنه سيفرض عليها سياسة واقعية فى تعاملها مع العالم الخارجى».

ويختتم «فوكوياما» مقاله الهام بقوله: «وربما تصبح الولايات المتحدة دولة عادية من حيث وجود مصالح محددة لها، وبأن تصبح معرضة شأنها شأن أى دولة أخرى للاعتداء بدلاً من أن تظل تعتقد أنها تستطيع بمقدرتها المنفردة أن تشكل طبيعة العالم الذى تعيش فيه». وبالتالى سوف نشهد «نهاية الاستثناء الأمريكى».

ولعل «المأزق الحقيقى» الذى يواجه العالم اليوم، يتمثل بانفراد الولايات المتحدة بقيادة النظام العالمى بشقيه السياسى والعسكرى. وتلك مسئولية تاريخية كبرى تضع الولايات المتحدة فى امتحان عسير. إذ إن الإدارة الأمريكية وهى تمسك بعجلة القيادة، عليها أيضاً أن تعرف كيف تستخدم «الفرامل»، وأن تعرف كيف يمكن التهدئة فى المنحدرات والمنعطفات، حفاظاً على الأمن والسلم العالميين. وذلك لأن شئون العالم يجب أن تُدار بأسلوب يراعى التوازن بين مصالح وطموحات كل شعوب ومناطق العالم، وليس فقط من منظور الرؤية الضيقة والأنانية لمصالح المركب «المالى ـ العسكرى» فى الولايات المتحدة الأمريكية! وبعيداً عن «سياسة الإملاء» والغطرسة، التى بلغت ذروتها فى مؤتمر ديربان المناهض للعنصرية.

ولهذا فإن كل التداعيات المستقبلية، خلال الحقبة الافتتاحية للقرن الواحد والعشرين، سوف تتوقف على مدى الحكمة (أو مدى الحماقة) التى سوف تتصرف بها الإدارة الأمريكية الراهنة، فى التعامل مع تعقيدات الموقف العالمى الراهن. إذ إن اختصار واختزال كل مشاكل العالم إلى «مشكلة الإرهاب» (بتعريفاته المطاطة)، وإلى تأديب ما يطلق عليهم فى العرف الأمريكى تعبير «الدول المارقة»، سوف يجر دول العالم إلى طريق مسدود. إذ إنه بدون طرح حلول جادة وفعالة لإصلاح النظام الاقتصادى والمالى الجديد المعوْلم، وجعله أكثر عدالة وتوازناً، فإن جذور العنف ستظل قائمة.

المطلوب إذن هو إعمال «العقل الاستراتيجى» الأمريكى المستنير، وليس الاحتكام إلى مجرد القوة والعضلات. فعندما يكون «الجسد» أكبر من «العقل»، تحدث كوارث كثيرة. ولعل الكل يتذكر أنه أثناء «الحرب الكورية» كان هناك أمام القيادة الأمريكية خيارات صعبة، وعلى رأسها استخدام القوة العسكرية الأمريكية لغزو «الصين الشيوعية» للقضاء على مصادر التهديد الرئيسية للقوات الأمريكية، من حيث التسليح والإمدادات وقواعد التدريب، كما أوصى بذلك بعض كبار الجنرالات العسكريين. وتغلبت الحكمة السياسية للرئيس الأمريكى آنذاك بعدم الخضوع لهذا المنطق، حتى لا تقع الولايات المتحدة الخارجة منتصرة من الحرب العالمية الثانية فى «مستنقع جديد»، مثلما وقعت جيوش نابليون فى المستنقع «الروسى».

إن الأمر إذن يحتاج لمراجعة واسعة للسياسة الخارجية الأمريكية وممارساتها خلال التسعينيات، حتى نستطيع أن نحقق توازناً فى المصالح لكل دول العالم (المتقدم والنامى)، وبين عنصرى الإنتاج: رأس المال والعمل فى إطار مسيرة العولمة. إذ إن ازدهار ونمو الاقتصاد الأمريكى، لن يتم من خلال سياسات «العصا الغليظة». إذ إن المطلوب هو إيقاف العمل بمبدأ «القوة فوق الحق» الذى تمارسه الإدارة الأمريكية، واستبداله بمبدأ «الحق فوق القوة»، حفاظاً على السلم والاستقرار العالميين. ■

مصر

فى عيون جمال حمدان

كامل زهيرى

أول مرة بدا لى جمال حمدان يشبه عوداً من أعواد البَرْدى. ممتداً فى استقامة وطموح إلى أعلى. رشيقاً بلطف. فوق رأسه تاج من الزهر المتوهج من شدة الذكاء.

واستوقفتنى جبهته العريضة. المفرطة.. كانها جبهة عبدالوهاب. أو جبهة الموسيقار النمساوى جوستاف ماهلر صاحب أغنية «الأرض».. ولم أكن قد اكتشفت بعد أن جمال حمدان من عشاق الموسيقى والطرب. وكان يدندن بينه وبين نفسه، أو مع حلفائه المقربين ألحان عبد الوهاب القديمة منذ الثلاثينيات، وعبد الحليم الجديدة فى الستينيات. ولكننى أحسست موهبة جمال حمدان الموسيقية فى موسيقى أسلوبه.

وليس غريبًا بعد ذلك أن تجد فى كتاباته الجغرافية العلمية الرصينة تعبيرات موسيقية مثل: «ضبط إيقاع النهر».

ولست أظن أن عالمًا أو أديبًا أو فنانًا اجتمعت له مثل هذه المواهب السمعية والبصرية كما اجتمعت عند هذا العالم الأديب الفنان: جمال حمدان.

ونحن فى عالم الصحافة، اعتدنا على «ورق الدشت» الذى يميل إلى السمرة والخشونة، حتى يتشرب بسرعة حبر المطابع. لكننى فوجئت عام ١٩٦٤ وأنا فى مجلة الهلال بخطاب لازلت أذكر لونه حتى الآن وكانى أراه الآن. كان فيه مقال مكتوب على ورق أزرق مثل خطابات الغرام أيام الصبا والشباب.

توقفت عند الخطاب والمقال. وكان الموضوع سياسيًا عن مشكلة قبرص. ولكنى وجدت أديبًا. واكتشفت أن صاحب المقال له أسلوب مسبوك محبوك. ينسجم فيه المعنى مع المبنى. وخطر لى أول الأمر أن صاحبه أديبنا الكبير يحيى حقى، أستاذ البلاغة البحتة، ومنقذ الأسلوب الأدبى من المبالغة والفضفضة والطرطشة. ولكن ما لحقّى وقبرص. فقد كان التوقيع: جمال حمدان. نفَسٌ هادئ عميق.

رصانة فكرية. جمال فصيح أخاذ. استوقفنى كل ذلك. ولكن استهوانى أيضًا شيء قد يبدو غريبًا فى عالم الصحافة المتعجلة، وهو الخط الجميل الذى كتب به جمال حمدان مقاله عن قبرص. ولم أكن قد اكتشفت أيامها أن جمال حمدان من تلك السلالة النادرة بين المثقفين التى نجت من «أمية العين».. وتعشق أيضًا الرسم والفنون التشكيلية. ولم أكن قد اكتشفت بعدها أنه يعلق فى بيته الصغير المعتزل فى شارع أمين الرافعى بعض لوحات الرسام «ماتيس». قطعها على طريقته من أوراق المجلات. ثم علقها على طريقته أيضًا بدبابيس كان يعود إلى إعادة رشقها كلما تساقطت.

وعلى كثرة الأوراق التى قرأتها، أو كتبتها، أو دُفعَتْ إلىّ أو دفعتها إلى المطبعة لازلت أذكر ذلك الخطاب الأزرق وذلك الخط الجميل الذى كتب به جمال حمدان مقاله عام ٦٤.

ولم أكن قد اكتشفت بعدُ أن جمال حمدان يرسم أيضًا أغلفة كتبه، ويرسم خرائطه، ويكتب عناوين فصوله بخط يده.

وعندى أن مصر عرفت بين المثقفين والمفكرين والفنانين عائلات بصرية وعائلات سمعية. وقد عرفت على سبيل المثال فى مطلع الشباب كامل التلمسانى الرسام الذى أصبح مخرجًا سينمائيًا، وأخرج رائعته «السوق السوداء». وبين الرسم والسينما علاقة الصورة الثابتة والصورة المتحركة. كما عرفت شقيقه الرسام حسن التلمسانى الذى أصبح مصورًا سينمائيًا، وصور فيلم «النيل» لفينى، وعرفت شقيقهما عبد القادر المخرج التسجيلى المعروف. ويمكن التنبيه أيضًا إلى موهبة الشاب المصور السينمائى طارق حسن التلمسانى. كما يمكن القول بالمقابل إن من العائلات السمعية عبد الوهاب الكبير، وسعد عبد الوهاب الصغير، وليلى مراد ووالدها زكى، وشقيقها منير، ثم القصبجى، والموجى، والحجار، والصفتى، ومن قبلهم عكاشة،والشوا وغيرهم وغيرهم.

وقد أحسست أن جمال حمدان لم يكن منذ البداية أستاذًا عالمًا فى الجغرافيا. ولكن من أصحاب الموهبة البصرية والذاكرة البصرية إلى جوار موهبته السمعية، وقد منحت له هذه المواهب المجتمعة آفاق رؤيته وجعلت منه جمال حمدان.

وكانت عينا جمال حمدان هى عينا الرسام الذكية. «تحدق وتحلق»، كما كان يقول بنفسه كانه يتحدث عن نفسه.

وكان جمال حمدان بحارًا فى أعالى البحار، بعيون مثقفة ذكية لم تتوفر كثيرًا لغيره من علماء الجغرافيا المرموقين أو المغمورين على حد سواء.

وعيون الرسام التشكيلى شيء آخر، لأن الفن التشكيلى هو حرب الفنان على الفراغ. والنقطة عند الرسام قد تصبح خطًا، أو تصبح نهرًا أو أفقًا.

وليست اللوحة الفنية مساحة محددة، كما قد يُظَن، وإن بدت أول الأمر كذلك. لأن اللوحة لاتصبح فنًا إلا إذا خرجت عن إطارها. لتصبح اللوحة نافذة. نطل منها على المكان. ونرى فيها معنى ما نرى. حين ينجح الفنان التشكيلى فى تحويل اللامرئى إلى المرئى. وحين يعزف الرسام بالخط والظل والشكل واللون عزفًا بموسيقى الألوان، أو ما سميته «تلحين الألوان» حتى ينقلنا معه إلى «معنى المكان».

بل إن الخط العربى نفسه عند شيوخ الخطاطين له معنى آخر. وكثيرًا ما توقفت عند الخطاطين الأوائل، وعند تقليد قديم حين يرسِمون بالذات «ثمرة الكمثرى»، وفى داخلها «بسم الله الرحمن الرحيم».

أحسست أن جمال حمدان
لم يكن منذ البداية أستاذًا عالمًا
فى الجغرافيا. ولكن من أصحاب الموهبة البصرية
والذاكرة البصرية إلى جوار موهبته السمعية،
وقد منحت له هذه المواهب المجتمعة
آفاق رؤيته وجعلت منه جمال حمدان

ولا عجب من تعجبى لاختيار ثمرة الكمثرى بالذات. لأننى أحس أن خطوط الكمثرى أقرب إلى مرونة الخطوط العربية فى الانحناء اللين، والامتلاء المحبب، وبزوغ الغصن من قمة الثمر!

وهكذا تصبح النقطة والخط والأفق عند الرسام التشكيلى هى رؤية الرسام للمكان، وعند جمال حمدان صاحب العين العلمية والعالمة والفنية هى التى تحدِّق وتحلِّق فى المكان أو هى الجغرافيا الحمدانية إن جاز هذا التعبير.

لأن المكان يُدرَك حسيًا. والزمان يُدرَك إدراكًا غير مباشر. والإنسان يحاول أن يقرِّب المجردات فى ملموسات مكانية. وهناك فى المكان: القرب والبعد، الارتفاع والانخفاض، ثم ينقلها الإنسان إلى عالم الوجدان بين «العالى» و«الواطى»، و«الدون» و«كبير القلب»، و«واسع الصدر» و«واسع الحيلة». وتقول تلك التعبيرات المكانية: أمام. خلف. جنب. فوق. تحت، بل تقول فى تعبيراتنا الشائعة: «البعيد»، ثم «بعيد عنك» عند الحديث عن المكروه والمرض.

وكل إنسان يمثل جلده الحدود الفاصلة بينه وبين الآخرين. وحوله ثيابه، ثم يأتى بعد ذلك المكان بمضاعفاته: من الحجرة إلى الفناء. ومن النهر إلى الشاطئ. وعبر النهر حتى الجبل. وهكذا.. إلى المدينة ثم إلى الإقليم.

وقد كان تفوق العالم جمال حمدان فى أسلوبه العلمى الأدبى المتفرد فى قدرته الفائقة على تحويل المجردات إلى محسوسات. وتلك روعة البلاغة وقمتها حين يصف «موقع» القاهرة عند «ملتقى الدلتا بالوادى» فيقول: عند خاصرة النهر.

وإذا كانت الجغرافيا عند حمدان هى التعرف على الاختلافات الرئيسية للأرض على مختلف المستويات فالشخصية الإقليمية أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص أى إقليم وتوزيعاته.

لأنها هنا - كما يقول حَمْدان وبحق - تتساءل عن الانفراد والتفرد والتميز. ولذلك «تريد أن تنفذ إلى روح المكان» ليستشف عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة.

ومثل هذه النظرية الحمدانية ليست تحليلية فقط، بل تركيبية.

أو كما يقول جمال حمدان فى كتابه الأول عن «شخصية مصر» - يونيو ١٩٦٧، كتاب «الهلال»:

- «ربما تكون الجغرافيا صماء. ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها. فالتاريخ ظل الإنسان على الأرض. كما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان».



ولهذا يعتبر حمدان طريق الجغرافيا أكثر غنى فى المناهج لأنها تجمع بين الزمان والمكان، ابتداء من الجيولوجيا حتى الأركيولوجيا، ومن الفلك حتى الأنثربولوجيا.

ولهذا بحث كبار الجغرافيين العلماء عن الشخصية الإقليمية مثل لابلاش فى «مقدمته عن تاريخ فرنسا»، وأندريه سيجفريد فى «سيكلوجية الشعوب»، وستامب فى «وجه بريطانيا» وإلى سليمان حزين حين تحدث عن البيئة والموقع فى مصر عبر التاريخ.

ـ ليست الشخصية الإقليمية تقرير حقيقة علمية مطلقة رغم أنها تعتمد أساسًا على مادة علمية موضوعية بحتة؛ إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى.

... والجغرافيا هى فن التعرف على شخصيات الأقاليم، ووصفها وتفسيرها وهى ـ لذلك ـ ليست علمًا فقط ولا فنًا أيضًا، بل هى فلسفة.

كما يقول جمال حمدان:

ـ «إنها فلسفة المكان. وهى فلسفة عملية واقعية قد ترفع برأسها فوق التاريخ. ولكن تظل أقدامها راسخة». كما يقول «إنها فلسفة تحلّق بقدر ما تحدّق».

والجغرافيا ـ عند حمدان ـ «علم بمادتها، وفن بمعالجتها، وفلسفة بنظراتها».

«وهذا المنهج المثلث ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير. ومن جغرافية الحقائق المرصوصة إلى جغرافية الأفكار الرصينة».

وأكاد أظن أن جمال حمدان الجغرافى العالم ما كان يستطيع أن يكتب «شخصية مصر» لولا موهبته فى الرسم والموسيقى، وإحساسه الفطرى بتكامل الفنون. لأن الشعر أول الفنون هو فن الخلاصة وخلاصة الفن. ولأن العمارة فيها الموسيقى، كما أن الرواية فيها المعمار، والصوت له لون، وفى الألوان ألحان.

وأقول أيضًا إن مواهب حمدان السمعية البصرية أهّلته عن جدارة ليستشف روح المكان ـ وهو المادة الخام عند الجغرافى والرسام معًا. وقد أهلته هذه المواهب مجتمعة لتصبح الجغرافيا عنده «علمًا بمادتها، وفنًا بمعالجتها، وفكرًا أو فلسفة بنظراتها».

ولازلت أذكر عام ١٩٦٧، حين دفع إلى جمال حمدان بكتابه الأول عن «شخصية مصر» ونشرته فى «كتاب الهلال» ـ عدد يونيو من ذلك العام، وظننت الكتاب فتحًا جديدًا فى دراسة عبقرية المكان، أو كشفًا لرؤية باحث معتكف عاكف لا أظن أنه أغفل سطرًا كتبه نابهٌ عن مصر، أو كتبه المؤرخون والجغرافيون فى «شخصية الإقليم». وقد أشار حمدان بعرفان الباحث النزيه إلى «سندباد مصرى» لحسين فوزى، و«مصر ورسالتها» لحسين مؤنس، و«تكوين مصر» لشفيق غربال، لكنى وجدت فى حمدان هذه الميزة الفريدة التى نسميها الآن «تكامل مناهج البحث فى العلوم الإنسانية». ففيه المؤرخ والجغرافى والديمغرافى وعالم الآثار والجيولوجى والزراعى والأنثربولوجى. وفيه فوق ذلك القدرة على تكثيف الفكرة واستخلاصها، ثم صياغتها بأسلوب أدبى ناصع فيه إيقاع.

إذ يقول جمال حمدان عن مصر مثلاً: «هى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا، وتمت بالتاريخ إلى آسيا، متوسطة بعروضها، موسمية مياهها وأصولها. هى فى الصحراء وليست منها، إنها













للمناضل الوطنى الحر
الصديق الأخ العزيز
الأستاذ الكبير كامل زهيرى
تهنئة وإعزازا وتعزيزا
مع أطيب التمنيات

كان تفوق العالم جمال حمدان فى أسلوبه العلمى الأدبى المتفرد فى قدرته الفائقة على تحويل المجردات إلى محسوسات. وتلك روعة البلاغة وقمتها حين يصف «موقع القاهرة عند «ملتقى الدلتا بالوادى» فيقول: عند خاصرة النهر

واحة «ضد صحراوية»، بل ليست بواحة، وإنما شبه واحة.

إنها فرعونية بالجد، عربية بالأب، بجسمها النهرى قوة بر، وبسواحلها قوة بحر، أى تضع قدمًا فى الأرض، وقدمًا فى الماء. بجسمها النحيل تبدو مخلوقًا أقل من قوى، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسًا أكثر من ضخم.

تقع فى الشرق، وتواجه الغرب، وتكاد تراه عبر المتوسط، تمد يدًا نحو الشمال، وأخرى نحو الجنوب.

ولهذا، هى قلب العالم العربى، واسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى، إنها سيدة الحلول الوسطى والوسط الذهبى.

وقد أحسست عند جمال حمدان، كأبرز مفكرى جيله، بهذه الثنائية أو الجدلية بين المكان والزمان، وبين الموضع والموقع، والمكان والمكانة، والأصفر والأخضر، والنهر والبحر. وهو لا يخفى مبكرًا هذه الثنائية الجدلية الهيجلية منذ كتابه الأول عن «شخصية مصر» ـ عام ١٩٦٧، حين يشرح ويوضح ما بين «التقرير والنقيض والتركيب».

ويقول حمدان: «وإلاّ إلى من يتوجه المواطن العادى والمثقف العام لمعرفة وطنه؟! إلى من سوى ذلك الذى يتخصص فى عدم التخصص!».

يضرب بحرية فى كل العلوم، يربط الأرض بالناس، والحاضر بالماضى، والمادى باللامادى، والعضوى بغير العضوى. ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس، وفوق الأرض.

وفى هذا الوقت، لأنه يضطرب فيه الفكر فى مصر، ويضطرم بحثًا عن شخصيتها العربية، تحديدًا لمعدنها القومى الأصيل، ولدورها الإنسانى والحضارى، لا شك تبرز فى المقدمة مسئولية الجغرافى الملتزم الذى يضع عمله فى خدمة مجتمعه».



وهكذا أحسست أن جمال حمدان قدر أن يقصّر خطوطه مع الحياة اليومية الدارجة، وقرر أن يعتكف ليعكف على عمله وفنه. ووجد موقعه وموقعته فى مصر والقاهرة، ليقدمها لنا برؤية جديدة تمامًا. وأحسست أنه قرر أن يصبح من أغنى الأغنياء بالاستغناء عن كل شىء. وقرر ألا يطلب مالاً، أو منصبًا، أو زوجًا، أو وسامًا لأنه قرر أن يهب أعوام حياته كلها للعلم.

فكان هذا الاستغناء المطلق سر قوته المطلقة، بل ظننت أن جمال حَمْدان حين قرر الاستقالة من كلية الآداب بجامعة القاهرة، لم يكن ذلك لمجرد ضيق من بعض دسائس الجامعة. ولكن كان ضيقًا بالجامعة نفسها: «المكان لا الرسالة». فقد كان يحس أن بداخله رسالة أكبر من رسالة أستاذ الجامعة رغم المكانة والقيمة. لأن كادر الجامعات الإدارى على الأقل يرتب مراتب الجامعيين.. من المعيد إلى المدرس ثم الأستاذ المساعد إلى أستاذ الكرسى.. ومثل هذا السلم الإدارى لا يضع فى حسابه أو يضع فى مراتبه مرتبة «المفكر الفذ».

وقد أدرك حمدان ذلك، فأخذ نفسه بالشدة

قبل أن يأخذ الآخرين. وأخذ نفسه بالشدة الحمدانية، وهى أكثر من الشدة التى أخذ بها طه حسين نفسه فى بداية حياته بين الأزهر والسوربون.

وهكذا أمضى حمدان عشرة أعوام فى الجامعة وربع قرن فى عزلته الاختيارية، معتكفًا عاكفًا، وخلال خمسة وثلاثين عامًا قدم للمكتبة العربية أكثر من ثلاثين كتابًا، حتى ظننت أنه لا يؤلف الكتب، ولا يصنفها، ولكن كان يزرع الكتب. لأنه كان يحتضن الفكرة ويعتنى بها حتى يصبح الكتاب شجرة، فقد رأيت كتابه البذرة «شخصية مصر» عام ١٩٦٧، فاصبح هذا الكتاب «وسيطًا» عام ٧٠، ثم أصبح أربعة مجلدات ضخمة فى الثمانينيات.

وهكذا كنت أظن - بيقين المتفائلين - أنه سيعود إلى بذرته عن «القاهرة» والتى أحضرها لى أستاذنا يحيى حقى لنشرها فى كتاب «الهلال»، كمقدمة لترجمة حقى لكتاب دزموند ستيوارت. وكانت المفاجأة أن صديقه الحميم جمال حمدان قد انطلق فى مقدمته حتى احتلت ١١١ صفحة. وكادت المقدمة تعادل حجم الكتاب. وظننت أن حمدان سيعود حتمًا إلى كتابه القاهرة - ١٩٦٩ - لأن مقدمات هذا الكتاب أو بذوره فى كتابه «جغرافية المدن» الذى نشره عام ٦٠، بل لم أشك أنه عائد إلى «اليهود أنثربولوجيا» - ١٩٦٧ - ليضيف ما نما فى داخله من تأملات المفكر الفنان وعلوم العالم العاكف المعتكف.



وليس بدعًا أن يعكف حمدان على كتابه «شخصية مصر» لنجد فى فصل واحد من المجلد الواحد، والأول، خمسين مرجعًا علميًا من العيون والأصول، يعود إليها فى المقدمة وحدها، وهى لاتقع فى أكثر من ثلاثين صفحة.

وليس بدعًا أن من يقرأ تلك المقدمة الرائعة التى قدمها هدية للهلال ويحيى حقى - ولم يحصل عنها على مليم واحد - عام ٦٩، سوف يجد عيون المؤلفات عن القاهرة من لويس ممفورد صاحب السفر الثمين عن المدينة إلى مارسيل كليرجيه صاحب أهم كتاب عن القاهرة فى مجلدين عام ١٩٣٤، إلى جانب عيون مؤلفات المؤرخين العرب القدامى.

ولم تكن مثل هذه الإحاطة الشاملة، ومثل هذا التكامل فى مناهج البحث مجرد رافعة تَرفع جمال حمدان إلى مرتبة «المفكر الفنان العالم» فقط، بل جعله منهجه الجدلى فى التحليل وإعادة التركيب لكل ظاهرة يبحثها، صاحب رؤية وبصيرة.

ولهذا كان قادرًا أيضًا على التنبؤ بما يحدث لمصر وما يحدث من المصريين. وما سيحدث لها ولهم.

فقد دق جمال حمدان - يونيو ٦٧ - نواقيس الخطر من زيادة السكان فى القاهرة، وكانت لاتزال خمسة ملايين وقال فى كتابه «البذرة» ص ١١٤:

- لعل من أبرز ملامح الشخصية المصرية المركزية الصارخة، طبيعيًا وإداريًا . وهى صفة متوطنة، قديمة قدم الأهرام، مزمنة حتى اليوم».

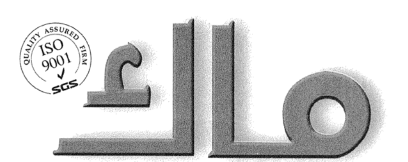
«وانطلاقًا من المنطق، فإن دارس مصر لا يملك إلا أن يرى أنه قد آن الأوان لكى تعلن مدينة القاهرة الكبرى، وربما الإسكندرية الكبرى كذلك «مدينة مغلقة» للتنمية لمدة عشر أو حتى خمس سنوات مؤقتًا. فلا يضاف إلى وظائفها الراهنة جديد، سوى ما تحتمه الصيانة والتعويض. وذلك تجميدًا لحجمها الراهن بعد أن فات أوان تخفيضه. لا بد أن تتحول العاصمة الطاغية بالتدريج، ولمدة موقوتة، إلى نهر قليل الروافد كثير المصابّ، تحويلاً لشرايين الحياة إلى الأقاليم والمدن الإقليمية والريف العريض».

«ويترتب على هذا أن تحقق «سقفًا» أعلى لنمو العاصمة، و«أرضية» لنمو المراكز الإقليمية. وبديهى أن تحقيق هذا لا بد أن يشمل كل وظيفة من حزمة وظائف العاصمة، لاسيما الصناعة بقوة عمالها، والإدارة بجيش موظفيها. أما منع الهجرة بقانون فليس حلاً، ولا محل له، لا ديمقراطيًا ولا عمليًا، إنما الحل فى الضبط غير المباشر، والتخطيط بالإقناع، وذلك بأن تنقل العاصمة - أعنى وظائفها وخدماتها ومرافقها ومزاياها إلى الريف. لا أن يمنع الريف أن ينتقل إلى العاصمة».

وقد كتب جمال حمدان هذا الرأى مبكرًا ولم تكن القاهرة تلك العاصمة الطاغية قد زادت على خمسة ملايين.

ومثل هذا الاستبصار والقدرة على التنبؤ بالمخاطر تجدها أيضًا فى مقال نشره حمدان فى مجلة «الهلال» - عدد يونيو ١٩٦٥ بعنوان: «هل تملك إسرائيل سلاحًا ذريًا؟» وقد ناقش فيه حمدان احتمالات العدوان على مصر ودور أمريكا، وتنبأ أن أمريكا لن تخطئ الخطأ الذى وقعت فيه بريطانيا وفرنسا حين شاركتا فى عدوان ٥٦ مع إسرائيل. وقال إن أمريكا لن تكرر خطأ الاستعمار المغادر، وسوف تقوى إسرائيل للقيام بالعدوان القادم. وقد كتب حمدان هذا المقال فى يونيو ٦٥ قبل عامين من حرب ٦٧ . وقد أعدت نشر خلاصة هذا المقال المهم عند الاحتفال بالعيد الماسى لمرور ٧٥ عامًا على صدور المجلة. وانتقيت هذا المقال مع عيون المقالات التى أصدرتها الهلال.

وقدرة جمال حمدان على البصر والاستبصار جعلته يحدق ويحلق ويستبصر أيضًا. وهى موهبة أخرى عند حمدان وتحتاج إلى بحث جمال حمدان كمفكر سياسى درس مصر والعروبة، والاستعمار والصهيونية، والحرب والسلام، وكشف عن قدرة نادرة على الرؤية والاستبصار. وهو ما نحاول الحديث عنه فى مقال قريب.



سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال

شرقي

مطبوع

سجاد أطفال

مشايات

قطع موكيت

دواسات حمام

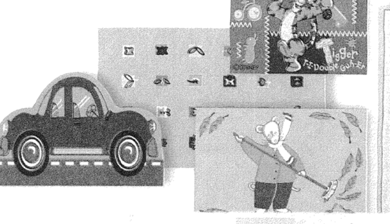


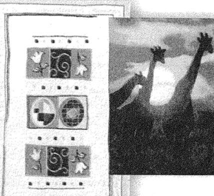
مراكز البيع:

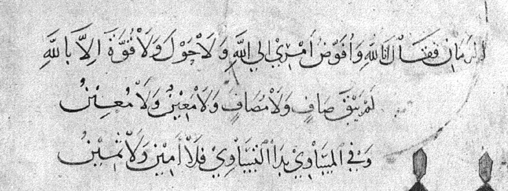
مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى ـ نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس ـ ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج ـ دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان ـ محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر ـ طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل ـ محطة التعاون ـ الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية ـ خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٢٥ شارع أبو داود الظاهرى ـ مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع ـ السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ت: ٣٦٣٠٥٩٠
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠

العباسية: ١٥ ش العباسية ـ ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٢٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية ـ فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى ـ شارع التحرير
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٢٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم ـ خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
دسوق: ش الجيش ـ أمام عمر أفندى
بورسعيد : ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة ـ طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com







ثم قال لها امني النفس وعديها واجمعي الرقاع وعديها فقالت لقد عددتها لما

استنفدتها فوجدت يد الضياع قد غالت إحدى الرقاع فقال تعساً لك يا لكاع أنحرم



كنـــــوز علـــى ورق

معرض فن الكتـاب العـربى فى باريس

محـيى الــــدين اللبـّـــاد



«كليلة ودمنة» سورية أو مصر، (١٢٠٠-١٢٢٠م)

في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر / تشرين الأول الفائت، شهدت باريس افتتاح المعرض الاستثنائي الهام والبديع الذي أقامته دار الكتب الوطنية الفرنسية، في مقرها القديم بوسط باريس، تحت عنوان: «فن الكتاب العربي».

فتحت دار الكتب خزائن كنوزها، وأخرجت بدائع المخطوطات المصورة العربية لتضعها نهبًا للأعين المشتاقة. ولم تكتف الدار بالنفائس التي أخرجتها من خزائنها، بل استعارت للمعرض عددًا من المخطوطات المصورة النادرة من نظيراتها في الرباط وهايدلبرج والفاتيكان، ودور كتب أخرى في باريس.

ازدحمت إحدى قاعات الدار بمائة وستة وثلاثين عملاً، تنوعت بين المصاحف وكتب الحديث والفقه والأدعية والأطالس، والكتب العلمية المصورة في الطب والفلك والحيوان والنبات والميكانيكا والصيدلة والفروسية والجغرافيا، وكتب السرد، وقواعد اللغة والقواميس.

يحدد المعرض مسار زائره، ويستهل هذا المسار بعرض نماذج من تراث فن الكتاب في بعض البلاد العربية قبل الفتح الإسلامي، موضحًا الأساس العريق الذي استندت إليه الثقافة العربية الإسلامية في قيامها، ومبينًا المكونات القديمة التي تمثلتها الحضارة الإسلامية الطالعة، وطورتها بالقيم الإنسانية الجديدة التي حملتها إلى العالم. يعرض هذا الاستهلال مخطوطة مكتوبة باللغة اليونانية أنجزت في القرن السادس الميلادي، بنجع حمادي المصرية، على ورق البردي المجلد في شكل كتاب متعدد الصفحات (وليس لفافة)، ومجلد بغلاف من الجلد. ويسترعي الانتباه إخراج صفحات الكتاب الذي صبّ النص في نهرين عموديين بكل صفحة، وكتبه بخط منتظم يكاد يتشابه في انتظامه مع حروف المطبعة التي ستظهر بعد ثمانية قرون.

وإلى جوار مخطوطة نجع حمادي، يرى الزائر مخطوطة من العراق للعهد القديم باللغة السيريانية، جاء نصها - هذه المرة - في ثلاثة أنهر رأسية لكل صفحة من الصفحات التي يحمل بعضها رسومًا ملونة بديعة. وتعود هذه المخطوطة المكتوبة على الرق إلى الفترة ما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين. ويتفاوت عرض هوامش الصفحة في كل من المخطوطتين في حذق جمالي ووظيفي راق، تفتقده بعض كتب أيامنا الحالية.

وبعد المخطوطتين الاستهلاليتين، ينفتح المسار على جنة فسيحة من مصاحف القرآن الكريم خُطت بأساليب متنوعة من خط الكتابة العربية، يعود أقدمها إلى القرن الثامن الميلادي، حين كان الخط السائد هو أسلوب «كوفي المصاحف»، وهو الأسلوب الأول الذي كُتب به الخط العربي بعد تولده عن الكتابات السابقة عليه. ولا يزال هذا الخط الكوفي (الذي اكتفينا بتحنيطه في المتاحف) يحمل قيمًا جرافيكية رفيعة، وقرائية ممتازة ووضوحا نادرا، وقدرة على التطور إلى الحداثة غير محدودة.

ويلاحظ الزائر أن المصاحف من الجيل الأول، كانت في أغلبها من قطع المستطيل الأفقي، الذي ظل سائدًا حتى أوائل القرن العاشر، حين انتقل المصحف إلى قطع المستطيل الرأسي في تزامن مع التحول إلى استخدام الورق بدلاً من الرق. وعند هذه الملاحظة، سيستعيد الزائر اكتشاف بديهة أن القرار باختيار الشكل ارتبط على الدوام بالوظيفة، وبخصائص المواد والتقنيات المستخدمة.

ومن بين المصاحف المعروضة، يهل عليك المصحف الذي كتبه ياقوت المستعصمي عام ١٢٨٩م (أغلب الظن في العراق)، وهو مصحف تتأكد نسبته لياقوت بخلاف كثير من المصاحف التي نسخها تلاميذه بعد وفاته ونسبوها إليه. ويعدّ هذا المصحف الصغير القطع (١٩ X ١٥,٥ سنتيمتر)، وكثير السطور (١٦ سطرًا في الصفحة الواحدة)، نموذجًا للمستوى الرفيع الذي بلغه الخط العربي في تلك الفترة.

وغير بعيد عن تحفة المستعصمي الدقيقة القياس، ينبسط واحد من المصاحف العملاقة التي اعتاد السلاطين المماليك (في القرنين الرابع عشر والخامس عشر) وقفها للاستعمال العام في المساجد والمدارس وأضرحة الأسلاف. وقد بلغ قياس الصفحة الواحدة في هذا المصحف العملاق حوالي ٥٠ X ٧٠ سنتيمترا، وتتبدى في صفحتيه المبسوطتين مفاتن مدرسة الخط المصرية المتميزة التي بلغت أوجها في العصر المملوكي، قبل أن يختطفها سلاطين بني عثمان بعد فتحهم لمصر. ويسطع المداد الأسود المصري الذي كتب بدن النص القرآني بخط «المحقّق»، وأسماء السور بخط «الثلث». وتشرح آثار المداد المصري على الورق الذوق الرهيف الذي تمتعت به المصاحف المصرية في العصر المملوكي، و«تقشف الأثرياء» الذي تبديه، مترفعةً على البهرجة والثرثرة والمبالغة في الزخرفة والإسراف في التذهيب الذي ستتسم به المصاحف التركية فيما بعد.

ويتوجه المسار إلى مصحف آخر تكاد مساحة صفحته لا تتجاوز ربع مساحة صفحة المصحف العملاق، ولا تحمل الصفحة منه سوى خمسة أسطر من خط «المحقّق» الواضح الذي تفتحت مغاليق حروفه، وانفرجت نهاياتها في كرم انبساطي وصراحة، تفصح عن الذائقة الفردية لفنان الخط. هذا المصحف هو أحد مصاحف السلطان المملوكي برقوق، أنجز في مصر بين عامي ١٣٨٢ و ١٣٩٩ في ثلاثين جزءًا.

وتلفت بطاقة المعلومات إلى جوار هذا المصحف الأنظار إلى تشابه الوحدات الزخرفية الملونة والمذهبة في هامش صفحاته مع الوحدات الزخرفية المماثلة في بعض الأناجيل المعروضة بالمتحف القبطي بالقاهرة. وبالفعل سيجد من يحمل الكتاب المصور للمعرض ويذهب به إلى المتحف القبطي في مصر القديمة، حيث قاعة المخطوطات - هناك سيجد مخطوطة «الأناجيل الأربعة» المؤرخة عام ١٣٣٤، شاهدة على تطابق الزخارف في المصحف المملوكي و «مواطنه» الإنجيل القبطي، وكأنهما قد خرجا من محترف واحد، ومن تحت يد «أسطى» مصري واحد!

نجح المعرض الباريسي في إبراز التنوع الثري في الفن العربي الإسلامي، فعرض في إحدى قاعاته أساليب مختلفة من تصميمات المصاحف وأساليب كتابتها، من دول المشرق العربي ومن دول مغربه. وقد تكون زيارة مثل هذه القاعة ضرورية لكثير من عرب المشرق ممن لم يحصلوا على القدر الضروري من التعرف على الخط المغربي، وأساليب تصميم المصاحف والمخطوطات وزخرفتها في بلاد المغرب والأندلس. فبحلول القرن العاشر الميلادي، تمايز الخط المغربي عن نظيره المشرقي، وتفرع طريق الخط العربي إلى طريقين، سلك أحدهما الخط المشرقي، وسلك الآخر الخط المغربي / الأندلسي. ويعود تميز الخط المغربي الجميل إلى صموده ورفضه الامتثال للقواعد الكلاسيكية للخط العربي والمعايير الثابتة التي استقرت على يد الوزير الخطاط «ابن مقلة»

«مقامات الحريري»، رسوم يحيى بن محمود الواسطي، بغداد، (١٢٣٧م).



«دلائل الخيرات»، بخط فنان الخط المغربى محمد بن أبى القاسم القندوسى الفاسى المتوفى ١٨٦٢م، المغرب، (١٨٢٨ - ١٨٢٩م).

فى القرن التاسع الميلادى. واحتفظ الخط المغربى باستقلاله، وترك لخطاطه حرية الأداء، والتعبير والغنائية، بحيث أصبح بعض خطاطيه فنانين مبدعين غير مسبوقين بالمعنى العصرى الحديث، وليس مجرد مقلدين يكررون إنتاج ما سبق إبداعه وتقنينه من قبل.

وعلى عرب المشرق بذل الجهد لتفهم هذا الخط واحترامه، ولإدراك تذوق جماله. ويتوجب على بعض مؤرخى فن الخط من المشارقة تقديم الاعتذار العلنى لهذا الفن المغربى الجميل الذى منعتهم أذواقهم المحدودة (بامتثالهم لقواعد التذوق الكلاسيكية) من إدراك جمال هذا الفاتن المغربى المتنوع، الجهير والهامس فى آن معًا.

وقبل أن يأخذ المسار زائر المعرض إلى قاعة الكنز، يجعله يمر بقاعة فياضة الحسن تعرض فنون تذهيب الكتب وتزويقها وزخرفتها، فى نماذج من المشرق والمغرب والأندلس. عرضت المصاحف وكتاب «الصحيح» للبخارى، و«دلائل الخيرات»، و«البردة» للبوصيرى، والأناجيل. وكلها تشهد على ذوق رفيع، وتقاليد كلاسيكية لم يقمع رسوخها من حرية الإبداع، ولم تحجب القدرة على التجريد، ولم تمنع تنوع النغمات (التى عزفتها الصفحات) بتنوع العصر والفنان والأرض التى أنجز عليها كل من الأعمال.

وبعبور قاعة النقش والتذهيب والزواق، يصل المتفرج إلى القاعة التالية، ليقف بمجرد دخولها مبهوتًا ومفاجأ معقود اللسان مسلوب الجنان، أمام ما تحويه من كنوز المخطوطات العربية المصورة التى لم يرها جمهور المعارض - من قبل - مجتمعة فى مثل هذا الحشد، إلا على صفحات كتب الفن الأجنبية، أو النادر منها الذى تُرجم إلى العربية.

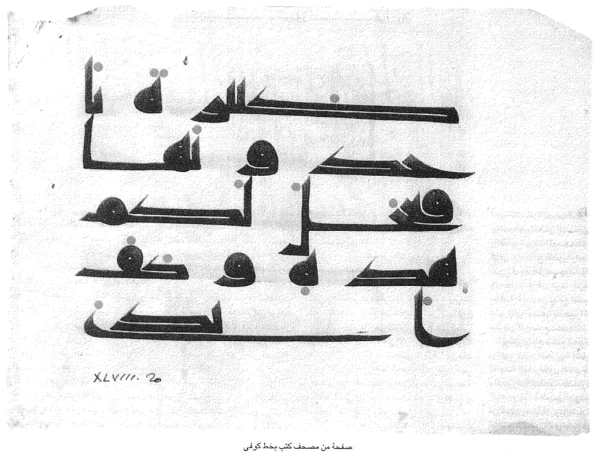
تزخر واجهات العرض الزجاجية باثنتين وعشرين من أشهر المخطوطات العربية المصورة التى كنا نهرول وراء صورها من صفحات كتاب إلى آخر. ها نحن أمام مخطوطة يحيى بن محمود الواسطى لمقامات الحريرى مفتوحة على مصراعيها، ومخطوطة «كليلة ودمنة» الأيوبية والأخرى المملوكية، و«كتاب الترياق»، وأطلس الشريف الإدريسى، و«صور الكتاب الثابتة» لعبد الرحمن الصوفى، و«كتاب الفلك» لأبى معشر البلخى، و«المخزون جامع الفنون» لابن أخى خزام، و«حديث بياض ورياض»، و«كتاب البيطرة»، وكتاب ديسقوريدس «علاج الأمراض». ولم يكن ناقصًا على اكتمال هذا التجمع النادر لأهم المخطوطات العربية المصورة (وعلى اكتمال معروف دار الكتب الوطنية الفرنسية) سوى الصفحات الرائعة من المخطوطة المصورة لكتاب «الحيوان» للجاحظ، التى أفلتت من تصاريف الدهر القاسية، وبقيت سليمة ومحفوظة فى «دار كتب الأمبروزيانا» بميلانو. فلو تمت استعارتها وعرضت مع نظيراتها، لكان العقد قد اكتمل.

طمئن خفقات قلبك أيها المتفرج الولهان، وهدئ من روعك، والتقط أنفاسك ونظمها، ومن الأفضل أن تبحث عن مقعد ترتاح عليه، لتسكن روحك استعدادًا للدخول إلى هذه الجنة. ها هو الواسطى مفروشًا أمامك مفتوحًا على ظهر الورقة رقم ١٨ ووجه الورقة رقم ١٩. وتحمل كل من الصفحتين المتقابلتين رسمًا يملأ أغلبهما، ولا يترك منها فضاءً للنص سوى ثلاثة أسطر من أعلاهما، وسطرين من أسفلهما.

وتعوَّد المتفرج المبهور الأنفاس على أن تطلعه كتب الفن على رسوم الواسطى مجتزأة عن باقى صفحة المخطوطة، وبالتالى مفصولة عن النص، ومقصوصة الحواف وكأنها لوحات معلقة فى متحف وليست رسومًا فى سياق كتاب ونص، وسيستطيع زائر معرض باريس - ربما للمرة الأولى - أن يتفرج على الرسم ويقرأ نص المقامة الذى يصورها هذا الرسم، ويتعرف على المشهد أو الموقف الذى يصاحبه الرسم. وتوضح السطور على الصفحتين اللتين فُتحت المخطوطة عليهما أننا نتفرج على صفحتين من «المقامة البرقعيدية» التى تجرى وقائعها فى صبيحة يوم عيد الفطر فى مدينة «برقعيد».

وهكذا سيعرف من يريد أن يعرف أن ثلة الفرسان المعروفة إياها (الذين طالعناهم مرارًا فى هذا الرسم على صفحات كتب الفن العربى)، والذين يرفعون الأعلام والبيارق، وينفخ بعضهم فى المزمار ويقرع أحدهم (يمتطى بغلاً وحيدًا بين الخيول) طبلاً - سيعرف أن نص المقامة لا يذكر شيئًا عن هذا المشهد الفخم للفرسان. وسيكتشف أن الأمر ما هو إلا فرصة انتهزها الرسام ليرسم شيئًا يعجبه. فأحداث المقامة يُفهم منها أنها تبدأ فى المسجد خلال صلاة عيد الفطر، وهكذا تحجج الواسطى بالتفصيلة ليرسم هذا الموكب البهى للفرسان الذين يعلنون انتهاء شهر الصوم رغم غياب أى ذكر لهم فى النص. وفى الصفحة المقابلة يصور الواسطى بطل مقامات الحريرى المحتال الحكيم «أبو زيد السروجى» متخفيًا فى هيئة امرأة تتسول من المصلين، بينما خطيب المسجد على المنبر يلقى خطبة العيد. ويقف بطل المقامات الآخر «الحارث بن همام» متأملاً المتسولة بكثير من التشكك والارتياب فى أمرها، كما عهدناه على طول المقامات الخمسين.

وقد تكون مخطوطة الواسطى هذه أهم المخطوطات العربية المصورة، فهى تمثل الذروة التى بلغتها مدرسة بغداد فى المخطوطات العربية المصورة. وهى المخطوطة التى «نفذت بجلدتها» من مذبحة الكتب التى سفك الغزاة المغول حبرها وألوانها حتى أنها لونت ماء دجلة يوم استولوا على عاصمة العباسيين ونهبوها، وألقوا بكنوز مكتباتها فى النهر. ولابد أن تلك المكتبات البغدادية كانت ملأى



صفحة من مصحف كتب بخط كوفي
المصاحف على الرق، (القرن ٩-١٠م).

بالمخطوطات الجميلة من تلك المدرسة الثرية، التي يذكّرنا بها هذا الوحيد العزيز الغالي الذي حفظ لنا بعض الرائحة العطرة من تلك الفترة الثرية.

تناول الواسطي في رسومه لمقامات الحريري شتى مظاهر الحياة وأنشطتها، سواء في بغداد أو في باقي أنحاء العراق، أو في بلاد العرب والمسلمين عامة. فمثلما تتنقل مشاهده المرسومة بين المسجد والحانة ودواخل البيوت والكتاتيب ودكاكين الحرفيين وسوق العبيد، وبين الحقول والصحراء والنهر والبحر، فهي تتنقل مع أحداث المقامات وطرائفها بين بقاع بلاد العرب وفارس. ولذا تعدّ رسوم الواسطي مرجعًا حقيقيًا للمعلومات عن الحياة الاجتماعية الاقتصادية، وعن طرز العمارة والأثاث والملابس في تلك الحقبة.

وتصور رسوم الفنان البغدادي روح المقامات وطرافتها، وتحفل بالملاحظات الذكية واللفتات المرحة، وكذا بتعبيرات الوجوه وإيماءات القدود، في صور مترابطة التكوين، غنية بشخوصها من الإنس والحيوان والطير، وبمرونة حركاتها وبثراء ألوانها.

وبرع الواسطي في استخدام فضاء الصفحة كمجال حيوي لشخوص رسومه وعناصرها وأشكالها، دون أن يضع لمسة واحدة من فرشاته على هذا الفراغ المحايد الذي أغنى به الرسم والموقف وجعله جزءًا لا يتجزأ عنهما. ويكتفي الواسطي بخط أفقي يرمز به إلى الأفق أو الأرض إن كانت قفرًا أو صحراء، أو بشريط أخضر إن كانت أرضًا مزروعة. وفي بعض رسومه، يصور الواسطي - في رسم واحد - عددًا من المواقف الزمنية التي يفرض المنطق أن تترتب في صور متتالية حسب تسلسل حدوثها. فالرسام يرسم في منظر خلوي واحد جزارًا يهمّ بذبح جمل، وفتًى يشعل النار تحت القدر الذي سيطهى فيه اللحم، وطباخًا يغرف من ذات القدر الموضوع فوق النار ويصب في صحنان مغطيان في يده، بينما تمضي امرأة إلى طرف الصورة وبين يديها صينية عليها صحنان مغطيان، لابد أنهما مليئان بوجبة مطهية من لحم الجمل الذي لم يبدأ ذبحه بعد!



وتجمع رسوم الواسطي بين الواقع والخيال والرمز والتجريد، فهو أكثر رسامي الكتب العرب تصويرًا للواقع الذي عاشه: أشخاصًا، وحيوانات، وعمائر، وملابس، ومناظر. واستطاع هذا الرسام بناء نظام شخصي خاص متماسك ومتسق للتعبير عن الحالة والتجسيم والفراغ والضوء، لم يحقق مثله رسام عربي من قبله. وفي الآن ذاته، يعيد الواسطي تنظيم وتنسيق عناصر رسومه «الواقعية»، على أسس تصميمية وتجريدية بالغة الذكاء والحساسية والحداثة.

وفي بعض الرسوم تكاد تراه وكأنه قد قصّ أشخاصه الواقعيين وخيوله ثم ألصقهم متجاورين. ويكتشف متأمل هذه الرسوم - بيسر - حيل الواسطي لكسر الرتابة والتكرار الذي يختاره أحيانا متعمدًا لخلق مساحات تبدو وكأنها مجردة. فسيقان الخيل العمودية المتجاورة الكثيرة، لابد أن تتخللها بعض السيقان المتململة التي تتحرك لنفض التراب عن الحوافر كي تكسر النظام إن جنح إلى الإملال. وشريط الوجوه المصفوفة أفقيًا لابد أن يتفاوت انتظامه قليلاً، ولابد من تنوع زوايا نظرات الرجال. أما عن دقة توثيقه للتفاصيل المعمارية وزخارف المباني والأثاث فحدث بلا حرج، وعن القيمة الجرافيكية الرفيعة لرسوم الواسطي لا تسل. ولنتذكر أن يحيى بن محمود الواسطي، بالإضافة إلى كونه رسام الكتاب، هو أيضًا مصممه وكاتب خطوط نصوصه!

وستكون مهمة غير هينة أن يتمكن الزائر من مفارقة تحفة يحيى بن محمود الواسطي، وأن ينتزع نفسه منها ليجول في البساتين الأخرى الممتدة تحت بصره، ويتنزه بين صفحات مخطوطتي «كليلة ودمنة» الرائعتين (كل منهما في قطع أكبر قليلا من قطع مجلة «روزاليوسف»). وتتميز المخطوطة الأيوبية الأقدم (١٢٠٠-١٢٢٠م، سورية أو مصر) بالحيوية واليسر وحسن التعبير، بينما يبدو في الأخرى المملوكية (ق ١٤م، مصر) بعض التكلف والجهد الزائد.

وإذا صرف الزائر وقتًا يليق بالكنز المطروح تحت ناظريه، واستطاع التأمل وعقد المقارنات، فإنه سوف يلحظ تشابهًا بين الرسوم في مخطوطتين أنجزتا في مصر خلال الفترة ذاتها، وتعرضهما القاعة ذاتها: مخطوطة «كليلة ودمنة» الأيوبية (١٢٠٠-١٢٢٠)، وإنجيل تم خطه ورسمه في دمياط (١١٧٨-١١٨٠م). وسيجد من يقارن، تماثلا كبيرًا بين رسوم المخطوطتين في أسلوب رسم الشخوص وطريقة تحريكهم، وفي اعتماد حل الخط الأفقي الذي يرمز إلى الأرض، وفي طريقة رسم الصخور الناتئة، وفي قوسي النبات على جانبي المشهد المرسوم.

وبعد الواسطي والكليلتين والدمنتين، يستطيع المحظوظ زائر هذا المعرض أن يرتع بين صفحات ١٩ مخطوطة مصورة أخرى، من أشهر المخطوطات العربية، في حيز واحد. وستكون أمام هذا المحظوظ فرصة لتأمل مخطوطات كثيرة، منها: مخطوطة «صور الكواكب الثابتة» لعبد الرحمن الصوفي (١٢٦٦-١٢٦٧م) التي نُسخت بعد أكثر من ٣٠٠ عام من وفاة مؤلفها، وقد رسمت بالحبر الأسود والريشة، مع بقع حمراء قليلة العدد وأنيقة، وعناوين للصور كتبت أيضًا بالحبر الأحمر. و«كتاب الترياق» (١١٩٩م)، في واحدة من أقدم المخطوطات المصورة العربية الباقية، وتزخر بالنقوش والرسوم الزخرفية البديعة. ويبرز الجمال المغربي في التصميم والتلوين ورسم الخرائط وكتابة الخطوط على صفحات أطلس



الشريف الإدريسي (١٣٠٠م) الذي يبهر المتفرج برسوم لليابسة بأنهارها ومهادها، وبالمدن التي تنقشها وتُنثر فوقها زهور ذهبية، وبالجبال التي تتعرج فوقها في شكل أقواس معقوصة تتعدد ألوانها. أما البحار الزرقاء التي تحرك الأمواج المتكسرة سطحها دومًا، فهي لعبة جرافيكية طريفة تدغدغ البصر.

ثم يتأمل الزائر مخطوطة «حديث بياض ورياض» (ق ١٣م) التي تحكي قصة العاشقين الملتاعين اللذين لم تسمح الأعراف بجمع شملهما، ولذا يهيمان (على صفحات المخطوطة المصورة الأندلسية الوحيدة الباقية بعد سقوط دولة الأندلس) في ظل أشجار قرطبة، وتحت أبراج قصورها، وعلى ضفاف نوافيرها، وبجوار نواعيرها، يدقان العود، ويغنيان اللوعة والحرقة والضنى أسفًا على وصال مستحيل. وفوق وأسفل مشاهد يحتشد فيها العاطفون وغلاظ القلوب وحملة رسائل الغرام والعذّال، تغرد سطور النص التي خُطت بالخط الأندلسي/المغربي ذي الحسن الخاص.

ويأتي دور «المخزون جامع الفنون» لابن أخي خزام (١٤٧٠م)، وهو كتاب لتعليم الفروسية وألعابها، ينتشر فرسانه في الصفحات على صهوات خيولهم التي تسير برشاقة على حافة إطارات الرسوم، ويتسلق بعضها الآخر صاعدًا ضد جاذبية الأرض. ويتبادل أولئك الفرسان الشبان لمسات حراب التدريب برقة وببعض الرخاوة، وبنظرات هادئة هانئة لا أثر فيها للتوتر أو الانتباه لما يفعلونه، بينما يرفلون في أثواب وعمائم وسروج لُونت بكل أشكال البهجة والفرح والذوق الرفيع.



ثم يعبر الزائر إلى «خرائط الشرفي الصفاقسي» (١٥٥١م) بتصميمها الجرافيكي المغاربي الفريد، ونقوشها وألوانها ذات الروح الأفريقية الساخنة، والتي تذكّرنا، بجمعها بين اللونين الأحمر والأخضر، برايات الفرق الصوفية في مصر. وفي واجهة عرض قريبة، يضيء «كتاب الفلك» لأبي معشر البلخي (ق ١٥م) بألوانه الجواهر، وبشخوصه الخرافية التي تمثل كواكب السماء وأبراج الفلك، وهي مخطوطة أخرى أنجزت بعد وفاة صاحبها بزمن طويل (٦٠٠ عام أو يزيد). وتتميز المخطوطة بفرادة تصميم صفحاتها، وتتسم، رغم جنسيها العربية ونصها العربي السليم، بفارسية أسلوب الرسم وبملامح مغولية وتركية في الوجوه. ولا عجب، فتوقيع رسامها يحمل على القطع بأصوله الفارسية: قنبر على نقاش شيرازي.

لقد انكسرت المدرسة العربية الرائدة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول (١٢٥٨م)، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك. لكن ظلت الملامح العربية لفن المخطوطات حية في مصر وسورية المملوكيتين طوال القرنين ١٤ و ١٥م، وإن شابتها أعمال تأثرت برسوم المخطوطات غير العربية.

وقبل أن يترك الزائر قاعة المخطوطات المصورة، يكون قد حصل، بالإضافة إلى البهجة والمتعة، على قدر من المعارف، وعدد من التصحيحات لكثير من الالتباسات والخلط والأخطاء الشائعة. قد يكون من أهم تلك التصحيحات التي يمدك بها المعرض هو تحديد [فن الكتاب الإسلامي «العربي»]، وتمييزه عن غيره من فنون الكتب في العصر الإسلامي، والتي برزت في بلاد فارس والمغول والهند وتركيا وغيرها. ورغم بديهية ووضوح الفارق في المعنى، إلا أننا كثيرًا ما نصطدم بهذا الخلط في بعض الكتب والدوريات الثقافية والمصنفات، التي تنشر نماذج من الفن الإسلامي في بلاد غير عربية، على أنها من «الفن العربي الإسلامي». وقد دقق معرض دار الكتب الوطنية في معروضاته من المخطوطات المصورة، فجاءت كلها عربية، عدا استثناءات قليلة مقصودة من تركيا والهند والأندلس، قُدمت للتعريف بأساليب خط الكتابة، أو الزخرفة، أو التجليد.

من أهم الأخطاء الشائعة، التي استقرت طويلاً في الأذهان عن غير حق، تعبير «المنمنمات» miniatures، الذي كثيرًا ما ألصقه المستشرقون والأجانب بالمخطوطات المصورة العربية، فيقال «المنمنمات العربية»، ونصدق نحن ذلك. والنمنمة هي إنجاز الرسم أو النقش على مساحات صغيرة القياس، مع توخي المبالغة في الدقة والإحكام وإظهار المهارة، وذلك بإنجاز الرسم تحت عدسة مكبرة، أو باستخدام فرشاة دقيقة ذات شعرات قليلة (بالغ البعض فذكر أن الرسام الفارسي «بهزاد» كان يرسم بفرشاة ذات شعرة واحدة!). سيجد زائر هذا المعرض أغلب المخطوطات المعروضة في قطع وافر القياس، بل إنه يجد بعضها في قطع بالغ الضخامة. وسيندهش هذا الزائر الذي استسلم طويلاً وصدّق تعبير «المنمنمات» حينما يقف أمام مخطوطة الرسام البغدادي العبقري يحيى الواسطي «مقامات الحريري»، ليجد الصفحة الواحدة منها في قياس ٢٨ × ٣٧ سنتيمترًا، أي أن الصفحتين المتقابلتين في هذه المخطوطة واللتين تحملان مشهدين من «المقامة البرقعيدية» يبلغ مجموع قياسهما ٣٧ × ٥٦ سنتيمترًا، وهو قياس صفحة جريدة يومية من القطع النمطي السائد حاليًا في أغلب البلدان العربية. وسيجد الزائر أن مخطوطة «كتاب الفلك لأبي معشر الفلكي» المعروضة جاءت في قطع مقارب (٢٦,٥×٣٦ سنتيمترًا)، وأن مخطوطة «كتاب الترياق» في قياس أكبر (٢٩ × ٣٧ سنتيمترًا)، وكذلك كانت «معرفة الحيل الهندسية للجزري» (٢٨ × ٤٠ سنتيمترًا!). فأي نمنمة تلك في رسوم رسمت بهذه القياسات العملاقة؟

وفي رسوم المخطوطات المصورة العربية، يتبدى كرم الرسام في مساحات الرسوم، والبحبحة في تصميم أشكال عناصرها. وهو فنان لا يتباهى بإظهار مهاراته التقنية وبراعة صنعته، مثل أولئك الخطاطين الذين يتباهون بكتابة سور كاملة من القرآن الكريم على قشرة بيضة، أو على حبة من الأرز. وليس في تراث المخطوطات العربية المصورة أمثلة من ذلك النوع الذي نراه في المخطوطات الفارسية التي تنكمش فيها مساحة الرسم المؤطر في صفحة المخطوط إلى عرض ٦ سنتيمترات أو أقل (!)، استعراضًا للإتقان والمهارة.

لا يستعرض الرسام العربي وسوسته المرضية ولا يتباهى بها، بل يهتم بنجاحه في التعبير عن ذاته، ويقيس إنجازه بمدى ما تحمله الرسوم من عاطفة وروح وبهجة وصحة.



وقد أدى هذا الالتباس والخلط بين رسوم الكتب العربية ونظيراتها في دول العالم الإسلامي الأخرى إلى تكريس ظن خاطئ آخر بأن هناك تقليدًا ثابتًا في المخطوطات العربية المصورة يحتم تأطير صفحاتها بإطار مزدوج يحشى بالذهبي وينغلق على الرسوم والنصوص معًا. بينما الصحيح أن الصفحة الحرة المفتوحة هي إحدى سمات المخطوط العربي المصور، حيث لا نجد إطارات تحدد صفحات مخطوطة «الواسطي»، ولا مخطوطتي «كليلة ودمنة»، ولا «صور الكواكب الثابتة للصوفي»، ولا «حديث بياض ورياض»، بل إننا نجد صفحات هذه المخطوطات، مثل كثير غيرها، وقد شطّت انفعالات رساميها - أحيانًا - وبلغت رسومهم حواف الكتب، حتى أن الرسم كثيرًا ما ينسكب إلى خارج الصفحة في اندفاع عاطفي أخاذ.

لا يجد زائر المعرض كثيرًا من الكتب المصورة ذات الصفحات المؤطرة، سوى في قليل من المصاحف والمخطوطات المملوكية القليلة بدءًا من القرن ١٥م، وغالبًا ما كان ذلك بسبب التأثيرات الفارسية والمغولية والتركية في عصور الخضوع للحكم الأجنبي والضعف والتأثر. تلك التأثيرات السلبية التي ظلت تتفاقم حتى أجهزت آلات الطباعة على فن المخطوطات عامة.

بعد اختتام الجولة في قاعة المخطوطات المصورة، ينتقل المتفرج إلى قاعة تجليد الكتب، التي ضمت ٢٤ قطعة من تحف التجليد العربي يعود أقدمها إلى القرن الثاني عشر الميلادي (من مصر)، حيث نرى تنوعًا ثريًا يبرز الملامح الخاصة لكل منطقة ولكل عصر، من حيث المواد المستخدمة والتصميمات والصبغات والنقوش المطبوعة بالمعدن الساخن في اللونين الذهبي والفضي، وتلك المضغوطة على الجلد في غير ألوان. وتسطع الفنون والصنائع المختلفة في تنوع ثري، من سورية والعراق والمغرب وبعض سواحل غرب أفريقيا، وتنفرد مصر بحصة الأسد من بدائع التجليد في هذه القاعة، التي تفرد قسمًا صغيرًا للتجليد العثماني تعرض فيه سبع مجلدات تركية قديمة.

وقبل بلوغ ختام العرض، نصل إلى قاعة بواكير الكتب العربية المطبوعة، حيث تطالع الطبعة النادرة لأول كتاب طُبع باللغة العربية بالحروف المعدنية المتحركة في إيطاليا عام ١٥١٤م (بعد إنجيل جوتنبرج المطبوع بأقل من ستين عامًا). وبالطبع لا نرى في المعرض الكتاب الثاني الذي طبع في مدينة البندقية عام ١٥٣٨م بأحرف عربية معدنية متحركة، وهو القرآن الكريم، لأن هذا الكتاب لم يكد يرى النور حتى أمرت سلطات الفاتيكان بإتلاف كل نسخه المطبوعة، عدا نسخة فريدة هُرّبت واكتشفت عام ١٩٨٠ مخبأة في أحد الأديرة بمدينة البندقية. وتظهر في القاعة كتب أخرى طُبعت في إيطاليا باللغة العربية، فنرى طبعة أنيقة محكمة، تعود إلى عام ١٥٩٢، من كتاب الشريف الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

وتعرض القاعة ذاتها نسخة نادرة من أول كتاب طبع داخل حدود العالم العربي، وهو «مزمور» مطبوع باللغة السريانية، وباللونين الأسود والأحمر، عام ١٦١٠م في مطبعة دير سانت أنطونيوس ببلدة قزحيا في جبل لبنان، على آلة الطباعة الأولى التي دخلت العالم العربي عام ١٥٨٥م (تأتي المطبعة التي جاءت مع حملة نابليون على مصر في الترتيب الرابع!). أما آلة الطباعة الثانية فقد أسسها البطريرك إثناسيوس دباس في دير بحلب الشهباء ١٧٠٦م، وتعرض القاعة أحد الكتب التي طبعتها بعنوان «الإنجيل الشريف الطاهر والمصباح الزاهر»، وتأتي المطبعة الثالثة، التي أقامها البطريرك نفسه في دير شوير بجبل كسروان عام ١٧٣٤م، بمعاونة الطبّاع الحلبي عبد الله زاهر، الذي قام أيضًا بسبك الحروف العربية المعدنية اللازمة لتشغيل المطبعتين الأخيرتين، والذي يظهر اسمه - أيضًا - كمترجم مشارك للكتاب المعروض «ميزان الزمان وقسطاس أبدية الإنسان» من الإيطالية إلى العربية، الذي طبعته المطبعة الكسروانية!

ثم تأتي مطبوعات درة الطباعة العربية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، من مطبعة بولاق القاهرية التي أنشأها محمد على عام ١٨٢١، وجعل منها دارًا كبرى للنشر، نشرت ٢٤٣ كتابًا من أمهات الكتب خلال العقدين الأولين من تأسيسها، كما نشرت الصحيفة العربية الأولى: «الوقائع المصرية».

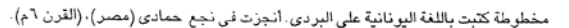
بالإضافة إلى العنوان الرئيسي للمعرض: «فن الكتاب العربي»، كان له عنوان فرعي آخر

تحتـه، هو: «من المخطوط إلى كتـاب الفنان».
وتمثل القاعة الأخيرة، التى يختتم بها مسار الزيارة، ذلك العنوان الفرعى. خصصت تلك القـاعـة لما سـمى بـ«كـتـاب الفنان»، وهو مـجـمـوعـة من الكتب أنجزها فنانون عـرب مـحـدثون، بالطباعة فى نسخ مـحـددة مرقمة تحمل كل منها توقيع فنانها. وتحمل بعض تلك الكتب نصوصًا أو مقاطع مختارة من نصوص، ويقـتـصـر البـعض الآخـر منها على الأعـمـال البصرية. وكان الفنانون العرب العـارضـون: عبد الغنى العانى، حسن المسعودى، بهنام كيرو، مهدى متشو، صالح جميعى، ضياء العزاوى (العراق) - كمال بلاطة (فلسطين) - مهدى قطبى، نور الدين أبو ريشة (المغرب) - ايتيل عدنان (لبنان) - زياد دلول (سورية) - رشيد قريشى، كمال يحياوى، طيبوشى (الجزائر) - نجا مـهـداوى (تونس) - أنا بوغجيان (مصر).

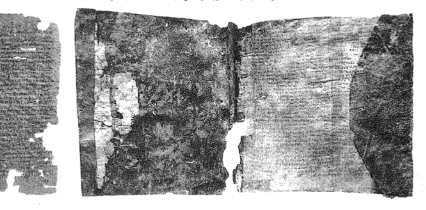
لم يتضح بجلاء الغرض والفكرة من عرض هذه المجموعة من «كتب الفنانين» العرب، حيث لا يجد الزائر المدقّق علاقة مقنعة بين تلك «الكتب» التى أنجزها فنانون عرب محدثون، وبين المخطوطات المصورة وغير المصورة والمصاحف القديمة التى ضمتها قاعات العرض المتتالية. فى كثير من تلك الكتب الحديثة يتبدى قدر من الاستشراق، وشىء من محاولة بيع الطرافة و«الغموض» الشرقيين. ولا تحقق تجارب تحرير الخط العربى الواردة ضمن الأعمال العربية الحديثة نجاحًا يذكر، فلم تطلق الخط العربى من قواعده ومعاييره التى تبقيه فى الأسر الشكلى المكرر فى حدود الحرفة البسيطة، كما لم تمثل التجارب التى ما تزال تحافظ على هيئة الحرف العربى التقليدية تجاوزًا لأعمال الخطاطين التقليديين الذين لا يدعون لأنفسهم غير كونهم خطاطين.

ينوء عدد من الأعمال المعروضة بعبء إثقال الفنان على الصفحة بالنمنمة، وبالصبر على مكاره التكرار وشغل مساحات كبيرة بنقشات دقيقة مكررة ورتيبة بينما يفخر عدد آخر بشغور الصفحات وخلائها، وبمحاولة الإيهام بأن الإشارة المقتضبة الفقيرة التى تحملها الصفحة هى ضرب من البلاغة والإيجاز والحكمة العميقة. وبينما كانت بضاعة البعض هى شغل مساحة الصفحة بخط مكتوب مثل خط التلاميذ فى دفتر مدرسى لا يقدم خبرة أو تجربة، لكنه خُطّ بألوان مائية ثمينة على ورق نادر صنع بالطريقة اليدوية - كانت بضاعة البعض الآخر أعمالا منفذة بطريقة زخرفية هندسية خليقة بأن تنفذ بخامات الرخام أو المعادن أو الخزف. ويشعر المتفرج بثقل وزن تلك الأشكال الهندسية الزائد والخطر الذى تشكله زواياها الحادة على خامة الورق الهشة.

لا نظن أن قاعة الأعمال العربية الحديثة قد حملت إضافة إلى المعرض التاريخى الفذ، ولا نظن أنها كانت ضرورية. فلننسها، لنظل نحتفظ بما شاهدناه فى المعرض الأساسى بكل حرص وعناية واعتزاز ■


«كتاب المواليد» لأبى معشر البلخى، مصر، (القرن ١٥م).

مخطوطة كتبت باللغة اليونانية على البردى. أنجزت فى نجع حمادى (مصر)، (القرن ٦م).









تقارير البنك الدولى، على الرغم من ثباتها على فلسفة واحدة لا تتغير، لا شخصية لها ولا لون ولا طعم ولا رائحة. إنها كالمرأة ذات الملامح المتسقة اتساقاً تاماً، ومع ذلك فهى ثقيلة الظل بدرجة منقطعة النظير، بل ولا تحمل ملامحها وتقاطيع وجهها أى جاذبية تثير لديك أى رغبة فى إطالة المكوث معها



كان تعبير «الفقر والجهل والمرض» هو أكثر التعبيرات شيوعاً فى ذلك الوقت لتحديد مشاكل مصر الاقتصادية الأساسية. وقد يبدو هذا التحديد شبيهاً أو قريباً جداً من تحديد المشكلة بأنها «مشكلة انخفاض متوسط الدخل للدولة المصرية» ولكن الحقيقة ليست كذلك



قرأت مرة عبارة طريفة فى وصف ما يصدر عن البنك الدولى من تقارير وكتب، قالها الاقتصادى المصرى الشهير سمير أمين، وهى: أن الحسنة الوحيدة فى هذه التقارير والكتب أنك تستطيع أن تُخمِّن محتواها حتى قبل أن تقرأها!

والعبارة ما كان يمكن أن تكون طريفة على الإطلاق لولا أنها تحتوى على جزء مهم من الحقيقة. فأنت بالفعل تستغرب عندما تقرأ مختلف منشورات البنك الدولى، هذا القدر الكبير من التكرار، وهذا المعين الذى لا ينضب من التأكيد على نفس الأفكار ونفس الفلسفة ونفس التفسيرات لنجاح الدول أو فشلها، ونفس التوصيات الواجبة الاتباع لتحقيق النجاح الاقتصادى وتجنب الفشل. حتى إنه يحق للمرء أن يتساءل: كيف يتحمل هؤلاء الخبراء المرموقون، العاملون فى البنك الدولى، والمتميزون بذكائهم ومستوى تعليمهم، بل وفى بعض الأحيان باتساع ثقافتهم أيضاً، كيف يتحملون أن يكتبوا أو يقرأوا أو يقولوا أو يسمعوا نفس الكلام يتكرر على مدى الخمسين عاماً الماضية؟

هذا الاستغراب ربما يزول إذا أدركنا الحقيقة الآتية، وهى أن منشورات البنك الدولى وتقاريره وكتبه ليست ككتب أى مؤلف آخر يكتب ليعبِّر عن رأيه ومعتقداته، فيُسَرُّ إذا صادف من الناس قبولا، وقد يهمه أن يعرف آراء وحجج مخالفه، وقد يكون على استعداد لتغيير رأيه إذا وُوجه بحجج معارضة قوية. ليس هذا هو حال البنك، بل البنك فى نشره وتأكيده المستمر على مجموعة من الأفكار والتوصيات، أقرب إلى صاحب المنشور الانتخابى أو الدعائى، يهمّه الترويج لأفكار معيّنة أكثر مما يهمه الوصول إلى الحقيقة. قد يستخدم أسلوب الإقناع، ولكنه هو نفسه ليس على استعداد لتغيير رأيه. بل إنه فى محاولة الإقناع أو الترويج هذه لا يتورع أحياناً عن استخدام بعض الأساليب التى قد يعتبرها كثير من المؤلفين أساليب غير مشروعة. فهو قد يستخدم عناوين وشعارات برّاقة وغير محايدة تماماً، وقد يستخدم الصور إلى جانب الكلام فى محاولة التأثير على القارئ. والأهم من ذلك أنه كثيراً ما يمتنع عن التصدى لقضايا أساسية تتعلق بالموضوع الذى يتكلم فيه، كالبطالة مثلاً أو توزيع الدخل، إذا كان الكلام عنها من شأنه أن يعطل من الأثر العام الذى يريد إحداثه. كما قد يمتنع عن نشر إحصاءات تتعارض مع الهدف الذى يرمى إليه، رغم توافر هذه الإحصاءات وأهميتها.

لا عجب، إذا كان الأمر كذلك، أن منشورات البنك وتقاريره نادراً ما تحتوى على اسم المؤلف، إذن من هو المؤلف؟ إنه قد يكون مجموعة من الأشخاص، كتب كل منهم جزءا ثم ضُمت الأجزاء فى تقرير واحد بعد أن أُجرى عليها ما لزم من تغييرات وحذف وإضافة. ولا أظن أن مؤلفا يحب أن يظهر اسمه على عمل جرى عليه كل هذا التغيير دون استشارته.

كما أن البنك لا يحب بدوره أن يذكر اسم المؤلف على نحو يحمّل هذا المؤلف المسئولية عما كتب، إذ إن هذا يحرم البنك من حرية التغيير والحذف والإضافة. لا بأس من ذكر اسم المؤلف أو أسماء المؤلفين مقترنة بتوجيه الشكر إليهم، ولكن دون أن يتضح قط ما هو الجزء الذى كتبه هذا المؤلف أو ذاك، وما هى إضافات البنك والمحررين المجهولين.

كانت نتيجة هذا أن أصبحت تقارير البنك الدولى، على الرغم من ثباتها على فلسفة واحدة لا تتغير، لا شخصية لها ولا لون ولا طعم ولا رائحة. إنها كالمرأة ذات الملامح المتسقة اتساقاً تاماً، وكأن أحجام الأنف والفم والأذنين والعينين قد تم اختيارها بالرجوع إلى مقاييس معروفة ومتفق عليها فى تعريف الملامح الجميلة، كما أنها رائعة الثياب وكاملة الهندام، ومع ذلك فهى ثقيلة الظل بدرجة منقطعة النظير، بل ولا تحمل ملامحها وتقاطيع وجهها أية جاذبية تثير لديك أية رغبة فى إطالة المكوث معها. إنها مؤدبة قطعاً، ولا تستخدم قط أى تعبير بذىء، كما أنها لا تبالغ فى التعبير عن مشاعرها، ولكنها تخلق لديك انطباعاً بأنها قد لا تكون لديها أية مشاعر على الإطلاق.



كل هذا يجعل عبارة سمير أمين، التى اقتطفتها فى بداية المقال، قريبة جداً من الصحة. ومع ذلك فإنى أريد أن أورد عليها التحفظين الآتيين:

التحفظ الأول: يتعلق بأن هذه «الميزة» التى أشار إليها سمير أمين ليست هى «الميزة» الوحيدة فى مطبوعات البنك، فهناك ميزة أخرى، حقيقية هذه المرة. فأنا مثلاً - وأعتقد أن هذا ينطبق أيضاً على كثيرين غيرى - لا أقرأ مطبوعات البنك من أجل اكتساب أفكار أو من أجل اكتشاف موقف البنك أو لمعرفة التفسير الحقيقى للنجاح الاقتصادى الذى حققته دولة ما أو فشل دولة أخرى، ولا للاطلاع على ما يعتقد البنك أنه سياسات واجبة الاتباع. فكل هذا معروف بالفعل ومشهور.

وإنما أقرأ هذه المطبوعات فى الأساس للحصول على بيانات إحصائية، فهذه فى نظرى هى الخدمة العظمى التى قدمها البنك الدولى لقضية التنمية خلال الخمسين عاماً الماضية. إنى أعرف جيداً، كما يعرف كثيرون، أن معظم الأرقام التى ينشرها البنك مستمدة من الدول التى تتعلق بها هذه الأرقام، ومن ثم فإنها تعانى من مختلف النقائص المعروفة فى الإحصاءات القومية. ولكن هذا الجمع والاستقصاء والشمول والتبويب والتحقق من إمكانية المقارنة بين بيانات دولة وأخرى، واستكمال الثغرات، بل وحث الدول على جمع ونشر بيانات لم تكن متوافرة من قبل، فضلاً عن تحليل هذه الإحصاءات واستخراج مدلولاتها المباشرة واتجاهاتها.. إلخ، كل هذا يمثل فى رأيى ورأى كثيرين، أهم ما تحتويه منشورات البنك الدولى.

بل أصارح القارئ أننى، فيما عدا هذا، لا أنفق وقتاً طويلاً على مطبوعات البنك (وكذلك مطبوعات صندوق النقد الدولى)، وأظن أن هذا هو حال كثيرين من الاقتصاديين، فالباقى، كما أشرت وأشار سمير أمين، هو فى أغلب الأحيان تكرار لأشياء سبق قولها.

أما التحفظ الثانى: فيتعلق ببعض التغيرات التى تطرأ على شعارات البنك من حين لآخر، مما قد يوحى أحياناً بأن الموقف قد طرأ عليه تغير، أو أن البنك هجر فلسفة لاعتناق أخرى، أو أدرك أنه كان على خطأ فى إحدى توصياته فعاد إلى الصواب. حدث هذا مثلاً عندما رفع روبرت ماكنمارا فى أوائل السبعينيات، أثناء رئاسته للبنك، شعار «إن المعونات التى يقدمها البنك لن تفيد الفقراء إلا إذا وصلت بالفعل إلى «هؤلاء الفقراء»، قاصداً أن المشروعات التى يموّلها البنك يجب أن يُتأكد أن ثمارها تعود على الفقراء أنفسهم، وكذلك عندما نشر البنك فى نفس ذلك الوقت كتاباً شهيراً بعنوان «إعادة التوزيع مع النمو» (Redistribution with Growtn) الذى يؤكد على ضرورة الاهتمام بقضية توزيع الدخل إلى جانب التنمية، ثم عندما تبنى البنك شعار إشباع الحاجات الأساسية فى منتصف السبعينيات، وعندما بدأ ينظر بعين العطف فى بداية التسعينيات إلى شعار «التنمية البشرية» (Human Development)، وعندما أقر منذ أعوام قليلة بأن تشجيع القطاع الخاص ودعمه لا يعنى بالضرورة أن الدولة ليس لها مسئوليات مهمة فى تنمية الاقتصاد.

وأخيراً طلع علينا منذ شهور قليلة تقرير

1- World development report 2000/2001 Attacking Poverty,
(تقرير التنمية الدولية ٢٠٠٠-٢٠٠١ الهجوم على الفقر)
World Bank
Oxford Universty press, 2001, pp, VVI.

2 - Development as Freedom,
(التنمية كرمز للحرية)
Amartya Sen
Oxford Universty press, 1999

البنك الذى يصدره سنوياً تحت عنوان «تقرير التنمية فى العالم» (World Development Report) عن سنة ٢٠٠٠ / ٢٠٠١، فإذا بالبنك يتكلم وكأنه قد اكتشف لأول مرة وجود فقراء فى العالم، بعد فترة طويلة ظن فيها أن المشكلة هى مجرد مشكلة «تنمية»، فإذا بعنوان هذا التقرير الأخير هو «الهجوم على الفقر» (Attacking Pventy) وإذا بالتقرير يعرض المشكلة التى يريد التصدى لها بقوله إنه لا يكفى مجرد العمل على زيادة متوسط الدخل للدولة ككل، بالرغم من أهمية ذلك، ولكن لابد من التصدى مباشرة لتحسين حال الفقراء.. يقول التقرير:

«إن هذا التقرير يقبل الرأى المستقر الآن: فإن الفقر لا يشمل فقط انخفاض مستوى الدخل والاستهلاك ولكنه يشمل أيضاً انخفاض مستوى التعليم والصحة والتغذية وغير ذلك من عناصر التنمية البشرية. كما أن هذا التقرير، استناداً إلى ما يقوله الفقراء عن معنى الفقر بالنسبة لهم، يوسّع تعريف الفقر بحيث يشمل الافتقار إلى المساهمة فى السلطة وإلى حرية التعبير، كما يشمل شدة المخاطر والمخاوف التى يتعرض لها المرء فى حياته. هذه الأبعاد المختلفة «للحرمان» برزت لنا بوضوح من دراستنا المعنونة «أصوات الفقراء» (Voices of the Poor) التى أجريت كعمل تمهيدى لهذا التقرير، وهى دراسة عملية لآراء وأقوال أكثر من ٦٠٠٠٠ رجل وامرأة ممن يعانون من الفقر فى ٦٠ دولة.. إن القرن العشرين قد شهد تقدماً كبيراً فى التخفيف من مشكلة الفقر فى العالم وتحسين مستويات المعيشة، وفى العقود الأربعة الأخيرة ارتفع متوسط العمر المتوقع لدى الميلاد فى البلاد النامية بمقدار عشرين عاماً فى المتوسط.. وفى الفترة ١٩٦٥ - ١٩٩٨ زاد متوسط الدخل فى البلاد النامية بأكثر من الضعف، وفى السنوات ١٩٩٠ - ١٩٩٨ وحدها انخفض عدد الذين يعانون من الفقر المدقع (Extreme Poverty) بمقدار ٧٨ مليونا.

ومع ذلك فلازال الفقر، فى مطلع القرن الجديد، ظاهرة شائعة ومتعددة الأبعاد. فمن بين سكان العالم البالغ عددهم ٦ بلايين نسمة، لازال ٢,٨ بليون شخص يعيشون على أقل من دولارين فى اليوم، و١,٢ بليون شخص يعيشون على أقل من دولار واحد فى اليوم. ولازال ستة من بين مائة طفل يموتون قبل أن يبلغ عمرهم سنة واحدة، وثمانية من كل مائة لا يبلغون سن الخامسة. ومن بين من يبلغون سن دخول المدارس يعجز ٩ من الذكور و١٤ من الإناث عن الالتحاق بالمدرسة...» ويستطرد التقرير فيقول:

«لقد تعلمنا فى السنوات السابقة أن الاستراتيجيات المعروفة لرفع معدلات النمو (والتى تشمل السياسات الاقتصادية الكلية وإجراءات الإصلاح التى تزيد من الاعتماد على قوى السوق الحرة) هى عناصر ضرورية لتخفيض ظاهرة الفقر. ولكننا الآن نعرف أيضاً مدى الحاجة إلى وضع تأكيد أكبر على الأسس المؤسسية (institutunil) والاجتماعية لعملية التنمية وضرورة التأكيد على مواجهة ظاهرة الضعف التى تواجهها شرائح من السكان أمام مختلف الأخطار التى يخلقها الفقر (Vulnerability) وعلى زيادة درجة مساهماتهم فى هذه العملية بما يضمن أن يجعل النمو شاملاً أو مستوعباً للجميع (Inclusuie growtn)».

هكذا يقدم البنك الدولى تقريره الأخير عن التنمية فى العالم، ثم يشرع بعد هذا فى فصل بعد آخر فى مناقشة «طبيعة وتطور مشكلة الفقر» ثم «أسباب الفقر وطرق علاجه» سواء على مستوى الدولة الواحدة أو على المستوى العالمى.

والجهد يبدو لأول وهلة مشكوراً، إذ إنه يقدم بحثاً تفصيلياً مدعماً بالأرقام لقضية لاشك فى أهميتها على المستوى الاجتماعى والسياسى والإنسانى، ولكنى لا أكتم عن القارئ ما شعرت به من دهشة شديدة، وأنا أطالع هذا الجزء أو ذاك من التقرير، وتساءلت باستغراب: «هل كان البنك الدولى فى حاجة حقاً لمرور خمسين عاماً على إنشائه وعلى بداية اهتمامه بمشاكل الدول الفقيرة، حتى يصل إلى هذه النتائج التى وردت فيما اقتطفته حالاً من التقرير؟ لقد كان المفروض أن يكون كل هذا واضحاً تمام الوضوح منذ خمسين عاماً على الأقل، فإذا أعيد طرحه الآن بهذه الطريقة، وكأن الأمر يمثل اكتشافاً للبنك وعودة إلى الحق بعد ضلال طويل، فلابد أن يثير الأمر ليس مجرد الدهشة بل وأيضاً الكثير من الشك، فى حسن نية البنك وصدق اهتمامه بقضية فقر الفقراء تمييزاً لها عن قضية توسيع دائرة العمل أمام قوى السوق الحرة. هذا الشك هو ما سأحاول أن أوضحه فى هذا المقال ببعض التفصيل.

إذا سألت أى شخص يتمتع بفطرة سليمة عن ماهية مشكلة الفقر، فلابد أنه سيقول لك إنها مشكلة وجود أعداد من الناس العاجزين عن إشباع بعض الحاجات الإنسانية الأساسية، كالغذاء والملبس والمسكن المناسب. وربما أضاف إلى ذلك المستوى اللائق من بعض الخدمات الأساسية كالتعليم والصحة ووسائل الانتقال من مكان لآخر.. إلخ. لابد أن مثل هذا الشخص يدرك أيضاً بوضوح تام أن شعار التنمية لا يمكن أن يعنى إلا محاولة القضاء على هذه المشكلة، وأن أى شعار يدور حول رفع مستوى رفاهية الأمة لابد أن يقصد به فى النهاية هذا الهدف بالذات: وهو القضاء على فقر الفقراء أو التخفيف منه. إذا صادف مثل هذا الشخص من يقول له: إن الهدف هو التنمية، وأن التنمية معناها رفع متوسط الدخل للدولة ككل، فالأرجح أنه سوف يقول لنفسه: «إن هذا طريق ملتو بعض الشيء للتعبير عن الهدف الأساسى والنهائى وهو

يعيد اكتشاف الفقر!



القضاء على فقر الفقراء. إنه أشبه بإجابة جحا على سؤال عن مكان أذنه البعيدة بينما كان في استطاعته بسهولة أن يلمس أذنه الأقرب. ومع ذلك فلا بأس من هذا التعريف الملتوي للتنمية بشرط أن نظل نتذكر دائماً أن مقصدنا الأساسي وهدفنا الحقيقي هو القضاء على فقر الفقراء».

الفقر والجهل والمرض:

هذا هو فيما أظن موقف الشخص ذي الفطرة السليمة. وقد كان هذا على ما أذكر موقفنا جميعاً من قضية الفقر والفقراء منذ نحو خمسين عاماً، أي قبل أن تشيع شعارات التنمية وتعبيرات من نوع «الدول المتقدمة والدول النامية» لازلت أذكر جيداً، على سبيل المثال كيف كانت الصحف والمجلات والخطب المصرية تشير إلى المشكلة الاقتصادية الأساسية في مصر، خلال الأربعينيات. كان تعبير «الفقر والجهل والمرض» هو أكثر التعبيرات شيوعاً في ذلك الوقت لتحديد مشاكل مصر الاقتصادية الأساسية. وقد يبدو هذا التحديد شبيهاً أو قريباً جداً من تحديد المشكلة بأنها «مشكلة انخفاض متوسط الدخل للدولة المصرية» ولكن الحقيقة ليست كذلك. كان الذين يتكلمون عن «الفقر والجهل والمرض» يقصدون أن هناك شرائح كبيرة من سكان مصر يتركزون أساساً في الريف المصري، ويعانون من انخفاض دخلهم أو بالأحرى عجزهم عن إشباع بعض الحاجات الأساسية، وكانوا يقصدون بذلك على الأخص ماء الشرب النقي، والمسكن الصالح للآدميين، والكمية اللازمة من البروتينات للوقاية من بعض الأمراض، والتخلص من مرض البلهارسيا الشائع، إلى جانب الخدمات الصحية الأساسية في القرى ومحو الأمية. كان النهوض أو التقدم الاقتصادي يعني التقدم في هذه الميادين، ولم يكن ليتبادر إلى الذهن بسهولة أن النهوض الاقتصادي معناه في الأساس رفع متوسط الدخل للدولة المصرية أو رفع معدل النمو لهذا المتوسط.

كان تقدير متوسط الدخل في ذلك الوقت، أي في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين، بنحو مائة دولار في السنة تقديراً جزافياً بحتاً، يعرف الجميع قلة حظه من الدقة، كما أنه لم يكن يحظى بالذكر بمناسبة وبغير مناسبة، كما يحدث الآن مع متوسط الدخل ومعدلات النمو. وعلى أي حال فقد كان حساب متوسط الدخل في الدول الفقيرة، التي سميت بعد ذلك بقليل بالدول المتخلفة أو دول العالم الثالث، أمراً غير شائع بالمرة، ليس فقط لندرة الإحصاءات القومية، ولكن أيضاً لأن فكرة قياس التقدم بمقياس متوسط الدخل للدولة ككل لم تكن شائعة بدورها.

على أنه، لم يمض وقت طويل على إنشاء هيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة العديدة، في أعقاب الحرب، حتى تبنت هذه المؤسسات تعبير «الدول المتخلفة» (Underdeveloped Countries) كما تبنت تعريف التخلف «انخفاض متوسط الدخل للدولة ككل» وسرعان ما بدأ تدفق الجداول الإحصائية الخارجة من هذه المؤسسات، وهي جداول ترتب الدول بعضها فوق بعض في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتكاد تقوم كلها على «متوسطات» تتعلق بالدولة ككل، فتقارن الدول بعضها ببعض، من حيث تقدمها أو تخلفها في هذه المتوسطات. فإلى جانب متوسط الدخل، كان هناك متوسط استهلاك السعرات الحرارية والبروتينات، ومتوسط العمر المتوقع لدى الميلاد، وعدد الأطباء وأسرَّة المستشفيات لكل ألف من السكان، كمؤشر لحالة الصحة، وعدد الأشخاص للحجرة الواحدة، كمؤشر لحالة السكن، بل وعدد نسخ الصحف والمجلات منسوباً لعدد السكان، كمؤشر لمدى انتشار معرفة القراءة والكتابة.. إلخ. وهو الذي يذكر المرء بما يحدث عند القبض على مجرم خطير، فلا يكتفى بالتقاط صورة أمامية له تظهر ملامحه الرئيسية، بل تلتقط له صور من كل الجوانب، من الأمام ومن الخلف ومن كلا الجانبين، حتى تتوثق معرفتنا به ولا يبقى أدنى شك في تحديد شخصية مرتكب الجريمة. والجريمة هنا هي بالطبع انخفاض متوسط الدخل.

شعار اللحاق بأمريكا وسد الفجوة بيننا وبينها:

كان لابد أن يثور التساؤل عما هو بالضبط ذلك المستوى من متوسط الدخل الذي تُعتبر الدولة إذا قل دخلها عنه «دولة متخلفة» وإذا زاد دخلها عنه تصبح «دولة متقدمة» وكان أول اقتراح هو اتخاذ متوسط الدخل في الولايات المتحدة أساساً تقاس بالمقارنة به سائر الدول الأخرى. فالدولة متخلفة إذا قل متوسط دخلها عن ربع أو عشر متوسط الدخل الأمريكي، ومتقدمة، أو على الأقل غير متخلفة، إذا زاد متوسط دخلها عن ذلك. هكذا دأبت الكتب الأولى الصادرة عن التخلف والتنمية أن تفعل، كلما أرادت التمييز بين هذه الدول وتلك. ثم تبين أن هذا يمكن أن يؤدي إلى بعض النتائج الغريبة إذ يستيقظ سكان إحدى الدول في الصباح فيجدوا أن دولتهم لم تعد دولة متخلفة، بينما كانت تعتبر كذلك في اليوم السابق، إذا حدث وأصابت الولايات المتحدة كارثة اقتصادية أدت إلى انخفاض كبير في متوسط دخلها، كذلك تبين عدم ملاءمة هذه الطريقة عندما فقدت الولايات المتحدة المكانة في ترتيب متوسط الدخل واحتلتها بدلاً منها بعض الدول الأوروبية، ولم تعد أعلى الدول في متوسط الدخل في هذه السنة هي بالضرورة أعلاها في السنة التالية.

في أواخر الستينيات اقترح رقم ثابت لمتوسط الدخل، وهو ٥٠٠ دولار كحد فاصل بين التقدم والتخلف، وطُبّق هذا المعيار بضع سنوات ثم اكتشف أيضاً عدم صلاحيته بسبب ما لابد أن يطرأ على القيمة الحقيقية للدولار من تغير بين سنة وأخرى، فضلاً عن أن مرور الزمن لابد أن يجعل متوسط الدخل الذي كان مرضياً من قبل لا يمثل مستوى كافياً من الطموح للدول منخفضة الدخل، فإذا بالخمسمائة دولار تبدو منخفضة للغاية كهدف ترمي هذه الدول إليه.

في مثل هذا المناخ سرعان ما انهمك اقتصاديو التنمية في حديث لا ينقطع عن حجم الفجوة (The Gap) التي تفصل بين الدول المتخلفة والمتقدمة.

وما أكثر ما كُتب في قياس هذه الفجوة وتصويرها، هي بدورها، من كل زاوية من الزوايا، مرة في اللحظة الراهنة وهي ساكنة، ومرة وهي متحركة عبر فترة طويلة من الزمن، كمائة عام أو مائتين. كما راح البعض يحسب لنا عدد السنوات التي تحتاج إليها كل دولة من الدول المتخلفة «لسد الفجوة» الفاصلة بينها وبين الولايات المتحدة، فوجدوا اننا إذا افترضنا أن دولة ما، كسيريلانكا مثلاً سوف يستمر متوسط الدخل فيها في النمو بنفس معدل نموه خلال الستينيات، وافترضنا أيضاً أن الولايات المتحدة سوف تنمو كذلك بنفس معدل نموها في الستينيات، فإن سيريلانكا تحتاج إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة للحاق بالولايات المتحدة، أي لكي يصل متوسط دخلها إلى مستوى متوسط الدخل في الولايات المتحدة. أما الدول التي كان معدل نموها أقل من معدل نمو الولايات المتحدة، (مثلما كان الحال في مصر في الستينيات) فقد كتب بجوار اسمها حرفان هما (N.S) أي «لا حل» (No Solution). إذ كيف يمكن لدولة متخلفة عن غيرها أن تلحق بهذه التي تسبقها، إذا كانت - فضلاً عن تخلفها - تسير أيضاً بسرعة أقل من سرعة الدولة المتقدمة عنها؟

كان المطلوب منا، لدى قراءتنا لهذه الكتابات، أن نذرف الدموع بالطبع حزناً وحسرة على صعوبة اللحاق بالدول المتقدمة. ولكن هذه الكتابات كانت في نفس الوقت تحاول أن تتجنب تجنباً تامّاً أن يصيبنا اليأس. الشعور بالأسف أو الحسرة لا بأس به، إذا كان يدفعنا إلى المزيد من محاولة اللحاق وعبور هذه الفجوة المشئومة، أما اليأس فخطير، إذ مؤداه أن نتوقف عن السير وراء الدول المتقدمة نقتفي أثرها خطوة بخطوة، وقد يؤدي إلى النتيجة الخطيرة التالية: وهي أن نبحث لأنفسنا عن هدف آخر أقرب إلى الواقعية، إذ ربما اكتشفنا وهذا هو الخطير في الأمر، أن ذلك الهدف الآخر ليس فقط أقرب إلى الواقعية بل هو أيضاً هدف أفضل وأثمن.

ذلك أن الانهماك في محاولة سد الفجوة بين متوسطات الدخول لابد أن يصرف نظرنا، ليس فقط عن العمل المباشر لرفع مستوى معيشة شرائح معينة من السكان، هي الشرائح الفقيرة بالفعل، بل لابد أن يصرف نظرنا أيضاً عن أية محاولة للتساؤل عن المعنى الحقيقي للنهضة، وعما إذا كان رفع متوسط الدخل قد يتعارض مع أهداف أخرى لا تقل أهمية كتغيير المقررات التعليمية مثلاً، أو استخدام التليفزيون استخداماً أفضل، أو ابتداع طريقة للمواصلات أقل تكلفة من حيث آثارها على البيئة والمجتمع من السيارة الخاصة، بل وقد يتعارض حتى مع زيادة فرص العمالة المتاحة.. إلخ. وبعبارة أشمل، لابد أن يؤدي الانهماك في هدف سد الفجوة بين متوسطات الدخول إلى صرف أنظارنا عما يمكن أن يحدثه السير نحو هذا الهدف من ضرر لثقافتنا الخاصة، بأوسع معاني لفظ «الثقافة»، أي التخلي عن كل ما يميزنا عن غيرنا. فإذا بنا، إذا قدّر لنا بالفعل أن نسد الفجوة، قد أصبحنا مثلهم، ليس فقط في متوسط الدخل.. بل أيضاً في كل شيء: أنماط السلوك، وطريقة التفكير، وفلسفة الحياة.. إلخ.

في غمار هذا الانهماك في سد الفجوة بين متوسطات الدخول، تجرأ أستاذ في الأنثروبولوجيا، وليس في الاقتصاد، أن يقدم تعريفاً للتنمية (development) يختلف عن تعريف الاقتصاديين لهذا اللفظ، فقال إن التنمية هي «التحقيق المتزايد لقيم وثقافة المجتمع الخاصة»، ولكن مثل هذه التدخلات والمعارضات لم يكن من الممكن أن تنجح في الصمود في وجه «وابور الزلط» الاقتصادي، الذي يكتسح أمامه كل شيء، ويقضي على أي شيء لا يمكن إدخاله في حساب «متوسط الدخل».

ثلاث حماقات وأربعة أعذار:

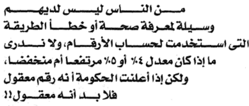
الخلاصة أن تشخيص مشكلة البلاد الفقيرة على أنها مشكلة انخفاض متوسط الدخل كان ينطوي على ثلاث حماقات قاتلة:

الحماقة الأولى: هي الانشغال «بمتوسط» عن الاهتمام بأمر الفئات المحرومة بالفعل. والحماقة الثانية: هي تعليق أهمية مبالغ فيها على ما يمكن حسابه بالأرقام وإهمال أشياء أخرى قد لا تقل أهمية، ولكن ليس من السهل التعبير عنها رقمياً. والحماقة الثالثة: هي الانشغال باللحاق بالغير، في الصالح والطالح، طالما كان هذا ينعكس في زيادة متوسط الدخل، بدلاً من الاهتمام بما هو أجدر وأنفع من أمورك أنت الخاصة.

ومن المحزن الآن أن ندرك السهولة التي تم بها منذ خمسين عاماً إقناعنا بمعيار «متوسط الدخل» كمقياس للتقدم الاقتصادي أو التأخر. كان علينا أن نقاوم الفكرة ونتصدى لها، ولكننا قبلناها دون تردد، وابتلعناها بسرعة ولم



الغالبية العظمى من الناس ليس لديهم وسيلة لمعرفة صحة أو خطأ الطريقة التي استخدمت لحساب الأرقام، ولا ندرى ما إذا كان معدل ٤٪ أو ٥٪ مرتفعاً أم منخفضاً، ولكن إذا أعلنت الحكومة أنه رقم معقول فلا بد أنه معقول!!



نكتشف خطانا إلا بعد أن بدأنا نشعر بآثار السم الذى أخذ يسرى فى الدم.

نعم، قد يكون لنا بعض الأعذار. «فمتوسط الدخل» رقم بسيط يلخص أمورًا كثيرة، ومن ثم فإنه رغم عيوبه الخطيرة معيار سهل الاستخدام، وما أسهل أن يستخدم فى ترتيب البلاد بعضها فوق بعض، وفى قياس مدى تقدمك أو تأخرك، ومدى ما أحرزته كل عام من نجاح أو فشل، وما أسهل أن يتجاهل الناس أمورًا مهمة كان من الواجب إدراجها فيه ولم يتم إدراجها (كخدمات ربات البيوت مثلاً أو كثير جدًا من السلع والخدمات التى تنتج وتستهلك دون أن تباع فى الأسواق).



والحكومات، خاصة حكومات البلاد الفقيرة، تحتاج إلى رقم مثل متوسط الدخل ترفعه كشعار، وتصدّع به رءوس شعوبها ليل نهار، فتعلن تارة أن هدفها مضاعفته، وتارة أنها حققت ما أرادت تحقيقه بشأنه بل وتجاوزته، وتباهى به سائر الأمم، وتبرر به ما تتخذه من وسائل القمع، وتلهى به الناس عن مختلف أنواع الظلم أو الفساد، إذ أن كل هذا يهون فى سبيل رفع معدل نمو متوسط الدخل. والغالبية العظمى من الناس ليس لديهم وسيلة لمعرفة صحة أو خطأ الطريقة التى استخدمت لحساب الأرقام، ولا ندرى ما إذا كان معدل ٤٪ أو ٥٪ مرتفعًا أم منخفضًا، ولكن إذا أعلنت الحكومة أنه رقم معقول فلا بد أنه معقول!!

والاقتصاديون والإحصائيون يفضلون بدورهم أن يحتل متوسط الدخل هذه الأهمية إذ إن إسباغ أهمية على أمور أخرى من التى يصعب أو يستحيل حسابها، يقلل من قيمة ما يقومون به من حسابات، ويفقدهم جزءًا من الوجاهة التى يسبغها على المرء التعامل بالأرقام، فالأرقام تم اعتبارها منذ زمن بعيد وكأنها مرادفة للعلم، فكلامك علمى «وموضوعى» بمقدار ما يعتمد على الأرقام، وليس من السهل على الشخص قليل الحظ والتعليم، أن يدرك أن جمع الإحصاءات وتحليلها كثيرًا ما يكون أقل حظًا من العلم والموضوعية وأكثر تحيزا من تعبيرات خالية تمامًا من الأرقام.

متوسط الدخل وتوزيع الدخل:

ولكن ربما كان أهم ما سهّل الوقوع فى هذا الخطأ (خطأ التركيز على انخفاض متوسط الدخل كتشخيص لمشكلة الدول الفقيرة)، وجعل هذا الشىء القبيح يبدو فى أعيننا جميلاً، هو أنه قدم إلينا مرتبطًا بفكرة عن العدالة الاجتماعية تصور قضية العدل على أنها قضية «توزيع». هذا التصوير لفكرة العدل، قبلناه أيضًا بحسن نيّة ودون تأمل كاف فى حقيقته، فإذا بالفكرتين معًا: فكرة أن «التقدمّ هو زيادة متوسط الدخل»، وفكرة أن «العدالة الاجتماعية هى حسن توزيع الدخل»، يسهل ابتلاعهما معًا، على الرغم من صعوبة قبول كل منهما على حدة.

فالقول بأن مشكلة العدالة الاجتماعية هى مشكلة «توزيع الدخل»، يفترض وجود شىء واحد كامل (ككعكة كبيرة مثلاً، كما يحلو للاقتصاديين أحيانًا أن يقولوا)، تجرى بعد ذلك تجزئته وتوزيعه بين عدد من الأفراد، والعدل هو ألا نزيد نصيب أحدهم زيادة كبيرة (أو لا يزيد على الإطلاق) على نصيب كل من الآخرين، وهذا الشىء الواحد الكامل (أو الكعكة الكبيرة) هو الدخل القومى، وهو ما يجرى توزيعه على مختلف أفراد وشرائح المجتمع. هذه الطريقة فى تصوير الأمر من شأنها أن توحى للمرء بأن أى زيادة فى حجم الكعكة من شأنها أن تصيب المجتمع بالخير فى النهاية، أو على الأقل أن أى زيادة فى حجمها يمكن بسهولة أن يفيد منها المجتمع، لو افترضنا فقط سياسة رشيدة فى «التوزيع». إذا كان الأمر كذلك، فإن هدف زيادة الدخل الإجمالى (وبالتالى زيادة متوسط الدخل أيضًا) يصبح هدفًا مشروعًا وجديرًا بالسعى من أجله، طالما أن المرء يفترض ضمنًا أن سياسة رشيدة فى توزيع الدخل آتية لا ريب فيها.

لقد سخر الكاتب البريطانى برنارد شو سخرية لاذعة من هذا الظن، عندما سأله سائل: «كيف تتحمل يا مستر شو أن تكون لك لحية كثيفة وطويلة بهذا الشكل، وفى نفس الوقت تكون لديك صلعة جرداء ليس فيها شعرة واحدة؟» فقال برنارد شو: «إن المشكلة ليست مشكلة نمو، بل هى مجرد مشكلة توزيع!». إن السبب الذى يجعلنا نضحك إذ نسمع هذه الإجابة هو أعمق مما قد نظن. فبرنارد شو يقول فى الواقع: إننا إذا اعتبرنا أن مشكلته هى «مشكلة توزيع» فإن حلها يكون سهلاً جدًا، إذ ليس علينا إلا أن نأخذ بعض الشعر من اللحية ونضعه فى قمة الرأس، ولكن الحقيقة بالطبع ليست كذلك. فما نبت فى اللحية يصعب نقله، ولابد أن يكون علاج الصلع من البداية بعمل مباشر لإنبات الشعر فى قمة الرأس.

التنمية كتوسيع دائرة الاختيار:

ربما ساعد أيضًا على تسهيل وقوعنا فى هذا الخطأ، تلك الحجة الشهيرة التى قدمها الأستاذ آرثر لويس (Arthur Lewis) لتبرير التنمية، أو لتفسير اعتبارها هدفًا جديرًا بالسعى من أجله، وذلك فى فصل شهير وضعه فى آخر كتابه «نظرية النمو الاقتصادى» (The Theory of Economic Growth) الذى نشر فى منتصف الخمسينيات، وظل يعتبر (بل وربما لا يزال يعتبر حتى الآن) من أفضل ما كتب فى نظرية التنمية خلال الخمسين عامًا الماضية.

كانت حجة آرثر لويس فى تبرير التنمية، لا تميز بين زيادة دخل الفقير وزيادة دخل الغنى، بل تبرر زيادة الدخل بصفة عامة، فقال: إن زيادة الدخل مرغوب فيها لأنها «توسع دائرة الاختيار»، ويقصد بذلك أن شخصًا دخله مائة دولار فى الشهر لا بد أن تكون السلع والخدمات التى يستطيع الحصول عليها أو الاختيار بينها محدودة للغاية، بالمقارنة بالسلع والخدمات المتاحة لشخص دخله ألف دولار فى الشهر. كلما زاد الدخل كلما زادت الاحتمالات والفرص، وزاد عدد أصناف الطعام التى يمكن الاختيار بينها، وعدد البلاد التى يمكن أن تقرر أن تقضى فيها عطلتك، وعدد أصناف السيارات التى يمكن أن تقتنى واحدًا منها.. إلخ.

هذا التبرير لزيادة الدخل يبدو منطقيًا ومعقولاً تمامًا، ولكن لا بد أن نلاحظ أيضًا أنه لا يميز بين توسيع دائرة الاختيار أمام شخص فقير وتوسيعها أمام شخص ثرى. إنه لا يميز مثلاً بين إتاحة الفرصة أمام شخص فقير لتناول اللحم هو وأولاده مرة فى الشهر، بدلا من الانتظار حتى يأتى عيد من الأعياد، وبين إتاحة الفرصة لشخص ثرى للاختيار بين قضاء عطلته فى جزر هاواى أو فى بلد قريب من بلدته، بدلاً من اضطراره إلى قضائها فى هذا البلد القريب دون غيره لأن دخله لا يسمح بأكثر من ذلك.

إن آرثر لويس لم يرتكب، فى دفاعه هذا، خطأ منطقيًا، وإنما أخطأ فقط فى عدم تمييزه بين المهم والأقل أهمية، ومن ثم أتاح الفرصة للتركيز على «متوسط الدخل» للدولة ككل، دون تمييز بين مستويات الدخول المختلفة داخل الدولة، ومن ثم أصبحت كل زيادة فى متوسط الدخل مطلوبة وجديرة بالسعى من أجلها، بصرف النظر عمن يحصل عليها، وتم تأجيل بحث زيادة دخل الفقراء إلى حين بحث مسألة «التوزيع»، التى قد لا يتسع وقت الباحث لبحثها.

صياغة جديدة لخطأ قديم:

منذ سنتين وقع اقتصادى كبير آخر فى نفس الخطأ، بل وربما بعذر أضعف من العذر الذى يمكن أن نجده لآرثر لويس، ففى سنة ١٩٩٩ نشر البنك الدولى كتابًا للاقتصادى الهندى الشهير أمارتيا سن (Amartya sen) الذى حصل فى نفس العام على جائزة نوبل فى الاقتصاد، الكتاب بعنوان «التنمية كطريق للحرية»، والفكرة التى يدافع عنها الكتاب ويلخصها عنوانه، فكرة مزدوجة: الحرية هى الهدف النهائى للتنمية، كما أنها شرط من شروط تحقيق التنمية.

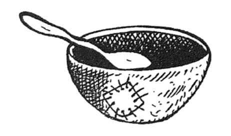
أما القول بأن الحرية شرط من شروط التنمية، فهو للأسف مجرد ترديد للفكرة الشائعة بضرورة الديمقراطية للتنمية (وهى فكرة مشكوك فى صحتها كما تدل تجارب تاريخية كثيرة من هتلر وستالين إلى محمد على وعبد الناصر) ولكنه يضيف إلى ذلك ما يعتبر أنه غاب عن كثيرين، من أن نظام السوق نفسه هو مظهر من مظاهر الحرية، فيقول:

« إن العلاقة بين جهاز السوق وبين الحرية، ومن ثم بينه وبين التنمية الاقتصادية، تثير مسائل يمكن تصنيفها إلى نوعين متميزين على الأقل، ويجب توضيح الاختلاف بينهما. الأول: يتعلق بأن حرمان الناس من فرص عقد ما يريدون عقده من صفقات، عن طريق فرض قيود تحكمية عليهم، يمكن أن يكون هو نفسه مصدرا من مصادر فقد الحرية.. هذه الحجة التى يمكن تقديمها لصالح نظام السوق يجب التمييز بينها وبين الحجة الأخرى التى تتمتع بشيوع كبير فى الوقت الحاضر وهى أن إطلاق حرية السوق تؤدى إلى زيادة الدخل والثروة وزيادة الفرص الاقتصادية المتاحة للناس.. إن هذه الحجة الثانية هى التى تحظى بأكبر قدر من الاهتمام والتأكيد فى الكتابات الاقتصادية المعاصرة. وهى إذا أخذت بوجه عام حجة قوية بلا شك، وهناك الكثير من الأدلة الواقعية التى تدل على أن الاعتماد على نظام السوق يمكن أن يولّد نموًا اقتصاديًا سريعًا وارتفاعًا فى مستوى المعيشة.. إن هناك بعض الحجج المهمة لصالح التدخل فى السوق، ولكن يمكن القول بصفة عامة إن الآثار الإيجابية لنظام السوق هى الآن أكثر تمتعًا بالقبول مما كانت من عقود قليلة». (ص ٢٥-٢٦)

إن مثل هذه الفقرات هى فى رأيى من الأسباب القوية التى شجعت على منح الأستاذ أمارتيا سن جائزة نوبل فى الاقتصاد منذ سنتين، إذ يصعب أن نتصور أن نعطى هذه الجائزة، فى الوقت الراهن، لمن يضع التأكيد على عيوب نظام السوق. ولكن ليس هذا على كل حال موضوعنا الحالى الذى يهمنا الآن هو قول أمارتيا سن إن الحرية هى الهدف النهائى للتنمية. وهذا القول لا يزيد فى الحقيقة عن أن يكون صياغة جديدة لقولة آرثر لويس القديمة من أن التنمية توسع دائرة الاختيار. فتوسيع دائرة الاختيار لا يعنى أكثر أو أقل من زيادة الحرية. ولكن هذه الصياغة الجديدة التى يقدمها أمارتيا سن لها نفس الخطورة التى تحيط بصياغة آرثر لويس، وهى الخطورة الناتجة عن عدم التمييز بوضوح بين زيادة حرية الفقير وزيادة حرية الغنى، ومن ثم تصبح أى زيادة فى متوسط الدخل زيادة مرغوبا فيها (وربما بنفس الدرجة) سواء حصل الغنى على هذه الزيادة أو حصل عليها الفقير، ما دامت كل زيادة فى متوسط الدخل تنطوى على «زيادة الحرية»!



القول بأن الحرية شرط من شروط التنمية، هو للأسف مجرد ترديد للفكرة الشائعة بضرورة الديمقراطية للتنمية (وهى فكرة مشكوك فى صحتها كما تدل تجارب تاريخية كثيرة من هتلر وستالين إلى محمد على وعبد الناصر)







رياض الصالحين

باب الجهاد:

قال اللَّه تعالى (التوبة ٣٦): ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾.

وقال تعالى (البقرة ٢١٦): ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وقال تعالى (التوبة ٤١): ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

وقال تعالى (التوبة ١١١): ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقال تعالى (النساء ٩٥، ٩٦): ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

وقال تعالى (الصف ١٠ - ١١): ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.



محاولات للتصحيح ذهبت سدى:

كان يظهر بالطبع، بين الحين والآخر، من الاقتصاديين والإحصائيين من يحذّر من المبالغة فى الاهتمام بمتوسط الدخل، ولكنهم كانوا يخسرون المعركة لصالح المعسكر الآخر المتمسك بكل عناد بهدف رفع معدل نمو هذا المتوسط. ما أكثر مثلاً ما كتب الأستاذ دادلى سيرز (Dadley Seers) الذى كان أستاذًا بجامعة ساسكس ببريطانيا عن أن تخفيض مستوى البطالة كثيرًا ما يكون أهم من رفع متوسط الدخل، وما أكثر ما كتب بول ستريتن (Paul Streeten) الذى كان أستاذًا بجامعة أكسفورد عن أن إشباع الحاجات الأساسية هدف أجدر بالتحقق من زيادة متوسط الدخل للدولة ككل، بل وما أكثر ما كتب شوماخر (E.F Schumucker) وميشان (Mishan) عن أن زيادة متوسط الدخل قد تؤدى، هى نفسها إلى انخفاض مستوى الرفاهية بدلاً من زيادته، وأن كوْن ٥٪ أكبر من ٤٪ لا يعنى بالضرورة أن ٥٪ أفضل من ٤٪ لم يكف كل هذا لتحويل الاقتصاديين والإحصائيين عن مسلكهم، واستمر متوسط الدخل، ورفع معدل نموه، يحتلان تلك المكانة الرفيعة التى تبوّأها منذ خمسين عامًا وحتى الآن.

فإذا اضطروا أحيانًا للتسليم بأهمية أمور أخرى غير رفع متوسط الدخل، كتخفيض مستوى البطالة مثلاً أو حماية البيئة من التلوث أو تقليل حوادث العنف ووضع حد لزيادة الجرائم.. إلخ. لم يجدوا ما يدافعون به عن هذه الأهداف النبيلة إلا أنها تساهم فى رفع متوسط الدخل. فالبطالة مكروهة ليس بالضبط لأن الإنسان المتعطل يفقد احترامه لنفسه واحترام أهله وعشيرته، بل لأنها تفقد المجتمع مصدرًا من مصادر زيادة الدخل. والتلوث أيضًا مذموم ليس بالضبط لأنه يفقد الناس مصدرًا أساسيًا من مصادر التمتع بالحياة، ولكن لأنه يصيب الناس بالأمراض، والأمراض تقلل من إنتاجيتهم فيقل معدل نمو متوسط الدخل. وقل مثل ذلك عن حوادث العنف والجريمة، إذ أن مكافحة العنف والجرائم تقتطع من ادخار المجتمع جزءًا كان من الأجدر توجيهه لاستثمارات جديدة تزيد متوسط الدخل.. إلخ.

التنمية البشرية: محاولة أخرى غير كافية:

فى أوائل التسعينيات أعلن البعض أنهم قرروا أن يستبدلوا بمتوسط الدخل مؤشرًا جديدًا أفضل وأجدر بالاهتمام، وهو مؤشر التنمية البشرية (Human Development). كان الفضل فى هذا يعود إلى اقتصادى باكستانى مشهور هو محبوب الحق، شغل فترة منصب وزير التخطيط فى باكستان قبل أن يلتحق بالبنك الدولى فى السبعينيات، ولا بد أن كان له دور مهم فى بعض ما رفعه البنك من شعارات فى أوائل السبعينيات عن ضرورة الاهتمام «بالتوزيع» إلى جانب «زيادة متوسط الدخل»، وهى شعارات لم تستمر طويلاً، على أى حال، إذ عاد البنك يؤكد مرة أخرى على نمو متوسط الدخل. فى مطلع التسعينيات أقنع محبوب الحق «برنامج الأمم المتحدة للإنماء» (UNDP) بإدخال مؤشر جديد سمى بمؤشر التنمية البشرية، يقيم به أداء الدول بدلاً من مجرد الاعتماد على مؤشر نمو الدخل الإجمالى أو المتوسط. ويقوم هذا المؤشر الجديد على ثلاثة عناصر:

١- العمر المتوقع عند الميلاد.

٢- معدل القدرة على القراءة والكتابة عند البالغين.

٣- متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى (أى متوسط الدخل).

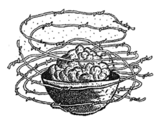
ومن ثم فإن ترتيب الدول فى مدى نجاحها أو فشلها فى تحقيق «التنمية البشرية»، أى فى إسعاد البشر وتلبية حاجاتهم الحقيقية، وتحقيق الحياة اللائقة بهم وتوفير الطمأنينة واحترام الذات، إلى آخر هذه المعانى الجميلة والمستهدفة أصلاً من التركيز على «الإنسان» بدلاً من «السلع» والتى قد لا تحققها التنمية بالمعنى الشائع والمألوف، كل هذا يتوقف فى نظر التقرير على مدى النجاح والفشل فى هذه الأمور الثلاثة. ولا أخفى على القارئ شعورى بعدم الارتياح إذ وجدت هذه الأهداف العظيمة التى كنت أظن أن التنمية البشرية تستهدفها، قد اختصرت فى هذه المؤشرات الثلاثة.

فالمؤشر الثالث (متوسط الدخل) ليس على أى حال إلا المؤشر المعتاد للتنمية، ومن ثم فوروده هنا لا يمثل أى تقدم عن الكتابات والمقارنات المألوفة المتعلقة بالتنمية الاقتصادية.

والمؤشر الأول (العمر المتوقع عند الميلاد) يعكس فى الحقيقة طول الحياة أكثر مما يعكس نوعية الحياة. فارتفاع هذا المؤشر مثلاً من ٦٠ عاماً إلى ٧٠ عاماً، لا يعنى بالضرورة أن حياة الإنسان قد أصبحت أفضل بل يعنى فقط أنها أصبحت أطول مما كانت، وهناك على أية حال من الحيوانات ما يعيش أطول من الآدميين دون أن تكون لديها هيئات مهتمة بتطوير معنى التنمية. وقد يؤيد هذا أن العمر المتوقع عند الميلاد فى مصر زاد فى الأربعين عاماً الماضية (١٩٦٠-٢٠٠٠) بنحو ١٧ عامًا (من ٤٨,٨ إلى ٦٦,٣ عامًا) ولكن مؤشرات كثيرة أخرى تدل على تدهور نوعية الحياة فى مصر سواء فيما يتعلق بمستوى السكن أو المواصلات أو نوعية التعليم أو درجة تلوث الهواء أو المياه.. إلخ.



صحيح أن زيادة العمر المتوقع عند الميلاد تعكس إلى حد ما أوضاع الصحة وحالة التغذية ولكن الأمر هنا يحتاج إلى وقفة، فقد لا يكون من الواجب أن نقبل هذا القول دون تحفظ. فتحسن الأوضاع الصحية له أشكال وصور متعددة ليست كلها على نفس المستوى من حيث احترام آدمية الإنسان وتخفيف آلامه. فتحقيق تخفيض كبير مثلاً فى معدلات وفيات الأطفال الرضع قد يؤدى إلى زيادة كبيرة وعبر فترة قصيرة من الزمن فى العمر المتوقع عند الميلاد، دون أن يقترن هذا بالضرورة بتحسن يذكر فى مدى توفر الدواء أو أسرّة المستشفيات



أو فيما يتلقاه المريض من عناية من الأطباء ومستوى التمريض، أو مدى ما يشعر به المرء من اطمئنان على إمكانية حصوله على الرعاية الطبية إذا احتاج إليها. ومن الممكن القول إن هذه الأمور الأخيرة كلها أكثر صلة باحترام آدمية الإنسان وتحسين نوعية الحياة من تخفيض معدل وفيات الأطفال الرضع مثلاً، أو من مكافحة الأوبئة بالتطعيم الشامل إلى غير ذلك من وسائل إطالة الحياة دون تحسين في نوعها.

ويمكن أن نقول شيئًا مماثلاً عن مستوى التغذية، فالحرمان من الغذاء له بدوره أشكال وألوان، بعضه فقط هو الذى يهدد الحياة، ومن ثم ينعكس فى انخفاض العمر المتوقع عند الميلاد، مثل سوء تغذية الأمهات وهن فى سن الإرضاع، ولكن أكثر أنواع الحرمان من الغذاء لا يصل إلى هذا الحد، بل يقتصر أثره على أن يصيب المرء بالبؤس طول عمره. فقد ينام الناس جوعى كل يوم، ومع ذلك يعيشون إلى سن السبعين أو الثمانين. وقد يصلح للتعبير عن هذه الحالة منظر كثير من رجال الشرطة فى مصر، المنتشرين فى شوارعنا أو الواقفين لحراسة السفارات والمؤسسات المختلفة، حيث تظهر عليهم مظاهر الحرمان والجوع دون أن يصل هذا الحرمان بالضرورة إلى درجة تخفيض العمر المتوقع، ومن ثم فلا يعبر عن حالتهم للأسف، هذا المؤشر من مؤشرات «التنمية البشرية».

بقى المؤشر الخاص بمعدل القدرة على القراءة والكتابة لدى البالغين. وهو طبعًا مقياس مهم لتقدم الإنسان وإن كان من الممكن أن يتساءل المرء عما إذا كان هذا المؤشر يتعلق بالإنتاجية أكثر مما يتعلق بمختلف الاعتبارات الإنسانية المستهدفة أصلاً من جعل الإنسان، وليس السلع، محور الاهتمام، كالسعادة واحترام النفس والعلاقات الاجتماعية السوية والشعور بالطمأنينة.. إلخ.

على أية حال، فإنه يبدو لى على ضوء هذه الملاحظات، أن هذه المؤشرات الثلاثة التى يتبناها مفهوم «التنمية البشرية» لا تكفى على الإطلاق بالإحاطة بمختلف الأبعاد الإنسانية لمفهوم التقدم البشرى، وأنها إن أردنا الصدق، تكاد تجعل التنمية البشرية مرادفًا للتنمية بالمعنى التقليدى، أى زيادة نصيب الفرد من السلع والخدمات، أو متوسط الدخل أوالناتج.

لا عجب إذن أنه رغم ظهور هذا المؤشر الجديد، التنمية البشرية، استمرت تقارير البنك الدولى وكتبه فى التاكيد على الأهمية القصوى لرفع معدل نمو الدخل الإجمالى والمتوسط، وفى إعطائه الأولوية على ما عداه، بل والتأكيد على أن الوسيلة الأساسية للنهوض بحال الفقراء فى كل بلد هى تنمية متوسط الدخل فى الدولة ككل. وهكذا استمر البنك فى الترويج لهذه السياسة الملتوية والتى تعنى بصريح العبارة: «أن الفقراء لن ينصلح حالهم إلا بعد أن يزيد ثراء الأثرياء أولاً!».

توبة غير نصوح:

إزاء هذا التاريخ الطويل، لابد أن تعترى المرء ريبة شديدة إذ يرى البنك الدولى يرفع من جديد شعارات مثل «التنمية الشاملة» أو ضرورة «مكافحة الفقر» بمعنى ضرورة الاهتمام بالفقراء بالذات. بل والأرجح أن من يقرأ هذا التقرير الحديث للبنك الدولى الصادر فى هذا العام (٢٠٠٠ / ٢٠٠١) ويحمل عنوان «الهجوم على الفقر»، سوف يبتسم إشفاقًا من أن ينخدع أحد بهذه المحاولة الجديدة من جانب البنك لذرّ الرماد فى الأعين. نعم، من الخطر أن يترك الفقراء يتزايدون إذ أن هذا لا بد فى النهاية أن يهدد الاستقرار وقد يؤدى إلى كارثة سياسية يضار منها الجميع: الفقراء والأثرياء، ولكن الاهتمام بالفقراء بسبب تحقيق الاستقرار السياسى شىء، والاهتمام بالفقراء بسبب كراهية الفقر شىء آخر تمامًا. وقد قدّم البنك الدولى فى تاريخه الطويل، الدليل بعد الدليل، على أنه عندما يهتم بالفقراء إنما يهتم بهم للسبب الأول لا الثانى، ومن ثم فهو لا يؤكد على هذه الشعارات النبيلة (عدالة التوزيع، إشباع الحاجات الأساسية، التنمية الشاملة والهجوم على الفقر.. إلخ) إلا على فترات متباعدة، وفقط عندما تظهر حاجة سياسية ملحة إلى ذلك. أما ما فى القلب فلازال فى القلب، ولا يزال غرام البنك كله هو بمعدلات نمو الدخل الإجمالى ومتوسط الدخل، التى قد ترتفع بشدة ويبقى مع هذا فقر الفقراء على ما هو عليه.



وما دام ما يكنه المرء فى القلب لابد أن يفضحه بشكل ما، ما يقوله اللسان، فإن التقرير الأخير للبنك والصادر هذا العام لا يسعه بين الحين والآخر إلا أن يعبّر عن مكنون القلب، المرة بعد الأخرى، فى عبارات من نوع العبارة الآتية:

«إن الفوارق الصارخة المتعلقة بمستويات الفقر فيما بين الدول الغنية والدول الفقيرة تشير إلى الدور المحورى الذى تلعبه التنمية الاقتصادية فى تخفيض الفقر.. ففى الغالبية العظمى من الحالات نجد أن ارتفاع معدل النمو (فى متوسط الدخل) يؤدى إلى ارتفاع مستوى الاستهلاك لأفقر ٢٠٪ من السكان، بينما يؤدى انخفاض معدل النمو إلى انخفاض هذا الاستهلاك.. وعلى الرغم من أن وجود انحرافات عن هذه العلاقة إذ نجد النمو فى متوسط الدخل يؤدى إلى انخفاض فى درجة الفقر فى بعض البلاد بدرجة أكبر بكثير مما يؤدى فى غيرها، فإن العلاقات التى تكشف عنها الإحصاءات تؤكد أهمية دور النمو الاقتصادى (أى ارتفاع متوسط الدخل) فى تحسين حال الفقراء وفى انتشال الناس مما هم فيه من فقر».

وهكذا يعود البنك الدولى ليكرر على أسماعنا ما ظل يردده طوال الخمسين عامًا الماضية من أن مواجهة مشكلة الفقر لا تكون، كما قد يظن صاحب الفطرة السليمة، بالعمل مباشرة على تحسين حال الفقراء، بل هى برفع معدل نمو متوسط الدخل، وهو كلام فضلاً عن أنه، كما رأينا يشخص المشكلة تشخيصًا سيئًا ومن ثم يصف علاجًا قد ينجح وقد لا ينجح، فإنه يصيب قارئه بالملل الشديد لكثرة ما تردد على سمعه من قبل. ■





رياض الصالحين

باب «الكلم» الجرح:

وعنه رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ قال، قال رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم: «ما من مكلوم يكلم فى سبيل اللَّه إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى؛ اللون لون دم والريح ريح مسك» مُتَّفَقٌ عَلَيه.

وعن معاذ رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم قال: «من قاتل فى سبيل اللَّه من رجل مسلم فواق ناقة وجبت له الجنة، ومن جرح جرحاً فى سبيل اللَّه أو نكب نكبة، فإنها تجىء يوم القيامة كأغزر ما كانت؛ لونها الزعفران وريحها كالمسك» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمذِىُّ وقال حديث صحيح.

وعن أبى هريرة رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ قال: مر رجل من أصحاب رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته، فقال لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم، فذكر ذلك لرَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم فقال: «لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل اللَّه أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر اللَّه لكم ويدخلكم الجنة؟! اغزُوا فى سبيل اللَّه، من قاتل فى سبيل اللَّه فواق ناقة وجبت له الجنة» رَوَاهُ التِّرمذِىُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وعنه رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ قال قيل: يا رَسُول اللَّه ما يعدل الجهاد فى سبيل اللَّه؟ قال: «لا تستطيعونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه» ثم قال: «مثل المجاهد فى سبيل اللَّه كمثل الصائم القائم القانت بآيات اللَّه لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل اللَّه» مُتَّفَقٌ عَلَيه. وهذا لفظ مسلم.

إذا نسينا فاذكري أنت.. أم هاشم

يوسف القعيد

لوحات الفنان محمد حجى

خمسة وعشرون عاماً من عمرى قضيتها وأنا أمر على مقام أم هاشم مرتين كل يوم. الأولى صباحاً. والثانية مساء. كان يلفت نظرى نوعية زوارها من فقراء المصريين. يحضرون إليها على عربات الكارو. يزداد الحضور كثافة يومى الجمعة والأحد. مطالبهم منها يصل تحقيقها إلى حدود المعجزات. حى فقير. يقابله غنى «حى الحسين» وزواره من الأغنياء. أصحاب السيارات السوداء الفارهة ذات الستائر التى تحجب ركابها عن الرؤية. لا يرى مجاذيب الحسين سوى أموالهم الجديدة وأياديهم الممدودة بها فقط. السياح يعرفون طريقهم إلى الحسين ولكنهم لا يحضرون إلى السيدة زينب. مولدها فى الأول من رجب من كل عام يوشك أن يكون جمعية عمومية للفقراء والمساكين والمحتاجين فى بر مصر كله. يقيمون فى الحوارى والشوارع المحيطة بها من كل ناحية. أما الذين أسعدهم حظهم بالإقامة فى حماها. ـ هكذا يسمون السكنى بجوارها ـ فمن حق الآخرين أن يشعروا بالحسد تجاههم. فالإقامة بالقرب منها تعنى أن الإنسان رأى الجنة على الأرض قبل أن يصل إليها فى الآخرة. الفلاحون فى قريتى يقولون إن الله ينجى مصر من الأزمات والشدائد. لوجود السيدة زينب وغيرها من آل البيت مدفونين فى ترابها. يحيى حقى فى جولة لى معه بالسيدة طلب منى عدم مناقشة ما لا تدركه الحواس من الأمور عندما سألته لماذا يحب المصريون السيدة زينب كل هذا الحب؟ قال لى إن كنا سعداء بما نعلم. فلا يجب أن نقلل سعادتنا بالبحث عما لا نعلمه. وإن الإصرار على إخضاع الماوراء قد يفسد أسطوريته، ويبدد قدسيته ويجعله من الأمور العادية. جمال الغيطانى كان يرى أن المصريين فى حاجة إلى أم رءوم يلجأون إليها وقت الشدة. وأن السيدة زينب لعبت فى العصور الحديثة بالنسبة لوجدان المصريين. الدور الذى لعبته إيزيس فى مصر الفرعونية بالنسبة لكل مصرى.



أما الدكتور سيد عويس. فقد كان يتكلم معى عن المفهوم الشعبى المصرى للإسلام، كان يرى أن أركان هذا المفهوم ثلاثة: السيدة زينب باعتبارها رئيسة الديوان. تجسد البحث عن العدل. والخوف من الظلم. وأنها قادرة على إنصاف كل مظلوم. عند المصريين مثل شعبى يقول: يا بخت من بات مظلوم ولا باتش ظالم. وإن سألت أى إنسان عامى عن معنى هذا المثل يقول لك، إنه يبيت ليلته وهو له، وليس عليه.

ملاذ الفقراء والعاجزين

فالمظلوم لابد أن ينصف ذات يوم. أما أخوها الحسين. فهو سيد الشهداء. والشهادة والاستشهاد من القيم الأزلية فى الشخصية المصرية. والثالث هو الإمام الشافعى. الذى يفضفض المصريون بين يدى مقامه بهمومهم. ومن لا يعيشون فى القاهرة يكتبون له الرسائل. وللدكتور سيد عويس دراسة ميدانية مبكرة عن ظاهرة إرسال الرسائل من قبل المصريين إلى الإمام الشافعى. وعلى الرغم من أنه له العديد من الكتابات عن هذه الظواهر الثلاثة. إلا أن العمر لم يمهله حتى يفرد دراستين أخريين عن ظاهرتى: رئيسة الديوان. وسيد الشهداء. يكتب سيد عويس فى كتابه قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى. الصادرة عن روزاليوسف ١٩٨٨: أن مكانة الأم التى تلد ذكراً أو التى تلد أنثى على السواء مكانة مرتفعة سواء فى الماضى أو الحاضر. ويؤكد ذلك الأمثلة الشعبية التى يحفظها المصريون ويرددونها «إللى بلا أم حاله يغم»، «الأم تعشش والأب يطفش». إن الأنثى المصرية زوجة أو أختا أو ابنة هى حاملة ثقافة المجتمع المصرى، الفراعنة عندهم إيزيس والمسيحيون لديهم مريم العذراء أم الفادى المخلص. والمسلمون عندهم السيدة زينب. مرة أحد المواطنين الطيبين أرسل رسالة إلى ضريح الإمام الشافعى فى ٥ أكتوبر ١٩٥٥ يطلب فيها من الإمام الشافعى عقد جلسة شريفة يحضر فيها سيدنا الحسن وسيدنا الحسين والست زينب أم هاشم وجميع أهل بيت النبى (صلى الله عليه وسلم) وذلك لمسح وإزالة إسرائيل واليهود من على وجه الأرض المقدسة خلال أسبوع.

الدكتور أحمد على مرسى أستاذ الأدب الشعبى يرى أن الثقافة الشعبية تقدس من الإناث اثنتين: الأم والأخت. الأم دائماً عظيمة والأخت دائماً عظيمة. وهذا موجود فى مصر منذ فجر التاريخ وحتى الآن. قلت له ولكن الفراعنة كانوا يتزوجون من شقيقاتهم، قال لى إن هذا ليس صحيحاً. الذى كان يحدث أن الرجل لكى يرفع من شأن زوجته كان يناديها بأخته. والزوجة تقول لزوجها يا خويا والأخوة هنا رابطة تصل إلى حدود القداسة. إن السيدة زينب هى الجازية فى السيرة الهلالية.



وإن كان الوجدان الشعبى المصرى أحب السيدة زينب للأسباب التى سبق ذكرها. ولكن هناك ما يمكن أن يضاف. انطلاقاً من قصة حياتها. ومدى الآلام التى مرت بها. فالمصرى يحنو على المسكين. والمظلوم وينفر من أولئك الذين يتصرفون بحماقة المنتصرين. حتى وإن كانوا قد انتصروا فى معارك حقيقية. أعتقد أن هناك موقفاً إسلامياً عاماً من حكاية السيدة زينب وقصة حياتها. فنحن نجد أنفسنا أمام أربعة أماكن يقال إنها ماتت فيها: المدينة المنورة. مصر. دمشق. شمال العراق. وثلاثة أضرحة ومقامات لها: فى مصر وسوريا والعراق. الموقف المصرى منها يعكسه الألقاب التى أطلقها عليها المصريون. الست، الطاهرة، السيدة، وهو الاسم الذى كان فى الأصل السيدة زينب. ثم أصبح السيدة فقط. وأم العواجز، وأم هاشم، وأم الشهيد، وابنة الشهيد، وشقيقة الشهيدين.

ولدت فى السنة الخامسة من هجرة الحبيب المصطفى التى توافق سنة ٦٢٦ من بعد ميلاد السيد المسيح. وما أن وضعت السيدة فاطمة الزهراء وليدتها الكريمة. حتى قالت السيدة أسماء

بنت عميس زوجة جعفر بن أبى طالب وقد حملتها بين يديها:

- يا ابنة رسول الله. إنها شبيهة بك فى جمال الخلقة وحسن التكوين وما أشبهها بأخيها الحسين.

وجاءت فاطمة الزهراء إلى أبيها وسألته أن يسميها فقال: ما كنت لأسبق رسول الله. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) على سفر فلما عاد سأله عن اسمها: فقال: ما كنت لأسبق ربى تعالى. فهبط جبريل الأمين. يقرأ السلام من الله تعالى على النبى. وقال له: سم هذه المولودة زينب. والكلمة مركبة من كلمتين هما: زين والأب. وفى لسان العرب: الزينب شجر حسن المنظر. طيب الرائحة. وبه سميت المرأة. وواحد الزينب للشجر زينبة. ثم أخبره بما يجرى عليها من المصائب. فبكى النبى وقال: من بكى على مصائب هذه البنت كان كمن يبكى على أخويها الحسن والحسين. وحينما جئ بها فى الأيام الأولى لولادتها إلى الرسول. ووقع نظره عليها. وإذا به يستحضر صورة جدتها خديجة وتقول الرواية: فضمها الرسول إلى صدره وأخذ يقبلها ثم قال: أوصيكم بها. فإنها شبيهة جدتها خديجة الكبرى. وقد عاشت خمس سنوات من عمرها فى بيت النبوة متمتعة بعطف جدها. ورعاية أبويها.

جدها هو المصطفى النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى أسس ونشر أحد أعظم الأديان فى العالم. وأبوها على بن أبى طالب أول من آمن بالرسول. وأول من ضرب بالسيف فى سبيل الله. وأول من أعلن نصرة الرسول. قال عنه الرسول: أنا مدينة العلم وعلىّ بابها. فمن أراد العلم فليأت الباب. وأمها الزهراء. قال عنها الرسول: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة. أخواها الحسن والحسين. قال الرسول: «خير رجالكم على، وخير شبابكم الحسن والحسين، وخير نسائكم فاطمة».

كانت زينب الابنة الأولى لأسرة ازدان بيتها بحسنين هما الحسن الذى ولد منتصف شهر رمضان فى السنة الثالثة للهجرة والحسين الذى ولد فى الثالث من شعبان للسنة الرابعة من الهجرة. وتأتى زينب فى السنة الخامسة كما يرجح ذلك المحققون وبعد عام أو أكثر أنجبت الزهراء بنتاً أخرى هى أم كلثوم لتكون شقيقة لأختها زينب. وخلافاً لما كان منتشراً عند بعض العرب فى الجاهلية من التشاؤم والاستياء عند ولادة البنت. فقد أرسى الإسلام ثقافة سلوكية جديدة فى المجتمع الإسلامى. تجعل البنت مساوية فى الشان والقيمة للولد.

كتاب الأحزان

عاشت السيدة زينب فى أسرة تحيا حالة من التقشف الطوعى الذى اختارته. وليس لأنه فرض عليهم. بمعنى عدم تطلعاتهم لرغد العيش ورفاهية الحياة. الأسرة لم تكن فقيرة. كانت هناك ثروات لجدتها خديجة وكان هناك الموقع القيادى لجدها الرسول. فقد ولدت ونشأت فى فترة الانتصارات العسكرية والسياسية التى كانت تعود على المسلمين الأوائل بالغنائم الكثيرة. ولجدها النبى التصرف المطلق فيها. إلى جانب استعداد المسلمين لبذل كل إمكانياتهم ووضعها تحت تصرف الرسول. ولكن السيدة زينب تلاحظ امتلاك عائلتها لبعض الإمكانيات ثم تنازلها عنها لصالح الآخرين. وقد نزلت الآيات القرآنية تخلد هذا. لم تكن العائلة تمتلك بيتا تعيش فيه لكن أحد الصحابة المتمكنين من أهل المدينة وهو حارثة بن النعمان. وضع أحد منازله تحت تصرف على. حينما أراد الزواج من فاطمة. وبعد فترة بنى الرسول بيتاً ملاصقاً لمسجده له باب إلى المسجد كبقية الحجرات التى بناها لزوجاته. وانتقلت العائلة إلى ذلك البيت الجديد الملاصق لبيت الله المجاور لبيت رسول الله.



لقد نشأت السيدة زينب فى عائلة نذرت نفسها للجهاد فى سبيل الله. وفى أجواء رسالية. ما كان يدور فيها غير الاهتمامات المبدئية. جدها الرسول قاد ٢٨ غزوة ومعركة. وأبوها الإمام على رافق الرسول فى كل هذه المعارك. عدا واحدة هى غزوة تبوك حيث تخلّف بأمر من رسول الله. كما قاد الإمام بنفسه العديد من السرايا والمعارك المحدودة. لقد عاشت الأسرة مع أوضاع المجتمع. فى أجواء مفعمة بالمسئولية والتضحية.

بعد خمس سنوات قضتها السيدة زينب فى بيت كان الرسول إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة. وإذا قدم من سفر كان أول الناس عهداً به فاطمة. ولكن ها هى شمس السعادة فى بيت السيدة زينب قد آذنت بالمغيب. فرسول الله يلبى نداء ربه ويلتحق بالرفيق الأعلى فى الثامن والعشرين من صفر ١١هـ. لقد صحبت زينب أمها وهى تنكب على الرسول عند مصارعته لسكرات موته. ورأت زينب أخويها الحسنين حيث ألقيا بنفسيهما على جدهما الرسول يودعانه. وأبوها على بن أبى طالب تذوب نفسه أمام المصيبة فيقول: إن الصبر لجميل إلا عنك، وإن الجزع لقبيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل؛ وإنه قبلك وبعدك لجلل.

عاشت فاطمة بعد وفاة والدها خمسة وسبعين يوماً، وقد ظلت بعد أبيها ناحلة الجسم منهدة الركن باكية العين محترقة القلب. قال علىٌ: غسّلت النبى فى قميصه فكانت فاطمة تقول: أرنى القميص. فإذا شمته غشى عليها. فلما رأيت ذلك غيبته.

وبدأ زمن المحن وأولها قضية خلافة الرسول. ويقول المسعودى: ولما بويع أبو بكر فى يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة. خرج علىّ فقال: أفسدت علينا أمورنا. ولم نستشر. ولم ترع لنا حقاً. فقال أبو بكر: بلى ولكنى خشيت الفتنة. وقد دافعت فاطمة عن حق على فى الخلافة أمام نساء المهاجرين والأنصار. وأنها برفقة زوجها على وابنيها الحسنين دارت على بيوت المهاجرين والأنصار تدعوهم إلى الالتفاف حول قيادة علىّ.

القضية الثانية كانت مصادرة فدك. وهى قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة. وقال الحموى فى معجم البلدان: وكان يسكنها اليهود فاستسلموا بعد واقعة خيبر للرسول دون قتال. وكانت تقدر بمائة ألف درهم. ويقول الحموى عنها: وفيها عين فوارة. ونخيل كثيرة. ولأنها لم يسبقها حرب ولا قتال فهى فيء وملك خاص لرسول الله. حسب مفاد الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ سورة الحشر الآية (٦) وقد وهبها النبى لابنته فاطمة الزهراء لكن الخليفة أبى بكر رأى أن يصادر فدك باعتبار أن النبى لا يورث. كما ينقل هو أنه سمع ذلك من النبى. ولم يقبل قول الزهراء أن أباها وهبها إياها. كما رفض شهادة علىّ بذلك لفاطمة.

وقد جاء انتزاع فدك من فاطمة. فى الأيام الأولى لمصيبتها فى أبيها، ثم تنحيه علىّ عن حقه فى خلافة الرسول. فأحدث ذلك أثراً فى نفس فاطمة دفعها لإعلان معارضتها للخليفة وللاحتجاج عليه أمام المسلمين وقالت فى هذه الخطبة قولتها المشهودة: يا ابن أبى قحافة أفى كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبى؟ لقد جئت شيئاً فرياً.

وبعد وفاة أمها الزهراء. أصبحت السيدة زينب على صغر سنها سيدة المنزل. ترعى شئون أبيها وإخوتها. كما كانت أمها تملأ فراغ أمها خديجة بنت خويلد بالنسبة لوالدها. حتى سميت أم أبيها. لقد واجهت حياة البيت ورعته وأدارت شئونه بعقلية واعية وحس صادق. وقلب مؤمن. تقول الدكتورة بنت الشاطئ: لقد أنضجتها الأحداث فتكون للحسن والحسين وأم كلثوم أماً. لا تعوزها عاطفة الأمومة. بكل ما فيها من حنو وإيثار.

وجاء الخاطبون يتوافدون على بيت على بن أبى طالب. ولكن والدها كان قد اختار لها عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب. وكان يقال عن جعفر «أبو المساكين» الذى كان يستحى أن يطعم طعاماً وجيرانه لا يقدرون على مثله. وقال الرسول: إن الله اختارنى من ثلاثة من أهل بيتى. أنا سيد الثلاثة: اختارنى وعلياً وجعفر وحمزة. وأمه هى أسماء بنت عميس. بعد استشهاد زوجها تزوجت من أبى بكر فأولدها محمد بن أبى بكر. وبعد وفاة أبى بكر تزوجها الإمام على وولدت للإمام على ولداً أسماه يحيى، أما عبد الله فهو أول مولود فى الإسلام بأرض الحبشة. وكان يسمى بحر الجود ويقال إنه لم يكن فى الإسلام أسخى منه. وأبناؤهم هم: عون بن عبد الله بن جعفر. كان مع أمه زينب فى صحبة خاله الإمام الحسين وقد استشهد فى كربلاء بعد أن قتل ثلاثة فوارس وثمانية عشر رجلاً ثم ضربه عبد الله بن قطفة الطائى بسيفه فقتله والثانى محمد. وكان لعبد الله بن جعفر ولد آخر اسمه محمد من زوجة أخرى هى الخوصاء من بنى بكر بن وائل وقد استشهد مع الحسين فى كربلاء مما سبب الاشتباه عند بعض الباحثين. والثالث عباس والرابع على المعروف بالزينبى والخامسة أم كلثوم وهى البنت الوحيدة للسيدة زينب. وقد ألّف الحافظ جلال الدين السيوطى (٨٤٩ - ٩١١هـ) رسالة حول ذرية السيدة زينب سماها: «العجاجة الزنزبية فى السلالة الزينبية».



ورغم زواجها، وزواج والدها بعد فقد أمها أكثر من زوجة. لكن أيّاً من زوجاته لم تكن لتأخذ مكان السيدة زينب فى بيت أبيها. فهى سيدة البيت، تقول الدكتورة بنت الشاطئ: عندما ولى الإمام على أمر المسلمين. وانتقل إلى الكوفة. انتقلت زينب وزوجها معه. فعاشا فى مقر الخلافة. ووقف عبد الله مع عمه فى نضاله الحربى فكان أميراً من أمراء جيشه. وفى الكوفة كانت السيدة زينب تفسر القرآن الكريم لنساء الكوفة وتروى لهن أحاديث جدها المصطفى وأخبار أمها الزهراء. وتوجيهات أبيها المرتضى. وإن كانت السيدة زينب لم تنل من امتيازات الخلافة والحكم شيئاً. حتى بمقدار سد عوز وحاجة بيتها.

لقد واكبت السيدة زينب حوالى ثلثى عمر

ما إن وضعت السيدة فاطمة الزهراء وليدتها الكريمة. حتى قالت السيدة أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبى طالب وقد حملتها بين يديها:
- يا ابنة رسول الله. إنها شبيهة بك فى جمال الخلقة وحسن التكوين وما أشبهها بأخيها الحسين

١ - ابنة الزهراء بطلة الفداء زينب. رضى الله عنها
تأليف: على أحمد شلبى
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة التعريف بالإسلام - الطبعة الأولى، أبريل ١٩٧٢

٢ - المرأة العظيمة.. قراءة فى حياة زينب بنت على
حسن بن موسى بن الشيخ مؤسسة الانتشار العربى - بيروت - الطبعة الأولى ٢٠٠٠

٣ - حياة السيدة زينب. بنت الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب
تأليف الشيخ جعفر النقدى
منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت - لبنان ١٩٩٨

٤ - قنديل أم هاشم. رواية يحيى حقى
الطبعة الأولى. سلسلة اقرأ - العدد ١٨ يوليو ١٩٤٤

٥ - السيدة زينب
د. بنت الشاطئ عائشة عبدالرحمن
دار الكتاب العربى. بيروت ١٩٧٩

أبيها. عندما ولدت كان عمر أبيها ٢٨ سنة. وعاصرته وهو يتقلب بين المعارك والحروب فى عهد الرسول «صلى الله عليه وسلم» وعاصرته فى معارك: الجبل. صفين. النهروان. وكانت السيدة عائشة بنت أبى بكر زوجة الرسول «صلى الله عليه وسلم» قد تحالفت مع طلحة بن عبد الله التيمى والزبير بن العوام ابن عمة الرسول. للتمرد على سلطة الإمام على، وكانا قد بايعاه. فسارت معهما إلى البصرة تحرض الناس ضد الإمام. وتدعوهم لقتاله. تحت شعار المطالبة بدم الخليفة عثمان. واحتشد معها ثلاثون ألف مقاتل وقد حاول الإمام التفاوض معهم. لكنهم أصروا على القتال والمواجهة.

استشهد الإمام علىّ فى فجر ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٤٠هـ. وانطلق إلى الشهادة من بيت ابنته زينب. تقول السيدة زينب: إنها سمعت والدها يقول فى تلك الليلة: اللهم بارك لنا فى الموت. اللهم بارك لى فى لقائك. وكنت أمشى خلفه. فقلت: واغوثاه. أبتاه أراك تنعى نفسك منذ الليلة. وما هى إلا فترة بسيطة وإذا بالسيدة زينب تسمع نعى أبيها علىّ. حيث ضربه عبد الرحمن بن ملجم. من أتباع الخوارج بالسيف على هامته. حين رفع رأسه من السجدة الأولى. لصلاة الصبح ووقع الإمام على فى محرابه صريعاً، قائلاً: لقد فزت ورب الكعبة. ونقل الإمام إلى داره. حيث فارقت روحه الحياة بعد يومين من إصابته. أى فى الحادى والعشرين من شهر رمضان. بويع الإمام الحسن بالخلافة. فى الكوفة والبصرة والمدائن وجميع أهل العراق. ولكن حدث الصدام مع معاوية. وتم الصلح. وانتقد أتباع الحسن الصلح. وقرر الحسن الانتقال إلى المدينة. وقد غادرت السيدة زينب الكوفة بعد خمس سنوات مليئة بالأحداث وأهمها فقد أبيها علىّ.

وفى المدينة كان وجود الحسن يقلق معاوية، فأغرى زوجته جعدة بنت الأشعث بمائة ألف درهم. ووعدها أن يزوجها ولده يزيداً. إن هى دست السم للإمام الحسن واستجابت جعدة. وألقت السم الفتاك الذى أرسله معاوية فى طعام الحسن. ورأته أخته زينب وهو فى فراش الموت فانفطر قلبها لمأساة أخيها وتجددت عليها المصائب والأحزان ومما زاد فى آلامها ما تعرضت له جنازة أخيها من إساءة وهوان. حيث كان قد أوصى بدفنه عند قبر جده أو على الأقل أن تمر جنازته على قبر جده لكن الأمويين اعترضوا الجنازة وأثاروا السيدة عائشة لتمنعهم من الاقتراب بجنازة الحسن عند قبر جده. ولذلك ورد فى كتب التاريخ أن نساء بنى هاشم وفى طليعتهن السيدة زينب استمررن فى النواح عليه شهراً كاملاً. وأظهرن الحداد. ولبسن السواد سنة كاملة.

حاول معاوية أخذ البيعة لولده يزيد قسراً من الحسين الذى غادر المدينة إلى مكة. ثم غادر مكة إلى الكوفة. لأنه لا يريد أن تكون مكة ساحة للثورة. والصدام مع الأمويين. ولكنه لم يصل إلى الكوفة. وبقى فى مكان على شاطئ الفرات سأل عن اسم المكان فقيل إنه كربلاء. فأمر بالنزول فيها. فهى الأرض التى اختارها الله لتكون مسرح ثورته. وميدان شهادته وموضع قبره. ويروى أنه لما قيل للحسين هذه أرض كربلاء أخذ ترابها فشمه وقال: والله هى الأرض التى أخبر بها جبريل رسول الله أنى أقتل بها. وروى أن النبى «صلى الله عليه وسلم» أعطى أم سلمة تراباً من



تربة الحسين. حمله إليه جبريل وقال لها: إن صار هذا التراب دماً. فقد قتل الحسين. فحفظت أم سلمة ذلك التراب فى قارورة عندها. فلما قتل الحسين صار التراب دماً. فأعلمت الناس بقتله.

زحفت القوات الأموية لتحاصر الحسين وأصحابه فى كربلاء. كان الأمويون ثلاثين ألف رجل. بينما كان عدد أفراد معسكر الحسين لا يزيد على ثمانين رجلاً. ومنع الأمويون الحسين ورجاله من الوصول إلى مياه الفرات. ولم يكتف الجيش الأموى بقتل الإمام الحسين وأصحابه جميعاً. بل قتلوا حتى الأطفال الرضع. كعبد الله بن الحسين وهو دون العام من عمره. حيث ذبحوه على صدر أبيه. ولم يسلم من معسكر الحسين إلا ولده على بن الحسين زين العابدين لأنه كان مريضاً. وأجهزوا على جثث الإمام الحسين وأتباعه يحزون رءوسهم. وداسوا على الأجساد بخيولهم. وأخذوا نساء الحسين وأطفاله سبايا. تتقدمهن رؤوس الحسين وأصحابه معلقة على رءوس الرماح.



وكانت السيدة زينب قد أصرت على الخروج مع الحسين رغم معارضة الرجال لذلك. واستأذنت زوجها الذى كان قد أصبح كفيفاً. وحينما حدثت الفاجعة الكبرى بمقتل أخيها الحسين بعد قتل كل رجالات بيتها وأنصارها. خرجت السيدة زينب تعدو نحو ساحة المعركة تبحث عن جسد أخيها الحسين. غير عابئة بصفوف الجيش الأموى المدجج بالسلاح. فلما وقفت على جثمان أخيها الذى مزقته السيوف. جعلت تطيل النظر إليه ثم رفعت بصرها نحو السماء. وهى تدعو بحرارة ولهفة: اللهم تقبل منا هذا القربان. إن الشيخ حسن موسى الصفار يسمى سلاح الحسين. بأنه سلاح المظلومين. يقول المؤرخون: إنه لم يضرب أحد فى الإسلام كما ضرب الحسين. فقد وجد به مائة وعشرون جرحا. ما بين ضربة سيف. وطعنة رمح، ورمية سهم. أما كيف علمت السيدة زينب باستشهاد شقيقها. فقد حدث أن فرس الحسين بعد أن وقع الحسين من فوق ظهره. صبغ ناصيته بدم الحسين. وركض نحو خيمته كأنه يريد إعلام النساء بمقتل الحسين. وعندما رأت أشلاءه صاحت: وا محمداه. وا أبتاه. وا علياه. وا جعفراه واحمزاه. هذا حسين بالعراء صريع كربلاء. ليت السماء أطبقت على الأرض. وليت الجبال تدكدكت على السهل.

وعادت إلى المدينة. بعد فراق جاوز السبعة أشهر. وذهبت إلى مسجد جدها الرسول وناجته قائلة: يا جداه إنى ناعية إليك أخى الحسين. وأصبحت تذكر الناس بمظلومية الحسين وأهل بيته ومأساة كربلاء. وهكذا حركت ثورة المدينة. حيث تمرد أهل المدينة على الحكم الأموى. وكان قد قتل لها فى كربلاء ستة من الإخوة وفى بعض الروايات الأخرى عشرة. وثلاثة من أولاد أخيها الحسن. واثنان من أولاد أخيها الحسين. إضافة إلى سائر رجالات أسرتها الهاشميين والذين يتراوح عددهم بين السبعة عشر والسبعة والعشرين بطلاً. وقبل كل هؤلاء جميعاً ابنها عون. الذى قدمته شهيداً بين يدى خاله. وقال أبو الفرج الأصفهانى إن قاتل عون هو عبد الله بن قطفة ويجمع كتاب سيرتها أنه لم يسمع لها بكاء حين قتل ولدها عون إذ أشارت إليه فى ندبتها ومأتمها. بمثل ما بكت به أخاها وأولاد أخيها.

بعد كل هذه التطورات لعبت السيدة زينب دور راعية القافلة. ورغم أن على بن الحسين زين العابدين. كان حاضراً فى واقعة كربلاء وكان فى الثانية والعشرين من العمر. وقد حمته السيدة زينب خلال الحرب علاوة على أن مرضه جعله يبقى فى الخيمة ولا يشارك فى القتال وقد حاول ابن زياد قتله. فقالت له إن أردت قتله فاقتلنى معه. فقال لرجاله: دعوه لها. ياللرحم ودّت أنها تقتل معه. وغادرت السيدة زينب كربلاء بعد ظهر الحادى عشر من المحرم. مثقلة بما لا يمكن أن تتحمله حتى الجبال. تسافر لأول مرة متجهة إلى الكوفة. بعد أن فقدت أكثر من سبعة عشر بطلاً من أهلها. إضافة إلى السبعين من أنصارهم. وأحرق الأمويون خيامها. وسلب ما معها من مجوهرات. ودخلت الكوفة مع السبايا على جمال غير مهيأة لراحة راكبيها. وفى حالة مأساوية. وألقت خطبة فى أهل الكوفة وقد رواها الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين» وتعد أول تعليق على كربلاء وتقدم فيها رؤية أهل البيت لما جرى حيث حملت المجتمع الكوفى المسئولية المباشرة عما حدث للحسين، وأهل البيت الذين خذلوا الإمام؛ لأنهم خذلوا الإمام. قالت عنهم: أهل الختل والغدر. والختل هو الخداع. والغدر هو الخيانة ونقض العهد. بل والمشاركة فى قتله. والتركيز على ضعف المجتمع الكوفى ومساوئ أخلاقه وتوضيح أبعاد الفاجعة. وقد أوضحت أبعادها السيدة زينب عندما قالت: فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل عارها أبداً. ومن أركان هذه الخطبة. إيضاح منزلة الحسين ومقامه فى مواجهة الإعلام الأموى. وهى التى قالت عنه: سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة. وفى الخطبة الإنذار بالانتقام، فلا يستخفنكم المهل. فإنه لا يحفظه الجدار. ولا يخاف فوت الثأر. وإن ربكم لبالمرصاد. لقد استمرت فى مواجهتها للأمويين. ومن ذلك المواجهة الشهيرة بينها وبين ابن زياد. فقد دخلت عليه ضمن السبايا. كانت تلبس أرذل الثياب التفت نحوها: وتساءل من هذه الجالسة؟ هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله. وقد غضب ابن زياد من عدم ردها عليه. وترفعها عن الإجابة عليه فقالت له: الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه محمد وطهرنا من الرجس تطهيراً. إنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر. وهو غيرنا يا ابن مرجانة.

إن هذا الرد جعل ابن زياد يتراجع عن نية عقابها الجسدى. مستبدلاً إياه بالعقاب النفسى. حيث تكلم مع السيدة زينب بلغة التشفى والشماتة فقالت له: لعمرى لقد قتلت كهلى وأبدت أهلى. وقطعت فرعى. واجتثثت أهلى. فإن يشتفيك هذا. فقد اشتفيت.



وكان موقفها فى مجلس يزيد بن معاوية وكانت قد عانت الكثير فى طريقها إلى مجلسه. رحلة صعبة فى ظروف نفسية شديدة القسوة. وفى بعض الروايات أنه قبل إدخالهم على يزيد أوقفوهم فترة على درج باب المسجد حيث مكان وقوف سبايا الكفار ثم أتوا بحبل أوثقوهم به كتافاً وكانت بداية الحبل فى عنق على بن الحسين. ونهايته فى عنق السيدة زينب كما تربط الأغنام. وساقوهم. وكلما قصروا عن المشى ضربوهم بالسياط. والجميع يكبّرون ويهللون. حتى أوقفوهم بين يدى يزيد فى مجلسه. وهو متربع على سريره.. فالتفت إليه على بن الحسين قائلاً: ما ظنك بجدنا رسول الله لو يرانا على مثل هذه الحالة؟ ودعا يزيد برأس الحسين ووضعه أمامه فى طست من ذهب وكان مع يزيد قضيب. فهوى ينكت به فى ثغره. وألقت السيدة زينب خطبة بليغة ركزت فيها على البعد القيمى والأخلاقى للمعركة. كما يقول حسن موسى الصفار فى كتابه «المرأة العظيمة» فقد كان الأمويون يعتقدون أنهم أحق بالحكم بسبب انتصاراتهم. ولكن السيدة زينب ركزت على المبادئ والقيم التى يجب الاحتكام إليها فى تقويم الواقع وتفسير أحداثه. والبعد الثانى إدانة الجرائم الأموية. والثالث: التركيز على الجذور العائلية الفاسدة لهم. والرابع هو الإشادة بأهل البيت. والخامس هو سؤال المصير: المستقبل سيكون لمن؟ والسادس عن العزة الإيمانية. تقول ليزيد: اللهم خذ لنا بحقنا وانتقم ممن ظلمنا. واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا. وتتحداه قائلة: فوالله ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا كمك. وتكرر تحديها له: فكد كيدك. واسع سعيك. ومن المعروف عن السيدة زينب أنها كانت صاحبة بلاغة لغوية. وعلم وافر وأنها لم تحتكر العلم لنفسها. ولكنها أفاضت به على غيرها. ليس من النساء فقط. ولكن من الرجال أيضاً. وكان الناس يرجعون إليها فى الحلال والحرام.

موتها ومساجدها

كان الموت بالنسبة لها قنطرة إلى جنة الله العريضة ونعيمه السرمدى. وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاتها. والأرجح عند الكثير منهم أنها توفيت سنة ٦٢هـ الموافق ٦٨٣ م. بعد أن أكملت ستة عقود من الجهاد والكفاح. ويتفق المؤرخون على أن الوفاة قد وقعت فى الخامس عشر من شهر رجب. وقد اختلف المؤرخون فى مكان وفاتها ومحل قبرها. بعض الروايات تشير إلى أن عبد الله بن جعفر رحل عن المدينة وانتقل مع السيدة زينب إلى ضيعة كان يمتلكها قرب دمشق. فى قرية يقال لها راوية. وقد توفيت السيدة زينب فى هذه القرية ودفنت فى المرقد المعروف باسمها. ورغم اختلاف المؤرخين فى زمن هذه الهجرة. إلا أن هناك من يقول إن السبب فيها مجاعة حصلت فى المدينة. وقد دفنت فى إحدى القرى المعروفة التى أصبحت يقال لها قرية الست. وقد أصبحت المنطقة كلها تعرف بالسيدة زينب وتبلغ مساحة المقام وملحقاته ١٥٠٠٠ متر ويتسع لخمسة آلاف مسلم وقد زار هذا المشهد الرحالة ابن جبير الذى يقول إنه قبر أم كلثوم بنت علىّ ويقال لها زينب الصغرى. وزار المشهد الرحالة ابن بطوطة وإن كان يقول عنه قبر الست أم كلثوم بنت على بن أبى طالب. وورد أن السيدة نفيسة صاحبة المقام المعروف فى القاهرة بنت حسن الأنور بن يزيد الأبلج بن الحسن بن على بن أبى طالب قد زارت هذا المشهد فى قرية راوية.

هناك رواية أخرى تقول إن السيدة زينب حينما غادرت المدينة المنورة بضغط من والى المدينة الأموى عمرو بن سعد الأشدق. فإنها توجهت إلى مصر واستقبلها الوالى مَسلمة بن مخلد وأنزلها داره بالحمراء فى القاهرة. وبعد أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً. توفيت فى ١٥ رجب سنة ٦٢هـ. وصلى عليها الوالى مَسلمة بن مخلد. ودفنها بمخدعها من الدار حسب وصيتها. وعلى هذا يقع ضريح السيدة زينب فى الجهة البحرية من دار مسلمة بن مخلد الأنصارى. وبمرور السنين اندثر جزء كبير من الدار. إلا ما كان من الضريح الطاهر. وقد تناوب على خدمة المكان أناس انقطعوا لهذا العمل. ويصرف عليه من وجوه الخير. ومن ريع الأعيان والممتلكات التى أوقفت عليه وفى زمن دولة أحمد بن طولون أجرى على المشهد ما جرى على المشاهد الأخرى. من عمارة وترميم. فلما جاءت الدولة الفاطمية كان أول من بنى عمارة جليلة عظيمة. على هذا المشهد من خلفاء الفاطميين. أبو تميم معد نزار بن المعز، وفى أيام الحاكم بأمر الله. أوقف على المشهد الزينبى عدة ضياع وأسواق ومحال تجارية. ليصرف ريعها على خدمات المشهد.

وجرت تجديدات للمشهد فى أزمنة الملك سيف الدين أبى بكر بن أيوب ومحمد على باشا. وعبد الرحمن كتخدا وفى زمن الخديوى عباس باشا الأول. جرت محاولة لتجديد

كانت زينب الابنة الأولى لأسرة ازدان بيتها بحسنين هما الحسن الذى ولد منتصف شهر رمضان فى السنة الثالثة للهجرة والحسين الذى ولد فى الثالث من شعبان للسنة الرابعة من الهجرة. وتأتى زينب فى السنة الخامسة وبعد عام أو أكثر أنجبت الزهراء بنتاً أخرى هى أم كلثوم لتكون شقيقة لأختها زينب

المسجد ولأن الموت لم يمهله. قام الخديو محمد سعيد باشا بإتمام ما بدأه سلفه.

أما المسجد القائم حالياً فقد تم إنشاؤه على ثلاث مراحل. الجزء الأول منه وهو المطل على الميدان المعروف باسم السيدة زينب أقيم في عهد الخديو توفيق ثم تمت توسعته ليصبح ١٥٠٠ متر تقريباً في عهد الملك فاروق الأول. وافتتح للصلاة في يوم الجمعة ١٩ ذي الحجة ١٣٦٠هـ ـ ١٩٤٢م. ولما رأت حكومة الرئيس جمال عبد الناصر زيادة إقبال الناس على هذا المسجد. حتى ضاق عن أن يتسع لهم. خاصة في أيام الجمع والأعياد. أمر عبد الناصر بإجراء توسعة عظيمة. بلغت حوالي ٢٥٠٠ متر مربع من الجهة القبلية. وبذلك اتصل المسجد الزينبي بمسجد الزعفراني المجاور له واكتملت التوسعة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م حيث أقيمت له دورة مياه للطهارة والوضوء. ومكتبة ضخمة تضم عشرات الآلاف من المجلدات وألحقت بها قاعة فسيحة للمطالعة. أما المئذنة التي تعتبر فريدة في نوعها لما تتحلى به من نقوش وزخارف عربية جميلة. فإن ارتفاعها يقرب من ٤٥ متراً.

وهناك مسجد لها في مدينة سنجار المعروفة في شمال العراق وجنوب نصيبين عن يمين الطريق إلى الموصل. والمدينة اشتهرت بأنها تقع على طرق المواصلات والقوافل. لأنها تقع على الطريق بين سورية والعراق وتقع فيها جبال سنجار التي يبلغ ارتفاعها ٤٨٠٠ قدم. وهذا على أساس أن السيدة زينب توفيت بهذه المنطقة. ويقع ضريح السيدة زينب على ربوة عالية في مدخل المدينة. وهو فناء واسع وفيه غرفة مستطيلة الشكل. في وسطها القبر المشيد من الحجر والجص. وفي الغرفة محراب صغير وتغطيه قبة مظهرها الخارجي مضلع مخروطي الشكل. وقد دمر الضريح عند دخول التتار إلى المنطقة لكنه جدد بعد ذلك. وإن كان مقامها في شمال العراق لا تسنده روايات تاريخية موثقة فإنه تبقى ثلاثة احتمالات لمكان دفنها هي: المدينة المنورة ـ مصر ـ دمشق. ومن يدافعون عن الاحتمال الأول يقولون إنه من الثابت عودة السيدة زينب إلى المدينة بعد واقعة كربلاء. وبناء عليه فإن وفاتها قد تمت في المدينة المنورة. وإن كان تاريخ وفاتها ومحل قبرها في المدينة المنورة مجهولين ويجب أن يكون قبرها بالبقيع وكم من أهل البيت من أمثالها من جهل محل قبره. وتاريخ وفاته وخاصة من النساء. وإن كان بعض الباحثين -محمد جواد مغنية في كتابه «بطلة كربلاء» يتساءل: لو كان قبرها في المدينة لعرف واشتهر. وكان مزاراً للمؤمنين كغيره من قبور الصالحات والصالحين.

الموقف بين القاهرة ودمشق يبدو مختلفاً. فإن لم يكن هناك أثر يتحدث عن قبر للسيدة زينب الكبرى في المدينة المنورة. ولا يوجد مقام ينسب لها هناك. فالأمر في القاهرة والشام تقوم عليه أدلة وروايات ونصوص تاريخية. ينسبان للسيدة زينب. وهناك جماهير تؤمها وهناك أكثر من بحث حول هذا الموضوع منها: المرقد الزينبي للشيخ فرج العمران القطيفي وهي مطبوعة في النجف الأشرف في العراق وبحثه ينتهي إلى أنها مدفونة في دمشق. وبحث العالم الباكستاني محمد حسنين السابقي. ومطبوع في بيروت في ٢٤٠ صفحة. وهو أيضاً يميل إلى القول إنها مدفونة في الشام وليس في مصر

ويقول: والظاهر أن المشهد الزينبى المعروف فى القاهرة هو للسيدة زينب بنت يحيى المتوج بن الحسن الأنور بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب. وإن كان على أحمد شلبى يؤكد أن السيدة زينب عندما جاءت إلى مصر لم تكن بمفردها. كانت معها السيدة فاطمة ابنة الحسين. ومسجدها معروف بالقاهرة باسم مسجد فاطمة النبوية وكذلك السيدة سكينة ابنة الحسين ومسجدها المعروف بالقاهرة باسمها وحسب ما قاله محمد بن عبد الله:

لما وصلت مصر سمعت عسامة المعاقرى يقول حدثنى عبد الملك بن سعيد الأنصارى. قال حدثنى وهب بن سعيد الأوسى عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصارى. قال رأيت زينب بنت على بعد قدومها بأيام. فوالله ما رأيت مثلها وجهاً كأنه شقة قمر.

وقالت رقية بنت عامر الفهرى:

ـ كنت فيمن استقبل زينب بنت على. لما قدمت مصر بعد المصيبة. فتقدم إليها مسلمة بن مخلد الأنصارى. وعبد الله بن الحرث. وأبو عميرة المزبى فعزاها مسلمة فبكت وبكى الحاضرون وقالت: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. وقد وافق دخولها مصر مع بزوغ هلال شعبان سنة إحدى وستين هجرية الموافق ٢٦ أبريل ٦٨١ ميلادية. وكان قد مضى على استشهاد شقيقها الحسين ستة أشهر وأيام.



وعن حكاية مولدها السنوى يقول الشيخ جعفر النقدى: وبعد مرور عام على وفاتها وفى نفس اليوم الذى توفيت فيه اجتمع أهل مصر قاطبة وفيهم الفقهاء والقراء وأقاموا لها موسماً عظيماً برسم الذكرى على ما جرت به العادة. ومن ذلك الحين لم ينقطع هذا الموسم إلى وقتنا هذا. وهو المعبر عنه بالمولد الزينبى الذى يبتدئ من أول شهر رجب من كل سنة وكان الناس فى مصر يكثرون من زيارتها فى يوم الأحد. وهو اليوم الذى توفيت فيه. وكان كافور الإخشيدى لا يزورها إلا فى هذا اليوم. كما كان يزور السيدة نفيسة بنت الحسن يوم الخميس. وكذلك كان يفعل أحمد بن طولون. وكان الظافر بنصر الله الفاطمى لا يزورها إلا فى هذا اليوم. وكان الظاهر جقمق أحد ملوك مصر فى القرن الثامن الهجرى توقد له فى هذا اليوم الشموع وتنار أرجاء المشهد بالقناديل الملونة ولازم زيارتها فى هذا اليوم كثير من العلماء والأولياء وأهل الفضل.

الحى والقنديل

كثير من الأدباء عاشوا فى السيدة زينب منهم ـ كما يكتب كامل زهيرى ـ بيرم التونسى فى شارع المواردى. ومصطفى صادق الرافعى. ويحيى حقى فى حارة الميضة. كما عاش على مقربة من هذا المكان يوسف السباعى فى جنينة ياميش وفتحى رضوان الذى عاش فى شارع الخليج المصرى الذى أصبح شارع بورسعيد الآن. وكثير من الأدباء كتبوا عن السيدة زينب المقام والحى والمجاذيب. وإن كان نجيب محفوظ قد خلد حى الحسين ومنطقة الجمالية فى أعماله الروائية. فإن يحيى حقى يقف فى الناحية الأخرى. السيدة زينب فقد ولد فى حارة الميضة. وهى إحدى الحارات الخلفية للمسجد. بل واكتسبت اسمها من ميضة الجامع التى يتوضأ فيها الناس. له رواية وقصة قصيرة. يأخذان عنوانهما من السيدة. الرواية عنوانها قنديل أم هاشم. والقصة القصيرة هى أم العواجز. وهو عنوان قصة قصيرة. أصبح عنوانا للمجموعة القصصية نفسها. كتب يحيى حقى قنديل أم هاشم فيما بين عامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ونشرت لأول مرة فى سلسلة اقرأ. عن دار المعارف العدد ١٨ يونيو ١٩٤٤ ومسجد السيدة زينب يرد من السطر الثالث فى الفصل الأول للقصة. وأسرة البطل تعيش فى رحاب الست وحماها: أعياد الست أعيادنا ومواسمها مواسمنا. ومؤذن المسجد ساعتنا. وأحب الأسماء لقلبه هو أم هاشم. فالبطل إسماعيل ينشأ فى حراسة أم هاشم وهاهو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام: هيهات للجدران أن تحجب أضواءه يمتلئ الميدان من جديد شيئاً فشيئاً. أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى. ذابلة الأعين. يلبس كل منهم ما قدر عليه. أو إن شئت مما وقعت عليه يده من شىء. فهو لابسه. نداءات الباعة كلها نغم حزين.

والقنديل الذى يضئ مقام السيدة زينب هو بطل الرواية. وزيته هو مورد الرزق المتسع للشيخ درديرى الذى يقول للدكتور إسماعيل:

ـ تعرف يا سى إسماعيل. ليلة الحضرة يجىء سيدنا الحسين. والإمام الشافعى. والإمام الليث. يحفون بالسيدة فاطمة النبوية. والسيدة عائشة. والسيدة سكينة. وفى كوكبة من الخيل. ترفرف عليهم أعلام خضر ويفوح من أردانهم المسك والورد يأخذون أماكنهم عن يمين الست وعن يسارها. وتنعقد محكمتهم وينظرون فى ظلامات الناس. لو شاءوا لرفعوا المظالم جميعاً. ولكن الأوان لم يئن بعد. فما من مظلوم إلا وهو ظالم أيضاً. فكيف الاقتصاص له؟ فى تلك الليلة، هذا القنديل الصغير. الذى تراه فوق المقام. يكاد لا يشع له ضوء. تنبعث منه عندئذ لآلئ تخطف الأبصار إننى ساعتها لا أطيق أن أرفع عينى إليه. زيته فى تلك الليلة فيه سر الشفاء. فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين. وفى مشهد آخر يسمع إسماعيل فتاة سمراء الصقت جبينها على السور:

ـ يا أم هاشم. يا ستارة على الولايا لا تغضى عينيك ولا تشيحى بوجهك. تمد إليك يد مسترحمة فخذيها. إن الله طهرك وصانك وأنزلك الروضة. وإن قلبك لرءوف إن لم يقصدك المرضى والمهزومون والمحطمون فمن غيرك يقصدون؟ إذا نسينا فاذكرى أنت! متى يمحى المقدر علىَّ؟ أفيطول الأمد؟ منذ غادرنى رضى الله وأنا كالنائمة يركبه كابوس. يقبض فى يد واحدة على الموت والحياة. نذرت لك يوم يتوب المولى علىَّ أن أزين مقامك الطاهر بالشموع، خمسين شمعة يا أم هاشم يا أخت الحسين.

وقد كتب يحيى حقى فى مقدمة آخر طبعة من الرواية صدرت فى حياته، أن بطل قنديل أم هاشم هو السفير إسماعيل كامل. سفير مصر الأسبق بالهند. وأن يحيى حقى عرف هذه الحكاية الداخلية لدبلوماسى مصرى عندما كان يعمل فى السلك الدبلوماسى فى إسطنبول ولكنه عند الكتابة استبدل الدبلوماسية بالطب. وهذا من طبيعة عمل الفنان. وقد أبلغ فتحى رضوان كامل زهيرى ـ فيما بعد ـ بقصة القصة.

الفن العظيم هو الذى يقودنا إلى الجوهر وهكذا يضع يحيى حقى أيدينا على معنى أن السيدة زينب نصيرة المظلومين. وناصرة المنكسرين. ثم إن عبقرية الفنان تلتقى مع نفاذ رؤية الباحث الاجتماعى. فما يكتبه سيد عويس عن رسالة المواطن المصرى البسيط الذى يطلب اجتماعاً لآل البيت. نجده فى رواية يحيى حقى على لسان خادم المسجد درديرى. هى ليست صدفة. ولكنها عبقرية الباحث الاجتماعى تلتقى فى منتصف الطريق مع عبقرية المبدع الروائى.



تفاصيل الرواية معروفة. إسماعيل بعد عودته من أوروبا يكتشف أنهم يعالجون عينى خطيبته بزيت القنديل فيثور. ويتهجم على القنديل فتصاب فاطمة بالعمى. ولاترى مرة أخرى إلا بعد أن يعالجها بزيت القنديل وإن كان الفيلم الذى أخرجه كمال عطية سنة ١٩٦٨ بنفس العنوان يركز على أن الدكتور إسماعيل. عالج فاطمة بالأدوية الحديثة وأوهم من حوله أن العلاج تم بزيت القنديل فترى فاطمة وتتحقق المعجزة. وقد قام ببطولة الفيلم: سميرة أحمد، شكرى سرحان، صلاح منصور، عبد الوارث عسر، أمينة رزق. وكتب له السيناريو والحوار صبرى موسى.

سألت نجيب محفوظ لماذا لم تكتب عن السيدة زينب؟ قال لى لأن قدميه لم تقوداه إلى حيها فى صباه وشبابه. ثم ذكرنى بأن السيدة موجودة بقوة فى ثلاثية جمال الغيطانى «التجليات». وترد باعتبارها رئيسة الديوان. أى تجسيد فكرة رفع الظلم عن المظلومين من المصريين.

أحداث رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم تدور فى السيدة زينب. وهناك إشارات كثيرة لها فى كتابه «عصفور من الشرق». أيضاً فإن كتاب يوسف السباعى «بين أبو الريش وجنينة ياميش» الذى صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٥٠ تدور أحداثه فى السيدة أيضاً. وفتحى رضوان يتوقف أمامها فى سيرته الذاتية. خاصة فى الخليج العاشق. وأحداث أحدث روايات بهاء طاهر «نقطة النور» تدور فى السيدة زينب. ومعظم روايات محمد جلال تدور أحداثها فى حى المنيرة القريب من السيدة زينب. ورواية عبده جبير تحريك القلب تدور فى منزل آيل للسقوط بحى السيدة زينب.

فى الشعر كان من المتوقع أن يكون شعراء العامية هم الأقرب إلى السيدة زينب وإلى حيها. ولكن قصيدة صلاح جاهين الملحمية الطويلة «الليلة الكبيرة» يمكن أن تدور أحداثها فى الليلة الكبيرة لأى مولد دون تخصيص. ولكن أحمد عبد المعطى حجازى يكتب فى نوفمبر ١٩٥٥ قصيدته التى ربما كانت العمل الشعرى الوحيد الذى يدور حول السيدة. أعرف طبعاً أن هناك قصائد المديح الكثيرة لشخص السيدة الكريم. ولكن قصيدة حجازى فيها رؤية كونية لفتى قادم من الريف يبحث عن السيدة زينب. الحى والمقام. وعنوان قصيدته «الطريق إلى السيدة». وهى منشورة فى ديوانه الأول. مدينة بلا قلب الذى صدرت طبعته الأولى عن دار الأدب ببيروت عام ١٩٥٩ والقصيدة تبدأ هكذا:

يا عم / من أين الطريق؟ / أين طريق السيدة؟ / أيمن قليلاً، ثم أيسر يا بنى / قال.. ولم ينظر إلىَّ ـ وينهى القصيدة. أنا هنا لا شىء، كالموتى، كرؤيا عابرة / أجر ساقى المجهدة / للسيدة / للسيدة.

وللمطرب الشعبى محمد عبد المطلب الأحمر أغنيته الشهيرة عن الفتى الذى يسكن حى السيدة ولكن حبيبة القلب تسكن فى الحسين وحتى ينال كل الرضا. لابد أن يقطع المسافة من السيدة للحسين مرتين كل يوم. ■

نفحات من عطر نجيب محفوظ



فاروق عبد القادر

الأستاذ سلامة أحمد سلامة وقف بى أمام حديقة مترامية، لا حد لتنوع شجرها وزهرها وثمرها. قال: نريد أن نشارك نجيب محفوظ يوم ميلاده التسعين (١٩١١/١٢/١١). ولم ينس الأستاذ أن يلفت نظرى إلى أهمية الالتزام بعدد محدد من الكلمات. فماذا يمكن أن أكتب عن نجيب محفوظ؟

وإننى أعتقد أننى كنت محظوظًا لأن «نجيب» كان موجوداً فى عالمى - بقوة - قبل أن تبدأ شهرته فى السطوع حول منتصف الخمسينيات. لقد نشر روايته الأولى فى ١٩٣٩، وخلال عقد الأربعينيات نشر سبع روايات أخرى. إضافة لمجموعته الأولى «همس الجنون». (يثبت فى قوائم أعماله أنها صادرة فى ١٩٣٨، لكن عبد المحسن بدر أثبت أنها لم تصدر إلا فى ١٩٤٧. يكتب عبد المحسن: « وفى مقابلتى لأديبنا الكبير فى «الأهرام» سألتُه عن السر فى إصراره على تحديد هذا التاريخ لنشر مجموعته «همس الجنون»، فأجاب بأن هذا التاريخ هو نوع من التحديد لمستواها الفنى بالمقارنة بإنتاجه، لكنه لا يمثل تاريخ نشره الحقيقى..» - «الرؤية والأداة، ص ٨٠»). لكنه ظل غير معروف، على نطاق واسع - حتى منتصف الخمسينيات على وجه التقريب: نشرت له سلسلة «الكتاب الذهبى» - وكانت سلسلة مقروءة ولها شهرتها - روايته «خان الخليلى» فى يوليو ١٩٥٢ - طبعتها الأولى فى ١٩٤٦ - ثم «القاهرة الجديدة» - وقد غيرت عنوانها إلى «فضيحة فى القاهرة» باقتراح من إحسان عبد القدوس، المسؤول عنها، على الأرجح - فى نوفمبر ١٩٥٣، بعدها «زقاق المدق» فى ١٩٥٤، وأخيرًا «بداية ونهاية» فى ١٩٥٦. فى هذا العام الأخير كانت مجلة «الرسالة الجديدة» - وهى مجلة أدبية رأس تحريرها يوسف السباعى ولقيت انتشارًا واسعًا - قد نشرت له - فى أعدادها المتتالية - الجزء الأول من الثلاثية «بين القصرين»، ثم صدرت فى كتاب، أعقبها - فى العام التالى - «قصر الشوق» و«السكرية»، بعدها بدأت شهرة نجيب محفوظ فى الاتساع، وأصبحت أعماله موضوعات للنقد والتعليق، من كافة الاتجاهات، وعلى مختلف درجات الرفض والقبول.

أقول: إن نجيب محفوظ كان موجودًا فى عالمى قبل هذا التاريخ، كنا جماعة قارئة نتبادل أعماله الصادرة عن «لجنة النشر للجامعيين»، (وكان اسمه على الغلاف: نجيب محفوظ عبد العزيز، وما تزال فى مكتبات بعضنا نسخ منها)، وحين راحت شهرته فى الاتساع كان هو متوقفًا عن كتابة الرواية (١٩٥٢-١٩٥٨)، وفى ١٩٥٩ نُشرت «أولاد حارتنا» مسلسلة فى «الأهرام»، فثارت حولها المشكلة المعروفة، والتى انتهت إلى منع صدورها فى القاهرة، ولم تصدر طبعتها الأولى، من بيروت، إلا فى ١٩٦٦. فى هذا التاريخ الأخير كان نجيب محفوظ قد كاد أن يفرغ من منظومة ثانية فى أعماله، وهى - عندى - منظومة ذهبية، تبدأ «باللص والكلاب، ١٩٦١» وتنتهى إلى «ميرامار» التى صدرت فى الشهور الأولى من ١٩٦٧. وإننى أذكر، جيدًا، كيف كنا ننتظر هذه الأعمال، وهى تنشر مسلسلة فى «أهرام الجمعة»، وكيف كنا نتناقش حول ما يفعل ويقول سعيد مهران وعيسى الدباغ ثم عمر الحمزاوى وأنيس زكى وزهرة.. إلى آخره أبطال هذه المنظومة الباهرة.

وبعد قاصمة الظهر فى ١٩٦٧ توقف نجيب - للمرة الثانية - عن كتابة الرواية، لكن «القصة القصيرة» و«الحوارية» - لا أقول، ولا يقول هو: المسرحية - قدمت الوسيط التعبيرى البديل، فتتالت مجموعاته: «خمارة القط الأسود، ١٩٦٩»، «تحت المظلة، ١٩٦٩»، «حكاية بلا بداية ولا نهاية، ١٩٧١» و«شهر العسل، ١٩٧١». وكما كانت «أولاد حارتنا» مَعْبرًا بين منظومتين من الأعمال نهاية الخمسينيات، لعبت هذا الدور «المرايا، ١٩٧٢»، لتبدأ بعدها سلسلة روائية طويلة تبدأ من «حب تحت المطر، ١٩٧٣» إلى «قشتمر، ١٩٨٩». تتزاوج معها سلسلة ثانية من مجموعات القصص القصيرة، تبدأ بمجموعة «الجريمة، ١٩٧٤»، ولعلها لم تنته بعد. على أننى أعتقد أن أعمال نهاية الثمانينيات وعقد التسعينيات تمثل منظومة رابعة لها سماتها الخاصة من «أصداء السيرة الذاتية - نُشرت مسلسلة فى ١٩٩٢، ولم تصدر فى كتاب إلا فى ١٩٩٦، إلى «أحلام فترة النقاهة» التى ما يزال الأستاذ قادرًا على تقديم المزيد منها.

هكذا: فى عامه التسعين، يقف الأستاذ - شامخًا ومتألقًا - على قمة خمسين عملاً إبداعيًا: خمس وثلاثين رواية، وخمس عشرة مجموعة من القصص القصيرة. فماذا يمكن أن أكتب عن نجيب محفوظ؟

تحدثتُ عن «منظومات» فى أعماله، وإننى أفضل استخدام هذا الوصف بدل كلمة «المراحل» التى دأب النقاد على استخدامها، فهذه الأخيرة قد توحى بوجود «انقطاع» أو «انفصال» بين المرحلة والتالية عليها، كأن المؤلف قد أغلق درجًا وفتح آخر، وكل درج مغلق على ما فيه، ولا صلة له بالدرج الآخر. وليس هذا التصور صحيحًا، وليست هناك «انقلابات» فى أعمال نجيب. بعبارة أخرى: إن إبداعه يجرى متدفقًا، مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها، وقد تعترض هذا المجرى عقبات موضوعية فيتوقف زمنًا، أو يتخذ مسارب أخرى.

إنما على هذا النحو نستطيع الحديث عن منظومة تبدأ بروايته الأولى «عبث الأقدار، ١٩٣٩» وتنتهى إلى «بين القصرين» التى اكتمل نشرها فى ١٩٥٧. الثانية تبدأ مع «اللص والكلاب، ١٩٦١» وتنتهى إلى «ميرامار، ١٩٦٧»، وبين هاتين المنظومتين تقع «أولاد حارتنا، ١٩٥٩». المنظومة الثالثة تبدأ بروايته «حب تحت المطر، ١٩٧٣» وتنتهى إلى «قشتمر، ١٩٨٩». وبين هاتين المنظومتين كذلك تقع «المرايا، ١٩٧٢». المنظومة الرابعة والأخيرة تشمل أعمال عقد التسعينيات، وما يزال الأستاذ قادرًا على الإضافة إليها (فى الشهر الماضى نشرت مجلة «نصف الدنيا» المجموعة الثالثة من قصصه وأحلامه).

فلنلق نظرة أكثر قربًا إلى ما يميز كلاً من هذه المنظومات بأقل عدد ممكن من الكلمات:

* إن الانتقال من الكتابة عن مصر الفرعونية إلى مصر المعاصرة لم يأت بعد روايته «الفرعونية» الثالثة، كما هو شائع، لكن الحقيقة أن هذه الرواية الثالثة ذاتها: «كفاح طيبة، التى صدرت طبعتها الأولى فى ١٩٤٤، تمثل هذا الانتقال، وتحليل هذه الأعمال الثلاثة (وهو ما قام به، باقتدار، عبد المحسن بدر فى كتابه الذى سبقت إليه الإشارة) يثبت مجموعة من الحقائق المترابطة: أن تلك الأعمال لم تكن «فرعونية»، بمعنى أنها لا تستعيد هذه الفترة من التاريخ بطابعها الخاص من حيث الممارسات والأفكار وطرائق الحياة، من ناحية، ولا هى تعيد صياغتها وتقدم لها تفسيرًا جديدًا، من الناحية الأخرى. الثانية أنها لم تكن تحمل لقارئها رسائل تعنيهم أو تتصل بحياتهم. الأولى تصور صراعًا عابثًا يدور بين «خوفو» والأقدار، ينتهى إلى تدميره، بمعنى أنه لا

فى عامه التسعين،
يقف الأستاذ - شامخا ومتألقا -
على قمة خمسين عملاً إبداعيا:
خمس وثلاثين رواية،
وخمس عشرة مجموعة
من القصص القصيرة

جدوى من مصارعة الأقدار، لأن النتيجة هى دمار الفرد بالغًا ما بلغت قوتُه. هذا الدور الذى يلعبه القدر فى الرواية الأولى يلعبه الحب فى الثانية: الفرعون الشاب يقع فى هوى الغانية الجميلة «رادوبيس»، ويؤدى به هذا الهوى الجامح إلى أن يفقد عرشه، ثم حياته ذاتها. تختلف «كفاح طيبة» من وجهين: الأول أنها تحمل رسالة واضحة كل الوضوح لقارئيها: كما قاوم المصريون القدامى احتلال الهكسوس لبلادهم، فإن على المصريين المعاصرين أن يقوموا بالكفاح ذاته ضد الاحتلال الإنجليزى. الوجه الثانى أن هذا الهدف، وتركيز الكاتب عليه، مسقطًا جوانب أخرى، أدى لأن يتخلص العمل من كثير من الشوائب التى شابت العملين السابقين من تقريرية وجفاف وتدخل مباشر من جانب المؤلف وصِيغ لغوية جاهزة. تخلَّص من الكثير ولم يتخلص منها كلها. فما أشق الرحلة التى قطعها الأستاذ حتى يصفو له التعبير الروائى الخالص!

الأعمال التالية فى هذه المنظومة - التى بلغت أَوْجها الرائع فى «بين القصرين» - تتوجه مباشرة نحو تحليل عناصر الواقع فى فترة من التاريخ المصرى تحدد الثلاثية، بدايتها ونهايتها: ١٩١٨ - ١٩٤٤. والروائى لا يتابع هذه الفترة على نحو يتقدم دائمًا إلى الأمام: «القاهرة الجديدة» تدور أحداثها فى ١٩٣٤، و«خان الخليلى» فى ٤١ - ١٩٤٢، و«زقاق المدق» فى ٤٤ - ١٩٤٥، ثم ترتد «بداية ونهاية» فى التاريخ لتدور أحداثها فيما بين ٣٥ - ١٩٣٩ على وجه التقريب، وتأتى «الثلاثية» لتضم هذه الفترات كلها وترجع لما قبلها. وفيها جميعًا كان الروائى حريصًا على تحديد التواريخ (هذا هو السطر الأول فى «خان الخليلى»: «انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر ١٩٤١..»). الرواية الوحيدة التى تخلو من هذا التحديد - نظرًا لطبيعتها الخاصة - هى «السراب، ١٩٤٨»، وإنْ كانت قرائن عديدة تشير لأن أحداثها قد انتهت حوالى سنة ١٩٤٠ (راجع أدلة تفصيلية فى «الرؤية والأداة»، ص ٢٤ - ٣٢٥).



ولئن كانت «كفاح طيبة» تركز على الجانب الوطنى وحده، فإن بقية أعمال هذه المنظومة سوف تتولى القيام بعملية «مسح شامل» لطبقات المجتمع المصرى، هناك وآنذاك: ثمة «الأرستقراطية» أو الطبقة العليا (مقابل الهكسوس فى «كفاح طيبة» تقف الارستقراطية ذات الأصول التركية فى «القاهرة الجديدة»)، من جانب، والطبقات الشعبية (دون تقسيمات داخلية إلى حرفيين وعمال وبروليتاريا رثة.. إلخ) من الجانب الآخر، وبينهما الطبقة الوسطى، أو ما اصطلح على تسميتها بالبورجوازية، هى مجال شُغل الروائى بامتياز، كل أبطال هذه المنظومة منها، وهذا طبيعى ومنطقى، فهم - أبناء هذه الطبقة - القلقون، المتوترون، المتمزقون بين الطموح إلى الصعود نحو الأعلى، والخوف من الانحدار نحو الأسفل (انظر للأشقاء الثلاثة فى «بداية ونهاية»: الأكبر انحدر إلى أسفل، والأصغر سقط وهو يتطلع إلى أعلى، والأوسط بقى حيث هو).

وقد نلاحظ أن الروائى - صادرًا عن اهتمامه البالغ بالطبقة الوسطى - يكاد يجعل من أبطاله المنتمين إلى بقية الطبقات أنماطًا أو أقنعة: أبناء الأرستقراطية فاسدون بلا أمل فى الصلاح، وأبناء الطبقات الشعبية متمسكون بأنماط حياة وقيم منحدرة إليهم من قرون، بعضها قد يلائم التغير الحادث وأكثرها لا يلائمه، لكن السمة الغالبة أنهم غير واعين بالقهر الواقع عليهم، ومن ثم لا يعملون من أجل مقاومته ورفعه عن كواهلهم. أقصى ما تبلغه الشخصيات العاملة على رفع القهر وإحداث التغيير - وهم من الطبقة الوسطى كذلك - هو ما يقدمه واحد من آخر أبطال هذه المنظومة، من الجيل الثالث فى «الثلاثية». يقول أحمد شوكت: «إنى أومن بالحياة والناس، وأرى نفسى ملزمًا باتباع مُثُلهم العليا ما دمت أعتقد أنه الحق. إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسى ملزمًا بالثورة على مُثلهم ما اعتقدت أنها باطل، إذ النكوص عن ذلك خيانة..». ولنلاحظ - من ناحية - أننا لا نسمع هذه الكلمات من فم صاحبها، لكن خاله، كمال عبد الجواد، هو مَن يستعيدها، ويعيد النظر فيها. من الناحية الأخرى فلا شك فى أن أحمد شوكت أكثر تقدمًا واستواءً من سَميِّه أحمد راشد، محامى «خان الخليلى» الذى أفقده الروائى إحدى عينيه، وجعله يضع نظارة سوداء لا يرفعها أبدًا!

أبناء الطبقة الوسطى، إذن، يخوضون صراعات متعددة، سعيًا للصعود وتجنبًا للانحدار. يخوضون الصراع بين ما هو مادى وما هو روحى، بين ما هو موروث وما هو مكتسب، بين ما هو قديم وما هو حادث، بين ما هو مرفوض وما هو مقبول. وقد نلاحظ أن أكثرهم تطلعًا إلى ما هو مادى هم الذين يلقون الدمار. يكفى أن نستعيد - فى لحظة - مصائر فرعون رادوبيس ومحجوب عبد الدايم ورشدى عاكف وعباس الحلو (رغم أصوله الشعبية إلا أنه كان طموحًا للخروج من «الزقاق»، وكان فى هذا الطموح دماره) وحسنين كامل فى «بداية ونهاية». جميعهم يلقى العقاب لأنه طمح إلى حياة غنية بمتع الحس وحده.

«الثلاثية» قمة هذه المنظومة، وواحدة من قمم صاحبها وقمم الرواية العربية على السواء. حَوَت عوالم ما قبلها وتجاوزتها، التغيير الذى كان يصيب الفرد أصبح إيقاع العمل كله، هو اللحن الذى يتردد وراء الشخوص والأحداث، لم تعد رؤية الروائى بارزة العظام، لكنها اكتست لحمًا ودمًا وأفكارًا ومشاعر، وتجسدت فى شخوص وأحداث، توارى المؤلف بتقاريره وتدخلاته، وأفسح المجال لشخصياته كى تتطور وتستدير، من خلال الفعل والتفاعل، إنها تحدث التغيير فى الواقع فيغيرها بدوره فى جدل لا يتوقف، ثم إن الروائى لا يهمل خطًا رسمه أو كلمة قالها، ويفاجئ حتى القارئ المتمرس، ولن يتسع المجال لأية أمثلة، وما أكثر ما قيل عن «الثلاثية» من شتى وجهات النظر!



* لكن الواقع المصرى هو الذى تغير. حدث ما حدث فى ١٩٥٢ فتوقف نجيب عن الرواية. وحين عاد شاء أن يبدأ بعمل ذى طابع «كونى»، لو صح التعبير، فجاءت «أولاد حارتنا». لكن الظروف التى أحاطت هذا العمل حالت دون أن يأخذ حقه من المناقشة، وأن يُطرح على بساط النقد والعرض. العمل التالى هو الذى أخذ هذا الحق، وما يُعد عند الكثيرين بداية هذه المنظومة التى اختلفت عن الأولى اختلافًا كبيرًا.

«اللص والكلاب، ١٩٦١» فاجأت القراء لكنها أربكت «النقاد». وحين عدت إلى مراجعة ما كُتب عنها لم أستطع إخفاء دهشتى، لن يتسع المجال للإفاضة، يكفى أن أُذكر بما كتبه عبد القادر القط تحت هذا العنوان الذى يلخِّص وجهة نظره: «اللص والكلاب رواية فاشلة» («أخبار اليوم»، ١٢/٥/١٩٦١). والواضح من مقاله كله أنه يرفض الرواية كلها، ويطالب المؤلف بكتابة رواية أخرى تلائم تصوراته، فهو لا يفهم لماذا تطيش طلقات سعيد مهران فلا تصيب أهدافها: «ولا أدرى أى هدف قصده الأستاذ نجيب محفوظ حين جعل طلقات سعيد مهران تطيش فتقتل هؤلاء الأبرياء.. (..) فهل تراه يريد أن يُحَمل القدر أيضًا مع المجتمع مسؤولية انحراف سعيد مهران؟ فى رأيى أن كل هذه المآخذ قد جاءت من تقيد الأستاذ نجيب محفوظ بتلك الوقائع الحقيقية دون أن يستخلص منها جوهرها..»، وهو لا يرى فى سعيد سوى «مجرم لا نتعاطف معه..»، يمضى فى طريق «ملوث بالدم والجريمة»... إلخ.

وفى مقاله هذا يأخذ عبد القادر القط على لويس عوض ما كتبه هذا الأخير عن الرواية لأنه أضاع جانبًا كبيرًا من مقاله خارج العمل الذى يناقشه. والحقيقة أن ما كتبه لويس فى مارس ١٩٦١ (وهو منشور فى كتابه «دراسات فى النقد والأدب، ١٩٦٤، ص ٣٤٥») يثير قدرًا كبيرًا من الإنكار والدهشة، ويكشف عن ابتعاد واضح عن فهم الرواية من ناحية، وجهل كامل بإبداع نجيب السابق عليها، من جهة ثانية، أضف لذلك الغلظة والفجاجة. يكتب لويس: «نجيب محفوظ عندى كاتب من أولئك الكتَّاب القلائل فى تاريخ الأدب فى الشرق والغرب، كلما قرأتُه غَلى الدم فى عروقى ووددتُ لو أنى أصُكه صكًا شَديدًا (!).. (..) فلقد اكتشفت، فيما اكتشفت أن بعض من كتبوا عن «ثلاثية» نجيب محفوظ الشهيرة: مثلاً، لم يقرأوا منها إلا صفحات معدودات، وأنا شخصيًا أعلن وأعترف على الملأ أنى لم أقرأ منها إلا جزءها الأول وأعلن وأعترف على الملأ أنى لن أقربها ثانية إلا حين يتاح لى أن أعتكف أسبوعين فى مرسى مطروح(!).. (..) فإن أردت أن تعرف موضوع هذه القصة فى كلمات فَقُل إنها قصة «ڤان ڤالچان» فى القرن العشرين، أو شىء من هذا القبيل.. (..) لكن غريبة الغرائب فى «اللص والكلاب» أنها قصة كلاسيكية القالب رومانسية المضمون.. إلخ».

هل نحن بحاجة للتعليق على هذا اللغو الفج؟ هذا رجل يعترف فى شجاعة لا يُحسد عليها - أنه لم يقرأ شيئًا لنجيب حتى ثلاثيته الشهيرة، اكتفى منها بجزء واحد حتى يتاح له الاعتكاف فى مرسى مطروح، ولا يستطيع أن يتفهم سعيد مهران إلا من خلال چان ڤالچان، وبوسع أى مبتدئ فى دراسة الأدب أن يرى الفارق الواضح بين بطل «البؤساء» وبطل «اللص والكلاب»، ثم يتلاعب بالمصطلح ما بين الكلاسيكية والرومانسية، وجزاء نجيب عنده أن «يصكه صكًا شديدًا»!.

فَلندعْ ما لا يجدى إلى ما يجدى. من حسن الحظ أن الأستاذ يحيى حقى كان بين من التفتوا - باهتمام ومحبة - نحو «اللص والكلاب»، ومن حسن الحظ أيضًا أنه عايش «نجيب» وهو مشغول بكتابتها. انظر لهذه الصورة الأدبية يقدمها أستاذ من أساتذة كتابتها: «كنتُ ونجيب جارَيْن فى «مصلحة الفنون» ونخرج معًا، وكنتُ أسأله أحيانًا: ماذا تقرأ هذه الأيام وماذا يشغلك؟ فكان يضحك فى وجهى ويقول لى: لا شغل ولا تفكير إلا فى محمود أمين سليمان (السفاح). وكنت فى تلك الفترة إذا دخلت عليه مكتبه وجدتُه يذرعه جيئة وذهابًا، فكأنى أوقظه من غيبوبة أو أرده من عالم مجهول إلى عالمنا، لو انطلق مدفع بجواره لما أحس به، يداه معقودتان وراء ظهره، ورأسه مرتفع مائل للوراء، وأفهم من صوته أن ريقه جاف، لو نقرتَ على جسده لرَنَّ رنين قوس المنجد، بين الحين والحين يرفع يده إلى جبهته ويمسحها كأنه يزيل عَرَقًا أو يهدِّئ حرارتها..». تلك بعض صورة المبدع وقد ضبطه مبدع آخر متلبسًا بالإبداع!

أمَا ويحيى حقى مبدع وناقد، فإنه يتناول بالتحليل كل عناصر «اللص والكلاب» فى ضوء مصطلحيه اللذين حدد معناهما بدقة عن «الإستاتيكية» و«الديناميكية» فى أدب نجيب محفوظ، ثم يخلص إلى الحكم: «هذه الكلمة قاصرة على الصنعة وحدها، ولكنى لا أحب أن أختمها دون أن أُشيد ببراعة نجيب محفوظ وشدة أمانته فى عمله وإخلاصه له، فهو لا يهجم على أمر دون أن يتخذ له عدته، حتى فى رسم الشخصيات الثانوية.. (..) إن قدرته على البصر والإبصار خارقة حتى لتأخذنى رجفة كلما تصورت حال أدب القصة عندنا لو لم نسعد بفن نجيب محفوظ..». (عن: «عطر الأحباب، ١٩٧١»، مؤلفات يحيى حقى، المجلد (١٢)، ص ٥٤ - ١٠٨).

يقتضينى الإنصاف أن أضيف - على الفور - أن من أهم النقد الذى كتب عن «اللص والكلاب» - وعن أعمال هذه المنظومة بوجه عام - ما قدمته لطيفة الزيات (راجع، من فضلك،

الروائى ـ صادرًا عن اهتمامه البالغ بالطبقة الوسطى ـ يكاد يجعل من أبطاله المنتمين إلى بقية الطبقات أنماطًا أو أقنعة: أبناء الأرستقراطية فاسدون بلا أمل فى الصلاح، وأبناء الطبقات الشعبية متمسكون بأنماط حياة وقيم منحدرة إليهم من قرون، بعضها قد يلائم التغير الحادث وأكثرها لا يلائمه

قراءاتها لروايات «اللص والكلاب» و«الطريق» و«الشحاذ» فى: «نجيب محفوظ، الصورة والمثال»، ١٩٨٩، ص ـ ص ٤٩ ـ ١٣٢، وراجع كذلك دراستها العامة: «الشكل الروائى عند نجيب محفوظ من «اللص والكلاب» إلى «ميرامار»، المصدر ذاته. هنا عين فاهمة مُحبة، مدققة متفحصة، لا تفصل شكل العمل عن مضمونه، وتروح تفك خطوطه المتلاحمة فى صبر وأناة، لا تهمل تفصيلاً واحدًا دون أن تدمجه فى سياق التحليل، ولا يفوتها ـ بطبيعة الحال ـ التشابه الذى يفرض نفسه بين الأعمال الثلاثة التى تتناولها (وإن كانت ترى أن الشكل الروائى ذاته يمتد إلى الأعمال الثلاثة الباقية فى هذه المقطوعة: «السمان والخريف» و«ثرثرة فوق النيل» و«ميرامار» وإنْ كان أكثر خفاءً) :فى الروايات الثلاث نتلقى الحدث من وعى الشخصية مباشرة أو من زاوية قريبة أشد القرب من وعى الشخصية، والحقيقة الذاتية تقف على نفس المرتبة من الأهمية مع الحقيقة الموضوعية، والحقيقة الداخلية مع الخارجية، والحلم مع الواقع. وفى الروايات الثلاث تتداعى المستويات الزمانية والمكانية داخل وعى الشخصية الرئيسية وتتشابه وتتناقض فى نفس اللحظة الروائية، مؤدية إلى إغناء الحقيقة الواحدة بوجوهها المتعددة، وإلى تكثيف وتعميق درامى للتجربة.. (..) والبناء الروائى يتشابه، بدوره، فى الروايات الثلاث، بحيث نتلقى نفس إطار البناء باختلاف من رواية إلى أخرى، فالحدث الذى نتلقاه من وعى الشخصية الرئيسية ينطوى فى «الطريق» و«الشحاذ» ـ مثلما ينطوى فى «اللص والكلاب» ـ على رحلة بحث عن المعنى، لها بدايتها الحاسمة المحددة، ونهايتها الحاسمة المحددة.. (..) ورحلة الشخصية تستوعب من البداية إلى النهاية، التعرف على الحقائق الأساسية، وعلى ألوان القهر الاجتماعى والميتافيزيقى، ومحاولة الإنسان لإيجاد المعنى فى عالمٍ يتحكم فيه الخلل والقصور على الصعيدين الاجتماعى والميتافيزيقى..».

إن هذا التوصيف لأعمال هذه المنظومة صحيح فى مجمله، ومن السهل أن تندرج فى إطاره «السمان والخريف» و«الثرثرة» و«ميرامار» كذلك، وتبقى التنويعات داخل اللحن الواحد: إن «اللص والكلاب» تبدأ بخروج سعيد من السجن (بما يعنى الميلاد من جديد)، و«السمان والخريف» بفصل عيسى الدباغ من عمله وتقوض عالمه كله، و«الطريق» بموت الأم ومعرفة «صابر» بحقيقة أبيه (وإن ظل متشككًا فيه)، و«الثرثرة» بفصل «أنيس» من وظيفته نتيجة إدمانه. كل هذه البدايات تعنى أن على البطل القيام برحلة الحياة من جديد. وليس غريبًا أن تبدأ هذه الرحلة فى «الشحاذ» بجملة عابرة يقولها لعمر الحمزاوى أحد موكليه: «ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها؟..»، فتفجِّر فى المحامى الثرى الناجح المتخلى التساؤل عن معنى حياته هو، ومن ثم تبدأ الرحلة. فى هذا السياق كذلك، فإن بنسيون ميرامار نقطة تلتقى عندها مسارات لرحلات أربع، اثنتان فى الماضى (عامر وجدى، طلبة مرزوق) واثنتان فى الحاضر (البحيرى ومنصور باهى)، ومنه أيضًا ستبدأ رحلة الشخصية الوحيدة الناجية من الدمار (زهرة).

هذه المنظومة من الأعمال، عندى، من أثمن ما قدمه الأستاذ. كان فى قمة نضجه وامتلائه وتألق قدراته، ولعب نجيب محفوظ دور الكاتب العظيم كما يجب: لم يُخْفِ عن قارئيه شيئًا ارتآه، لم يخادعهم أو يهدهد مشاعرهم، بل أنذر وحذَّر، أشار إلى التناقضات البادية له وراء الواجهات البراقة، وإلى دبيب العفن والتقوض ينخر أسس ما هو قائم، ويهدد بكارثة وشيكة. من وراء أقنعة الرمز والفانتازيا والصياغة المكثفة التى تومئ وتوحى قال نجيب ما يريد فى جراة ونفاذ. ولن يتسع المقام إلا لمثال واحد: هذا «أنيس» فى واحدة من نوبات السُطل والهم: «أيها الحكيم القديم «ايبو ـ ور» أقْدِم بعصرك الذى اضمحل فيه كل شىء إلا الشعر، أسْمِعنا الغناء. حدثنى ماذا قلت لفرعون. أقبل الحكيم «أيبو ـ ور» وهو ينشد: إن ندماءك قد كذبوا عليك. هذه سنوات حرب وبلاء.. ما هذا الذى حدث فى مصر؟ إن النيل لا يزال يأتى بفيضانه، إن من كان لا يملك أضحى الآن من الأثرياء.. لديك الحكمة والبصيرة والعدالة لكنك تترك الفساد ينهش البلد. هل لك أن تأمر حتى يأتيك من يحدثك بالحقيقة؟..».

هل ثمة سبيل للخطأ فى فهم مثل هذا النص، وهو كثير فى أعمال هذه المنظومة؟



مرة ثانية: كان الواقع المصرى هو الذى تغير. حدث ما حدث فى ١٩٦٧. لم تكن هزيمة عسكرية فادحة وفاضحة فقط، لكنها كانت هزيمة نظم وأبنية وسياسات وقادة ومؤسسات وأفكار وطرائق فى الحياة والعمل. وكان لما حدث فى ١٩٦٧ أثر حاسم فى إبداع نجيب، ترك أثره هذا من وجهَين: الأول أننا لا نكاد نجد له عملاً روائيًا تاليًا إلا وتبدت فيه ١٩٦٧ على نحو من الأنحاء. مرة ثانية أكتفى بمثال واحد، وليكن من أحد الأعمال وثيقة الصلة بالسيرة الذاتية. فى «قشتمر، ١٩٨٩» يقول الراوى ملخصًا مواقف بقية الشخصيات: «غلب علينا الاستسلام للواقع وتخلصنا من كثير من رواسب الماضى، واجتاحنا ما يشبه النعاس الهنىء والحلم العذب، حتى انتفضنا قائمين على صوت انفجار كالبركان فى يوم من الأيام عجيب اسمه ٥ يونيو، دهشة وتساؤل وتعجب وحيرة وعدم تصديق، ثم دهشة وتَعجُب، تَجَرُع لواقع لا مفر منه. كيف؟ لا ندرى. لماذا؟ لا ندرى. ثم سيل منهمر من الحكايات وفيض من النكت، مضطرب بلا حدود لعواطف متناقضة، من أقصى الحزن إلى أقصى الفرح، لكن جرثومة الكآبة استقرت فى كل نفس..».

وكانت القصة القصيرة هى الشكل الفنى الملائم. وهذا هو الوجه الثانى. (كان نجيب قد رجع لكتابتها، ونشر مجموعتين بين منظومة أعماله الثانية: «دنيا الله، ١٩٦٢» و«بيت سيىء السمعة، ١٩٦٥»)، وهكذا تتالت مجموعاتها. فى حوار معه عقب فوزه بجائزة الدولة التقديرية فى ١٩٦٩، قال لى بوضوح: «بعد ١٩٦٧ وجدت لدَّى انفعالاً بلا موضوع محدد، اجتزتُ أزمة كتلك التى دفعتنى للتوقف سبع سنوات كاملة بعد قيام ثورة ١٩٥٢. بعد ١٩٥٢ كانت الموضوعات قائمة عندى لكن الانفعال قد مات، أما الآن فالانفعال قائم لكن الموضوعات هى التى تتسرب من بين أيدينا. صدقنى إذا قلت لك إننى أبدأ كتابة القصة القصيرة الآن دون أن أعرف كيف تنتهى، لم تعد لدَّى تخطيطات لأعمالى كما كان الأمر فى الماضى.. من يستطيع الآن مثل هذا التخطيط؟.. (..) الانفعال اليومى هو عذابى وعزائى كذلك، هل أستطيع أن أثبِّت ما فى الخارج كى أطيل النظر إليه ثم أتناوله بالمعايشة والتحليل؟ (..) الرواية بحاجة لرؤية متكاملة تضم الذات والموضوع، تضم الماضى والحاضر وتستشرف المستقبل، وهذا ما لا أستطيعه الآن» (روزاليوسف، ٢٩/٦/١٩٧٠).

من جديد، يكشف نجيب عن التزامه الحار بقضايا وطنه وهموم ناسه. كان ممرورًا، وكان صادقًا وهو يعرض لقارئيه حيرته ودهشته وفجيعته وتشتته واضطراب خطاه، لكنه لم يغفل، لحظة واحدة، عن أن بلاده تخوض معركة شاملة، ولا عُذر لقاعد. الصراع هو الملمح الأول والأساسى فى هذه القصص، صراع يشمل العالم كله ولا تخلو قصة واحدة من مظاهره. لا واحدة تخلو من الصراع الجسدى أو التلاحم البدنى أو القتل بالرصاص أو السكين أو الانتحار أو موت البراءة. لكننا لا نخطئ رؤية الكاتب لهذا الصراع وموقفه منه. هذا مثال واحد: يقول العربى المسلَّح للزنجى: على الأرض تُسرق أوطان ويُضطهد أبرياء، وعلى المسروق والمضطَهد أن يحمل السلاح، وأن يتعاون مع من يعطيه السلاح، وأن نفسِّر حكمة الله فى ضوء ذلك.. (قصة «فنجان شاى» من مجموعة «شهر العسل»).

وكما كان نجيب بحاجة إلى مَعْبَر نحو منظومته الروائية الثانية، لعبت «المرايا، ١٩٧٢» هذا الدور إلى المنظومة الثالثة. كانت «المرايا» أقرب إلى ذاته، ينتقى شخصيات ووجوهًا عرفها فى مراحل شتى من حياته، لعله يبدو محايدًا وهو يرتبها لا حسب قربها منه أو بُعدها عنه ولكن حسب حروف الهجاء (سيعود إلى التكنيك نفسه فى «حديث الصباح والمساء، ١٩٨٧» ولكن لهدف آخر). ولعل أهم ما يلفت النظر فى مراياه هو غَلَبة الساقطين والأوغاد، وقلة قليلة هى الناجية، تلك التى يتعاطف معها الكاتب، وإن كان يهب لها أسوأ المصائر، وتلك نغمة مترددة عنده قبل «المرايا» وبعدها.

من «حب تحت المطر» إلى «قشتمر» بضعة عشر عملاً. تدفق إبداع الأستاذ حتى أنه كان ينشر أكثر من عمل فى العام الواحد (فى ١٩٧٥ مثلاً نشر «حكايات حارتنا» و«قلب الليل» و«حضرة المحترم» على التوالى، وفى ١٩٨٢ نشر «ليالى ألف ليلة» و«الباقى من الزمن ساعة»، وفى ١٩٨٥ «العائش فى الحقيقة» و«يوم قتل الزعيم»). وتتالق حبَّات كثيرة، لعل أكثرها بريقًا هى «ملحمة الحرافيش، ١٩٧٧». استعاد فيها الروح القديمة والجِلْد القديم، وجعل فى عنوانها كلمة «الملحمة». فالبطولة فيها ليست معقودة لفرد، ولا هى مقتصرة على فترة من الزمن، لكنها تضم عشر حكايات كلها حلقات فى الصراع، وتقول الحكايات جميعًا: فشلت المحاولات الفردية والإصلاحية والهبَّات التلقائية، ولم يبق سوى طريق واحد: القائد على رأس« الفقراء المسلحين، لا تسلط من جانب ولا استخذاء من الآخر ولا امتياز لأحد. الكل يعمل والكل يحظى بثمار عمله، والعدل يشمل الجميع، وإن حانت الحرب فالكل محاربون. هكذا تتحقق العزة فى الحارة، وتتفتح أمام أهلها أبواب الحلم: أن يحظوا يومًا بالخضرة والنعيم وثمار التوت.

إلى جانب الملحمة فإن هذه المنظومة تتوزع بين اتجاهين: فى الأول يحاول نجيب تسجيل أحداث معاصرة وإبداء الرأى فيها، وإن تنازل فى سبيل ذلك عن كثير مما يعرف من إحكام البناء وحبكة التتابع وكثافة الصور وشاعرية اللغة. و«لعله أول من سيوافقك إن شئت أن تخلع عن أى من أعماله هذه صفة الرواية. هو خير من يعرف القواعد والأطر، فى القديم والجديد، فى الشرق والغرب. إن هذا الأمر لا يشغله، فكل ما يعنيه هو التعبير عن تحولات الواقع بوتيرة تقارب سرعته فى التحول، ومنذ السبعينيات، ثمة تحولات تحدث فى التوجهات الرئيسة التى سادت العقدين السابقين عليها، والروائى يجد فى ملاحقتها. هذا الاتجاه يشمل كثيرًا من أعمال المنظومة («الكرنك، ١٩٧٤»، «عصر الحب»، «الباقى من الزمن ساعة»، أمام العرش»، «يوم قتل الزعيم»). الاتجاه الثانى يصرف فيه الروائى إحدى عينيه عن الواقع، ويفتحها على عمل من أعمال التراث، ثم يروح يصب النبيذ القديم فى الأقداح الجديدة، الأقداح التى صُنعت على عينه الأخرى المتابعة لتحولات الواقع («ليالى ألف ليلة»، «رحلة ابن فطومة»، وقد نضيف إليهما أيضًا «حكايات حارتنا».).

فى ١٩٧٤ كانت الملفات القديمة قد فُتحت لتكشف جوانب ما حدث فى سجون عبدالناصر وأحاطه الكتمان. وكان لا بد من فتح تلك الملفات حتى تكون ثمة إمكانية للتجاوز. نشر نجيب «الكرنك» وأرخها بنهاية ١٩٧١ (لا أذكر أن نجيب قد أرَّخ عملاً آخر!)، كان غاضبًا ممرورًا، وكان صادقًا كذلك. وجاءت «الكرنك» شهادته، دون احتفال كبير بالفن الروائى، وهى جماع شهادات أبطالها. يقول الروائى، الأخلاقى المتطهر، الذى يريد أن يغسل يديه من أدران العالم، متفلسفًا ومبررًا أيام الانتفاش الكاذب والزهو الأجوف «قلت لنفسى إن حياتنا تزخر بالألم والسلبيات، ولكنها فى جملتها ليست إلا النفايات الضرورية التى يلفظها البناء الضخم فى شموخه، وأنها يجب ألا تعمينا عن العظمة فى تولدها وامتدادها..

حدث ما حدث فى ١٩٥٢ فتوقف نجيب عن الرواية.
وحين عاد شاء أن يبدأ بعمل ذى طابع «كونى»، لو صح التعبير، فجاءت «أولاد حارتنا».
لكن الظروف التى أحاطت هذا العمل حالت دون أن يأخذ حقه من المناقشة،
وأن يُطرح على بساط النقد والعرض



(..) هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة فى القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الحاسم على الصليبيين؟..». طيب. وماذا بعد أن تهاوى العملاق الخرافى الذى كانت ساقاه من رمل وطين. ماذا بعد الاعتقال الثالث وبعد أن «استيقظنا على أعنف مطرقة صَكّت رؤوسنا الثملة بأحلام العظمة»؟، وبعد أن فشل صلاح الدين فى طرد الصليبيين وجاء بهم إلى أبواب القاهرة؟ ماذا بعد أن سقط تبرير كل باحث عن التبرير؟

تبدلت وجود وأسماء. سقط «خالد صفوان» عن عرش إرهابه وقعد خالد صفوان مكانه، واستدرجه الروائى إلى مقهى «الكرنك» - دون مبالاة بمعقولية أن يحدث هذا أو لا يحدث - كى يقول لنا حكمة الجلادين. فأية تبريرات يمكن أن يقدم؟ أية تعلات يمكن أن تكون ثمنًا لموت الطموح والآمال والقعود على أرصفة الحياة كالنفايات فى شرخ الشباب؟ أية تعلات يمكن أن تكون ثمن العذرية الضائعة. ضَنّت بها الفتاة المحبة على حبيبها فى لحظة الوجد لينتهكها جلف غليظ وعينان جاحظتان تنظران؟ أية تعلات يمكن أن تكون ثمن حزن العاشقة المحزونة التى لا يعدها الزمن - رغم الأمل التقليدى فى الصفحات الأخيرة - بعشق جديد؟

ليذهب كل تبرير إلى حيث ألقت. فماذا يبقى بعد أن يُدمر «أثمن رأس مال»؟ أليس هذا من سيقيم «البناء العظيم» ويعض على سلاحه كى يطرد الصليبيين، ماذا يبقى منه وقد أحالوه أشباحًا مرتعدة تحيا من خوف الذل فى ذل؟

هذا جوهر شهادة نجيب محفوظ. وهو موضوع سيعود إليه أكثر من مرة فى أعمال هذه المنظومة (خاصة: «أمام العرش» و«يوم قتل الزعيم»).



الاتجاه الثانى فى هذه المنظومة تمثله «رحلة ابن فطومة». وإذا كان التاريخ قد عرف رحلة ابن بطوطة بعنوانها الطريف «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، فإن كاتب رحلة خليفته «ابن فطومة» يستبعد، عمدًا، أية تفاصيل تشى بتحديد موطنه، بحيث يمكن أن يكون أى مدينة من «دار الإسلام». فى أول شبابه تعرض لمحنٍ زلزلته: خانه الدين لأنه قبع فى المساجد، وخانته أمه لأنها قبلت الزواج من معلمه، وخانته حبيبته لأنها تزوجت حاجب الوالى، وبدا له كل شىء كالحًا فتخايل له حلم الرحلة فى طلب الحكمة خلاصًا وحيدًا: «أريد أن أعرف.. وأن أرجع إلى وطنى المريض بالدواء الشافى..»، تحدد باعث الرحلة والهدف منها، وتحددت خطتها كذلك: سيزور ديار المشرق والحيرة والحلبة والأمان والغروب، وصولاً إلى دار الجبل التى تراءت لعينى خياله «كنجم معشوق يعتلى عرشه وراء النجوم..».

بعبارات من عندنا: إن نجيب محفوظ قد اختزل مسيرة التاريخ الإنسانى كله فى هذه الرحلات: اثنتين فى الماضى (المشرق والحيرة) واثنتين فى الحاضر (الحلبة والأمان)، أو اثنتين فى الزمان واثنتين فى المكان، وتبقى دار الجبل متلفحة بالصمت والغموض، مثل أى «يوتوبيا» صاغها الإنسان من أشواقه إلى أن ينعم بالعدل والحرية معاً، وما دار الغروب إلا تمهيد لها وخطوة فى طريقها: حين تخلو القافلة من تاجر واحد، وحين تطرح كل شىء وراءك، وحين تفكر فى العمل دون انتظار ثمرة أو جزاء، وحين تغوص فى ذاتك: فناناً صاحب إبداع، أو متصوفاً صاحب رؤية، أو فيلسوفاً صاحب مذهب. حينذاك تستطيع التحليق دون جناحين، وتحقيق ما عجز الإنسان عن تحقيقه فى ماضيه وحاضره.

وقد لا أكون بحاجة إلى القول بأن الروائى لا يقدم لقارئه «معادلاً موضوعياً» دقيقاً لهذه النظم فى تاريخ الإنسان وحاضره، يكفيه أن قدم الملامح الأساسية للنظم الأربعة: البدائى أو العبودى، والمَلَكية المطلقة القائمة على الحق الإلهى، ثم رأسمالية الغرب واشتراكية الشرق. وقد لا أكون بحاجة للقول كذلك بأنه قد مال مع صاحب رحلته إلى النظام الغربى، ولم يتحفظ فى إبداء إعجاب به، فليس هذا سوى وجه من وجوه الاستلاب فى ثقافتنا المعاصرة.

من تاريخ الإنسان فى العالم إلى تاريخه فى مصر. فى مثال ثالث وأخير لأعمال هذه المنظومة تأتى «حديث الصباح والمساء: ١٩٨٧». سبق أن وصفتها بأنها «جدارية هائلة من الشخصيات والأحداث فى عدد قليل من الصفحات لا يتجاوز المائتين، كل شخصية تضيف لمسة هنا أو أخرى هناك، والروائى ممعن فى حياده الظاهر، يرتب الشخصيات حسب حروف الهجاء، ولا ينسى - هذا الموظف العتيق - أن يكتب الأسماء ثلاثية - وأحياناً رباعية - كى تكتسب شهاداتها الصدق والصحة، ويقف عند رقم سيتكرر كثيراً، وستكون له آثاره على الجيلين الثالث والرابع: سبعة وستين. وعليك - بعد أن خلط لك الأوراق - أن تعيد ترتيبها فى سياق تتابعها الزمنى، ثم أن تسأل السؤال الأساسى: وأين يختبئ الروائى الماكر؟..» (عن: «أوراق من الرماد والجمر» ١٩٨٨، ص ٢٤ - ٢٥).

أهم الملامح فى هذه الجدارية الرائعة خطان يسيران معاً، جنباً إلى جنب: الموقف من أحداث التاريخ المصرى فى أهم لحظات تحوله، من ناحية، ثم انتقال ثقافة التراث الشفاهى الغيبى من جيل لجيل، من الناحية الأخرى. ولنكْتَف هنا بالخط الأول: إن نجيب محفوظ قدم لوناً من «التأريخ الفنى» لأهم نقاط التحول فى مصر المعاصرة، من مجىء الحملة الفرنسية إلى مصرع السادات. تأريخ لا ترويه وقائع جافة، بل نسيجه شخصيات من لحم ودم ووراثة واكتساب وتعليم ومشاعر ومصالح، عاشت متأثرة بتلك النقاط الفاصلة، تصوغ حياتها فى ضوء نتائجها، وهى تدرى أو لا تدرى. فى هذا التاريخ لا يبدو الروائى المتظاهر بالحياد محايداً، لكنه يهب أفضل المصائر لهؤلاء الذين انحازوا للثورة الوطنية فى تجلياتها المتتالية، وأسوأ المصائر - خارج الوطن غالباً بالنسبة للأجيال التى طحنها ٥ يونيو وتهاوى الأحلام - لمن اختاروا الوقوف على الجانب الآخر من الخندق.

«حديث الصباح والمساء» إضافة ثمينة لقلب عالم نجيب محفوظ، هى تَمُت بصلة واضحة إلى «الثلاثية» و«ملحمة الحرافيش» و«الباقى من الزمن ساعة» من حيث هى رواية أجيال، وتَمُت - من الناحية الأخرى - بصلة واضحة إلى «ميرامار» و«المرايا» من حيث هى رواية شخصيات. أثمن ما فيها تفاصيل تلك الجدارية الهائلة، التى تجد فيها - كلما أمعنتَ النظر - اللون الواحد فى درجاته كلها، يشغل مكانه مع بقية الألوان، لا يتجاوز حَيِّزه المحدد له، فى إحكام هندسى دقيق.



فى هذه المنظومة الرابعة والأخيرة قد نجد أن التغير الذى أصاب الكاتب هو أكثر مما أصاب الواقع. بعبارة ثانية: كى نحسن فهم هذه المنظومة علينا أن نضع فى اعتبارنا ما أصبح عليه الأستاذ الكبير: وَهَنَ منه السمع والبصر وهناً شديداً، ثم جاءت تلك الحادثة الرهيبة التى تعرض لها فى أكتوبر ١٩٩٤ لتزيده وهناً على وهن. أصبحت يمناه عاجزة عن الإمساك بالقلم، فهو يُملى أعماله، ولا يراجع تجارب الطبع كما اعتاد. كما أن تكثيف الحراسة من حوله أرغمه على تغيير عاداته التى صارت جزءاً من صميم حياته: الخروج إلى الناس، والحياة فى قلبهم، وتَسَمُّع نبضهم الحى. إذن: ضعف منه السمع والبصر، فضاق مدى معرفته بالواقع الحى والعالم الخارجى، وأصبح مقصوراً على ما يترامى إليه من أحاديث جلسائه. وهو - فى أفضل الأحوال - محدود، وغير محايد بالضرورة. فماذا بقى له؟ الجواب فى عمل من أعمال نهاية الثمانينيات. فى «صباح الورد، ١٩٨٨» يكتب: «إنها لنقمة أن تكون لنا ذاكرة، لكنها أيضاً النعمة الباقية»، أكاد أضيف: «والوحيدة كذلك. من معينها يمتح نجيب أعماله الأخيرة: إن ضاق الخارج، فقد بقى له الداخل رحباً ثرياً.

هنا بالضبط تأتى «أصداء السيرة الذاتية» - نُشرت مسلسلة فى ١٩٩٢ لكنها لم تصدر كاملة إلا فى ١٩٩٦، وكلمة «أصداء» فى عنوان العمل تشير إلى صميمه، أنه لا يقدم سيرته أو أحداث حياته، لكنه يتقصى انعكاسات تلك الأحداث على عقله وروحه ووجدانه إنه يصفيها ويستقطر دلالاتها ويستخلص دروسها ومعانيها، ثم يصوغها تلك الصياغة الخاصة: أكثر من مائتى مقطوعة، قد لا يتجاوز أطولها الصفحة الواحدة، ويقف بعضها عند السطر الواحد أو السطرين، يلخِّص فيه الأستاذ ويركِّز ويكثِّف ويوجز رؤيته للحياة والناس. فى النصف الأول منها ينطلق الراوى حراً يحدثنا بما رأى وسمع وعرف وتذكر وتخيل وحَلُم، حتى يظهر الشيخ عبد ربه التايه» فى النصف الثانى، فيتخذ مجلس «الأستاذ الشيخ» ويتخذ الراوى مجلس «التلميذ الفتى». فماذا فى نصفى النص؟

من البداية يسأل الشيخ: «ماذا يدفعك إلينا؟ فقلت بعد تردد: أكاد أضيق بالدنيا وأروم الهروب منها. فقال بوضوح: الدنيا محور طريقتنا وَعَدونا الهروب..» تلك البداية تتردد فى صياغات مختلفة. ولكن: ماذا فى الدنيا يمكن أن يصبح موضوعاً للحب؟ مرة ثانية: «سألت الشيخ عبد ربه عما يقال عن حبه للنساء والطعام والشعر والمعرفة والغناء. فأجاب جاداً: «هذا من فضل الملك الوهاب..»، وما أكثر ما قال الراوى وشيخه فى المرأة والحب، ومعهما يأتى الفن، ومادمنا فى رحاب المتصوفة، فهو يتخذ شكل السماع والطرب، لكن الشيخ وصاحبه لا يدعوان إلى التفرغ للحب والفن، بل إن العمل قيمة كبرى فى الأصداء. فى ختامها يهنئ الشيخ مريديه: «هنيئاً لمن قام بواجبه فى السوق وتحدى الكَدَر..»، بعبارة من عندنا: مَن عَمل على الاهتمام بشئونه الخاصة من جانب، ولم يهمل الشئون العامة من الآخر. كذلك يشغل الموت: تأمله، والتفكير فيه، وتذكر الراحلين، والتأهب للقائه، حيزاً كبيراً فى الأصداء، ولأن الذاكرة هى المصدر الوحيد لما يروى الراوى عن نفسه وشيخه فطبيعى أن تشغل مسألة الذاكرة والنسيان مكانها، وما كان لصاحب «الأصداء» أن يهمل الواقع المعيش مهما غاص فى أعماق الذاكرة، ثمة مقطوعات عديدة تشى بأن الأستاذ يبقى مهموماً بهذا الواقع الثقيل وهمومه الرازحة. خذ هذه المقطوعة وتأمل كلماتها القليلة: «سألت الشيخ: متى يصلح حال البلد؟ فأجاب: عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة»!

وفى ١٩٩٦ أيضاً صدرت آخر مجموعاته المكتملة «القرار الأخير». لعل أهم ما يلفت النظر فيها ظاهرة الفساد الذى ساد فشمل كل شىء، لم يعد الأمر أمر أفراد فاسدين هنا أو هناك، يداورون فسادهم ويتسترون به، لكنه أصبح مؤسسات قوية باطشة، تستند فى قيامها إلى مناخ شامل يشيع الفساد ويشجِّع عليه، فتحمى الفاسدين وتطارد أعداءهم وتستمد قوتها من شيوعها حتى أصبحت هى القاعدة والسائدة، وما عداها أصبح استثناء وشذوذا.

بعدها، أصبحت مجلة «نصف الدنيا» القاهرية هى ناشرة أعماله (كلنا يعرف مدى التزام الأستاذ بمؤسسة «الأهرام» «ووفاءه» لها منذ التحق بها كاتباً متفرغاً أول السبعينيات)، وقد أصدرت منها ثلاث مجموعات: الأولى أسْمَتها «كتاب القرن»، ووصفته بأنه يضم «٥٩ قصة.. آخر ما كتب صاحب نوبل» (٢١/٢/١٩٩٩)، والثانية والثالثة تضمان «أحلام فترة النقاهة» واحدة صدرت نهاية العام الماضى، والأخرى قبل أسابيع (١٤/١٠/٢٠٠١)، لكن هذه الإصدارات تفتقد الدقة، فالمجموعة الأولى منها تعيد نشر عشرين قصة سبق نشرها فى «القرار الأخير»، كما أن الأخطاء الطباعية الكثيرة فى المجموعات كلها تزيد من عدم اكتمالها، وصعوبة اعتبارها، «نصوصاً معتمدة» لهذه الأعمال.

إن شئنا صياغة مختصرة لإبداع نجيب محفوظ فى هذه المنظومة الأخيرة - والتى مايزال الأستاذ قادراً على الإضافة إليها - أمكننا القول إن الكاتب الكبير يستقطر لقارئه خبرات حياته الطويلة، يصفيها ويركزها فى بللورات صغيرة مضيئة، وماتزال ملاحقة تحولات الواقع والتعبير عنها عذابه وعزاءه، ولأن ما يبلغه من هذا الواقع أصبح محدوداً بالضرورة، فهو يمتح من معين الداخل: الأحلام والذكريات والرؤى. وأهم ملامح الواقع الذى يبلغه هو الفساد الشامل الذى أحاط كل شىء (وهو فساد لا دخل للشياطين والأبالسة بحدوثه، لكنه بما كسبت أيدينا: فاسدين وصامتين)، ولا حيلة للصغار سوى محاولة التواؤم معه، والإفادة منه، وتَوَقّى

شروره، وإن عجزوا فوسائل الخلاص عديدة: الموت وفقدان الذاكرة والعيش فى عالم خاص من الهذيان والهلاوس.



ورغم قلة ما يترامى إليه من هذا الواقع فما يزال الرجل قادراً على تسمُّع نبض الناس الصغار، ضحايا هذا الواقع قبل أن يكونوا صانعيه، والكاتب منهم، مشارك لهم، متعاطف معهم، يقول عنهم: «ما حدث قد حدث، ولكن.. ماذا عما لم يحدث بعد؟..» هو قَلِق متوجس؟ نعم. يرى الطريق ملأى بالعقبات والمصاعب؟ نعم.. لكنه لا يتخلى أبداً عن الأمل، و«السيد القادم» لابد أن يجيء، صحيح أن الجميع ظلوا بانتظاره حتى دَاخَلَهم اليأس، لكنه عاود الاتصال، فلعله يأتى فى «المرة القادمة»!

ولا يكتفى الكاتب العظيم بغرس الأمل، لكنه يقدِّم تلك الصياغات المقطرة والمركزة لحكمة الحياة: يراها مدرسة ليس أمام من يدخلها سوى «الاجتهاد والكفاح والصبر»، يراها رحلة مليئة بالأفراح والأحزان، بالانتصار والانكسار، موشاة بالضحكات والدموع، على أديمها تتلاقى التناقضات وتتحايث وتتعايش، نصارعها وتصارعنا، وأسلحتنا متعددة فى هذا الصراع، على رأسها الإرادة والمعرفة والعمل وبذل الجهد ومكابدة المشقة، ثم توطين النفس على «تَقَبُّل قوانين الأشياء»، والإيمان بأن لكل مرحلة من مراحل العمر مسراتها، وأن النهاية حين تأتى فهى لا تعنى سوى الانتقال من عالم لآخر، ولعل من أجمل ما يصوغه راوى «الأصداء» هذه المقطوعة: «فى مرحلة حاسمة من العمر، عندما تسنَّم بى الحب ذروة الحيرة والشوق، همس فى أذنى صوت عند الفجر، هنيئًا لك، فقد حمَّ الوداع. وأغمضت عينى من التأثر، فرأيت جنازتى تسير وأنا فى مقدمها أسير حاملاً كأساً كبيرة مترعة برحيق الحياة».

ويكتسب وجه الكاتب الكبير فى مجمل هذه الأعمال شفافية وعذوبة، ناتجتين عن المسافة التى ينظر منها إلى ما يحدث، ويُسْلكه فى عداد ما رأى وعرف وخبر، ويصوغه فى هدوء وحكمة مَن عاش وأراد وعمل وكابَد وأنجز وحقق، فحقٌ له أن يتأمل ويستوحى ويستقطر ويصوغ. إن شئت عبارة أكثر إيجازاً أمكنك القول إن الأستاذ نجيب مايزال قادراً على مواصلة الإبداع، وعلى أن يأخذ عمله ـ كما كان دائماً ـ مأخذ الجد الكامل: رسالة الحياة ومعنى الوجود.

ألا تراه لا يستطيع ـ رغم كل شىء ـ أن يتوقف عن الكتابة؟

تلك ـ مقتبساً عن يحيى حقى ـ نفحات من عطر نجيب محفوظ، نظرة عجلى إلى عالمه الروائى، لم تعرض لعالمه القصصى إلا قليلاً. قلت فى أول هذا الحديث إن «نجيب» كان موجوداً فى عالمى منذ الدراسة الثانوية، ثم «أتانى زمانى بما أرتضى» فعرفت الأستاذ عن قرب: فى مقهى «ريش» من منتصف الستينيات لأوائل الثمانينيات، وفى «الأهرام» حيث كنت أعمل بمجلة «الطليعة» من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٧، وكان الأستاذ يأتى إليه كل خميس، ثم فى مقهى «على بابا» حتى أصابته تلك الطعنة الغادرة فى ١٩٩٤، وتابعتُ الكتابة عن أعماله منذ بدأت حول منتصف الستينيات، وكان الأستاذ حَفِيًّا بى وبما أكتب، يقرأه بعناية ويناقشنى فيه بمودة واهتمام، وتصاعد النقاش أكثر من مرة حول أعمال بعينها («أمام العرش» و«يوم قتل الزعيم» بوجه خاص)، لكننى أشهد أنه كان رحب العقل سمح النفس، يُصغى ـ باهتمام صادق ـ لآراء الآخرين، ويناقشهم فى جرأة ووضوح، وإن احتد النقاش فعل ما يفعله ابن البلد القاهرى: زاغ من المأزق بالنكتة، ثم أطلق ضحكته الصافية الممتدة!

وحين أُعلن نبأ حصوله على جائزة «نوبل» مساء الخميس ١٩/١٠/١٩٨٨ فرح المصريون كأن الجائزة تخص كلاً منهم، صباح اليوم التالى سعيت للقائه فى مقهاه، وكنتُ أهجس بأنه قد لا يلتزم نظامه اليومى المعتاد، لكنه جاء، متأخراً بعض الوقت، أمامه ووراءه يمشى صحفيون ويتقافز مصورون، وجمهور السابلة فى «ميدان التحرير» انتبهوا إليه، فراحوا يشيرون نحوه، وبعضهم وجد الجرأة كى يتقدم منه مصافحاً أو محتضناً مهنئاً.

أعدَّ الأستاذ مجلسه كما يفعل كل صباح، وجلستُ إليه وحدنا.

ـ أستاذ نجيب.. ماذا يعنى هذا عندك؟

ـ لك أنت سأقول إننى سعيد لأننى كسرتُ القاعدة..

ـ أيَّة قاعدة؟

ـ القاعدة التى تقضى بأن الحصول على أى شىء الآن ـ دع عنك مثل هذه الجائزة ـ إنما يقتضى مسلكاً خاصاً، يقوم على قاعدة انتهازية وعلاقات عامة واتصالات هنا وهناك.. أنا لا أقول إننى وضعت قاعدة أخرى.. أقول فقط إننى كسرتُ القاعدة السائدة، وقدمتُ درساً لكل الجادين والمجتهدين: إن الانصراف إلى العمل، والعكوف عليه يمكن أن يؤدى حتى إلى جائزة نوبل.



ولعل هذه المقابلة كانت من أوائل ما نُشر عنه بعد حصوله على الجائزة (مجلة «اليوم السابع»، باريس، ٢٤/١٠/١٩٨٨) ومجلة «الأفق»، نيقوسيا، ٢٧/١٠/١٩٨٨). يومها كتبت: الجائزة لنجيب محفوظ: انتصار لقيم الإخلاص والجدية والتجرد، انتصار لإعلاء شأن العمل وبذل الجهد، والانصراف عن انتهازية الفكر والسلوك، والانصراف عن الضجيج الإعلامى الفارغ والسعى المحموم ـ الذى يستخدم كل الوسائل ـ للحصول على جائزة من هنا أو منحة من هناك، والترفع عن كل ما يشين، أو يخفض الجبين الشامخ. الجائزة لنجيب محفوظ: شجرة الجميز المصرية السامقة، عميقة الجذور فى تراب مصر، شهية الثمار، وارفة الظلال، طالما تفيأناها، وشحذنا أقلامنا الساذجة على جذعها وفروعها..».

ومايزال الأستاذ بيننا: رقماً قياسياً وإطاراً مرجعياً ومثلاً أعلى يحظى بكل الحب والاحترام.

ويا أستاذ نجيب.. كل سنة وأنت طيب. ■



رياض الصالحين

باب فضل السماحة فى البيع والشراء والأخذ والعطاء وحسن القضاء والتقاضى وإرجاح المكيال والميزان والنهى عن التطفيف وفضل إنظار الموسرِ المعسرَ والوضع عنه:

قال اللَّه تعالى (البقرة ٢١٥): ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

وقال تعالى (هود ٨٥): ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

وقال تعالى (المطففين ١ ـ ٦): ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وعن أبى هريرة رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ أن رجلاً أتى النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم يتقاضاه فأغلظ له فهم به أصحابه، فقال رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً» ثم قال: «أعطوه سناً مثل سنه» قالوا: يا رَسُول اللَّه لا نجد إلا أمثل من سنه. قال: «أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاءً» مُتَّفَقٌ عَلَيه.

وعن جابر رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ أن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم قال: «رحم اللَّه رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى» رَوَاهُ البُخَارِى.

وعن أبى قتادة رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ قال سمعت رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم يقول: «من سره أن ينجِّيه اللَّه من كرب يوم القيامة فلينفس عن مُعسر أو يضع عنه» رَوَاهُ مُسلِمٌ.

الإنشاد الديني والأغاني الدينية

مايكل فريشكوف

كثيراً ما يُفترض أن الإسلام السلفي يرفض الموسيقى، وأن تلاوة القرآن والأذان هما الممارستان اللحنيتان المقبولتان منه. وبنفس المنطق، فإن موسيقى الصوفية تصنف تحت عنوان الإسلام «الابتداعي» أو «الشعبي». إذن فكل من الممارسات «السلفية» و«الصوفية» تميز فئوياً عن العالم «الدنيوي» وموسيقاه. وهذا الرأى «الثلاثي» الخاطئ عن الموسيقى والدين في مصر يمكن تصحيحه عن طريق دراسة ذلك المجال الثرى من الممارسات اللحنية الإسلامية التي تمارس هناك.

انتشر أداء الإنشاد الديني في مصر خلال القرن العشرين، متعدياً كل الحواجز الجغرافية والاجتماعية. وبما أن ممارسة الإنشاد تركز في المقام الأول على الابتهال إلى الله وتسبيحه، ومدح رسوله وحبه، والتعبير عن التجربة الروحانية، والمواعظ الدينية، فهو لا يقتصر على منطقة أو طبقة اقتصادية أو رؤية دينية. فالإنشاد يعبر عن البعد العاطفي للإسلام، الذي يُعَبَّر عنه كأحسن ما يكون التعبير في الصوفية. ومع أن الإنشاد دائماً صوفي كأوسع ما يكون معنى هذه الكلمة، ورغم أن بعض الفرق الصوفية تشتهر بالفعل بإنشادها الشعائري (بينما لا يوجد ذلك في غيرها)، فإن الإنشاد يحظى بالتقدير في مجال اجتماعي عريض يتخطى حدود الطرق الصوفية بكثير.

والواقع أنه بينما قد يمثل الإسلام العاطفي، الذي يتجلى في الصوفية الشعبية، الدافع الأساسي نحو التعبير الموسيقي عن الشعور الديني، فإن الخطوط التي يفترض أنها تفصل الإسلام «السلفي» عن «الصوفي»، و«النخبوي» عن «الشعبي»، لا يمكن تمييزها، هي أقل حدة بكثير، على الأقل في مصر. وتعكس مثل هذه التقسيمات بعض المفاهيم والجدل أكثر منها معتقدات وممارسات حقيقية. ذلك أن حقيقة الأمر هي أن الأفكار والمشاعر الصوفية - وهي حب الله ورسوله وآل البيت - تنتشر في المجتمع المصري بدرجات متفاوتة (وإن كان الانتشار غير معترف به دائماً)، ويكون التعبير عن هذه الأفكار والمشاعر أصدق ما يكون شعراً وغناءً. وصعوبة التمييز بين ما هو غناء «سلفي» و«صوفي»، أو «نخبوي» و«شعبي»، أو «دنيوي» و«مقدس» تعكس تواصلاً عاماً وتداخلاً بين هذه الفئات وضرورة الحذر عند استخدامها.

والفصل بين أنواع الأداء اللحني في الإسلام يتسم بالصعوبة كذلك. فمن ناحية النص، يمكن تمييز الإنشاد عن تلاوة القرآن والأذان. فالإنشاد شعر في المقام الأول؛ أما القرآن فكلام الله، والأذان من التراث. وقدسية كلام الله، والقواعد الخاصة بتلاوته (التجويد)، تحدد طريقة الأداء الصوتي للقرآن (وإن كان بالإمكان تحقيق أثر كبير في إطار هذه الحدود). ومع ذلك فهناك أثر متبادل في أساليب الأداء، إذ إن المنشد عادة ما يتلو القرآن ويؤذن للصلاة كذلك. كما أن كل أنواع الأداء الإسلامي شكّلها تاريخ مشترك للتراث الإسلامي. وكثيراً ما كان هذا التراث ينظر بعين الشك إلى استخدام الموسيقى في الدين، بل ويتخذ منه موقفاً عدائياً، وهو ما ساعد على طبع كل الأنواع الإسلامية بملامح مشابهة.

ومع ذلك فإننا عندما نقارن مجال الإنشاد بتلاوة القرآن نجده أكثر مرونة إلى حد كبير في الأداء، وأكثر حرية في الجمع بين الممارسات الموسيقية الأخرى. وبينما قد يزعم بعض المصريين أنهم قادرون على التمييز بوضوح شديد بين الإنشاد والغناء (بمعناه العام)، فهما في واقع الأمر ليسا منفصلين انفصالاً بيناً في المفهوم أو الممارسة، وهناك تواصل بين أداء الإنشاد الديني، بالمعنى الدقيق للكلمة، وأداء الغناء غير الديني الذي لا لبس فيه.




وحتى بداية القرن العشرين، كان الفصل بين الإنشاد والغناء مستحيلاً تقريباً. ففي القرن التاسع عشر كان التراثان «الديني» و«الفني» متداخلين، وكانا يشكلان معاً مجموعة واحدة من الممارسات؛ وفي الوقت الراهن تسمى هذه المجموعة أحياناً بالتراث القديم. وشيئاً فشيئاً انفصل الغناء الديني عن الغناء غير الديني مع قدوم صناعة الموسيقى التجارية، التي روجت للموسيقى الشرقية الترفيهية الأكثر ربحية، حيث نأت بها عن التراث الديني. إلا أن التأثيرات المتبادلة القوية والاستعارات الموسيقية ظلت قائمة، لتجعل أي فصل حاد مستحيلاً. وفي الفترة من منتصف القرن حتى أواخره، ضمت المنطقة «الرمادية» بين ما هو ديني بشدة ودنيوي بشدة نسخاً أوركسترالية من الإنشاد تأثرت تأثراً قوياً بتراث الأغنية الحضرية، إلا أنه كان يؤديها المشايخ، وكذلك أغاني دينية يؤديها مطربون ليس معترفاً بهم كمشايخ.

وفي مجال الإنشاد، قد تفرق مصر بين الأنواع تبعاً للمؤدي، وأسلوب الأداء، والنص، والسياق. وقد يكون تعريف الأنواع تعريفاً دقيقاً أمراً إشكالياً. فلا وجود للتعريفات المتفق عليها بشأن مصطلحات الأنواع. غير أن هناك شبه اتفاق يمكن تمييزه، وإن تداخلت فئات الأنواع إلى حد ما. وأنواع الإنشاد الرئيسية التي نستعرضها في هذا المقال - وهي التواشيح الدينية والقصائد الدينية والمولد والابتهالات والقصة الدينية والذكر - صار لها جمهور عريض من خلال الأداء الحي أو الإنتاج الإعلامي، أو كليهما.

ملامح الإنشاد الديني المعيارية

في الوقت الذي يوجد فيه التواصل الذي يربط بين الإنشاد والغناء، فإن هناك كذلك معايير ومقاييس مشتركة تعود أصولها إلى التقاليد الإسلامية والمواقف الإسلامية من الأداء الموسيقي، وهي التقاليد والمواقف التي يحدد بها المصريون وضع المؤدين والأداء بناء عليها. وبينما لا يطبق كل المصريين نفس المعايير بنفس الطريقة، فإن هناك ميلاً مشتركاً في تقدير ما يمثل الأداء الديني بحق.

فالإنشاد الديني الحقيقي ينبغي تفسيره على أنه عمل من أعمال التقوى: وهي عبادة الله، أو التعبير عن الشعور الديني الحقيقي، أو دعوة الآخرين إلى الإسلام. والمتعة الجمالية المصاحبة لذلك مقبولة، ما لم تكن غاية في حد ذاتها. بل إنها قد تعتبر ميزة إذا أمكن للإنشاد بذلك أن يقضي على الرغبة في الموسيقى «الدنيوية». وبما أنه ينبغي على تجربة الإنشاد أن تكون دينية، فإن على ممارسات الإنشاد أن تحافظ على مسافة محسوسة بينها وبين الأغنية الدنيوية.

ولا بد أن يتم الإنشاد في سياق مقدس إلى حد مناسب، أي ليس ضمن شعيرة من الشعائر الإسلامية الجوهرية (حيث لا يقره التراث)، ولا في سياقات غير دينية (حيث قد يساء تأويله، أو يسخر منه، أو تكون له تداعيات منفرة). وفي إطار هذه الحدود، قد يؤدى الإنشاد في مناسبات دينية صريحة، أو مناسبات اجتماعية عامة. والاحتراف مقبول، شريطة أن يخدم المنشد الله والإسلام.

ولا بد أن يحتل النص مكانة رئيسية في أداء الإنشاد، لأهميته في ترسيخ المقصد والوظيفة والتجربة الدينية. لذلك فإن جودته ورسالته على قدر كبير من الأهمية. وأكثر الأفكار قبولاً هي تسبيح الله والدعاء والابتهال إليه؛ ومدح وغزل الرسول محمد وآل بيته؛ والتعبير عن التجربة الروحانية؛ وقصص الشخصيات الدينية؛ والمواعظ الموجهة للمستمعين. وفي بعض الأحيان قد يستخدم شعر غزلي غامض، وإن كان مثل هذا الشعر يراقَب لكونه إما شديد التصوف أو شديد الإباحية. وأكثر هذا الشعر شيوعاً الدعاء إلى الله ومدح الرسول. والشعر الديني غزير على امتداد التاريخ الإسلامي، ولم يكن يؤلفه فقط أشخاص معروف أنهم في المقام الأول أولياء ومتصوفة، يمثل هذا الشعر النمط الأساسي لتعبيرهم اللغوي، بل ألفه كذلك العديد من صحابة الرسول (مثل حسان بن ثابت، حوالي ٦٥٩ ميلادية)؛ وعلماء الدين (مثل الإمام الشافعي، الذي توفى سنة ٨٢٠ ميلادية)؛ وعلماء الأزهر (مثل الشيخ صالح الجعفري، الذي توفى سنة ١٩٧٨). وهذا الشعر كثيراً ما يؤدى كإنشاد. وعادة ما تفضل اللغة العربية الفصحى، لغة كتاب الله والتراث (وخاصة نوع القصائد)؛ ولكن الأشكال العامية (الموال والزجل) تستخدم كذلك من أجل الوصول إلى أعداد أكبر من الناس، وخاصة في المناطق الريفية.

ولأن النص مهم، فالصوت مهم كذلك. إذ يحول الأداء الصوتي المُلحِّن النص إلى أداء اجتماعي، وقد أثراه التعبير العاطفي الذي يكمل معناه. والصوت المفرد هو الأمثل من أجل وضوح النص وإظهار العاطفة، حيث يحظى النطق الواضح بتقدير شديد. ومع أنه لم توضع قواعد مقننة لأداء الإنشاد، فإن الكثير من مبادئ التجويد غالباً ما تطبق في الممارسة، لضمان الفهم واستحضار الجو المقدس لتلاوة القرآن؛ وعادة ما يكون المنشد على علم بهذه المبادئ نتيجة لتعليمه الديني.

ونظرت الشريعة الإسلامية بصورة عامة إلى الآلات الموسيقية نظرة توجس؛ ومن ثم فهي إما محدودة، أو ملغاة بالمرة، في معظم أنواع الإنشاد. وبعد الصوت المفرد، نجد أن التكوين الأكثر قبولاً هو الصوت المفرد مع البطانة. وأكثر الآلات الموسيقية المسموح بها هي الدف (حيث يشير الحديث إلى إقرار الرسول له) وغيره من آلات الإيقاع، وكذلك الناي أو الكَوَلة؛ وقد أصبح صوت الناي الحزين الذي يستخدم كثيراً في السياقات الصوفية رمزاً للشوق الروحاني. وتحظى الآلات الوترية التقليدية كالكمان والعود والقانون، وكذلك الآلات «الشعبية»، بقدر أكبر من الانتقاد، وإن كانت هذه الآلات مفضلة على الآلات الغربية والإلكترونية المستخدمة في الموسيقى الشعبية المعاصرة وترتبط بلا ريب بالسياقات غير التقليدية. وقد تستخدم الآلات منفردة، أو على هيئة تخت، أو (فيما بعد) فرقة موسيقية كبيرة (كفرقة الموسيقى العربية). والاستخدام المتنوع للآلات يكشف عن تواصل يربط الإنشاد بالغناء. وفي الاتجاه ناحية الغناء، وفي الإنشاد والأغاني الدينية، كثيراً ما يواجهنا ما أسميه «الصوت الديني»، وهي فرقة الطرب القياسية التي تبرز فيها آلات الإيقاع القوية (وخاصة الدف وما شابهه) والناي؛ وهناك كذلك الكورس كبير العدد ليقوم مقام البطانة، أو يمثل نظيراً للذكر الصوفي.

ويرى كثيرون أن الأسلوب الموسيقي المثالي هو الجاد والمبجل والتأملي؛ أما الأساليب والإيحاءات المرحة الخاصة بالموسيقى الترفيهية الدنيوية فتقابل بالنقد من جانب بعض الجهات. وعادة ما يوحي الإنشاد بالإحساس بما هو «أصيل» ثقافياً، بينما يتحاشى «تحديث» وتغريب الموسيقى التجارية المعاصرة. وبينما يحقق بعض الإنشاد هذه المهام عن طريق إدخال التراث



بسبب التعليم الديني والخبرة، يلقب المنشد بـ «الشيخ». وهو يتحاشى صفة «المطرب» مفضلاً عليها أن يعرفه الناس بالمنشد، أو بالصفات الأكثر تخصصاً (التي تختلف باختلاف نوع الإنشاد). ومسلكه وملبسه هما مسلك الشيخ وملبسه

فى مصـــر القـــرن العشـــرين

«الشعبى»، فإن الأسلوب اللحنى لكثير من الإنشاد تشكله أسس تلاوة القرآن والتراث القديم (وبذلك قد يكون من الصعب على من يسمعه لأول مرة التمييز بين التلاوة والابتهالات). ومن بين أبرز أمثلة الغناء العربى التى بين أيدينا تسجيلات للمنشدين العظام (مثل الشيخ إبراهيم الفران والشيخ طه الفشنى).

وكما هو الحال فى تلاوة القرآن، هناك تقدير للنطق المعقد الذى يجمل النص دون أن يغطى على معناه. وربما يكون البيت الملحن كثير التفاصيل والتنميق والزخارف ومعقداً فى استخدامه لتغيير السلم الموسيقى والقفلة. وغالباً ما يقدم بيت من الشعر أولاً لمجرد نقل المعنى، ثم يتبعه البيت الملحن. ويعد الارتجال اللحنى أمراً أساسياً لتحقيق قدر أكبر من المرونة والتعبير والتأثير العاطفى. وهناك تحاش للإيقاع السريع الذى يستحضر الحالة النفسية والسياقات الخاصة بالموسيقى الدنيوية فى معظم الأنواع. والغناء غير الموزون (الذى يشبه الأسلوب الإيقاعى لتلاوة القرآن) هو المفضل بسبب تداعياته التأملية وابتعاده عن معظم الموسيقى الترفيهية؛ وفيما عدا ذلك، كثيراً ما تقل أهمية الوزن من خلال استخدام الإيقاعات البطيئة، أو الوقفات، أو البحور المعقدة الطويلة (التى تستحضر التراث العربى الإسلامى الخاص بالموشحات القديمة). وتقبل البحور القصيرة الأكثر انتظاماً بشكل أساسى لمصاحبة الذكر الصوفى، وإن لم ينج هذا من انتقاد المحافظين. وكما هو الحال فى الموسيقى العربية القديمة، وكذلك تلاوة القرآن، يوفر المستمعون التغذية الاسترجاعية الصوتية عقب إنهاء المنشد للعبارة، مستخدمين كلمات الإعجاب مثل «الله!» و«يا سلام!»



وتمتد نماذج الإنشاد المثالية إلى ما وراء الصوت والسياق، إلى الحالة الاجتماعية والعرض المرئى. وبسبب التعليم الدينى والخبرة، يلقب المنشد بـ«الشيخ». وهو يتحاشى صفة «المطرب» مفضلاً عليها أن يعرفه الناس بالمنشد، أو بالصفات الأكثر تخصصاً (التى تختلف باختلاف نوع الإنشاد). ومسلكه وملبسه هما مسلك الشيخ وملبسه. فالمنشد يرتدى الملابس العربية الإسلامية، وتشمل العمامة والشال والأردية فضفاضة (العباءة أو الجلباب أو القفطان أو الجبة)، وعادة ما يمسك فى يده بمسبحة، وهو بهذه الملابس يمكن تمييزه عن المقرئ أو الخطيب. وعلى النقيض من ذلك، يرتدى المطرب الملابس «الحديثة».

وفيما مضى، كانت نساء كثيرات ـ مثل الحاجة السويسية (فى القرن التاسع عشر) ـ يتفوقن فى الأداء العلنى للإنشاد وهن يرتدين ملابس عادية. إلا أن الاتجاهات الإحيائية الإسلامية فى القرن العشرين روجت لفكرة أن صوت المرأة عورة؛ ومن ثم فإن الصوت، شأنه شأن الجسد، لا بد أن يحجب عن الناس. ومع أن معظم المصريين لا يقرون موقف الحجب هذا، فقد تأصل باعتباره كراهية واسعة الانتشار لأداء النساء علناً فى إطار سياقات دينية، بينما كانت النتيجة المتناقضة هى أن على المغنيات أن يجدن فرصاً للأداء فى العالم الأكثر رفضاً والأقل احتشاماً الخاص بالترفيه التجارى والملاهى الليلية. والاستثناء الأساسى نجده فى القصص الدينية التى سنناقشها فيما سيلى.

الإنشـــاد المســـجل:

كان الإنشاد خلال القرن العشرين يسجل وينتج من أجل الاستهلاك كسلعة إعلامية، على الأسطوانات أولاً، ثم على أشرطة الكاسيت فيما بعد. وهذه التسجيلات باعتبارها تجارية، كانت فى كثير من الأحيان تسجل فى الاستوديو، وكانت مقتطعة من السياقات المعتادة التى تعرف الأداء بأنه «إنشاد». والمنتجون لا يؤكدون أن التسجيل إنشاد بتقديم الأصوات والنصوص المناسبة وحسب، بل كذلك عن طريق التكوين الرمزى الدقيق على غلاف الشريط. فالمنشد، الذى يُعَرَّف بأنه «الشيخ» فلان، يصور فى وضع محتشم، وهو يرتدى ملابس المشايخ، وغالباً ما تكون الصورة مركبة على لوحة فنية تتزاحم فيها الرموز الدينية كالصور الفوتوغرافية للأماكن المقدسة والمساجد والمآذن والأهلة والنقوش العربية.

وفى الغالب كان الإنشاد يسجل من أجل استهلاك المصريين أنفسهم، لا من أجل جمهور الدارسين أو جمهور الموسيقى العالمية فى الغرب؛ فهذه الأشرطة صناعات مادية خاصة بالثقافة المصرية. وعند الاستماع إلى هذا الإنشاد المسلع، يعيش المرء مع عناصر صوتية من عالم مصر. ومع ذلك لا بد أن يعى المستمع أن اعتبارات التسويق، والإمكانيات التى تقدمها الاستوديوهات وتكنولوجيا التسجيل، والرقابة الحكومية، قد تجعل هذا الإنشاد مختلفاً بعض الشىء عن النسخة الحية المقابلة له ـ إن كان لهذه النسخة وجود أصلاً. وهناك أنواع بكاملها من الإنشاد (أبرزها التواشيح الدينية) متوفرة على كاسيتات، ولكنها لم تعد تؤدى حية. وعلى العكس من ذلك، فإن منتجات صناعة «الموسيقى العالمية»، وإن كانت بقدر أعلى من الدقة فى نقل الأصوات ومتحررة من القيود الحكومية المصرية، فهى تُختار وتُعدل بحيث تناسب الأذواق المفترضة فى سوق الموسيقى العالمية الغربية. وهذه التسجيلات قد تحاول تمثيل الثقافة المصرية، ولكنها ليست جزءاً منها.

التـــراث القـــديـــم

حتى بداية القرن العشرين، كان الأداء الدينى والطرب متداخلين فى الغالب الأعم، وكانا يشكلان معاً ما يسمى الآن بالتراث القديم. وكان التعليم يبدأ فى الكُتَّاب، حيث كان التلاميذ يتعلمون تلاوة القرآن ويحصلون على معرفة أساسية باللغة العربية الفصحى والأدب العربى الفصيح. وكان ذلك التعليم هو أساس تدريب كل المغنين تقريباً؛ وكثير منهم بدأ بغناء التراث الغنائى الدينى، ومن ثم كانوا يعتبرون «من المشايخ».

وبناء على ذلك كان الإنشاد والغناء قريبين من بعضهما فى كثير من الأحيان، وكان الواحد منهما لا يميز عن الآخر فى كثير من الأحيان، فى تلك الفترة. فلا نكاد نميز شعر الغزل العفيف (الموشحات والقصائد) عن الشعر الروحانى، وخاصة شعر الطرق الصوفية. وكان المجتمع الذى يغلب عليه التدين يفضل أداء الشعر الروحانى، ليس فقط فى مناسبات دينية بعينها (مثل ليالى رمضان أو العيدين أو المولد النبوى)، بل كذلك فى المناسبات الاجتماعية الاحتفالية كالأعراس. وعلى العكس من ذلك، كان الغزل الدنيوى السامى «يستعار» من أجل الاستخدام الروحانى، وكذلك التوزيع الموسيقى الدنيوى. كما كانت الأساليب الموسيقية قريبة من بعضها كذلك. وكما هو الحال بالنسبة للمنشد، كان المطرب يصاحبه كورس (يسمى المذهبجية)، وكثيراً ما كان ينادى بالشيخ. وكانت العادة أن تتضمن ذخيرة المطرب الغنائية أغانى دينية صرفة وقصائد غزل عفيف، وكان يمزجهما فى عرض واحد.

وأكثر أنواع الإنشاد تسجيلاً فى أوائل القرن العشرين هى التواشيح الدينية والقصائد الدينية. وفى التواشيح كان الأداء يتم بالتناوب فى تضاد صوتى بين المنشد الرئيسى باعتباره المنشد المنفرد، بأسلوب مزخرف ارتجالى غير موزون (وهذا الجزء يسمى أحياناً ابتهالات)، والكورس، مستخدماً ألحاناً معقدة مؤلفة من قبل فى إطار شبه موزون. ويمكن للمنشد المنفرد كذلك أداء قصيدة كاملة بالفصحى بالأسلوب المنفرد؛ وهذا النوع يسمى عامة بالقصيدة الدينية (أو الابتهالات، عندما تكون الفكرة هى الدعاء والرجاء). وقد يضاف لأى من النوعين مصاحبة آلية خفيفة.

وليس من قبيل الصدفة أن بعض النماذج الحسنة من التراث



القديم، وإن كانت قليلة نسبية، قد سجلت، لأن ظهور صناعة الموسيقى كان فى بداية القرن العشرين، فى أعقاب تطور البنية التحتية التكنولوجية والاقتصادية اللازمة، حيث حفظت هذه الأنواع وحددت المسار الحتمى لتدهورها فى العقود التالية. ومن بين أعظم المؤدين الذين سجلت أعمالهم الشيخ يوسف المنيلاوى، والشيخ درويش الحريرى، والشيخ أبو العلا محمد، والشيخ على محمود، والشيخ محرز سليمان، والشيخ إبراهيم الفران.

التواشيح الدينية المتأخرة:

استمر أداء التواشيح الصوتية الخالصة (ومنها الابتهالات والقصائد الدينية) حتى منتصف القرن العشرين، وإن ازداد انفصالها عن التيار العام للطرب. فقد كان الطرب موجهاً فى المقام الأول نحو الترفيه الدنيوى، وتخلى شيئاً فشيئاً عن التواشيح باعتبارها «أساساً تدريبياً» للمطربين الجدد، وخاصة مع انتشار المدارس الدنيوية، واختفاء الكُتّاب بعد ذلك. وفى الوقت نفسه، قلت شعبية التواشيح الجادة كترفيه للمناسبات الاجتماعية. ونتيجة لذلك صارت التواشيح فى نهاية الأمر تعد دينية بحتة، دون أن يكون لها أى دور شعائرى مهم؛ ولم يكن المؤدون مثل الشيخ طه الفشنى يغنون موسيقى الطرب، كالجيل السابق من المشايخ. وعندما لم تحظ التواشيح بدعم المناسبات الاجتماعية ولا صناعة الموسيقى المزدهرة، ولا الشعائر الإسلامية، تدهورت تدهوراً حاداً خلال الربع الأول من القرن العشرين. واليوم قد تسمع التسجيلات فى الإذاعة، وخاصة فى المناسبات الدينية، إلا أن التواشيح نادراً ما تؤدى أداء حياً؛ وتستمر القصائد الدينية كابتهالات شعائرية (كما سيأتى فيما يلى)، وفى سياقات صوفية. وغالباً ما يعتبر الذواقة الشيخ طه الفشنى أعظم من تخصص فى التواشيح فى القرن العشرين؛ إذ إن صوته مذهل. ومن التسجيلات الشهيرة الأخرى، تلك الخاصة بالشيخ محمد الفيومى، والشيخ نصر الدين طوبار. وهذه التسجيلات، التى تعتبر الآن نخبوية وتعبيرا سائدا عن الشعور الإسلامى، هى فى واقع الأمر جزء من تراث كان يمارس فى يوم من الأيام على كل المستويات الاجتماعية (وما زال يروق لها)، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث الصوفى، وكذلك بجذور الموسيقى العربية الدنيوية المعاصرة. وتنطبق الملاحظات ذاتها على الابتهالات الشعائرية (كما هو مذكور فيما سيلى).

المولد النبوى:
إنشاد الموالد

المولد النبوى (أو المولد وحسب) هو حدث (مولد الرسول فى ١٢ ربيع الأول)، ونوع من أنواع النصوص، ونوع من الإنشاد. فمن الناحية النصية، يمدح المولد الرسول محمد وهو يروى سيرته، شعراً ونثراً. وقد ألف الكثير من نصوص المولد اعتماداً فى المقام الأول على السيرة النبوية المنسوبة لابن اسحاق (المتوفى حوالى ٧٦٧) وقدمها ابن هشام (المتوفى سنة ٨٢٨ أو ٨٣٣). وفى مصر نجد أن هناك ثلاثة نصوص من هذه السيرة هى الأكثر شيوعاً: وهى نصوص جعفر بن حسان البرزنجى المدنى (المتوفى سنة ١٧٦٥) وعبد الرءوف المناوى القاهرى (المتوفى سنة ١٦٢١) وشرف الدين البوصيرى، الذى نشأ فى البوصير والقاهرة (توفى سنة ١٢٩٨ بالإسكندرية). كما ألف الكثير من مشايخ الصوفية الموالد لاستخدامها فى طرقهم.

ويشيع الأداء الملحن لنصوص الموالد بصورة خاصة خلال شهر المولد النبوى. وقد يتضمن أداء الموالد أجزاء من التلاوة والغناء، باستخدام شكلى التواشيح والقصائد الدينية. ومن أمثلة ذلك الشيخ على محمود والشيخ إبراهيم الفران والشيخ طه الفشنى. وفى سنة ١٩٨١ دعيت مجموعة صغيرة من المنشدين من الطريقة الحامدية الشاذلية لأداء مادتهم الشعائرية فى باريس فى المهرجان الثامن للفنون التقليدية، بقيادة المنشد الشيخ محمد الهلباوى؛ وقد سجلت مواد عديدة وطرحت لسوق «الموسيقى العالمية». والفقرة ٣ من الحامدية الشاذلية ١ عبارة عن نص مولد لشيخ الطريقة، وهو أداء مولد نمطى فى الطرق الصوفية. والمنشد المنفرد هو السائد، مع جواب كورالى من حين لآخر من بقية المجموعة. ويمكن سماع أداء مولد آخر للشيخ الهلباوى بمصاحبة بطانة مختلفة على الحامدية الشاذلية ٢، الفقرة ٩.



وتتلى قصيدة البردة الشهيرة للبوصيرى فى أنحاء العالم الإسلامى. وعادة ما تحسن القصيدة بإدخال مدح الرسول والصلوات عليه، وكثيراً ما يكون ذلك بدمج أبيات شعرية إضافية مقابلة للأبيات الأصلية (التشطير). وفى مصر نجد أن أشهر المفسرين هو الشيخ عبد العظيم العطوانى الذى سجل القصيدة كلها (باستخدام نص تشطير موسع) على سلسلة من أشرطة الكاسيت، كمنشد منفرد مع قرارات كورالية. ولكن رغم شعبية أداء المولد المستمرة فى الصعيد وفى بعض الطرق الصوفية التى تستخدمه شعائرياً، فقد تدهور بصورة عامة فى النصف الثانى من القرن العشرين.

والمنشد المحترف المتخصص فى مولد النبى يسمى فى بعض الأحيان المولدى، ولكن هذا المصطلح ينطبق كذلك على طبقة عريضة من المؤدين. ويؤدى المولدى التواشيح الدينية بمصاحبة الكورال وآلات الإيقاع، وهى فى العادة الرق والدف والبازة والنقرزان والكاس؛ وكثيراً ما يعزف المولدى نفسه على الدف أو ينقر على عصا بالمسبحة. ولأنه يغنى فى المقام الأول مديحاً للرسول محمد، وخاصة مولد النبى وقصص المديح الإعجازية عن غيره من الأنبياء، فهو يسمى كذلك المداح. ويقدم المولدى عروضه فى العديد من الاحتفالات الشعبية - فى مولد النبى وموالد الأولياء، وكذلك فى المناسبات الاجتماعية كالأعراس. وربما كان أشهر مولدى فى الذاكرة القريبة هو محمد الشبيطى (المتوفى سنة ١٩٧٦). ومع أن هذا الأسلوب من الإنشاد حلت محله إلى حد كبير القصص والذكر على مدى العشرين سنة الأخيرة، فإننا مع ذلك قد نسمع نماذج من هذا النمط فى مصر (مثل باريان ١)، وكذلك أسطوانة «الموسيقى العالمية» المدمجة فى فرنسا (باريان ٢).

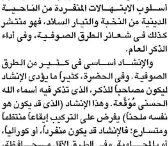
وليس من السهل تصنيف المولد والموالدى دينياً أو اجتماعياً. فأهمية الرسول تجعل المولد عزيزاً على الكثير من الطرق والتجمعات الصوفية، إلا أن هذا النوع مقبول فى دائرة ديموجرافية تتعدى الطرق الصوفية بكثير، وتشمل أفراد كل الطبقات الاجتماعية؛ وكان يستخدم فيما مضى على الأقل للترفيه. ومن الناحية الصوتية يرتبط الأداء بالتراث القديم، ومن ثم بالموسيقى العربية بصفة عامة.

الإنشاد الشعائرى:
الابتهالات والحضرة الصوفية

بينما كان الكثير من الإنشاد يستخدم فى سياقات اجتماعية عديدة، فإن هناك نوعين فى الوقت الراهن يتسمان إلى حد كبير بالشعائرية، وهما الابتهالات وإنشاد الطرق الصوفية.

والابتهالات تؤدى أداء منفرداً، بدون مصاحبة، وبلا أوزان، وهى ارتجالية؛ وتعتبر شكلاً من أشكال الدعاء. وبما أن الابتهالات من ناحية الأداء أقرب أنواع الإنشاد إلى الأذان والتلاوة، فهى أقلها احتمالاً لأن تتهم بأنها «موسيقى»، ولذلك ازدهرت حتى فى فترة النزعة المحافظة الإسلامية. وإلى جانب الشعر الدينى الذى يشمل الابتهالات إلى الله، تتضمن النصوص المديح، وكذلك الابتهالات النثرية التقليدية والصلاة على النبى؛ بل قد يمكن تسمية العرض كله بأنه أدعيا. ويرتدى المبتهل نفس ملابس المقرئ؛ وهو فى العادة مقرئ.

ومع أن الابتهالات الصرفة لم تكن شائعة كترفيه، فهى تحتل مكانة رئيسية فى الممارسة الإسلامية فى مصر: فغالباً ما تكون صلاة الفجر مسبوقة بالابتهالات، حيث يختم المبتهل أداءه بالأذان. وهذا الأداء تذيعه الإذاعة يومياً من أحد مساجد القاهرة الكبيرة. وفى المساجد الأخرى التى لا يتوفر فيها مبتهل، قد يذاع هذا البث من خلال مكبرات الصوت بالمسجد. وكذلك تسبق الابتهالات الصلاة فى رمضان. وعادة ما تتضمن أشرطة التواشيح أجزاء مطولة منفردة تسمى «ابتهالات»، إلا أن تسجيلات الأداء الشعائرى نفسه نادرة؛ ولنستمع إلى الشيخ محمد عمران والشيخ نصر الدين طوبار. وقد يدير زوار القاهرة مؤشر الراديو قبل صلاة الفجر لسماع مبتهل معاصر شهير، كالشيخ محمد الهلباوى أو الشيخ سعيد حافظ. وربما تسمع ابتهالات الشيخ الهلباوى كذلك فى الحامدية الشاذلية ٢، الفقرتان ٣ و٨، ونوع الابتهالات قريب من الغناء الدنيوى فى التراث القديم، وخاصة أداء القصائد (التى لا يزال يؤديها فى الوقت الراهن الفنانون التراثيون مثل صباح فخرى من سوريا). وبينما يعتبر أسلوب الابتهالات المنفردة من الناحية الدينية من النخبة والتيار السائد، فهو منتشر كذلك فى شعائر الطرق الصوفية، وفى أداء الذكر العام.



والإنشاد أساسى فى كثير من الطرق الصوفية. وفى الحضرة، كثيراً ما يؤدى الإنشاد ليكون مصاحباً للذكر، الذى تذكر فيه أسماء الله الحسنى مُوَقَّعة. وهذا الإنشاد (الذى قد يكون هو نفسه ملحناً) يفرض على التركيب إيقاعاً منتظماً ومتسارع؛ فالإنشاد قد يكون منفرداً، أو كورالياً، أو بالمجاوبة. وفى الطرق الأقل محافظة، تستخدم الآلات الموسيقية فى بعض الأحيان. وقد يؤدى الإنشاد المنفرد أو الكورالى بدون الذكر. ويشبه الإنشاد المنفرد الابتهالات. ومع أن المديح والدعاء موضوعان أساسيان على الدوام، فإن إنشاد أية طريقة صوفية يمكن تمييزه عادة باستخدام بعض النصوص الإيمانية الموجهة إلى الأولياء والمشايخ المهمين للطريقة، بينما تأتى النصوص من تراث التواشيح والابتهالات والمديح العام. وبينما يسجل الإنشاد الآخر محترفون، فإن منشدى الطرق الصوفية من الهواة. ورغم وصف الطرق الصوفية فى مصر فى كثير من الأحيان بأنها هامشية أو من الطبقات الدنيا، فهى تضم أعضاء من كل الطبقات السوسيواقتصادية؛ وكان إجمالى عدد الأعضاء فى عام ١٩٨٥ يقدر بثلاثة ملايين.

وشعائر الطرق الصوفية لا تحظى باهتمام عام فى مصر، ونادراً ما يكون لمنشديها طموحات مهنية كى يمثلوا الطريقة لدى الجمهور الأعرض. ونتيجة لذلك لا ينتج أحد تسجيلات تجارية لشعائر الطريقة (وإن كانت بعض الطرق تنتج تسجيلات للاستهلاك المحلى فقط). وسجلت بعض المقتطفات القصيرة من الذكر الموسيقى الخاصة بالطريقة الليثية (اختفت) التى تمثل الشيخ أحمد البساتينى أثناء مؤتمر الموسيقى العربية سنة ١٩٣٢ بالقاهرة؛ وهناك عينات منها متوفرة على أسطوانة مدمجة من إصدار CDEJ بعنوان Musique Arabe. ويمثل عرضان فى باريس لحضرة الحامدية الشاذلية (الحامدية الشاذلية ١، الفقرة ١؛ والحامدية الشاذلية ٢، الفقرة ٥) عينتين نادرتين وقيمتين لشعائر هذه الطريقة لا تختلفان عن العروض التى تقدم فى مصر، وإن كانتا أقل حماساً.

الإنشاد الأوركسترالى

مع تدهور الدور الاجتماعى للإنشاد، شجع نجاح الموسيقى العربية التجارية، القائم على الفرقة العربية كوسيلة آلاتية، بعض المنشدين

فى سنة ١٩٨١ دعيت مجموعة صغيرة من المنشدين من الطريقة الحامدية الشاذلية لأداء مادتهم الشعائرية فى باريس فى المهرجان الثامن للفنون التقليدية، بقيادة المنشد الشيخ محمد الهلباوى؛ وقد سجلت مواد عديدة وطرحت لسوق «الموسيقى العالمية»



على مقاومة تردد التراث الإسلامي في السماح بالآلات الموسيقية في الممارسة الدينية، وسجلوا مع فرق موسيقية أشبه بتلك التي يستخدمها المطربون الشعبيون في أيامهم، كوسيلة لجذب جمهور أعرض. إلا أنه لكي تضفي هذه الفرق جواً إسلامياً، أبرزت «الصوت الديني»، من خلال رمز أو أكثر من الرموز الموسيقية التي تستحضر الإسلام والروحانية (وتقابله أصوات موسيقى الطرب الدنيوي المعتادة): قسم الدفوف القوية، والأوزان الأطول، والإيقاعات الأبطأ، والاستخدام السخي للناي. وعادة ما يضاف كورس رجالي (وأحيانا نسائي) كبير ليكون مشابهاً للبطانة. وفي هذا السياق الجديد، يحافظ على جرس صوت المنشد وأسلوبه. كما أن هناك مساحة للارتجال الصوتي، في إطار شكل شديد الأوركسترالية والترتيب.

وهذا الإنشاد يمكن تسميته تواشيح أو ابتهالات أو مولد أو أدعية، ولكن لا بد من تمييزه بدقة عن العروض الصوتية الأصلية لهذه الأنواع. ففي الوقت الراهن، كثيراً ما نسمع الإنشاد الأوركسترالي في وسائل الإعلام، كخلفية موسيقية للبرامج الدينية والمسلسلات في الإذاعة والتلفزيون. وتشمل النماذج التي أنتجتها شركة صوت القاهرة الشيخ محمد عمران، والشيخ سعيد حافظ، والشيخ طه الفشني، والشيخ محمد الفيومي، والشيخ سيد النقشبندي، والشيخ نصر الدين طوبار. وتؤدي فرقة الإنشاد الديني التي ترعاها الدولة (تأسست سنة ١٩٧٤) عروضها كذلك بهذا الأسلوب؛ وتسجيلاتها متوفرة في دار الأوبرا بالقاهرة.

ويبين الإنشاد الأوركسترالي وضعاً يتفق مع التواصل من الإنشاد الصرف على الغناء العادي. ولكن رغم التنازلات التي قدمت للموسيقى العربية الحديثة، فإن هذا النوع معترف بأنه مميز عن الأغاني الدينية. ومهما كان تعقد الموسيقى المصاحبة للمنشد المنفرد في الإنشاد الأوركسترالي، فهو لا يزال شيخاً، ويعرف بالمنشد وليس المطرب، ويستخدم أسلوباً صوتياً بات مميزاً للإنشاد.

الإنشاد الشعبي: والذكر والقصص الدينية

تنظر المؤسسات الدينية الرسمية ووسائل الإعلام الخاضعة للحكومة إلى الابتهالات والقصائد والتواشيح على أنها أكثر أنواع الإنشاد قبولاً، لارتباطها بفن راق وتقاليد دينية خاصة بالتيار العام. وتقدم تسجيلات الإذاعة والتلفزيون لهذه الأنواع على أنها تعبير ديني حقيقي (وإن لم تكن مستساغة دائماً من أعضاء الجماعات الإحيائية الإسلامية). وتصنف الآراء الرسمية الصادرة عن نفس المؤسسات الإعلامية والدينية أنواع الإنشاد على أنها «شعبية» أو غير إسلامية، أو تصفها بالصفتين معاً. إلا أن هذه الحقيقة لا تحول دون شعبية الإنشاد «الشعبي» بين كل طبقات المصريين، وخاصة من ينتمون إلى إحدى الطرق الصوفية. وإضافة إلى ذلك، يمثل هذا الإنشاد التخت الذي تبقى من الموسيقى العربية، وكثيراً ما يتضمن مقتطفات لحنية مأخوذة من تراث الطرب الدنيوي في القرن العشرين (وخاصة أغاني الحب التي غنتها أم كلثوم).

والذكر والقصص الدينية شكلان رئيسيان من أشكال الإنشاد الشعبي في مصر حالياً. فهما في الوقت الراهن أكثر شيوعاً من الأنواع التي تدعمها وسائل الإعلام، وإن كان ذلك في المقام الأول في المناطق الريفية وبين الطبقات الدنيا والحرفيين وصغار التجار في المدن. وكل من الذكر والقصص الدينية يؤديها منشدون محترفون تساندهم الفرق الموسيقية. وأكثر العروض من حيث إبهارها وسهولة الوصول إليها تتم في موالد الأولياء، وفي احتفالات المولد النبوي. إلا أن الذكر والقصص عادة ما تؤدى كذلك في الأعراس وغيرها من المناسبات الاجتماعية. والعروض التي تقدم من خلال مكبرات الصوت عادة ما تقام في سرادقات كبيرة في الخلاء.

وأشرطة التسجيل الخاصة بهذه الأنواع لا تصدرها شركة صوت القاهرة الحكومية، وإنما المئات من شركات الإنتاج الصغيرة، التي يقع الكثير منها في الدلتا. ولا بد من البحث عن العروض والأشرطة في المدن الصغيرة والقرى وكذلك في الأحياء الشعبية بالمدن الكبيرة. وفيما عدا ظهور هذه الأنواع من حين لآخر في البرامج «الفلكلورية» (حيث تقدم كثقافة شعبية طريفة وليس كتعبير ديني خالص)، فهي غائبة في واقع الأمر عن الإذاعة والتلفزيون.

ذكر الحضرة العامة (المديح)

تجمع الحضرة العامة بين الذكر (الذي يؤدى بحركات على قدر كبير من الحماس من الانحناء أو التمايل)، والإنشاد، والموسيقى المصاحبة (الإيقاع إلى جانب آلة لحنية واحدة على الأقل؛ ويفضل أن تكون الكمان أو الناي). ومع أن هذه الحضرة تشبه طقساً قريباً منها يؤدى في الطرق الصوفية، فهي تتم في فضاء عام خارج سلطة أية طريقة منظمة. ومقارنة بحضرة الطريقة، فإن المنشد، وليس شيخ الطريقة، هو الذي يقودها؛ ويشمل العرض قدراً أكبر من الموسيقى، وذخيرة أكبر وأكثر جرأة من الشعر الصوفي، وحشداً أكبر من الناس. ومع أنه لا شك في أن الحضرة العامة تؤدي بإحساس ديني كبير، فإن الكثيرين يحضرون كذلك من باب الاهتمام الجمالي، أو من أجل الترفيه.

وتتمتع الحضرة العامة بشعبية كبيرة في الصعيد، ذلك أن أعظم نجوم موسيقى الذكر في العشرين سنة الأخيرة جاءوا من مصر الوسطى. ومن أشهر هؤلاء الشيخ ياسين التهامي، والشيخ أحمد التوني من أسيوط. وإلى الجنوب منها، في قنا، يتمتع الشيخ أمين الدشناوي بشعبية كبيرة، وخاصة بين أعضاء طريقته الصوفية، العصبة الهاشمية. وفي الدلتا يشتهر الشيخ محمد البلبيسي؛ ويقدم الشيخ رمضان عويس عروضه حول القاهرة (وكل يوم سبت في مقام سيدي على زين العابدين الواقع في حي المدبح).

وبينما يمكن تصنيف المشايخ مثل التهامي والتوني على أنهم «شعبيون»، فهم يتذوقون التعبير الصوفي الغامض المنجذب لعمر بن الفارض (المتوفى سنة ١٢٣٥) وعبد الرحيم البرعي (المتوفى سنة ١٠٥٨) وحسين بن منصور الحلاج (المتوفى سنة ٩٢٢) وغيرهم من الشعراء القدامى (فعلى سبيل المثال يعتمد التهامي ١ على قصيدة غزل صوفية لشاعر مصري معاصر هو الشيخ عبد العليم النخايلي؛ ويقوم التهامي ٢ في المقام الأول على قصيدة الخمر لابن الفارض). كما تغنى القصائد الصوفية العامية، وكثير منها على قدر من الصعوبة كذلك (مثل أبي الحسن الششتري) المتوفى سنة ١٢٦٩. (ويغني منشدو حضرة آخرون شعراً غامضاً (فصيحاً أو عامياً) يمدح الرسول وآل البيت والأولياء. ولهذا السبب قد يسمى منشد الذكر مداحاً، حيث تكون لديه ذخيرة أشبه بذخيرة الموالدي. ومن الناحية الموسيقية، قد تضم الحضرة العامة الابتهالات والتراث القديم الطرب الرفيع وأساليب الطرب الحديثة، وكذلك الموسيقى الريفية.

وفي الآونة الأخيرة بدأ الشيخ التهامي في تقديم عروض في أوروبا. وهناك اثنان من هذه العروض على أسطوانة مدمجة مزدوجة (ياسين ٤، وتشمل شعر ابن الفارض والحلاج)، وإن كانت التحذيرات المعتادة فيما يتعلق بالموسيقى التي تنتجها صناعة الموسيقى العالمية تنطبق على هذه التسجيلات عالية الجودة.

القصص الدينية

يؤدى القصص الدينية (التي تشمل الشعر العامي والنثر السردي) منشد (ويسمى غالباً الصييت في هذه الحالة، وتصاحبه فرقة أكبر من تلك المستخدمة في الذكر. والقصص أكثر انتشاراً من الذكر في الدلتا، بينما عكس ذلك هو الصحيح في الصعيد. ويؤدي بعض المنشدين كلاً من الذكر والقصص، بل إنهم يمزجون النوعين في عرض واحد. ويبدو أن هذا النوع الجديد نسبياً خرج من عباءة أكثر من تراث قديم تدهور على مدى الخمسين سنة الأخيرة: وهي الموالدي القديم (الذي كان يغني القصص الدينية الشرعية الخاصة بالأنبياء، مع البطانة والآلات الإيقاعية) والمداح القديم (الذي كان يغني أغاني دينية غير شرعية بالعامية، بينما يصاحب نفسه على الدف). ويجمع الصييت الحديث بين هذين التراثين مع فرقة موسيقية أكبر عدداً، حيث يدمج الأساليب الموسيقية الشعبية والحضرية، والآلات الموسيقية، والمقتطفات اللحنية. والصييت، بعمامته البيضاء والطاقية الحمراء والجلابية التي فصلت تفصيلاً حسناً قريب الشبه بالعالم أو الخطيب الأزهري، وهو يكتسب مكانة دينية من هذا التشابه. وغالباً ما تتم العروض من أجل موالد الأولياء والمولد النبوي، وكذلك الأعراس. ويرجع السبب لحد ما إلى قرب القصص من الموسيقى الدنيوية في كونها النوع المعاصر الوحيد من الإنشاد الذي تتمتع فيه المرأة بوجود كبير في الأداء، حيث تشارك كمغنية أولى؛ وهذه المغنية قد تسمى صييتة أو منشدة.



وهناك نوعان من القصة: القصة النبوية التي تروي المعجزات النبوية (وهي في العادة قصص خاصة بالنبي محمد)؛ والقصة الخيالية، وهي حكاية من نسج الخيال ولكنها تتضمن معنى أخلاقياً. ويستمتع الناس بالقصص باعتبارها ترفيهاً، ويكون الجو النفسي أخف من أنواع الإنشاد الأخرى، وخاصة في حالة «القصص الخيالية». ومع أنه لا يمكن إنكار الجانب الترفيهي في القصص، ورغم أن القصص الخيالية قد لا تكون دينية بشكل صريح، فإن الأداء يولد جواً دينياً مرجعه الحالة الدينية وصورة المنشد، والسياقات أو التوقعات الدينية، والدمج المتكرر لمديح النبي محمد بشكل فرعي.

وتنتج صناعة أشرطة الكاسيت المزدهرة التي تركزت في طنطا أعمال عشرات الفنانين؛ ومعظم الأشرطة تسجيلات داخل الاستوديو. ومع أن العروض الحية يمكن أن تكون أطول، فإن الحدود الفيزيقية لشريط الكاسيت، إلى جانب العوامل الاقتصادية، تحدد طول التسجيلات التجارية بخمس وأربعين دقيقة. ومن بين المؤدين الشعبيين في الدلتا الشيخ أحمد المجاهد والشيخ السعيد خميس والشيخ أشرف إبراهيم الطمادي. ومن بين المنشدات الشهيرات هنيات شعبان ووفاء (التي ظهرت في مشهد المولد من فيلم أم كلثوم: صوت يحب مصر).

الأغاني الدينية

إذا كان الإنشاد الأوركسترالي قد نشأ عن بحث المنشدين عن أسواق أوسع عن طريق إدخال فرقة الصوت الديني التي استعيرت من موسيقى الطرب الدنيوية، فإن عملية معاكسة تحدث كذلك. فرغم اتجاه صناعة الموسيقى المصرية في الغالب نحو الموسيقى غير الدينية، ففي بعض الأحيان قد يسجل أحد المطربين ذائعي الصيت، المعروف أساساً بأغانيه العاطفية، أغاني لحنت له (عادة بأسلوب الطرب الخاص بالتيار السائد) تقوم على نصوص

يمكن تصنيف المشايخ مثل التهامي والتوني على أنهم «شعبيون»، فهم يتذوقون التعبير الصوفي الغامض المنجذب لعمر بن الفارض (المتوفى سنة ١٢٢٥) وعبد الرحيم البرعي (المتوفى سنة ١٠٥٨) وحسين بن منصور الحلاج (المتوفى سنة ٩٢٢) وغيرهم من الشعراء القدامى





رياض الصالحين

باب فضل الدعاء بظهر الغيب:

قال اللَّه تعالى (الحشر ١٠): ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾.

وقال تعالى (محمد ١٩): ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾.

وقال تعالى (إبراهيم ٤١) إخباراً عن إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أنه سمع رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم يقول: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملَك: ولك بمثل» رَوَاهُ مُسلِمٌ.

وعن أبي هريرة رَضِي اللَّهُ عَنهُ أن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» رَوَاهُ مُسلِمٌ.

خاتمة المؤلف

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا اللَّه. اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك النبى الأمى، وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبى الأمى وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

قال مؤلفه: فرغت منه يوم الإثنين رابع عشر رمضان، سنة سبعين وستمائة.



دينية، دون أن يعطى هوية «المنشد» أو «الشيخ». وقد يحدث هذا من أجل الدراما ذات الموضوع الدينى (مثل أغانى أم كلثوم فى الفيلم الغنائى رابعة العدوية)، أو للإذاعة أثناء أحد الأعياد الدينية. وقد تصاحب الأغانى الدينية فرقة المغنى العادية، ولكن فى أكثر الأحيان يتم إبراز عنصر أو أكثر من عناصر «الصوت الدينى». وفى بعض الأحيان يرتدى المغنى بشكل مؤقت بعض العناصر من ملابس المنشد، التى تقربه من الصورة الدينية. ومثل هذا الإنتاج يساعد على تعزيز ما يحظى به المغنى من احترام، ويقوى الصلة الفنية بالتراث القديم، حتى ولو كان تعليمه الموسيقى بعيداً عن الموسيقى التقليدية.

ولذلك يمكن التمييز بين نوعين من أداء المطربين للأغانى الدينية. فالأول هو المطرب المعروف بأنه بدأ حياته الغنائية والموسيقية كشيخ فى التراث القديم. وأداء الأغانى الدينية الخاص بهذا المغنى ينظر إليه على أنه عودة مخلصة وصادقة للأصول. ومع أن أم كلثوم تركت عالم الإنشاد فى فترة مبكرة من حياتها الفنية، فقد كانت تفضل أداء الكثير من الأغانى الدينية بعد ذلك بوقت طويل. وكان العديد منها يمثل «الصوت الدينى»، ومنها «إلى عرفات الله» (١٩٥٥) و«نهج البردة» (١٩٤٦) و«ولد الهدى» (١٩٤٦) و«رباعيات الخيام» (١٩٤٩ـ١٩٥٠). والنموذج الآخر هو الشيخ سيد مكاوى الذى كثيراً ما تذاع سلسلة أغانيه «المسحراتى» (التى تعتمد على شعر فؤاد حداد) فى شهر رمضان. وبسبب التغيرات التى طرأت على التعليم الموسيقى من بداية القرن العشرين، فقد اختفى بالفعل فى الوقت الراهن المغنون الذين تمتد جذورهم إلى التراث القديم. ويضم النمط الثانى مطربين آخرين مثل عبد الحليم حافظ، وهو أحد أول المغنين العظام الذين تلقوا تعليماً موسيقياً حديثاً. ولأنه ظهر بشكل أساسى بعد ثورة ١٩٥٢، فقد نال شهرته بسبب أغانيه العاطفية والوطنية، ولكنه سجل كذلك مجموعة من الأغانى الدينية كى تذاع فى شهر رمضان. وبالمثل لم يتلق المطرب الشعبى محمد عبد المطلب تدريباً كشيخ؛ وقد أنتج هو الآخر ألبوماً دينياً. وسجل رياض السنباطى، الذى تلقى تعليماً محافظاً، أغنيته «إله الكون» تصاحبه فرقة «الصوت الدينى» والكورس، بالإضافة إلى تلحينه الكثير من الأغانى الدينية لأم كلثوم وغيرها. ونشر محمد الكحلاوى، الذى يظهر على شاشة التلفزيون فى هيئة المشايخ وتحيط به الرموز الإسلامية، الكثير من الأغانى الدينية البسيطة على الطريقة الشعبية. ومنذ فترة قريبة، سجل المطرب المحبوب على الحجار، الذى اشتهر فى المقام الأول بأغانيه الدنيوية، أغنية «صلينا الفجر فين» التى حظيت بقدر كبير من الاستحسان؛ وهو فى النسخة المصورة منها يرتدى الملابس الإسلامية.

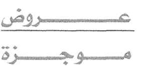
وحتى فى حال تلقى المغنى لقدر من التدريب فى التعلم والأداء الدينيين، فعادة ما لا تعتبر الأغانى الدينية كما يؤديها المطربون إنشاداً. ولأنها تكونت بالكامل تقريباً فى رحم الموسيقى العربية الدنيوية، فهى تفتقر إلى الجرس الصوتى، والأساليب اللحنية، والارتجال، والسياقات، ومقاصد الإنشاد الدينية. والأمر الأهم هو أنه يؤديها مغنون ليس (أو لم يعد) معترفاً بهم كمنشدين. إلا أن التشابه بين الإنشاد الأوركسترالى والأغانى الدينية يوضح التواصل الذى يربط التراثين الدينى والدنيوى، وصعوبة الفصل بين الاثنين فصلاً حاداً.

وبالإضافة إلى الأغانى الدينية الخاصة بالمطربين المحترفين، هناك نوعية كبيرة من الأغانى الدينية الشعبية الخاصة بالعديد من المناسبات (مثل رمضان والعيد والحج). وفيما مضى كان الهواة يغنونها للأصدقاء والعائلة والجيران. إلا أن التأثير الطاغى لوسائل الإعلام، وخاصة اختراق الإذاعة والتلفزيون لأصغر القرى، قد طال أداء الهواة للأغانى الدينية وحل محله (بل إنه فى واقع الأمر قضى قضاء مبرماً تقريباً على كل الممارسات الموسيقية الشعبية ما قبل الحديثة)، بينما حفظ بعض أصواتها ونصوصها باعتبارها «فلكلوراً» فى إطار الإنتاج الإعلامى. والآن إذا حدث أن غنت الأسرة والجيران للحج، فإنهم قد يختارون أغنية أحد الأفلام شبه الشعبية ـ التى تحتفى بالزيارة المرتقبة لقبر الرسول ـ وغنتها أول مرة المغنية والممثلة الدنيوية ليلى مراد (وكانت قد تحولت إلى الإسلام من اليهودية): «يا رايحين للنبى الغالى».



وفى النهاية نجد أن قيمة البحث الإثنوموسيقى تقوم على حقيقة أن الممارسة الموسيقية تعكس حياة اجتماعية أعرض، وبالتالى تكشفها. ودراسة الموسيقى فى الثقافة ليست غاية فى حد ذاتها: بل هى أداة لفهم الثقافة والتاريخ والتجربة المعاشة الخاصة بكل منهما. والأبعاد العاطفية لمثل هذه التجربة، شديدة الأهمية بالنسبة للحياة الدينية، كثيراً ما يجرى توصيلها من خلال الصوت التعبيرى ـ فيما بين حاملى الثقافة، ومنهم إلى الباحث الإثنوموسيقى. وتساهم الدراسة التاريخية للإنشاد المصرى، بما فى ذلك أبعاده الموسيقية والدينية والاجتماعية المتغيرة، فى الفهم العام للتغير الدينى والاقتصادى والاجتماعى. والمقارنة المنهجية بين أنواع الإنشاد فى كل جوانبها (بما فى ذلك الشعر والموسيقى وسياقات الأداء) تكشف الكثير من المواقع التى تشغل الفضاء الواقع بين ما هو دنيوى صرف وما هو دينى صرف، مبينة تواصلاً عريضاً من الظلال «الصوفية» و«السلفية»، والتجاورات العديدة للتقاليد الموسيقية الريفية والحضرية، والانتماءات متعددة الطبقات. وتبين هذه الدراسة أن التقسيم السطحى إلى فئات، مثل «دينى» و«دنيوى» و«صوفى» و«سلفى» و«شعبى» و«نخبوى»، الذى كثيراً ما يؤخذ به كأمر مسلم به، لا بد من التعامل معه بمهارة، وكفاءة حريصة، وحرص نقدى. ■

ترجمة: أحمد محمود



كتب عربية

عالم بلا سيادة
الدول بين المراوغة والمسئولية

برتران بادى

ترجمة: لطيف فرج

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١، ٣٠٠ صفحة



منذ البداية كانت السيادة محاصرة، فى العصور الوسطى، كان مبدأ الحرب العادلة يمثل قوة ضاغطة تفرض ذاتها على سيادات الدول، وحين انتعشت مبادئ حقوق الإنسان منذ قرن مضى، ونما الوعى العام بالمسئولية الجماعية تجاه البشرية ومصير الإنسان، وتكاثفت المجموعات الدولية لمواجهة مخاطر فساد البيئة وزيادة السكان وانخفاض معدلات التنمية الاقتصادية وافتقاد الأمن، وظهر حق «التدخل الدولى» الذى بدا مبدأ منصفًا وعادلاً ومفيدًا من الناحية النظرية، لكن فى التطبيق كان البون شاسعًا، إذ تسارع الدول الكبرى إلى تفعيله حين تمس الأزمة مصالحها (حالة حرب الخليج الثانية نموذجًا)، لكنها تغض الطرف حين يبدو الأمر عراكًا، عليها أن تنأى بنفسها كى يجهز أطرافه على بعضهم البعض كما جرى فى منطقة البحيرات الكبرى فى أفريقيا، أو هى تتدخل تحت لافتة إنسانية ودولية لتحقيق أهداف أبعد كما جرى قبلاً فى الصومال.

باختصار، كيفية هذا التدخل لتحقيق شرعية دولية وتأكيد مبدأ العمل الجماعى مازالت غامضة، خصوصًا أن هذا التدخل لا يتم دائمًا تحت مظلة الأمم المتحدة، وإنما بمبادرات من زعيمة العالم «أمريكا» التى تقرر ما ستفعل، ثم يكون على الأمم المتحدة أن تمنح قرار أمريكا الشرعية المطلوبة.

المؤلف يشير فى موضع آخر إلى أن الأمم المتحدة لم تعد سوى وعاء لعقد الصفقات بين الدول الكبرى، والنتيجة: أن ما يعقد من اتفاقات بين الأطراف المتنازعة لا يحقق سيادات، وإنما يقيم تعايشًا مزعزعًا بين «جيتوات»، وهو ما يسميه «دبلوماسية الجيتو».

إن شرعية السيادة كما يقول المؤلف تنازعها شرعيتان أخريان: شرعية السوق التى تعلى من قيم النفعية والانفتاح، وشرعية المرتكزات الثقافية التى تعلى من شأن الهوية، والعولمة تزعم أنها مع الاثنتين: مع قيم السوق ودواعى الخصوصية.

وعبر دراسة تاريخية عميقة فى القسم الأول من الكتاب، يخلص المؤلف إلى أن السيادة فى عالم اليوم لم تعد سوى وهم كبير تبحث عنه الدول الضعيفة وهى غير قادرة على تحقيق سيادتها دون حماية الدول الكبرى التى تمنحها قوة، والدول الكبرى لن تفعل إلا إذا كان ذلك محققًا لمصالحها.

لكن ثمة ضوءا فى نهاية النفق يلمحه المؤلف فى الفعالية النشطة التى تبديها المنظمات غير الحكومية فى قضايا عديدة وفى مناطق مختلفة من العالم. وهذا الدور الذى ينطوى على إمكانات تحقيق مجتمع مدنى عالمى وإن كان يساعد الدول الصغرى على تجاوز محنتها، فإنه يعرض هويتها للمسخ، إذ الفاعلين هنا من خارجها.

□ □ □

الطيب صالح.. دراسات نقدية

حسن أبشر الطيب

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١، ٤٣٠ صفحة



قياسًا على إنتاجه الأدبى القليل - ولكن شديد التميز - فإنه يمكن القول إن ما كتب من دراسات نقدية عن أدب الطيب صالح ربما تتجاوز صفحاته ما كتبه الطيب نفسه.

فأولى ميزات الطيب صالح إلى جانب تواضعه وأريحيته وخفة ظله، أنه كاتب مقل، لكن أحدًا لا ينسى وربما بعضنا يحفظ مقاطع كاملة عن «موسم الهجرة إلى الشمال» و«دومة ود حامد» و«عرس الزين» و«مريود» و«ضو البيت»، وهى من الأعمال الفارقة ليس فى أدب الطيب وحده، وإنما فى مسيرة الأدب العربى كله.

هذا الكتاب يضم أكثر من ٢٠ دراسة نقدية ونص إنسانى عن الطيب صالح وأعماله، وهذه عينة من الأسماء المشاركة: محمد بن عيسى، بلند الحيدرى، عثمان وقيع الله، محمود إبراهيم الشوش، روجر ألن، رجاء النقاش، أحمد عبد المعطى حجازى، محمد خير عثمان، محمد المكى إبراهيم، وقد جمعت هذه المقالات بمناسبة بلوغ الطيب السبعين، احتفاءً من أصدقائه به وليس بوسعنا هنا أن نشير إلى ما تضمنته هذه الدراسات التى تناول بعضها شاعرية أسلوب الطيب صالح، وبعضها تأثره بالموروث الصوفى أو بالفلكلور الشعبى السودانى أو بالتراث العربى والشعرى أو تأثير الغربة والاغتراب على نصوصه الإبداعية.. إلخ.

ويلفت النظر فى الحوار الذى أجراه «بشير القمرى» مع الطيب صالح أن البطل الحقيقى فى أعماله هو المكان، وأن الشخصيات عنده واحدة لكنها تتغير تبعًا للنص، أما المكان فهو يتحول، والكتابة عنده انعكاسات واحتفالات بالمكان، وهو يؤكد أن الخصوصية وطعمها يأتيان من تأثير البيئة فى الكاتب والكتابة، والفلكلور «كخزان» ثقافى فنى جمالى تعبيرى (...) كمستودع لثقافة دينية أو لغوية».

الطيب صالح ظاهرة جديرة بالاهتمام فى الأدب بين العربى والعالمى، فإنتاجه - على قلته - شديد التميز والخصوصية، وقد قال عنه الناقد كمال أبو ريه فى حوار بالإذاعة البريطانية منشور نصه فى الكتاب: يكتب الطيب صالح القليل من الأعمال وفى الوقت نفسه يظل حاضرًا حيث إن أعماله تدرس فى الجامعات. ويقول عنه الدكتور صلاح فضل فى الحوار نفسه: الطيب صالح يكشف عن مبدع من الطراز الأول، لكنه مبدع مقل تنتشر أعماله لكى تملأ فراغًا فى خارطة الإبداع العربى، وهى على قلتها تمثل علامات نعود إليها كل فترة، لأن قراءتها تختلف من مرحلة إلى أخرى.

□ □ □

الاتحاد الأوروبى من التعاون الاقتصادى إلى السياسة الخارجية والأمنية المشتركة

مجموعة باحثين

تحرير: عماد جاد

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠١، ٢٢٤ صفحة



تقدم مسيرة العمل الأوروبى المشترك نموذجًا للتعاون الإقليمى المتدرج الذى يبدأ من القاعدة، حيث بدأت فى مجالات اقتصادية محدودة للغاية (فى الفحم والصلب فقط) وصولاً إلى السوق الأوروبية المشتركة وتوحيد العملية ووضع أسس خارجية وأمنية مشتركة.

والدراسات التى يضمها هذا الكتاب تتابع هذه المسيرة، ويبدأ بالموقف الأوروبى من «بلدان التحول الاقتصادى فى أوروبا الشرقية» عقب سقوط الكتلة الاشتراكية، ويتابع التعارضات التى حالت دون سرعة اندماج بلدان هذه الكتلة فى مسيرة العمل الأوروبى المشترك والتدفقات الرأسمالية الاستثمارية عليها وسياساتها المالية والنقدية وموقفها من الالتحاق بأوروبا الموحدة والشروط التى فرضتها أوروبا عليها كى تتمكن من تحقيق هذا الالتحاق ومنها ضرورة توافر مؤسسات مستقرة تحمى الديمقراطية وحكم القانون وحقوق الإنسان، وأن يعمل الاقتصاد وفقًا لآليات السوق وتوفر القدرة على التعامل مع ضغوط المنافسة وقوى السوق، وأخيرًا تحمل مسئوليات العضوية بما يعنيه ذلك من تقيد بالأهداف السياسية الاقتصادية والنقدية للاتحاد، وتقدم الدراسة عرضًا للتطورات الاقتصادية فى كل من (ستونيا وبولندا).

وتقدم الدراسة التالية الخبرة الأوروبية لاستيعاب دول شرق ووسط أوروبا وخصوصًا فى المجال الأمنى، وبعد استعراض لعديد من التجارب والمعاهدات التى احتواها هذا المجال، تلاحظ الدراسة أنه لم يوجد إطار متفق عليه لضبط علاقات التنسيق الناتجة عن اختلاط العضوية بين المنظمات المختلفة، وتحديد أولويات التدخل تجاه الأزمات فى مناطق مختلفة من العالم، كما تلاحظ الدراسة أنه تم التوسع فى المهام غير العسكرية للمؤسسات الأمنية واستحدثت مهام جديدة كما تم تفصيل مهام لم تكن مستخدمة أثناء الحرب الباردة.

وتناقش دراسة تالية المنهج الأوروبى فى التعامل مع مشكلات ما بعد الحرب الباردة، وتؤكد على الجهود الكبيرة التى بذلتها أوروبا بالتعاون مع الولايات المتحدة كى تقلص مخاطر السيناريوهات التى توقعها الخبراء للأوضاع الأوروبية فى أعقاب انتهاء الحرب الباردة خصوصًا مع انهيار دول الكتلة الاشتراكية، حيث نجحت أوروبا فى تطوير هياكل صنع القرار والتعامل بدرجة عالية ضد الشفافية والإحساس بالمسئولية مع المشكلات التى واجهتها.

وتتناول الدراستان الأخيرتان استراتيجيات مواجهة الصراعات المتفجرة التى اتبعتها دول الاتحاد الأوروبى والسياسة الخارجية الأمنية المشتركة، فتشير إلى أنه على مدى العقد الأخير واجهت الجماعة الأوروبية عديد من المشكلات الناجمة عن تفكك الكتلة الشرقية، وقد نجحت فى التعامل مع بعضها وعجزت عن تسوية البعض الآخر لتصل الأمور إلى نقطة الانفجار، وحين تصل الأمور إلى هذه النقطة، فإن تدخل الولايات المتحدة يكون هو الحل كما جرى فى البوسنة وكوسوفو وأيرلندا، وتشير إلى أن تشكيل الاتحاد الأوروبى لسياسة خارجية وأمنية مشتركة إنما جاء فى

عــــــروض مــــوجــــزة

سياق التطور الطبيعى لآليات العمل الأوروبى المشترك.

□ □ □

حوار مع أدونيس

صقر أبو فخر

عمان: بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٠، ٢٠٢ صفحة



يتضمن الكتاب حوارات مطولة أجراها المؤلف مع الشاعر الكبير «أدونيس»، الذى ينظر إليه اليوم بوصفه زعيم الحداثيين العرب من الشعراء على وجه الخصوص، إذ يقدر أن شاعرًا حداثيًا معاصرًا افلت من تأثيره بالفكرة أو بالعبارة. أدونيس الذى ولد فى سورية وذاعت تجربته الشعرية فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات مطلقًا شرارة الحداثة المعاصرة فى الشعر العربى، تأثر فى تجربته الشعرية بخمسة مصادر هى الشعر العربى الكلاسيكى وخاصة المتنبى وأبو نواس وأبو العلاء المعرى، والكتابة الصوفية والفكر اليونانى والفيلسوف الألمانى نيتشه بما يمثله من غضب وتمرد، وأخيرًا التفكير العلمى بمنهجيته المعروفة.

يسأله المؤلف عن استجابات الطفولة وحنينه إلى الأماكن الأولى وخصوصًا قرية قصّابين التى ولد فيها فى الشمال السورى فيجيب بأن حنانه للطفولة له وجهان، أحدهما حنين من لم يعش طفولته قط، إذ كان عليه أن يعمل فى الحقل ويمارس حياته كالكبار وهو فى هذه السن الصغيرة. أما الوجه الثانى فهو فقدان الطفولة إلى الأبد. ويفاجئنا أدونيس الذى يتزعم الحداثة اليوم بأنه لم ير راديو أو سيارة قبل سن الثالثة عشرة.

واختار أدونيس أن يخرج من سورية ليعيش فى بيروت، وسنلاحظ على مدى الحوارات أن أدونيس الذى اختار لنفسه اسمه الثانى «على» اختار كذلك بيروت وطنًا ثانيًا لتكون ميلادًا لولادته الشعرية، واختار أن يتقن الفرنسية وأن يعيش فى المنافى، أما الملاحظة الثانية: فهى أنه لا يحبس دموعه حين يتذكر المواقف النبيلة، فقد بكى فى أكثر من موضع بالحوارات.

ويحكى أدونيس عن تجربته مع مجلة شعر ولقائه بيوسف الخال فى عام ١٩٥٦، ودورد فى تأسيس المجلة التى قادت تيار الحداثة بقوة ومشاغبة طوال هذه الحقبة. ويلاحظ أدونيس أن دعاة التجديد اليوم ليسوا أصحاب مشروع، ويرى أن ذلك يتسق مع غياب المشروع على المستوى القومى وحتى الإقليمى، ويشير إلى أن الكتابة اليوم تسير فى أفق مسدود.. «هناك انكفاء على مشاغل الحياة اليومية وعلى التفصيلات والجزئيات، ويؤكد أدونيس أن مشروع الحداثة بكامله فشل فى المجتمع العربى، ودليله على هذا الفشل أننا أخذنا منجزات العقل الغربى ورفضنا مبادئ هذا العقل، وهذه مجرد لعبة استهلاكية وأكبر احتقار لمعنى الحداثة»، ويرى أن العلمانية والديمقراطية فى خلاف لا بد منهما لتحقيق نهضة العالم العربى، ويؤكد على أن الأنظمة العربية لم تكن جادة يومًا فى اقتلاع دولة إسرائيل وتعجب لما يردده البعض من مخاوف من غزو الثقافة الإسرائيلية للعرب فى حالة السلام.

على مدى صفحات الكتاب يبدى أدونيس كثيرًا من الآراء الإشكالية التى تثير جدلاً كالعادة، أو تصلح موضوعًا لجدل فى أحسن الظروف.

□ □ □

كتب أجنبية

The New Penguin History of Scotland

(تاريخ أسكتلندا)

E.D: R.A.Houstan and W.W.J.Knex

Allen Lane, 640PP. £ 2.5. 2001



دون بقية أقاليم المملكة المتحدة «بريطانيا» وباستثناء «انجلترا»، يشعر الاسكتلنديون دائمـًا بأنهم مميزون يساعدهم فى ذلك تاريخهم والخطوات الكبيرة التى قطعوها على الصعيد الثقافى والتعليمى والاقتصادى. وعندما فكّرت حكومة العمال البريطانية فى

التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة؟

جون ل. اسبوزيتو

ترجمة: قاسم عبده قاسم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١



لم تخرج الدعوة إلى الإحياء الإسلامى وتجديد الدين من فراغ. فهى فى معظم الأحوال ردة فعل مقاومة لاكتساح تغريبى أو سلوك استعمارى يهدد الهوية الحضارية للأمة الإسلامية، وإزاء هذا الخطر الماثل، يهرع الناس إلى أصولهم يستمسكون بها ويؤكدون جدارتها لحمايتهم من المسخ والانسحاق.

والمد الإسلامى الصاعد منذ سبعينيات القرن العشرين لم يكن استثناءً فى هذا السياق، فقد انهارت المشاريع العربية واحدًا تلو الآخر برغم اكتسائها أردية متباينة: ليبرالية واشتراكية وقومية، وعجزت الأنظمة التى كانت عسكرية فى معظمها عن تلبية الحاجات النفسية ـ فضلاً عن المادية ـ لمواطنها. ومثّلت هزيمة يونيو ١٩٦٧ انعطافة مهمة على الطريق، حوّلت الأنظار إلى الأعمق خصوصًا مع التحولات السياسية والاقتصادية فى عديد من البلدان العربية والإسلامية، والوعود التى بشرت بها الثورة الإيرانية منذ أواخر السبعينيات وتأكيدها على حيوية الإسلام السياسى وأحقيته فى مناطق نفوذه.

وقد مثّل نجاح ثورة الخومينى فى إيران خطورة على الغرب من زاويتين على الأقل: أولاهما: أنها أكدت إمكانية تكرار الصيغة ذاتها فى دول إسلامية وعربية أخرى بما يهدد المصالح الغربية فى تلك الدول (بترول الخليج مثلاً)، وثانيتهما: أن إيران الخمينى وحتى اليوم مازالت تعتبر الغرب (أمريكا بالذات) عدوًا يناهض رغبتها فى الاستقلال والتقدم، وعزّز هذه الرؤية انتهاء الحرب الباردة وزوال الكتلة الشيوعية وانهيار دولها واستبدال القوة الأعظم (أمريكا) بالقطبية الثنائية التى سادت منذ أواخر الخمسينيات وحتى نهاية الثمانينيات. وواكب هذه التحولات «تخريجات» فكرية أكدت حتمية الصراع بين الحضارة الغربية من ناحية، والحضارات القديمة وعلى رأسها الإسلام من ناحية ثانية، كما أن كثيرين ممن اعتنقوا فكرة المقاومة العنيفة سواء داخل دولهم ذاتها أو فى الغرب، أقدموا على ما فعلوه تحت لافتة الإسلام وشعاراته، ووجدوا دائمًا فقهاءهم الجاهزين لتبرير تطرفهم.

يضيق المقام عن استعراض ـ ولو موجز ـ لأبعاد الصراع بين الإسلام والغرب كما رآه المؤلف، وهل هو صراع «لاهوتى» مقترن بأصول الديانتين الإسلامية والمسيحية كما عبرت عن ذلك الحروب الصليبية التى مثلت موجات متعاقبة امتدت من القرن الحادى عشر وحتى القرن الثالث عشر، أم صراع بين مستعمِر يسعى للنهب والسيطرة، ومستعمَر يدافع عن وجوده وأرضه؟

والمؤلف الذى يقدم مسحًا للتيارات الإسلامية المعاصرة ـ فيما بعد مسحه التاريخى ـ فى مصر وتونس وإيران والجزائر والمغرب وتركيا وغيرها، لا يفوته أن يشير إلى الدور «الآثم» للأنظمة الحاكمة فى العالم الثالث فى تشجيع النزعات الأصولية المتطرفة برفض وجودها والاعتراف بها حتى لو جاءت بها صناديق الاقتراع كما جرى فى الجزائر وتركيا. ويشير إلى شيوع التركيز على النزعات الراديكالية لدى بعض الجماعات الإسلامية وتزكية عناوين ومانشيتات من نوع:

«لا تبحث عن المعتدلين فى الثورة الإسلامية»، «الجهاد يتجه نحونا»، «صدام الثقافات: صعود الإسلام فى فرنسا يزعج عامة الشعب ويقودنا إلى حركة رجعية»، «انتبهوا: الإرهاب الإسلامى فرقة انتحارية عالمية»، «الجهاد الأمريكى»، «الأمير تشارلز على خطأ الإسلام يهدد الغرب فعلاً».

والفكرة الغربية عن الإسلام فى عمومها لا تتجاوز ما تبثه هذه العناوين، وربما تضيف إليها معاداة الإسلام للديمقراطية وحقوق الإنسان وتحقيره للمرأة ومجافاته لروح العلم والدولة المدنية، وهى صورة قاصرة سيئة الفهم والنية، ولعلنا نحيى شجاعة المؤلف الذى يشير إلى «غض البصر» والبصيرة الغربية حين يتعلق الأمر بممارسات استعمارية وحشية منبتة الصلة بالإنسان وحقوقه حين تمارسها إسرائيل أو الصرب بدعاوى دينية تمامًا، والإسراع بالوعيد والعقاب إذا كان الأمر يتعلق بالمسلمين المدافعين عن حقوقهم السليبة.

الإحياء الإسلامى بالضرورة حركة سياسية تستهدف السلطة، إنما هى بالنسبة لعموم المسلمين، بعيدًا حتى عن تيارات الإسلام السياسى وجماعات الضغط والنقابات، حركة اجتماعية هدفها خلق مجتمع يمتلك توجهًا إسلاميًا وتقوم روابط أبنائه على صحيح الدين.

أما التهديد الحقيقى فيمارسه الغرب نفسه، مرة بانعدام العدالة فى التعامل مع القضايا الدولية خصوصًا التى يكون المسلمون أحد أطرافها، ومرة أخرى بإشاعة مناخ داعم للأصولية المسيحية المتطرفة التى لا تهدد المسلمين فحسب وإنما الغرب المسيحى ذاته.

عماد الغزالى

عروض موجزة

إعطاء سلطات أوسع لأقاليم أسكتلندا وويلز وأيرلندا الشمالية، كانت السلطات الممنوحة لاسكتلندا هى الأكبر، ونسبة لا بأس بها من أعضاء الحكومة البريطانية اسكتلنديون تفوق نسبة الأقاليم الأخرى قياساً إلى عدد السكان.

وخلال السنوات القليلة الماضية التى تلت نقل السلطات إلى أسكتلندا، ظهرت عديد من الكتب عن التاريخ الاسكتلندى الذى يشعر الاسكتلنديون بفخر شديد تجاهه. وعلى عكس الأيرلنديين الذين عانوا مرارة الاحتلال الإنجليزى وبشاعته على مدى مئات السنين فإن الاسكتلنديين انظموا إلى الاتحاد البريطانى طواعية، وقد خاضوا الحرب وانتصروا فيها، لذلك تتم معاملتهم داخل الاتحاد البريطانى بشكل مميز.

وهذا الكتاب مجموعة من المقالات عالية المستوى لا تستهدف المبتدئين بل الخبراء فى التاريخ الأسكتلندى، لذلك جاءت خالية من مجرد المعلومات التى تسرد تفاصيل تاريخ أسكتلندا، بل هى نوع من التأملات وإصدار الأحكام التى أخذ عليها بعض النقاد أنها ذات طابع يسارى.

ويتناول الكتاب نواحى عديدة من التاريخ الأسكتلندى من التعليم إلى الصحة والهجرة، وعلى سبيل المثال يتوقف الكتاب عند ظاهرة الهجرة فيشير إلى أنها قديمة للغاية وتعود للعصور الوسطى عندما كان الاسكتلنديون يهاجرون للعمل كجنود مرتزقة فى الجيوش الأجنبية كما أنها استمرت بحيث هاجر مليونا اسكتلندى بلادهم فى الفترة من ١٨٤١ حتى ١٩٣١، ويلاحظ أن المهاجرين كانوا من ذوى الدخول الأقل الذين عانوا من وطأة الظروف الاقتصادية.

ويتوقف الكتاب أيضاً عند التطورات السياسية الأخيرة فى أسكتلندا وإقامة برلمان جديد وحكومة إقليمية ويشير إلى أن كل التغييرات الدستورية والتشريعية التى حدثت كان وراءها ما أسماه المؤلفون بنخبة سياسية ذات نفوذ كبير داخل حزب العمال البريطانى فى لندن وتم ذلك لأغراض تلك النخبة.

ولا ينسى الكتاب الحديث عن إنجازات الأمة الأسكتلندية خلال ٥٠٠ عام، فرغم كل شىء بقيت أسكتلندا أمة حية رغم الصراعات الداخلية والضغوط المستمرة من الخارج ولم تذب أسكتلندا فى الكيان الأكبر «المملكة المتحدة» بل ظل لها كيان مستقل يشعر أبناؤه بالفخر الشديد لانتمائهم إليه ويحاولون بشتى السبل إثبات ذلك من خلال نهضة فكرية وتعليمية كبيرة، وعلى سبيل المثال فإن التعليم متقدم فى أسكتلندا عنه فى إنجلترا، كما أن الصحة كذلك.

□ □ □

The Art of Reciting The Quran

(تلاوة القرآن)

Kristina Nelson

Auc Press, 2001, LE. 80



تلاوة القرآن تعد أحد الملامح الرئيسية فى علاقة المسلم بالكتاب الكريم. وهناك مدارس عديدة فى تلاوة القرآن أبرزها المدرسة المصرية التى تطورت عبر عشرات السنين بحيث أصبحت أهم المدارس الإسلامية فى هذا المجال دون منازع. وبالنسبة لمؤلفة هذا الكتاب كريستينا نيلسون، فإن أول ما أثار اهتمامها هو أن سماع التلاوة القرآنية موجود فى كل مكان تقريبًا فى العالم الإسلامى فى الشارع والمسجد والمحلات والمنازل وفى الليل والنهار. وهو أكثر من مجرد طقس يومى يمارسه المسلمون بل يصب فى قلب العملية الإيمانية.

والتلاوة فى حد ذاتها عملية اتصالية، فهناك قارئ من جانب ومستمع من جانب آخر وهذا فى حد ذاته عبادة.

إن معظم الدارسين الغربيين اقتربوا من القرآن كتابة وتعاملوا معه مثلما يتعامل دارسون آخرون مع التوراة والإنجيل أى باعتبار أن الذى أمامهم نص، لكن كتاب «تلاوة القرآن» يركز الاهتمام على ظاهرة أصيلة ومهمة وهى قراءة القرآن شفاهة، وهو يركز أيضًا على تلاوة القرآن فى سياقها المصرى ويختبر نواح عديدة فى هذا السياق باعتبار أن المدرسة المصرية أسهمت بشكل كبير فى خدمة هذا المجال الإسلامى، ومؤلفة الكتاب باحثة موسيقية وهى تلقى الضوء فى كتابها على أهمية تلاوة القرآن فى العالم الإسلامى وآراء الكثيرين فى هذا الصدد ولا شك أن مثل هذا العمل سيكون مرحبا به من جانب الدارسين والطلاب المتخصصين فى دراسات الشرق الأوسط، وكذلك من جانب علماء اللسانيات والإنثروبولوجيا والباحثين الدينيين.

□ □ □

The Rise and Fall of Marks and Spencer

(صعود وسقوط ماركس آند سبنسر)

Judi Bevan

London, Profile.2001,269PP,.
£16,99



محلات ماركس آند سبنسر الشهيرة فى لندن ملمح أساسى من ملامح العاصمة البريطانية لا تكتمل زيارة أى أجنبى للندن بدون زيارة هذه المحلات التى تجتذب ١٠ ملايين شخص أسبوعيًا. ولسنوات طويلة اعتبر المستهلكون أن «ماركس آند سبنسر» ليس فقط مكانًا لشراء السلع الجيدة، ولكنه علامة على الجودة وما ينبغى أن يكون فى هذا المجال. وحتى وقت قريب كان ماركس آند سبنسر رمزًا للامتياز البريطانى، لكن الشركة المالكة للمحلات شهدت تدهورًا كبيرًا خلال السنوات القليلة الماضية، بحيث تراجع ماركس آند سبنسر عن عرشه مع الخسائر القادمة التى يتكبدها سنويًا.

إن قصة إنشاء هذه المحلات فريدة، فقد وصل مايكل ماركس إلى إنجلترا عام ١٨٨٢ مهاجرًا لا يملك شيئًا وقد قدم من منطقة بولندية كانت تحت السيطرة الروسية ولم يكن عمره يتجاوز ٢٠ عامًا ولا يستطيع التكلم بالإنجليزية، ولكن بضربة حظ التقى مع إسحاق ديورست تاجر الجملة الذى أقرضه ٥ جنيهات إسترلينية ليبدأ العمل كبائع متجول. وبعد ١٢ عامًا أقامت شركة مع توم سبنسر الذى كان يعمل «صرافًا» لدى «ديورست» ودفع توم ٣٠٠ جنيه إسترلينى كرأس مال مقابل الحصول على ٥٠٪ من الملكية.

ويتناول الكتاب الذى وضعته المؤلفة جودى بيفان المرحلة الثانية من عصر ماركس آند سبنسر عندما استطاع سايمون ابن مايكل ماركس فى الفترة من ١٩١٦ حتى ١٩٤٦ أن ينقل الشركة إلى عالم المجد، فقد تمكن فى البداية من هزيمة محاولة ابن توم سبنسر السيطرة على الشركة، كما استطاع أن يجعل ماركس آند سبنسر ظاهرة فريدة من خلال اختيار الأسلوب واللون والمادة التى يرغب فيها المستهلك مصرًا على جودة النوعية مع رخص السعر فى الوقت نفسه. وكان ديكتاتورًا حقيقيًا يرعب الموظفين لكنه يعطيهم الأمل والطموح أيضًا.

وواصلت ماركس آند سبنسر تدعيم مكانتها ليس فى بريطانيا فقط، ولكن فى عديد من دول العالم، إلا أن جاء عقد التسعينيات من القرن العشرين عندما أصبح ريتشارد جرين برى رئيسًا لمجلس الإدارة وكانت بداياته رائعة حتى أنه تمكن عام ١٩٩١ من تحقيق أرباح قدرها مليار جنيه إسترلينى قبل خصم الضرائب، لكن الأمور بدأت فجأة تنساب من بين يديه ولم يكن هناك جرس إنذار وبدأت المبيعات تتراجع خاصة عام ١٩٩٨، وتزعزعت الثقة فى ماركس آند سبنسر ليقدم جرين برى استقالته بعد أكبر أزمة تمر بها سلسلة المحلات الشهيرة.

□ □ □

The Complete Mahfouz Library

(المكتبة الكاملة لنجيب محفوظ)

Auc Press, 2001, LE. 600

بمناسبة بلوغ الكاتب الكبير نجيب محفوظ عامه التسعين خلال الشهر الحالى، أعدت الجامعة الأمريكية بالقاهرة برنامج نشر شاملا لأعمال الكاتب الأشهر فى الرواية المصرية والعربية يتضمن ٢٠ عملاً فى صندوق واحد يشكل مكتبة صغيرة لأعمال محفوظ علاوة على مجلد يضم الثلاثية الشهيرة «بين القصرين»، «قصر الشوق»، و«السكرية»، وأيضًا آراء وجهات نظر لنجيب محفوظ تحت عنوان «نجيب محفوظ فى سيدى جابر».

ولد نجيب محفوظ فى ١١ ديسمبر عام ١٩١١ فى حى الجمالية بالقاهرة، ودرس الفلسفة فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فى الفترة من ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤. وعمل فى عديد من المصالح الحكومية المدنية حتى تقاعد عام ١٩٧١. تشتمل قائمة أعماله الأدبية على أكثر من ٤٠ قصة ومجموعات من القصص القصيرة من أهمها «زقاق المدق» و«بداية ونهاية» فى الأربعينيات.

وقد نشر الثلاثية فى الخمسينيات، ثم تلى ذلك «أولاد حارتنا»، وبعد ذلك «اللص والكلاب» و«السمان والخريف»، و«ميرامار» و«ثرثرة على النيل» فى الستينيات، و«حضرة المحترم والحرافيش» فى السبعينيات. و«رحلة ابن فطومة واخناتون» فى الثمانينيات. وفى عام ١٩٨٨ حصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل فى الآداب وكان أول أديب مصرى وعربى يفوز بهذه الجائزة. ومنذ ذلك الوقت وتحديدًا منذ محاولة اغتياله الآثمة عام ١٩٩٤، فإنه أصبح مقلاً فى كتاباته، ومن أهم أعماله فى تلك الفترة «أصداء السيرة الذاتية» التى جرى ترجمتها إلى الإنجليزية إضافة إلى «نجيب محفوظ فى سيدى جابر».

وقد بدأت الجامعة الأمريكية بالقاهرة برنامجها لنشر أعمال نجيب محفوظ عام ١٩٧٨، وباعتبارها الناشر الأجنبى لأعماله ووكيله الأدبى عبر العالم منذ عام ١٩٨٥، فإن الجامعة الأمريكية بالقاهرة نشرت أو أخذت حقوق نشر ٤٠٠ طبعة من أعماله فى ٢٧ لغة.

□ □ □

"اجتماع"

The Myth of Maturity: What Teenagers Need From Parents to Become Adults

(خرافة النضوج: ما يحتاجه المراهقون من الآباء ليصبحوا راشدين)

Terri Apter

Norton, 2001, 288PP., £ 19.95

معالجة متعمقة للمشاكل التي تواجه الشباب في السن ما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين، هؤلاء الذين تخطوا مرحلة المراهقة الأولى وعلى أعتاب سن النضوج والرشد. فقد تبين للباحثة أن المجتمع الحديث وضغوطه المتزايدة قد أخرت سن الرشد، ويكون الشباب في حاجة إلى مساندة ورعاية الآباء في هذه المرحلة من حياتهم. ومن خلال عملها كباحثة في علم النفس الاجتماعي ومقابلاتها مع مجموعة كبيرة من طلبة الجامعات في الولايات المتحدة، فحصت المؤلفة المناطق التي يفشل فيها الشباب أحيانًا، وهذه المناطق الأربعة هي: استكمال التعليم والحصول على الوظيفة، والعلاقة بالأصدقاء، والعلاقات الجنسية. وتترتب على هذه المشكلات أعراض القلق والاكتئاب واللجوء إلى المخدرات والاستدانة ومحاولات الانتحار. توجه المؤلفة نصائحها إلى الآباء في الأسلوب الأمثل للتعامل مع الأبناء من هذه الفئة العمرية أثناء معاناتهم هذه المشكلات.

"إدارة"

المعرفة الإدارية والإدارة

أسامة عبد الرحمن

عمان: دار الفارس، ٢٠٠١

في كثير من مؤسساتنا العربية الاقتصادية وغيرها، يبدو أن الإدارة هي المعوق الرئيسي لتفعيل أداء هذه المؤسسات وتنظيم إنجازها وتنمية قدراتها، والإدارة واحدة من أهم ركائز التنمية، هذا ما يؤكده المؤلف الذي يبسط سبل الإدارة الحديثة ومدى إسهامها في التنمية العربية.

"اقتصاد"

اقتصاد إسرائيل على مشارف القرن الحادي والعشرين

فضل مصطفى النقيب

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

قامت إسرائيل منذ البداية على مساعدات غربية وأمريكية، وكثير مما حصلت عليه كان ابتزازًا بزعم تعرض اليهود للاضطهاد في العهد النازي وضرورة حصولها على تعويضات مقابل هذا التعذيب. المؤلف يقدم تحليلاً تاريخيًا وواقعيًا للاقتصاد لإسرائيل الآن وفي المستقبل.

"تاريخ"

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة

بيبرس الدوادار

تحقيق: زبيدة محمد عطا

القاهرة: دار عين، ٢٠٠١

شغل المؤلف منصب نائب السلطنة في العصر المملوكي، ويقدم هنا استعراضًا لسير عديد من العلماء والحكام والسلاطين والأحداث اللافتة عسكريًا واجتماعيًا وثقافيًا، وحالة التعليم والثقافة في هذا العصر.

■■■

Interrogations : The Nazi Elite in Allied Hands, 1945

(تحقيقات: النخبة النازية في يد الحلفاء ١٩٤٥)

Richard Overy

Allen Lane, 2001, 664PP., £ 25.00

في نهاية الحرب العالمية الثانية، وجد الحلفاء المنتصرون أنفسهم أمام مشكلة أثارت بعض الخلاف في الرأي، وهي ماذا يصنعون بالقادة النازيين الذين مازالوا على قيد الحياة. وبعد أن اقترح البعض إطلاق الرصاص عليهم جميعاً، استقر الرأي على محاكمتهم. وبدأت بالفعل محاكمات نورمبرج الشهيرة في نوفمبر عام ١٩٤٥. وتدور فكرة هذا الكتاب حول الفترة التي تلت انتصار الحلفاء وأسر القادة النازيين، والتي سبقت محاكمات نوفمبر عام ١٩٤٥.

ففي هذه الفترة واجه النازيون سلسلة من التحقيقات المطولة أجراها معهم بعض من رجال الجيش، وخلت من المحامين والممثلين القانونيين عنهم كمجرمي حرب. وبالتالي وجد المؤلف في الأرشيفات القومية في واشنطن سجلات وثائقية بالأقوال والاعترافات الشخصية المطولة التي أدلى بها كل من هؤلاء النازيين من ذوي المناصب العليا ومن بينهم هرمان جورنج ورودولف هيس وجواكيم ريبنتروب. هذه التحقيقات وما تضمنته من اعترافات عفوية لم يسبق نشرها.

■■■

The End of Globalization : Lessons from the Great Depression

(نهاية العولمة: دروس من الكساد الكبير)

Harold James

Harvard UP, 2001, 260PP, £ 27.50

المؤلف خبير في تاريخ المؤسسات المالية في القرن العشرين، وهو يهدف في كتابه هذا إلى عقد مقارنة بين نظام العولمة الحالي وبوادر الكساد العالمي الذي يتنبأ به البعض، وبين نظام العولمة الذي ساد منذ ١٩٠٠ إلى ١٩١٣ قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى وحلول الكساد الكبير في سنوات ما بين الحربين، ومن بين الأسباب التي عجلت بحلول الكساد ويحللها المؤلف إلى جانب نشوب الحرب، تصاعد الغضب تجاه النظام الاقتصادي والشعور بالظلم إزاءه بين شعوب العالم.

■■■

The Dynamics of Global Dominance: European Overseas Empires 1415-1980

(محركات السيادة العالمية: الإمبراطوريات الأوروبية الخارجية، ١٤١٥-١٩٨٠)

David B. Abernethy

Yale University Press, 2001, 524PP.

يهدف المؤلف إلى بناء نظرية شاملة عن الإمبراطورية تفسر حقيقة أن ثلثي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة الآن حكمتهم دول أوروبية في وقت ما. فكيف تسنى لثماني دول أوروبية صغيرة أن تحكم ثلاثة أخماس كوكب الأرض؟ ويعتمد المؤلف على منهج إظهار الفروق والتشابهات بين الإمبراطوريات الأوروبية المختلفة في خمس مراحل زمنية تراوحت بين التمدد والانكماش.

ومن التعميمات التي يتوصل إليها المؤلف والتي تجسد أهمية المحدد الجغرافي مسألة أن معظم المدن المركزية الأوروبية تمتعت بساحل على الأطلنطي، مما جعل الأمريكتين على سبيل المثال أقرب إلى إسبانيا منها إلى الصين.

كذلك يلاحظ المؤلف أن القوى الأوروبية كان لديها حكومات قوية مدفوعة بمنافسة حادة، ولكن أيضًا كانت تجمع بين مصالح القطاع الخاص والقطاع الديني إلى جانب مصالح الدولة في الوقت نفسه، وهو نموذج لم يكن واردا في العالم العربي ولا في الصين.

"تراث"

بؤس البنيوية

ليونارد جاكسون

ترجمة: ثائر ديب

دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠١

يمثل هذا الكتاب ضربة قاصمة لدعاة هذا المذهب النقدي (البنيوية) الذي اكتسح الساحة الأدبية والنقدية منذ ثمانينيات القرن العشرين وحتى الآن، فقد أزاح البنيويون الفرنسيون ما قبلهم وصار الأدباء والشعراء يكتبون وفق المنهج الجديد، ولكن المؤلف يشير إلى أن البنيوية لم تشكل أبدًا موقفًا نظريًا متماسكًا مما عجّل بتداعيها.

■■■

تفاصيل الشجر في وقائع الزمن

محمد المنسي قنديل

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

يُقلّب الكتاب في وقائع التاريخ العربي الغابر، وقد اختار المؤلف بوصفه قاصًا، قصصًا من هذا التاريخ تمتد من زمن فرسان الصحراء العربية الواسعة إلى زمن الملوك والفتوحات الإسلامية مرورًا بزمن الحلم الأندلسي وصولاً إلى حواري القاهرة المملوكية، ويحاول المؤلف أن يكتشف جذور هذا الماضي الذي يثقل كاهل الشخصية العربية ويدفعها خارج الزمن.

■■■

رحلتان إلى سورية

الشيخ محمد رشيد رضا

عمان: بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

لعب الشيخ رشيد رضا ومجلته المنار دورًا مهمًا خلال الثورة العربية في ١٩١٦. وهو هنا يروي وقائع رحلتيه إلى سورية الأولى في عام ١٩٠٨، والثانية خلال ١٩٢٠، ويتناول في وصفه لوقائع رحلتيه الأوضاع في سورية خلالهما ولقاءاته بكبار السياسيين وزعماء القبائل والتأثير الذي تركه فيهم والأثر الذي تركوه فيه.

■■■

عجائب الهند

تحقيق: محمد الحبشي

أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١

الكتاب من تأليف بزرك شهريار الرامهوزي وقد وصفه المفكر الراحل الدكتور حسين فوزي بأنه خليط من المبالغات والصدق والوصف البليغ، وهو يحكي عن البحر كما لم يتناوله أحد من قبل، وقد كانت الهند دومًا ملهمة لخيال الرحالة والأدباء والفنانين بما تشتمل عليه من تنوع لغوي وثقافي وديني وفني وعرقي.

"تعليم"

الجامعات.. الثوابت والمتغيرات

صالح بدير

القاهرة: مركز تطوير التعليم الطبي، ٢٠٠١

لا تعني زيادة أعداد المقبولين في الجامعة، ولا كثرة المتخرجين منها أن التعليم الجامعي بخير، فهذه المؤشرات الكمية قد تكون انعكاساتها السلبية أكبر بكثير من دلالاتها الإيجابية، هذا بعض ما يؤكد عليه المؤلف الذي يناقش حال التعليم الجامعي اليوم وفي ظل المتغيرات الراهنة.

"دوريات"

أحوال مصرية

القاهرة: الأهرام، نوفمبر ٢٠٠١

العدد الجديد من هذه الدورية ربع السنوية يخصص ملفًا عن الطبقة العاملة المصرية حيث يبحث في أسباب انهيارها وخطايا هذه الطبقة والأخطاء التي ارتكبت بحقها، يساهم في الملف عدد من الكتاب والأكاديميين منهم «عبد الباسط عبد المعطي ومحمد جمال إمام وصابر بركات. يضم العدد مجموعة أخرى من الدراسات والتحقيقات العميقة منها دراسة عن مدلولات الأسماء في مصر وعلاقتها بالحراك الاجتماعي، وبحث عن ظاهرة الأفراح الإسلامية وأسباب شيوعها، فضلاً عن قراءات لكتب حديثة ومتابعات في الفنون وأوجه الإبداع المختلفة.

■■■

المحيط الثقافى
مجلة
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

دورية جديدة صدر العدد الأول منها عن المجلس الأعلى للثقافة، وهى تعنى بالثقافة بمفهومها الشامل حيث تقدم تحليلات سياسية ودراسات فى السينما والدراما والأدب والمسرح، كما تقدم لقاءات مع رموز أدبية وفكرية واستعراض لاتجاهات عالمية حديثة فى الفن والإبداع والمجلة برأس تحريرها الدكتور فتحى عبد الفتاح.

■■■

سطور
القاهرة: دار سطور، نوفمبر ٢٠٠١

هذا العدد ربما يكون الأخير الذى يصدر عن هذه المجلة الثقافية الشهرية المهمة التى استمرت تصدر لأكثر من ستين عددًا بوصفها مجلة تصدر من خارج مصر، بما يترتب على ذلك من أعباء مالية وإدارية ضخمة. والعدد الأخير من سطور مخصص للقرن الأمريكى خصوصًا بعد أحداث الثلاثاء ١١ سبتمبر الماضى، فضلاً عن أبواب المجلة الثابتة ومتابعاتها الأدبية والسينمائية والتشكيلية وغيرها، وهكذا ستختفى طاقة ضوء ثقافية جديدة من حياتنا دون أن تمتد لها يد.

" رواية "

خاتم
رجاء عالم
بيروت: الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

تدخل الكاتبة السعودية بروايتها تلك إلى مناخات لم تعتدها فى أعمالها الشعرية والنثرية السابقة، حيث تطرح أسئلة جديدة من خلال تطرقها إلى أزمات واقعية نفسية، فى محاولة لسبر أغوار الاحتقانات التى تكون ثنائية الشخصية فى مجتمع صحراوى اجتهدت المؤلفة فى تناوله بأسلوب سردى مميز.

■■■

ديك الشمال
محمد الهراوى
الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠١

ثمة تناقض يعيشه الوطن العربى، والتحولات التى شهدتها أقطاره خصوصًا على الصعيد الاقتصادى أحدثت تأثيرات وتشوهات واضحة فى البنية الثقافية والفكرية وفى القدرة على التعاطى مع الحداثة وما بعدها، الرواية ترصد هذه التأثيرات فى المغرب الذى بحكم موقعه الجغرافى، وميراثه فى مواجهة الاستعمار الفرنسى كان عرضة لتأثيرات عميقة تعود لسنوات عديدة خلت.

■■■

يالو
إلياس خورى
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

رواية جديدة يخوض فيها الروائى اللبنانى غمار الحرب الأهلية اللبنانية التى استمرت أكثر من عشرين عامًا وتركت ندوبًا وجروحًا لم تندمل حتى الآن فى الواقع اللبنانى، والرواية تأخذ طابع التحقيق المطول، تمزج بين المأساة والسخرية والوقائع.

" سياسة "

أبعاد القضية الفلسطينية
عبد الله خلف
الكويت: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

استعراض لأبعاد القضية الفلسطينية والمناورات الدولية والمحاولات التى جرت لحل الأزمة سياسيًا وصولاً إلى انتفاضة الأقصى، والمؤلف يقدم ما يشبه الصورة البانورامية لهذه القضية التى شغلت العرب ومازالت والتى ربما سيستمر تأثيرها فى المستقبل.

■■■

أسامة بن لادن.. الشيخ الذى صنعته أمريكا
عبد الرحمن على
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

طوال سنوات الجهاد الأفغانى ضد السوفييت، لعبت أمريكا عبر أجهزة مخابراتها أدوارًا مهمة إلى جانب المجاهدين فأمدتهم بالسلاح ووفرت لهم التدريب والخبرات العسكرية والمخابراتية، وكان بن لادن هو صنيعة أمريكا بحق، فهى التى صنعت الأسطورة ثم هى الآن التى تتجرع ما صنعت يداها.

إلى ذلك يتابع المؤلف سيرة حياة بن لادن وتحولاته حتى صار أسطورة ولغزًا يحير العالم.

■■■

الإرهاب.. بذوره وبثوره.. زمانه ومكانه وشخوصه
هشام الحديدى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

الإرهاب هو العنوان الكبير الذى دارت وتدور بسببه أولى حروب القرن، المؤلف يعرض لبدايات الموجات الإرهابية فى مصر والعالم والدور الغربى فى صناعة الإرهاب ورعايته له حتى بات خطرًا يهدد العالم كله، ويميز بين إرهاب الدولة وإرهاب الجماعات خصوصًا المتطرفة منها، كما يميز بين المقاومة المشروعة دفاعًا عن الأرض والحقوق والإرهاب الذى يتخذ من الدين ستارًا يتخفى وراءه.

■■■

الأسلحة البيولوجية والكيمائية بين الحرب والإرهاب
عبد الهادى مصباح
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

دراسة تتابع تطور السلاح الكيميائى والبيولوجى وأسلحة الدمار الشامل، وخطورة وصول هذا النوع من الأسلحة إلى جماعات الإرهاب، وخصوصًا أنها رخيصة التكلفة بسيطة التصنيع، إلا أنها مع ذلك ذات تأثير مدمر على قطاعات عريضة من السكان، وهو ما انتهت إليه جماعات الرفض السياسى والاجتماعى فى بؤر توتر عديدة فى العالم.

■■■

الامبراطورية الأمريكية ـ الجزء الثانى
مجموعة من الباحثين
القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١

يتناول هذا الجزء الأساطير المؤسسة للسياسة الأمريكية والدعائم التى قامت عليها كقوة استعمارية صارت الآن وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى وانهيار الكتلة الاشتراكية قوة وحيدة، كما يتناول العلاقات الأمريكية العربية والمخاطر الناجمة عن سوء فهم أمريكا، حيث يرتفع البعض بها إلى مستوى الأسطورة منبهرًا بإنجازها فى الفترة القصيرة من عمرها، فيما يجردها البعض من كل ميزة مدفوعًا بعدائه لنمط الحياة والأيديولوجيا التى تمثلها.

■■■

انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠
عمان: دار الجليل، ٢٠٠١

توثيق لانتفاضة الأقصى التى جاءت استكمالاً للتأثيرات بالغة الأهمية التى حققتها انتفاضة الحجارة وتطويرًا لآلياتها، ويقدم الكاتب توثيقًا ليوميات الانتفاضة وأسماء الشهداء وحكاياتهم البطولية بالكلمة والصورة، وصولاً إلى ما تعد به الانتفاضة فى القريب.

■■■

حروب المنطقة العربية.. الموقف السياسى المصرى
صلاح سالم
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

طوال النصف الثانى من القرن العشرين اشتعلت المنطقة العربية بالحروب التى لم تغب عنها أبدًا مصر، سواء كانت مشاركًا أصيلاً وربما وحيدًا، أو مشاركًا بحكم الموقف والمكانة، المؤلف يحلل الدور المصرى فى هذه الحروب، ويطرح رؤية مستقبلية لأشكال الصراع واحتمالاته.

■■■

كنت نائبًا لرئيس المخابرات
عبد الفتاح أبو الفضل
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

تعد التجربة المصرية لبناء جهاز مخابرات هى الأولى فى الوطن العربى، حيث كانت هذه الأجهزة مقصورة على الدول الكبرى فقط، والكتاب صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٨ محتشدًا بالعديد من الأسرار والأفكار التى أثارت ردود أفعال متباينة فى حينها، حيث فتح المؤلف من موقعه المؤثر والفاعل فى جهاز المخابرات المصرى عديدًا من الملفات الشائكة.

■■■

من ملامح حكم العسكر والعسكرية فى مصر المعاصرة
عطية الصيرفى
القاهرة: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

بأسلوب ساخر، يقترب من أسلوب عبدالله النديم يسرد المؤلف حكايته مع السلطة فى تجلياتها المختلفة داخل السجون وخارجها. والصيرفى ناشط يسارى قديم صاحب تجربة طويلة فى الصدام مع السلطة ومحاورتها مضطهدًا دومًا ومحاضرًا، ويركز بالذات على تجربته فى انتخابات مجلس الشعب التى انتهت بسقوطه.

■■■

Civil Islam: Muslims and Democratization in Indonesia
(الإسلام المتمدن: المسلمون والتحول نحو الديمقراطية فى إندونيسيا)
Robert W. Hefner
Princeton University Press, 2000, 286PP.

قبل أواخر الثمانينات لم يكن للإسلام تأثير يذكر على السياسة فى إندونيسيا، حتى أن قليلاً من الناس يدركون أن إندونيسيا هى فى الحقيقة أكبر دولة إسلامية حيث عدد المسلمين بها (٢٠٠ مليون تقريبًا) يتجاوز عدد المسلمين فى كل الدول العربية مجتمعة.

ومع هذا ينقسم عادة المسلمون فى إندونيسيا إلى فئتين: فئة «الأبانجان» وهم يوفقون بين الإسلام وبين العادات والأفكار الهندوسية القديمة ويرفضون بعض الالتزامات مثل الصلاة اليومية. أما الفئة الثانية من المسلمين فيطلق عليهم «السانترى» وهم الملتزمون والمتمسكون بكافة العبادات الإسلامية.

ويقدم هذا الكتاب دراسة تفصيلية للإسلام فى عهد سوهارتو وصراع القوى السياسية خلال التسعينيات داخل إندونيسيا. وهو يبدى اهتمامًا خاصًا وتعاطفًا مع المثقفين المستنيرين من المسلمين الذين عملوا على التحول نحو الإسلام والتحول نحو الديمقراطية فى نفس الوقت. وهو يلقى الضوء على عبد الرحمن وحيد كلاعب سياسى مهم، ومنظمة «نهضة العلماء» التى تعد من أكبر المنظمات الإسلامية فى العالم. ولكن الكتاب ينتهى مع سقوط سوهارتو عام ١٩٩٨ ولا يناقش صعود عبد الرحمن وحيد للرئاسة فى أكتوبر عام ١٩٩٩ ثم سقوطه هو الآخر بعد ذلك بعامين.

■■■

Crescent and Star: Turkey Between Two Worlds
(الهلال والنجم: تركيا بين عالمين)
Stephen Kinzer
Farrar, Straus & Giroux, 2001, 272PP., $25.00

ستيفن كنزر، المدير السابق لمكتب صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية فى مدينة إسطنبول خلال سنوات التسعينيات، يقدم فى هذا الكتاب خلاصة معايشته للمجتمع التركى وتحليله لمعضلات النظام السياسى لهذه الدولة التى تقع عند مفترق الطرق بين أوروبا وآسيا جغرافيًا، والشرق والغرب ثقافيًا.

يرى كنزر أن أهم المشكلات التى تواجه تركيا الآن هى الأصولية الإسلامية، والأقلية

الكردية وما تثير من توترات، وغياب الحريات الديمقراطية.

ومع ذلك فهو يثق في الطبقة الحاكمة وفي قدرتها على اتباع نمط الديمقراطيات الغربية واستكمال تجربة كمال أتاتورك الذى يكن له كنزر الإعجاب الشديد.

ولكن يجد المؤلف نفسه في موقف متناقض حين ينادى بمزيد من احترام حقوق الإنسان ومزيد من الحريات السياسية والتحول نحو الديمقراطية، ثم يعود ويحذر من الخطر الأصولي وضرورة استمرار مساندة الجيش للطبقة الحاكمة.

طب

أعراض وعلاج أشهر الأمراض

نشمى الرويلى

الكويت: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

أكثر من ٥٥ مرضًا من الأمراض الشائعة بين الناس، يعرض لها المؤلف كمتخصص ويقدم وصفات للعلاج بعد بيان الأعراض، كما يقدم أحدث نظريات الطب في مجال التغذية.

■■■

جراحات التجميل

أحمد عادل نور الدين

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

عن حقيقة جراحات التجميل، إيجابياتها وسلبياتها والمدى الذى وصلت إليه في السنوات الأخيرة وقدرتها على علاج التشوهات والحروق، ويقدم المؤلف فصولاً عن السمنة وكيفية التخلص منها، وأخرى عن تفادى مشكلة سقوط الشعر.

صحة عامة

Women's Moods: What Every Woman Must Know Aboat Hormones, the Brain, and Emotional Health

(أمزجة النساء: ما يجب أن تعرفه كل امرأة عن الهرمونات والمخ والصحة العاطفية)

Deborah, Md Sichel, Jeanne Driscoll

Quill, 2000, 368PP., $ 14.00

هذا الكتاب نتاج عمل مشترك بين طبيبة نفسية شهيرة وممرضة محترفة اسمها جين دريسكول أصبحت شخصية عامة في الولايات المتحدة بسبب محاضراتها وشرائطها التى تتحدث فيها عن الأعراض النفسية المصاحبة للحمل والرضاعة وكيفية معالجتها.

يبين الكتاب العمليات البيولوجية التى تجعل النساء يختلفن عن الرجال بالإضافة إلى الاختلاف في التكوين الكيميائى للمخ، وهى الأشياء التى تفسر حدة وأوقات تقلب المزاج في حياة المرأة، وما يصاحب هذه التقلبات من اكتئاب وقلق وتوتر.

ثم تقدم المؤلفتان النصائح العملية في كيفية إدراك أسباب هذه التقلبات والتعامل معها من خلال الغذاء المناسب والراحة والفهم والروحانيات والتمرينات المناسبة.

طعام

Back to the Table: The Reunion of Food and Family

(العودة إلى المائدة: اجتماع الطعام والأسرة من جديد)

Art Smith

Hyperion, 2001, 288PP., $ 29.95

عمل آرت سميث في وظيفة الطاهى الخاص لأوبرا وينفرى كما عمل في أسر العديد من مشاهير الولايات المتحدة بين فنانين ورؤساء. وفي هذا الكتاب يقدم الشيف الشهير وصفات خاصة، كما يقدم أفكارًا حول تقديم الطعام وإعداد المائدة بشكل يضمن الألفة والانسجام والاحترام بين الحاضرين، وهو يبين كيف تسهم بعض الأطعمة في دعم المناخ الأسرى. ولا يتوقف آرت سميث عند ذلك بل يستعرض في كتابه الصلوات المختلفة التى تسبق تناول الطعام لدى الشعوب والثقافات المتنوعة.

علم نفس

الإرشاد النفسى المصغر

محمد حامد زهران

القاهرة: دار الكتاب، ٢٠٠١

المشكلات التى تواجه الآباء والمدرسين في التعامل مع الصغار قد تبدو أعقد من قدراتهم على التعامل معها بطريقة تقليدية، فثمة اختلافات واختلافات نفسية وفروق فردية بين الصغار ينبغى الالتفات إليها، هذا الكتاب يقدم سبلاً إرشادية للتعامل مع احتياجات الصغار النفسية ويجيب عن تساؤلات الآباء والمعلمين في هذا الإطار.

فكر

إطلالة عشق الوطن

حسن أبشر الطيب

السودان: مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى، ٢٠٠١

٤٠ مقالة في الثقافة والفكر والشئون العامة، ودراسات عن أدباء سودانيين كبار من أمثال الطيب صالح وآخرين، وبعض المقالات تتناول المأثور السودانى الشعبى والثقافة السودانية المحلية وتجلياتها في الفنون والآداب.

■■■

الأختام الأصولية والشعائر التقدمية

على حرب

الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

اعتاد المفكر اللبنانى على حرب في كتاباته الأخيرة، أن يناقش كثيرًا مما اعتبر مسلَّمات لدى الفكر العربى المعاصر، وهو ما يلقى عبئًا في متابعة المشاريع التراثية والحداثية كي يفصل الصالح بينها عن الطالح، لكنه في النهاية يقدم صورة صحيحة عن مكونات العقل العربى ومواطن قوته ودلالات ضعفه، وصولاً إلى صياغة معاصرة تمنح الفكر العربى قدرة على الجدل والتواصل.

■■■

التجزئة والدولة القطرية.. قراءة استطلاعية

منير شفيق

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

يضع المؤلف التجزئة والدولة القطرية في قفص الاتهام، ويحملها مسئولية ما آلت إليه الأحوال من تفكك وانهيار في العالم العربى، ويشير إلى أن الدولة القطرية لم تنشأ من فراغ، فهى أساسًا وليدة الاستعمار لكن العصبيات القومية والعقليات الانعزالية التآمرية كانت سببًا في شيوعها على هذا النحو.

■■■

العلم بين المعمل والمسجد

خالد منتصر

القاهرة: دار المحروسة للنشر، ٢٠٠١

يجمع هذا الكتاب عشرات المقالات التى كتبها المؤلف خلال السنوات العشر الأخيرة، والخيط الذى يجمعها هو انحيازها للدولة المدنية وتقليص نفوذ رجال الدين في الحياة العامة، فالمؤلف يرى أن أى تقدم لن يتحقق إلا في ظل دولة مدنية علمانية.

■■■

وحدة العقل العربى الإسلامى

چورچ طرابيشى

لندن: دار الساقى، ٢٠٠١

استكمالاً لمشروعه في نقد العقل العربى أو نقد نقده، والذى تناول فيه المفكر المغربى محمد عابد الجابرى وقبله المفكر المصرى حسن حنفى، يواصل چورچ طرابيشى تشريحه لبنية هذا العقل وتناقضاته، وهو هنا يؤكد وحدة الإطار العام الذى تحرك فيه الفلاسفة المسلمون رغم اختلاف الزمان والمكان ورغم التباينات الظاهرية بينهم.

فكر دينى

البيان القرآنى

محمد رجب البيومى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

أقر المفكرون والعلماء منذ القدم بأن القرآن الكريم نمط من القول غير مسبوق وشهدوا بما له من سحر التأثير وروعة البيان وكمال الإعجاز وأكدوا أنه تفرد بنمط خاص في البيان والتصوير. وهذا الكتاب يقع في جزءين، يدرس الأول منها الجزالة والرقة وبلاغة الإقناع وبلاغة التصوير والإيجاز والإطناب في القرآن، كما يتناول الغريب في كتاب الله ويتساءل: هل يمكن أن يفسر القرآن علميًا، أما الجزء الثانى فهو دراسات تطبيقية تتناول التكرار في سور القرآن والجملة القرآنية وسورة الكهف وغيرها من الموضوعات.

■■■

الطريق إلى السعادة الزوجية

موسى صالح شرف

القاهرة: مكتبة التراث الإسلامى، ٢٠٠١

يتناول الكتاب مجموعة من الموضوعات التى تهم كل مقبل على الزواج أو متزوج، والإسلام بوصفه دستور حياة، لم يهمل هذه العلاقات وبيَّنها بوضوح تام بهدف تحقيق السعادة والاطمئنان للأسرة التى هى نواة المجتمع المسلم، والكتاب يتحدث عن حق الخطيب على خطيبته وآداب المعاشرة وشرعية الفحص الطبى للزوجين قبل الزواج وغيرها من الموضوعات.

■■■

ألفاظ القرآن الكريم.. دراسة علمية تكنولوجية

على حلمى موسى

القاهرة: الجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن والسنة، ٢٠٠١

تسعة فصول تبحث في مصادر وأصول ألفاظ القرآن الكريم، وتحلل أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن وتشرح دلالات الحروف الواردة في بدايات السور وعلاقاتها بمعانى الآيات.

■■■

حرية الاعتقاد في القرآن الكريم

عبد الرحمن حللى

الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

ثمة آية في القرآن الكريم من سورة الكهف تجيب بوضوح عن سؤال حرية الاعتقاد في القرآن، تقول: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، بما يعنى أن الإسلام أعطى أعداءه حتى حق الكفر به، والكتاب يناقش تلك الإشكالية فضلاً عن إشكاليات الجهاد وحقوق الأقليات غير المسلمة وغيرها.

■■■

حياة الصحابيات

أحمد الخطيب

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

تمثل حياة الصحابيات اللائى عشن في العهد النبوى يتعلمن من سلوك الرسول الكريم وزوجاته، نبراسًا ينبغى أن تقتدى به المسلمات في كل عصر، وهذا الكتاب يلقى أضواءً على حياة الصحابيات ومنهن أم قليم بنت الحارث، وأم كلثوم بنت عقبة وغيرهن.

■■■

عبر من السيرة النبوية

هشام على حافظ

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١

تحتشد السيرة النبوية العطرة بآلاف العبر التى نجدها في كل موقف أو حديث أو إيماءة من الرسول الكريم، المؤلف هنا يقدم عبرا يستقيها من سيرة الرسول الكريم ترسم منهاجًا للحياة والفلاح في الدنيا والآخرة.

"فلكلور"

الزواج والموت فى الأغنيـة الشـعـبيـة الفلسطينية

أحمد جميل الحسن
دمشق: دار الشجرة، ٢٠٠١

ستظل فلسطين صامدة وباقية، وسيظل الفلسطينيون يقاومون ويجاهدون ضد الغاصب الإسرائيلى ما بقى ميراثهم الشعبى وتراثهم مقاومًا ومتواجدًا، وهذا الكتاب يدعم هذا الاتجاه من خلال دراسته لما يرد عن الزواج والموت فى الأغنية الشعبية الفلسطينية.

"فلسفة"

العدل الجذل

فريدريك نيتشه
ترجمة: سعاد حرب
بيروت: دار المنتخب العربى، ٢٠٠١

عرض لأهم نظريات نيتشه وآرائه الفلسفية ودعائم المنطق عنده ومواقفه من فلاسفة عصره والسابقين عليه، وتختص بدراسة معمقة لآرائه فى الفلسفة والثقافة العربية.

■■■

من النقل إلى الإبداع

حسن حنفى
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

يواصل حسن حنفى مشروعه فى التراث الإسلامى، ويؤكد فى كتابه هذا أن الفلسفة الإسلامية كانت مستقلة تمامًا عن أية تبعية سواء للفكر اليونانى الغربى أو المشرقى الفارسى، ويقدم بالدليل سبق المسلمين فى عديد من القضايا الفلسفية وعلم المنطق على نظرائهم الغربيين.

"فنون"

Rembrandt's Women

(نساء رمبراندت)
Julia Lloyd Williams
Presrd, 2001, 272PP., $ 75.00

صدر هذا الكتاب منذ قريب لكى يتزامن مع المعرض المقام حاليًا فى الأكاديمية الملكية للفنون بلندن تحت نفس العنوان «نساء رمبراندت». ومن المعروف عن الفنان الهولندى الشهير أنه كانت لديه ثلاث نساء فى حياته: ساسكيا، وديركس مديرة منزله، وهندريك الخادمة. ويعتقد كثير من النقاد أن السبب فى العمق العاطفى للوحات البورتريه النسائية لرمبراندت أنها كانت تجسد نساء من أعضاء منزله، حيث كان يرسم أيضًا لوحات لزوجته وأمه.

يضم الكتاب ست مقالات طوال تتناول قضايا مختلفة من وحى لوحات رمبراندت النسائية مثل: ماذا كانت معايير الجمال الأنثوى فى القرن السابع عشر فى هولندا؟ وما هى نوعية المرأة التى كانت تسمح لنفسها فى ذلك الوقت بأن تصور عارية فى عمل فنى؟ وما هو سر المنديل الذى كانت تحمله النساء المصورة فى لوحات هذا العصر؟

■■■

Writing With Hitchcock: The Collaboration of Alfred Hitchcock and John Michael Hayes

(الكتابة مع هتشكوك: التعاون بين ألفريد هتشكوك وجون مايكل هايز)
Steven de Rose
Faber & Faber, 2001, $ 15.00

كان ألفريد هتشكوك مؤمنًا بأهمية السيناريو الجيد فى صناعة الفيلم الجيد، ومع ذلك كان يتخلص من كتابة السيناريو الواحد تلو الآخر. وقد جاءت الأفلام الأربعة التى كتبها جون مايكل هايز وأخرجها هتشكوك فى أفضل وأغنى مراحل هتشكوك السينمائية، ومنهم «النافذة الخلفية» و«لإمساك لص». ويتناول هذا الكتاب ذلك التعاون الفنى الذى استمر لفترة ثم توقف بسبب الخلاف فى الرأى. حيث كان هتشكوك يدقق الاختيار فى كتاب السيناريو ويفضلهم شبابًا غير مختبرين ولم يشتهروا بعد لكى يتتلمذوا على يديه. أما عندما يصبح للتلميذ رأى مخالف فيكون ذلك معناه نهاية العلاقة. وهو ما حدث تمامًا مع هايز.

"مذكرات وسير"

ذكريات الأدب والحب

سهيل إدريس
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

يطرح صاحب «الحى اللاتينى» أيامه على صفحات كتاب يحوى مذكراته الصحافية والسياسية، فيبدو من خلالها المجتمع اللبنانى الذى لا يغيب بطبيعة الحال عن المذكرات حيث تتناول التحولات السياسية والفكرية والاجتماعية التى داهمت هذا المجتمع خلال العقود الأخيرة. والتى كان أبرزها على الإطلاق الحرب الأهلية التى استمرت أكثر من عشرين عامًا.

■■■

يوسف السباعى.. الأيام والليالى

علاء الدين وحيد
المنصورة: دار سنابل، ٢٠٠١

الميتة المفجعة للأديب يوسف السباعى الذى قتل على يد أحد الناشطين فى منظمة فلسطينية ممن رفضوا اتفاقية كامب ديفيد التى أبرمها الرئيس المصرى الراحل أنور السادات مع الإسرائيليين، ختمت حياته الثرية بطريقة دراماتية وكاننا نقرأ بعضًا من رواياته ذات الطبيعة الرومانسية والتى تحولت فى معظمها إلى أعمال سينمائية، هذا الكتاب يبحث فى مسيرة يوسف السباعى أديبًا وصحافيًا وسينمائيًا وسياسيًا.

■■■

Andre Malraux: Une Vie

(أندريه مالرو: حياة)
Olivier Todd
Gallimard, 2001, 644PP., 175Fr.

حاز أندريه مالرو مكانة متميزة للغاية بين أعلام الثقافة الفرنسية فى القرن العشرين. وهو لم يشتهر فقط بسبب رواياته وكتاباته عن الفن والسياسة والحضارة، ولكنه كان رجلاً ثوريًا، رحل فى العشرينيات إلى الشرق الأقصى مناهضًا للاستعمار، واشترك بالقتال فى الحرب الأهلية الأسبانية، كما اشترك فى المقاومة الفرنسية ضد النازى ليصبح بعد عام ١٩٤٥ اليد اليمنى للجنرال شارل دى جول.

يتناول هذا الكتاب لمؤلفه أوليفيه تود حياة مالرو ولكن من زاوية تحتوى على قدر من التشكك ورغبة من «تود» فى إظهار أن مالرو قد حصل على حجم أكبر من حجمه.

"منوعات"

جوائز الدولة ومبدعو الأقاليم

طارق الطاهر
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

حصل عديد من مبدعى مصر فى الأقاليم على جوائز الدولة التشجيعية أما التقديرية فلم يحصل عليها سوى الدكتور عز الدين عيسى، على الرغم من أن أقاليم مصر كانت دومًا بمثابة معمل تفريخ للإبداع والمبدعين، والدراسة تنقسم إلى ثلاثة أقسام يتناول الأول: مسيرة هؤلاء الفائزين بجوائز الدولة من مبدعى الأقاليم، والثانى: يقدم حصرًا لهم منذ عام ١٩٥٨ وحتى اليوم، أما القسم الثالث: فيعرض لقوانين جوائز الدولة منذ البداية وحتى اليوم.

■■■

لا للاكتئاب نعم للفرح

عرفات نظام الدين
بيروت: المؤسسة العربية الأوروبية للصحافة والنشر، ٢٠٠١

كثيرة هى الأحداث التى تبعث على الاكتئاب والحزن، وما يبث عبر الفضائيات وما يموج به العالم من اضطرابات يكفى لتراكمات من الإحباط واليأس تجب أى فرصة للفرح، لكن المؤلف يدعونا إلى تذكر نعم الله علينا التى نقرأها فى كتاب الكون وفى كتاب الذات وجميعها مما يجعلنا نسبح بحمده ونشعر أن الحياة أجمل وأبسط وأن بوسعنا أن نملأها حبًا وسعادة.

■■■

هؤلاء الكتاب وقضاياهم الساخنة

سناء صليحة
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

قراءة فى أفكار وأعمال عدد من الكتاب ينتمون إلى حقب تاريخية وروافد إبداعية مختلفة من أمثال ثروت عكاشة ويوسف إدريس ويحيى حقى ويوسف القعيد، ما القضية التى شغلت كل واحد منهم أكثر من الآخر، وكيف تعاملوا معها إبداعيًا، وبعض ما تقدمه المؤلفة هو شهادات استقتها من لقاءاتها معهم.

"نقد أدبى"

الأعشى ومجمعه اللغوى

سهام عبد الوهاب الفريح
الكويت: مجلس النشر العلمى، ٢٠٠١

الأعشى هو صاحب أكبر ديوان بين شعراء العرب قبل الإسلام ويمثل معجمه اللغوى كافة العناصر اللغوية والفنية، ويقدم فرصة لدراسة نقدية بالغة الثراء، تشير إلى ما كانت عليه بلاغة العرب فى الجاهلية.

■■■

بلاغة السرد

محمد عبد المطلب
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١

دراسة موسعة فى السرد الروائى هى الأولى لمؤلفها الذى استغرقه الشعر طوال سنوات من عمله الأكاديمى ومتابعاته للواقع الأدبى المصرى والعربى، وفى هذا الكتاب يقدم المؤلف تحليلات نقدية لعديد من الأعمال لأدباء من مختلف الأجيال منهم إدوار الخراط ويوسف القعيد ونعيم صبرى وميرال الطحاوى وأحمد الشيخ والطاهر وطار والطيب صالح وإبراهيم الكونى ومجيب طوبيا وآخرون.

■■■

بنية القصيدة فى شعر محمود درويش

ناصر على
عمان: الكويت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

دراسة فى السمات العامة المميزة لشعر محمود درويش وبنية القصيدة وتراكيبها وتأثرها بالشعر العربى القديم وبشعر الحداثة، والوحدات الأساسية المكونة لشعره وهى المرأة والوطن ومخزون الذكريات والسنوات الأولى فى فلسطين السليبة.

■■■

على أسوار بابل

جورج طراد
بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

حين تذكر الحداثة العربية المعاصرة فى مجال الشعر والأدب عمومًا يتبادر إلى الذهن فورًا اسم يوسف الخال وتجربة مجلة شعر التى عكست تمرد الخال وآخرين من أمثال محمد الماغوط وأدونيس وأنس الحاج ونازك الملائكة على الواقع الشعرى فى زمانهم، والمؤلف هنا يتابع على وجه الخصوص تجربة يوسف الخال فى إحلال العامية محل الفصحى فى قصائده، ويقدم رؤيته لدعاوى الإحلال الكامل للعامية محلها وجعل الفصحى لغة تراث لا أكثر، كما يستعرض آراء يوسف الخال فى عديد من القضايا عبر حوار مطول معه ضمن الفصول الخمسة التى يضمها الكتاب.

■■■



مــــا بعــــد طالبــــــان

إشارة إلى مقال الأستاذ هويدى عن مرحلة ما بعد طالبان، فإنى أود أن أعرب عن تقديرى لما جاء به من عرض وتحليل قـيم، إلا أننى أود أن أعـــرض بعض الملاحظات على ما جاء عن عدم قدرة هذه الحركة على الاستمرار، والذى يرجع إلى عدم وجود تأييد دولى، ومساعدة خارجية، وذلك لتغير الموقف الدولى، ووجود قطب واحد حاليًا، بينما كان الجهاد ضد الاتحاد السوفيتى يلقى تأييد الولايات المتحدة وباكستان والسعودية.

١ـ إن الحركة حاليًا لا تلقى تأييداً من دول خارجية، إلا أنه يجب النظر إلى أنها تتمتع بتأييد عدد كبير من الشعوب الإسلامية، بل عكس القول، إن هذا التأييد دلالة واضحة على صحوة العالم الإسلامى، والذى كان موجودًا إبان فترة الجهاد ضد الاتحاد السوفيتى.

٢ـ إن الحركة تدعم تدعيمًا كاملاً من الأفغان والباكستانيين المقيمين على حدود أفغانستان ولعل خروج الآلاف بأسلحتهم صوب أفغانستان، خير دليل على ذلك. وأود أن أشير إلى أن المعارضين لطالبان لا يحظون بأى تأييد، فقد لاحظت فى العزاء الذى أقامته أسرة عبد الحق، أن الذى حضر لتقديم واجب العزاء فى بيشاور لا يتعدى عشرة أفراد، بينما يخرج الآلاف كل يوم فى هذه المنطقة لتأييد طالبان، ويرجع ذلك إلى حساسية هذه الشعوب ضد من يحاول التعاون مع الأجنبى ضد مصلحة وطنه.

٣ ـ والمقارنة العسكرية مختلفة تمامًا، فالاتحاد السوفيتى كان يتمتع بميزات عسكرية كبيرة فى أفغانستان تتمثل فى:

ـ احتلاله الكامل لأفغانستان بجيش بلغ مائة ألف جندى مزودين بأسلحة حديثة من طائرات، ومدفعية، ودبابات.

ـ وجود حدود شاسعة له على حدود أفغانستان، من الشمال (قاجيكستان وأوزبكستان) ومن الغرب (تركمستان) حيث كانت هذه الدول جزءًا من الدولة السوفيتية. وكانت هذه الحدود مصدرا سهلاً لمد جيش الاتحاد السوفيتى بكل ما يحتاجه، وقاعدة أساسية له، فضلاً عن استيلائه الكامل على السلطة الداخلية فى أفغانستان.

٤ـ لذلك فإن مقاومة هذا الجبروت العسكرى لم تكن لتنجح بدون مساعدة دول كبرى كالولايات المتحدة، وبدون تمويل دولة غنية كالسعودية التى أنفقت ٢١ مليار دولار، وبدون فترة زمنية طويلة استمرت زهاء عشر سنوات.

٥ـ والحملة العسكرية الأمريكية الحالية تنحصر فى:

ـ حرب جوية.

ـ محاولة استخدام قوات الشمال.

ـ البحث عن قواعد فى دول مجاورة لتسهيل العمل العسكرى.

والحرب الجوية لم تنجح حتى الآن سوى فى قتل المدنيين وتشريد الشعب الأفغانى، وقوات الشمال عاجزة عن اختراق خطوط طالبان، لأنها تحولت إلى بقايا من الجنود المرتزقة، يكنُّ الشعب الأفغانى البشتونى كراهية شديدة لهم، خاصة بعد تعاونهم مع الولايات المتحدة وروسيا العدو القديم للشعب الأفغانى. ولا تجد الولايات المتحدة قواعد أرضية لها قريبة من أفغانستان، فباكستان تجد أن التسهيلات التى قدمتها تلاقى معارضة شديدة من الشعب الباكستانى، وترغب فى إنهاء الحملة فى أقرب وقت ممكن، والقاعدة التى قدمتها أوزبكستان، لا تطمئن لها الولايات المتحدة، لوجود معارضة إسلامية داخلية لها.

والولايات المتحدة تتردد ألف مرة فى الدفع بقوات برية، خوفًا من أن يكون مصيرها مصير قواتها فى فيتنام.

٦ـ وهناك جانب آخر لا يمكن إغفاله، هو وجود معارضة داخل أوروبا لهذه الحملة. فضلاً عن أن الشعب الأمريكى سيناهض بدوره هذه الحملة حينما يشعر أنها لم تأت بأى نتائج، كما حدث فى حرب فيتنام.

ولا يعنى ذلك أننى أؤيد طالبان أو أعارضها، بل أردت فقط تقديم هذه الملاحظات.

سفير / فاروق الهوارى

من سعــــاد حسنى إلى طائرات الشبح

منذ أشهر ونحن فى بغداد نستلم نسخًا من هذه المجلة الراقية. وأصارحكم، أننا فى البداية كنا نستنسخ بعض المقالات، وخصوصًا مقالات الأستاذ هيكل الرائعة.. ثم انتهينا باستنساخ كل المجلة.

ولأول مرة، أجد مجلة بهذا الغنى والتنوع من السياسة إلى الفكر إلى الفن. وأحييكم على هذه الجرأة فى تخصيص غلاف عدد أغسطس للفنانة الكبيرة الراحلة سعاد حسنى. وعن أفلام الأستاذ عبد الوهاب، وكذلك الأستاذ فريد الأطرش. وقبل سنتين أرسلت رسالة إلى الأستاذ خير الدين حسيب رئيس مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت عاتبته على قلة الجهد البحثى والدراسى المبذول فى المجالات الأدبية والفنية، لأنها فى رأيى هى الأهم فى توحيد وتقريب الشعوب العربية ونخبتها الطليعية Intellectuals.

وعند متابعة أغلفة أعداد المجلة من أغسطس إلى أكتوبر، من سعاد حسنى إلى طائرات الشبح، لا أملك أحيانًا إلا أن أقول سبحان مغيِّر الأحوال؛ إذ لا يزال هذا العالم الهَرِم قادرًا على مفاجأتنا بين حين وآخر، كاشفًا عن الطابع الفوضوى والمصادفى للمسيرة البشرية على سطح الكوكب، إننا لم نبلغ الحدود النهائية، ويجب علينا أن نكتشف القيم والأخلاق من جديد أو نصنعها، بالفكر والفن والأدب لعالم ترقد الكارثة على مرمى حجر منه.

وبمناسبة عرضكم لأهم الكتب التى تصدر فى أمريكا، فقد وجدت عرضًا قصيرًا للكتاب الرائج Divided We Stand، ولكنكم أهملتم زميله Twin Towers. كما عرضتم بسرعة لكتاب هولبيك الجديد Plateform، الذى استعرضته قبل أسابيع مجلة Econ-omist.

أمنياتى المخلصة للمجلة بالتوفيق والنجاح وتمنياتى لكم جميعًا، وبالأخص لمعلمنا الكبير الأستاذ هيكل أطال الله فى عمره.

يوخنا دانيال
بغداد

** نشكر الأستاذ دانيال ونود أن نلفت نظره إلى أن المجلة تعنى بنشر مقالات ودراسات عن كتب حديثة صدرت مؤخرًا وليس مجرد خواطر وآراء أو شذرات متناثرة.

المحــرر

مســـئوليــة بن لادن

تحية تقدير وإعجاب بما تبذلون من جهود قيمة فى إثراء الرأى العام العربى بما تطرحونه من معلومات وتحليلات رفيعة المستوى، وعلى رأسها المقال الشهرى للأستاذ الكبير هيكل والذى ننتظره بفارغ الصبر، ولهذا السبب ولأننا نعتبر أن مجلتكم الوحيدة التى تتخذ من وجهات النظر عنوانًا ومادة شيقة ومفيدة للقراء، فإننى أرفق لكم بعض الملاحظات التى طرأت لى بعد الانتهاء من قراءة مقال الأستاذ الكبير ـ قبل الأخير ـ المعنون (حريق أمريكى وعالمى) علها تكون مكملة للصورة وتحمل شيئًا من الفائدة.

ربما كانت كلمة الأستاذ محمد حسنين هيكل هى أهم ما كنا ننتظره كقراء بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر الماضى، وبعد سيل متدفق من المعلومات والتحليلات، والتى لا يتمكن القارئ العادى أن يتبين غثها من سمينها، ولذلك كانت كلمة الأستاذ هيكل والتى تابعتها بشغف أهم ما قرأت، وهى الوحيدة التى دفعتنى للتواصل معها عبر هذه الخواطر التى عنت لى عقب الانتهاء من مقالة الأستاذ الكبير، وذلك لما أكنه له شخصيًا ولقلمه من احترام، كما أقدر فى المقابل احترامه لعقلية قرائه، وحرصه على التواصل معهم بما يملكه من معلومات مستفيضة، وما يطرحه من تحليلات معمقة، بالإضافة لقدرته على إشعارهم بأنه يفكر معهم ولا يملى عليهم رأيًا. ولكل هذه الاعتبارات بالإضافة إلى كونها محاولة للتفكير المشترك بحثًا عن الحقيقة إزاء موضوع أقل ما يقال عنه إنه من أكثر الأحداث التاريخية إثارة سواء على صعيد الفعل أو رد الفعل، كما أنه أحد العوامل المهمة التى ستصبغ القرن الحادى والعشرين بألوان عديدة، لا نرى فيها ما هو زاه أو مبهج حتى الآن.

وربما كان هذا الاستدراك مبنيًا فى أساسه على معلومات ظهرت للجميع على الفضائيات، وفى كافة وسائل الإعلام بعد بدء العمليات العسكرية الأمريكية فى أفغانستان. وأستطيع إجمالها فى النقاط التالية:

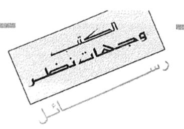
١ـ الرسالة المصورة المثيرة للجدل التى بثتها قناة الجزيرة الفضائية غداة بدء الضربات الجوية لأسامة بن لادن واثنين من معاونيه هما سليمان أبو غيث وأيمن الظواهرى، والتى احتوت تصريحًا واضحًا لا يقبل اللبس أو التأويل، بأن الذين قاموا بالعمليات الانتحارية فى أمريكا هم وبالتعبير الحرفى (كوكبة من الشباب المسلم، فتح الله عليهم، وأسأل الله لهم مكانًا فى فردوسه الأعلى). وإذا سلمنا بتأكيد الأستاذ هيكل بأن قدرات بن لادن تعجز عن القيام بمثل هذه العملية، فإننا لا نسلم أن قدراته العقلية تعجز عن إدراك أن تصريحًا كهذا مرفقًا بتهديده الواضح بأن الولايات المتحدة لن تنعم بالأمن ما لم ننعم به فى فلسطين، هو اعتراف ضمنى بأن له (وعلى أقل تقدير وأكثره تحفظًا) اتصالاً وثيقًا، واطلاعًا على الجهة المنفذة، وأن له القدرة على الضرب من جديد ومن داخل الولايات المتحدة، وقد لا يختلف اثنان أن الحديث المتوقع من برىء فى موقفه أن يواصل الإنكار فى نفس الوقت الذى يهدد بالرد فى حالة الهجوم عليه، لا أن يؤكد هوية الفاعلين ومعرفته بهم، بل وتهديده بتكرار نفس العمليات مستقبلاً، مما يعطى أعداءه فرصة تأكيد التهمة، وتجريده من أى تعاطف دولى.

٢ـ الرسالة التالية (والتى تم تسجيلها أغلب الظن يوم الخميس الحادى عشر من أكتوبر الماضى)، والتى ظهر فيها سليمان أبو غيث الناطق الرسمى باسم تنظيم القاعدة وأكد فيها وبكلمات أكثر وضوحًا أن «عاصفة الطائرات لن تهدأ، ونقول للمسلمين فى أمريكا وبريطانيا وننصحهم بعدم ركوب الطائرات وعدم السكن فى الأبراج والمبانى العالية».

٣ـ تصريح عبد الله أسامة بن لادن فى مقابلة نشرتها صحيفة الصاندى ميرور البريطانية يوم الأحد الرابع عشر من أكتوبر، أن والده غادر فجأة غداة الهجمات على الولايات المتحدة، وانتقل إلى الجبال مع ستين شاحنة محملة بتجهيزات وأجهزة اتصالات عبر الأقمار الصناعية، مما يؤكد نقطتين فى غاية الأهمية:

أ ـ أنه كان على علاقة بشكل أو بآخر بهذه العمليات، وأنه كان يتوقع ردًا انتقاميًا من الولايات المتحدة.

ب ـ أن بن لادن على ما يبدو كان يتمتع بحرية التنقل والاتصال، كما أن الاختراق العميق لتنظيمه من قبل أجهزة استخبارات عديدة من أهمها جهاز الاستخبارات الباكستانى قد تم تضخيمه، فبن لادن قادر على التنسيق مع هذا الجهاز فى عمليات مهمة كاغتيال احمد شاه مسعود، وقادر فى نفس الوقت على الاحتفاظ بسرية جدوله الخاص، وإلا



لأصبح بإمكاننا اتهام جهاز الاستخبارات الباكستاني بأنه كان على اطلاع تام على عمليتي تفجير السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام، وعملية المدمرة «كول»، ولا نعتقد أن الولايات المتحدة قادرة على التغافل عن مثل هذا الاحتمال الخطير.

٤- أن الطلب الأمريكي للمساعدة من باكستان تضمن في بنده الأول طلبًا للتعاون المعلوماتي والاستخباراتي، ورغم ذلك فلا يبدو أن أمريكا مطمئنة تمامًا لقدرتها على التنبؤ بأفعاله القادمة، أو حتى كسر شفرته (وهذا واضح في حالة الهستيريا التي انتابت الإدارة الأمريكية إثر إذاعة رسالته المصورة وتعميمها الطلب للمحطات الأمريكية بعدم بث رسائله خوفًا من احتوائها على رسالة مشفرة)، كما أنها تتعامل بحذر وقلق مع تهديدات الحرب الجرثومية، وهي لا تملك على ما يبدو تصورًا واضحًا (حتى الآن) عن إمكانية حدوث مثل هذا الهجوم ومداه إن حدث (سجلت العديد من حالات الإصابة بمرض الجمرة الخبيثة حتى تاريخ كتابة هذه السطور).

٥- أن الخيار الصربي أو خيار (مناهضي العولمة) الذي تم التحدث عنه في الأيام الأولى في تصريحات صادرة من مقر قيادة حلف الناتو في أوروبا يعد احتمالاً مستبعدًا، فبالإضافة لما سبق فإن هناك تصورًا يمكن إجماله في أن الحرب في البلقان لم تشهد وفي خضم العمليات العسكرية الملتهبة والتي يكون استدعاء الشعور القومي فيها أسرع وأقوى ما يمكن من أي عملية انتحارية على الإطلاق من قبل الصرب، وربما لو حدثت عملية واحدة من قبل طياري أو جنود يوغسلافيا السابقة، لكان الأمر قد اختلف على صعيد العمليات العسكرية، ولكان هذا الخيار أكثر حضورًا في محاولات الفهم والاستقصاء الحالية.

٦- أيًا كانت الجهة المنفذة ودوافعها، فإن العملية قد كشفت قصورًا مخابراتيًا وأمنيًا لا شك فيه، وإنه لمن الغريب حقًا أن يبقى بعد الأحداث الأخيرة كل من رؤساء الـ CIA والـ FBI يمارسون أعمالهم وكأن شيئًا مما يستوجب تغييرات جذرية في الوجوه والأساليب لم يحدث.

إن طالبان وأسامة بن لادن، وكل الحركات الإرهابية التي أفرزها (الجهاد في أفغانستان)، لا تمثل في الواقع شيئًا يستحق الدفاع عنه، لقد عانت هذه المنطقة من قسوة المصالح الأمريكية، ودفعت شعوبها الكثير بسبب السياسة الخارجية الأمريكية المتحيزة ضدها، والمنكرة لكل أمانيها المشروعة، وها هي الآن تدفع ثمن الشطط والجنون في الرد على هذه السياسة، ثم تعود لتتحمل الرد الأمريكي بكل عنجهيته، ولا ندري إلى متى سنبقى في دوامة الأخذ والرد، وإرادتنا السياسية مشلولة، فلا هي قادرة على الفعل، ناهيك عن رد الفعل.

علي أديب
بغداد - العراق

نايبول.. بين محاولة الفهم والهجوم الشخصي

كتب الناقد الأستاذ صبري حافظ مقالاً في عدد المجلة الصادر في شهر نوفمبر ٢٠٠١ تحت عنوان: «نايبول الكاتب والجائزة»، وقد توقعت أن يقدم لنا سيادته قراءة نقدية لأعماله الإبداعية.. قراءة تعتمد على التحليل الفني والفكري لأعماله وتعين القارئ على استشراف رؤاه وأبعاد عالمه. ولكني وجدت سيادته وقد تجاوز دوائر النقد والتحليل إلى دائرة الهجوم على شخص الكاتب. فهو عنده أكثر الكتاب المعاصرين غطرسة ورعونة، كاتب ينحدر من العالم الثالث ولكنه كاره له وشديد الانتقاد لسلبياته، يتبنى رؤى مستعمريه ويردد عنه وعن ثقافاته أبشع المقولات الاستشراقية والاستعمارية القديمة عنه، وهو يفعل ذلك بثقة تبلغ درجة التبجح. وهو عنده كاتب كبير من حيث قدرته اللغوية وبراعته الأسلوبية لكنه يتسم بحدة المزاج والغرور وضيق الأفق والغطرسة والافتقار للكياسة والتسامح، وهو بارع في السيطرة على اللغة ولكنه لا يستطيع السيطرة على مشاعره إذ يتسم بضيق الخلق وسلاطة اللسان.

فإذا تجاوزنا الخلط بين السمات الشخصية (الانفعالية والأخلاقية والسلوكية) للكاتب وإبداعه الأدبي، فهل يمكننا التجاوز عن التناقض بين الاعتراف بقدراته اللغوية وبراعته الأسلوبية وسيطرته على اللغة والحديث في نفس الوقت عن ضيق أفقه: هل القدرات اللغوية والبراعة الأسلوبية هي مجرد قشرة من السكر على مضمون رديء؟ وكيف يمكن فصل اللغة عن الفكر، في حين أن اللغة هي الفكر، والاعتراف بالمستوى الرفيع للغة والأسلوب هو اعتراف بنفس المستوى للفكر وللرؤى وللآفاق التي تنطوي عليها اللغة والتي يتحتم أن تتسم بالعمق والشمول حتى يندمج في السرد الروائي - باتساق وتكامل - ما هو فكري وما هو جمالي.

ويقول الأستاذ صبري في مقاله إن استخدام نايبول لبلاغة اللغة الإنجليزية جعله في هجومه على الإسلام فعالاً، لأن براعته الأسلوبية هي أداته لدس السم في العسل.

وقد قرأت الاقتباس الذي أثبته في مقاله من كتابات المؤلف فلم أجد هجومًا على الإسلام. إذ يقول نايبول: «لقد حاولت أن أكتشف كيف يمكن للإسلام أن يتجاوز أمور العبادات والطقوس وأن يصبح خلاقًا وثوريًا، وأن يتجاوز المعتقدات الدينية ويمهد لنهضة حقيقية تنفتح على الجديد وتثرى به كما كان حال المسلمين في أيام مجدهم الغابر» فهل بوسعنا أن نستخلص من هذه العبارة هجومًا على الإسلام بشكل عام أم هو هجوم عما وصفناه هنا في مصر بالإسلام البدوي: إسلام التمسك بعادات وتقاليد وأزياء وسلوكيات ارتبطت بمجتمع القبائل في أرض الحجاز منذ أكثر من ألف عام، إسلام الاهتمام بفقه العبادات والإهمال التام لفقه المعاملات بكل ما ينطوي عليه من قيم اجتماعية وحضارية.

وأخيرًا أتصور أن ما قاله نايبول عن الاضطراب العصابي الذي ينتاب الهندي المسلم حين يعاني وجدانه من تعارض الانتماء لتاريخه الوطني مع انتمائه الديني.. أتصور أن ذلك لا يختلف عما يكتبه بعض الكتاب المعاصرين المصريين عن الحاجة الماسة إلى غرس بذور الانتماء للتاريخ الفرعوني والقبطي في ذاكرة المسلم المصري المعاصر حتى تكتمل هويته المصرية الوطنية والقومية. فهل نقرأ لهؤلاء الكتاب باعتبارهم يدسون السم في العسل؟

محمود عبد الوهاب
قاص وناقد




فن البراءة

اطلعت باهتمام بالغ على موضوع «لوحات طلاب جامعة بيرزيت.. البراءة والبساطة.. فن المقاومة» في عدد «وجهات نظر» الشهر الماضي وكنت مسرورة للغاية من ظهور هذا المشروع - الذي نصحت الطلاب به وأشرفت عليه - في مجلتكم المحترمة والذائعة الصيت.

لقد قرأت مقالة الأستاذ حلمي التوني ورأيت بعض الصور التي نشرتها «وجهات نظر» لمشروع طلاب جامعة بيرزيت وكنت سعيدة للغاية. إنني فخورة أن هذا الشعور الحقيقي لطلاب فلسطينيين قد لفت انتباهكم بهذا الشكل الجميل. ولا بد أن أشير هنا إلى أن هؤلاء الطلاب لم يمارسوا في حياتهم من قبل أي عمل فني ولكن عندما عرضت عليهم الموضوع فإنهم تسابقوا لجمع مئات من صور الانتفاضة من الصحف اليومية.

إن هدف المشروع كان دراسة العلاقة بين الشكل والفضاء المحيط به مع التركيز على الحركة الداخلية داخل إطار الصورة.

وكانت فكرة التجريد بالنسبة للطلاب جديدة ومثيرة ولكن نتيجة تعاطفهم مع القضية فإنهم بشكل لا إرادي تلقفوا الفكرة وسارعوا بتنفيذها. وكانت المحصلة بسيطة وطازجة وصادقة، كما أشار بحق الأستاذ التوني.

وأود أن أبلغكم أننا وضعنا الصور التي جمعها الطلاب في الصالة الفنية الصغيرة لجامعة بيرزيت بعد أن كانت تلك الصور معلقة على الحوائط، الأمر الذي لم يتح لكثيرين رؤية هذه الصور. ونأمل أن يكون المكان الجديد فرصة لمزيد من الاطلاع على هذه الصور.

فيرا تامارا
محاضرة في جامعة بيرزيت وفنانة

علال الفاسي

أهنئكم بعدد نوفمبر الماضي ٢٠٠١ من مجلة «وجهات نظر» والذي قرأته أيضا من الغلاف إلى الغلاف، ولكني لاحظت في مقال أستاذنا الجليل الدكتور أحمد كمال أبو المجد بعنوان «الإرهاب والإسلام» أنه ذكر اسم الزعيم السياسي المغربي المرحوم «علال الفاسي» رئيس حزب الاستقلال باعتباره تونسيا. واعتقادي أنها فلتة قلم من أستاذنا المحقق المدقق المتثبت الحجة، متعه الله بالصحة وطول العمر.

عبدالقادر الإدريسي
منظمة الإيسيسكو - الرباط

تعليقات قصيرة

لا تحتاج «الدورية» وليست المجلة الثناء لأنها تعدت مرحلة الثناء والنقد وكفاكم احترام القراء لكم ولجهدكم ولتسمحوا لي بأن أبدي بعض التعليقات القصيرة على مقال المحلل الكبير الأستاذ/ هيكل في مقال نوفمبر الماضي.

* نتيجة للحرب الباردة «١٩٤٥:١٩٨٩» إن الذي أعطى الروح والدم جني بعدها الشعر ومن قدم الموارد هو الذي جني كل شيء، وهذا هو الواقع لأن الرخاء والتنمية أساسها الروح والدم متمثلة في البشر لأنه أساس كل تقدم وهو ما تقدسه الولايات المتحدة.

* في أثناء توقيع «بيتان» على بيان الاتفاق السلمي مع النازي في سبيل التعايش مع الآخر على الرغم من أن الآخر «لم ينقض عليه من الفراغ إلى التاريخ والجغرافيا ومع ذلك لم ينجح التعايش فما بال فلاسفة التطبيع بما يطلبون منا التعايش مع الآخر البربري العنفوي على الرغم من ظهوره لنا كعفريت العلبة وليس جارنا أو حتى نعرف له تاريخا ولا أرضا.

* في تقسيم ابن خلدون للعصبية.. ودورة الحكم لها قسمها أربع مراحل: الظفر بالبغية والاستئثار بها وتشييد الآثار ثم الفراغ والعته.

وفي مرحلة الفراغ والعته ينجذب الحكام إلى اللهو والملذات وجنون العظمة والتبعية، مما يهدد ويحتم نهاية العصبية وبداية عصبية جديدة وللأسف هذا ما نمر به في أغلب أقطارنا العربية فمتى النجدة من العملاء والتابعين؟!

أحمد أبوزيد
طالب بجامعة المنيا - أبوقرقاص



دور مسلمى الغرب في إنهاء عزلة الإسلام

لم يحدث من قبل أن واجه المسلمون الذين يقيمون فى الغرب أو أولئك الذين يقيمون فى الشرق، تحدياً حقيقياً كالذى يواجهونه اليوم.. فقد أطلقت أحداث ١١ سبتمبر التى وقعت فى الولايات المتحدة الأمريكية إعصاراً عنيفاً، لف العالمين العربى والإسلامى بغطاء كثيف من الضغوط والتساؤلات، وأحدث خلطاً شديداً فى الأوراق لعلاقتنا بالغرب وعلاقة الغرب بنا.

بالنسبة لنا فى العالمين العربى والإسلامى تحول هذا الإعصار إلى نوع من البحث داخل الذات، وليس البحث عن الذات؛ إذ يبدو وكأن موقفنا من الغرب قد أصبح فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح والتحديد. وبالأخص أولئك الذين يعيشون من المسلمين فى بيئات ثقافية وحضارية غربية، سواء كانوا قد وفدوا إليها أو ولدوا فيها واحتفظوا بقدر متفاوت من آثار بيئاتهم وثقافاتهم السابقة.

وقد فجَّرت ظاهرة الإرهاب الموجه إلى الغرب لديهم ولدينا أيضاً سؤالاً مهماً: هل نحن جزء من حضارة الغرب؟ أم أننا نستقل بحضارة عربية ذات منطلقات وتصورات وقيم تختلف اختلافاً جذرياً عن الحضارة الغربية، قد تصل إلى حد التناقض والتصادم معها؟

بالنسبة للغرب أُثير نفس السؤال فى ظروف أقل انفعالية من الظروف السائدة الآن، ووجد بعضهم فى نظرية «صدام الحضارات» تفسيراً سياسياً مريحاً لما يطرأ على العالم من صراعات وخلافات وتناقضات. وهو فى الوقت نفسه تفسير ينطوى على تبرير لمظاهر الاستعلاء وللمظالم التى تقع على بعض الشعوب، وللفجوة المتزايدة بين الشمال والجنوب، وبين الأغنياء والفقراء، ولنظام عالمى غير متوازن يسمح للأقوياء بأن يفرضوا سيطرتهم وهيمنتهم على الشعوب الأضعف والأقل نمواً والأكثر تخلفاً.

ويبدو هذا التفسير بمثابة تبرير سياسى مسبق، عما يفتقده البعض من تميز حضارى يعطيهم حق التصرف دون حساب، أو الكيل بمكيالين، وهى الشكوى التى ترددها دول العالم الثالث بصفة مستمرة، أو الأخذ بالنظام الهرمى السائد فى ترتيب دول العالم، والذى أفضى فى واقع الأمر إلى وجود دولة واحدة قوية، وحفنة من الدول الأقل قوة، ثم أغلبية كبيرة من دول لا وزن لها فى معيار الحضارة والنفوذ.

ولكن التاريخ يثبت أن نشوء الحضارات وسقوطها، لم يكن نتيجة للصراع بين الحضارات بل نتيجة لحلقات متصلة من التفاعل والتحاور فيما بينها. كل حضارة تأسست على ما قبلها واستوعبت أهم ما فيها ثم تجاوزتها إلى مرحلة أرقى وأكثر تعقيداً. ولم يكن الصراع فيما بينها غير درجة من درجات التفاعل أو الاشتباك المباشر ولكن دون أن تدمر أو تقضى الحضارة المزدهرة على الحضارة الآفلة التى دخلت مرحلة الذبول والاضمحلال، ثم أضحت من بعض مكونات الحضارة الجديدة السائدة.



المعطيات التى بين أيدينا اليوم تؤكد أنه لا توجد فى الوقت الراهن حضارة عربية قائمة بذاتها، تملك من المقومات ما يضعها فى موقع الصدام أو المناطحة مع الحضارة الغربية. الشعوب العربية والإسلامية، ومعظم شعوب العالم الثالث تعيش عالة على ما تنتجه الحضارة الغربية، فى كافة المجالات: اقتصادياً، وسياسياً، وفكرياً وثقافياً بدونها قد تذوى وتتلاشى من الوجود.. ربما كانت هناك اختلافات فى المعتقدات الدينية وفى البنى الاجتماعية أو فى أسلوب الحياة أو فى درجة التقدم وفى النظرة إلى القيم الحياتية السائدة. ولكن معظم المجتمعات العربية والإسلامية باتت تبحث عن المشاركة السياسية والاقتصادية والعلمية وتتطلع إلى الالتحاق بالتكتلات والتجمعات الغربية. والتحدى الحقيقى الذى يواجهها هو أن تُقبل من جانب هذه التكتلات كَنِدٍّ وعلى قدم المساواة. وتبدو الفروق بيننا فى الشرق وبين أوروبا بنفس درجة التفاوت والفروق بين أوروبا وأمريكا. ربما كانت الفجوة بيننا وبين أوروبا أكثر اتساعاً منها بين أوروبا وأمريكا. ومن ثم فإن استعدادنا للوقوع تحت الهيمنة الأمريكية وبالتالى تحت التأثير الأوروبى يبدو أمراً وارداً. ولكن ثمة مظلة حضارية وثقافية واحدة تغطى الجميع، وتسمح بقدر كبير من التنوع الثقافى، الذى يسمح لليابان مثلاً أو للصين بأن تنتهج أسلوباً مختلفاً فى الحياة لا يؤدى بالضرورة إلى وقوع صراع حضارى.. وإن كان من الممكن أن يؤدى إلى وقوع خلافات سياسية واقتصادية.

لماذا إذن ينفجر الجدال حول صراع الحضارات مرة أخرى؟ ولماذا يتردد الحديث عن بوادر مرحلة صدام بين الإسلام والغرب؟ وأين يكون موطن هذا الصراع القائم أو المتوقع؟

الواقع أن ما ينطوى عليه الإسلام من قيم ومفاهيم سياسية، لا تمثل فى ذاتها صداماً ولا تولِّد صراعاً مع الحضارة الغربية السائدة بكل توجهاتها. ولكن الصراع الحقيقى بدأ منذ حاول الغرب فى العصور الحديثة توظيف الإسلام لخدمة أهداف سياسية استعمارية، مرة لإسقاط الدولة العثمانية، ومرة أخرى لمحاربة الإمبراطورية السوفيتية والمبادئ الشيوعية، وحين انتهت المعركة الفاصلة فى أفغانستان بخروج السوفييت وتحلل الكتلة الشيوعية انقلبت الآية فأصبحت الغاية هى تجريد الإسلام من قوته السياسية التى تحولت إلى قوة مناهضة للغرب، قادرة على تعبئة العالم العربى والإسلامى ضد إسرائيل وتوسعاتها الاستعمارية وأطماعها فى القدس كعاصمة لها، وضد الهيمنة الأمريكية الحامية والضامنة لإسرائيل. وهو ما يجعل من مقولة صراع الحضارات مجرد مقولة سياسية، تخلع على الإسلام قوة سياسية أو تجرده منها بحسب الحاجة والطلب.

وهنا يبدو وكأن الغرب قد أخذ على عاتقه تحديد التعريف الملائم للإسلام كلما أعوزته الحاجة إلى ذلك. وهو تقريباً ما حاول الرئيس بوش وأنطونى بلير وجوقة كبيرة من الإعلام الغربى القيام به، بالتأكيد على أن الغرب ليس ضد الإسلام ولكنه ضد الإرهاب. وحض الشعوب الإسلامية ورجال الدين الإسلامى على تصحيح المفاهيم الخاطئة للإسلام.



والسؤال هو لماذا يترك المسلمون للغرب زمام الأمور فى تحديد التعريف العصرى الملائم للإسلام، يضعونه فى موقف الوئام أحياناً وفى موقف الصراع أحياناً أخرى؟

فى اعتقادى أن العقبة الكأداء التى حالت حتى الآن دون تحديد عصرى حديث للإسلام، هى أن حركات التنوير والتحديث التى قادها المصلحون الإسلاميون طوال المائة عام الأخيرة فشلت فى العثور على الحلول الملائمة التى توفق بين الدين والحداثة، كما أخفقت فى التخلى عن وهم مازال سائداً فى مجتمعاتنا بأننا نستطيع أن نستهلك منتجات الحضارة الغربية دون أن نأخذ بمفاهيم التطور والمنهج العلمى، وهو ما أدى لانحراف التيارات السلفية إلى العنف والإرهاب، وظهور الحركات المتشددة والمتطرفة التى تخاصم العصر وتعادى التقدم، ولا تجد أمامها من سبيل للتعامل مع الواقع المعاصر غير محاولة تدميره ومقاطعته وإعدامه من الوجود.



ما الذى يمكننا عمله؟

اللحظة الراهنة من الحضارة الحديثة التى نحن جزء منها، تفرض على العرب والمسلمين خياراً مصيرياً هو الفرق بين الحياة والموت، بين أن نكون جزءاً من العالم ومن العصر، أو نحكم على أنفسنا بالانعزالية والانزواء والفناء.

وفى تقديرى أن الظروف الراهنة المحيطة بالعرب والمسلمين فى الشرق لا تبشر بتحولات سريعة على طريق النهضة لأسباب عديدة يضيق المقام بذكرها، ومن ثم فلا يبقى أمامنا غير التجمعات الإسلامية التى تعيش فى الغرب ورموزها من العلماء والمفكرين وأساتذة الجامعات الذين يمثلون أفضل ما أنتجته وأفرزته المجتمعات العربية والإسلامية وصدَّرته للغرب، (نحو ١٢ مليوناً فى أوروبا و٧ ملايين فى أمريكا) هى التى يمكن أن تحمل الأمانة فى إحياء الفكر الإسلامى وإقامة جسر قوى بين الإسلام والغرب، يصحح المفاهيم، وينشر المعارف، ويبدد المخاوف والشكوك، ويسهم بكل قوة فى المجتمعات التى يعيش فيها حتى لا تتحول إلى حصون معادية لشعوبنا وقيمنا، ليس على أساس أنهم أقليات خائفة مذعورة، منبتة الصلة بالمجتمع الذى تعيش فيه وبالقيم السائدة حوله. بل تسعى إلى الاندماج الحقيقى الكامل فى هذه المجتمعات، وهضم قيمها واستيعابها، دون إهدار لأساسيات القيم الإسلامية والعمل على التكيف مع الخصوصيات الثقافية للمجتمعات التى يعيشون فيها.

لابد أن يُنهى المسلمون عزلتهم فى البلاد التى يعيشون فيها، سياسياً وإعلامياً وثقافياً. وأن يقدِّموا رؤية حضارية جديدة للإسلام: تملك القدرة على مخاطبة الرأى العام الغربى بلغته وبمفرداته، فلا يصبح «بن لادن» هو الإسلام، بقدر ما لم يكن «هتلر» هو الغرب!!

سلامة أحمد سلامة